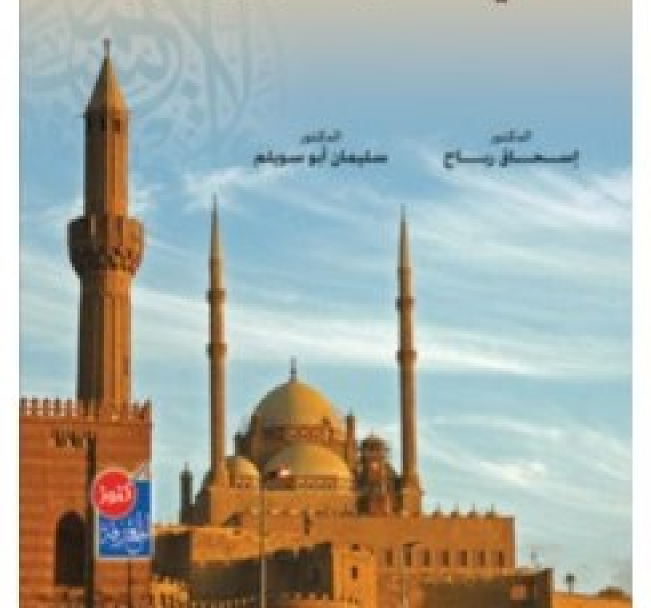
الحضارة العربية الإسلامية

في النظم والعلوم والفنون



الدكتور
إسحق رباح

الدكتور
سليمان أبو سويلم

الحضارة العربية الإسلامية

الحضارة العربية الإسلامية

الدكتور

إسحاق رباح

الطبعة الأولى: 2010م – 1432هـ

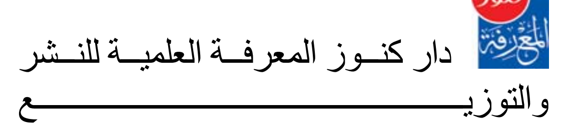


المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (2010 / 5 / 1621)

956
رباح، إسحاق
الحضارة العربية الإسلامية: / إسحاق محمد رباح ـ عمان: دار كنوز المعرفة، 2010
(   ) ص.
ر.أ: (2010 / 5 / 1621)
الواصفات: / الحضارة العربية// الثقافة العربية//التاريخ الإسلامي/

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ردمك: ISBN: 978 - 9957 - 74 - 123 - 5



الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري
تلفون: 4655877 6 962+ - فاكس: 4655875 6 962+
موبايل: 5525494 79 962+ - ص. ب 712577 عمان
الإيميل: dar_konoz@yahoo.com
إيميل: info@darkonoz.com
الموقع الإلكتروني: www.darkonoz.com

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تمثل دراسة الحضارة الإسلامية الدراسة (الحقة) المثمرة لتاريخ الإسلام وتاريخ الأمة، بل تعد سجلا لتاريخ حضارتها ومسيرتها وتقدمها. وبين دراسة التاريخ ودراسة الحضارة صلة وثيقة، من حيث اهتمام كلتا الدراستين بالحياة الإنسانية في ماضيها. والعناية الخاصة بواقع الأجيال السابقة في مختلف أحداثها وظواهرها.

لكن المنهج التاريخي يميل إلى التخصص من خلال تجزئة العصر التاريخي الواحد إلى وحدات ودوائر متشابهة. أو إلى تقسيم التاريخ الواحد إلى عدة عصور. كما أنه يميل إلى الإسراف نحو النزعة الفردية في تصور التاريخ وتصوير الوقائع والأحداث الاجتماعية. بينما الدراسة الحضارية لا تنتهج هذا المنهج. لأنها تجمع بين العنصر التاريخي والعنصر الفلسفي. وتهتم بالأولويات بين الاتجاهات الاجتماعية من خلال وجود التفاعل والارتباط. ولا تعنى بالتفصيلات أو الجزئيات. وإنما بالنظرة الكلية التي تتضح من خلالها شخصية المجتمع الحضارية وملامح النشاط الإنساني في كل اتجاه من اتجاهاته، خاصة الثقافي والسياسي والاقتصادي. وهذا بدوره دفع إلى توجيه الدراسات الإنسانية توجيها اجتماعياً خالصاً. من أجل ذلك ظهرت الدراسة الحضارية لتستمد صورة فلسفية للمجتمع. من خلال مصنفات التاريخ التقليدية أولاً، ومن خلال ما أبرزته الدراسات الإنسانية الحديثة من أضواء حول تفصيل الحياة الاجتماعية ثانياً. لتخرج من كل ذلك شخصية حضارية للمجتمع، بكل ما تنطوي عليه هذه الشخصية من مفهومات وتصورات وفلسفة نحو حياة الإنسان وغايته.

ولما كانت الحضارة الإسلامية تمثل المورد الإنساني الريادي على مستوى العالم الإسلامي خاصة وعلى البشرية عامة. لأنها تفردت بخصائص وملامح وسمات مميزة عن كل الحضارات السابقة واللاحقة، من خلال إطارها الروحي. والذي صانها بعيدا عن الإغراق المادي. وأمدها بطاقات إبداعية هائلة من السمو والمثالية. هذا فضلا عن مقوماتها الأخلاقية التي وجهتها لصالح الإنسانية. فأكسبتها مسحة مثالية وسعادة خيرية عمت حياة الإنسان في كلا الدارين.

وعلى هذا جاءت الدراسة متناولة الحضارة العربية الإسلامية في كل جوانبها. من

خلال تقسيمها إلى ثلاثة عشر فصلا.

الفصل الأول: الحضارة العربية الإسلامية في المفهوم والمقومات والمصادر تناول. تعريف الحضارة والثقافة والمدنية والعمران والعلاقة بينهما. مع بيان اختلاف المؤرخين حول تسمية الحضارة بين (عربية) أو (إسلامية) أو توفيقية راجحة. حول تسميتها (حضارة عربية إسلامية) أو حضارة إسلامية عربية باعتبار الإسلام هو الكل والعرب الجزء. ثم بيان مكونات الحضارة في مجالات النظم والعلوم والمعارف والفنون. ثم مقومات الحضارة ومصادرها الأولية والثانوية، إلى جانب الخصائص المميزة لهذه الحضارة.

الفصل الثاني: تعرضت الدراسة فيه إلى النظام السياسي. في الخلافة بمفهومها اللغوي والاصطلاحي. وأدلة وجوبيتها. ثم التدرج في مراحل تطورها ابتداء من قيام أول دولة إسلامية في المدينة إلى تطورها في عهد الخلافة الأموية والعباسية، وتحولها من نظام الشورى إلى نظام ولاية العهد والوراثة. ثم الوزارة في مفهومها اللغوي والاصطلاحي. وأدلة وجوبيتها وتطورها التاريخي عند الأمم قبل الإسلام ثم ظهورها الحقيقي بخصائصها وصلاحياتها في نهاية العصر العباسي الأول. وصولا إلى نظرية الوزارة وتقسيمها (وزارة تفويض وتنفيذ).

الفصل الثالث: (الإدارة والدواوين). حيث تناول النظام الإداري (الإمارة وإدارة الأقاليم) ابتداء بتنظيم الرسول ﷺ.والخلافة الراشدة والخلافة الأموية. ثم تطورها في عهد الخلافة العباسية مع ظهور ولايتي الاستيلاء والاستكفاء. إلى جانب التعرض إلى: الدواوين بالمفهوم اللغوي الاصطلاحي، وبداية ظهورها في عهد الخليفة الأموية، حتى وصلت ذروة تقدمها وحداثتها في العصر العباسي. حيث تطورت الدواوين القديمة واستحدثت دواوين جديدة تبعا لحاجة الخلافة واتساعها ومطالب الدولة الأولى، كذلك جاء التعرض لديوان البريد. الذي ظهرت نواته الأولى في عهد رسول الله ﷺ. ثم عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لكن اختصاصاته اتسعت في عهد الخلافة الأموية. ثم تنوعت أغراضه في عهد الخلافة العباسية. حيث أصبح صاحب البريد عين الخليفة والأقرب إليه وقد نافس مركزه واختصاصه صاحب الشرطة وصاحب الخراج بل حتى في منزلة الولاة أحيانا. أما الحجابة. فقد ظهرت بدايتها الأولى في عهد الخلافة الأموية، ثم اتسع اختصاصها في عهد الخلافة العباسية. خاصة بعد ظهور الحاجب الأكبر وصلاحياته المتعددة. حتى وصلت إلى مرحلة المشاركة في تعيين ولي العهد.

أما الكتابة: فقد تعرضت الدراسة فيها إلى مراحلها الأولية، حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة. وفي عهد الخلافة الأموية زادت أهمية صاحبها. وتعددت شروط متوليها حتى أصبح الكاتب صاحب سر الخليفة. وزادت أهميتها في عهد الخلافة العباسية

الفصل الرابع: النظام القضائي (القضاء. الحسبة. المظالم) تضمن تعريف القضاء وأهميته للدولة ثم بداية تنظيمه ووضع قواعد أسسه في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وصولا إلى تطوره في عهد الخلافة الأموية والعباسية. بحيث ظهرت المذاهب الأربعة. وارتفع شأن القضاء حتى ظهر منصب قاضي القضاة في عهد الخلافة العباسية.

الفصل الخامس: النظام المالي في الإسلام. تعرض لنظرية النظام المالي. ومصادر بيت المال الرئيسة وتنوعها خاصة الجزية والخراج والزكاة والصدقة والفيء والغنيمة. ثم بيان أوجه النفقات والعطاء.

الفصل السادس: النظام العسكري (الجيش. الشرطة البحرية) عرفت الدراسة أسس النظام العسكري في الإسلام في عهد الخلافة الأموية والعباسية. مع بيان القواعد الدينية في تشريع الجهاد ودوافعه الإنسانية. ثم مكونات الجيش والشرطة ورتبهم وأسلحتهم. مع ارتفاع أهمية صاحب الشرطة وتعدد صلاحياته في عهد الخلافة الأموية والعباسية. كذلك جاء التعرض لنظام البحرية في الإسلام. ابتداء بقواعده الأولى في عهد الخلافة الراشدة ونواته الحقيقية في عهد الخلافة الأموية. ثم تطوره في عهد الخلافة العباسية. مع بيان أنواع السفن وتعدد أغراضها ورتبها وأسلحتها بين النهرية والبحرية، ودورها في الجهاد ثم شروط وأهمية من يتولاها.

الفصل السابع: النظام الاجتماعي (المجتمع وطوائفه (الموالي. أهل الذمة. الرقيق)) ومن ثم معالجة موضوع الموالي والشعوبية والرقيق من وجهة النظر الإسلامية، البعيدة عن التعصب. وفق دور إنساني بدعوة التحرر من العصبية ضمن إطار الأخوة الإنسانية.

الفصل الثامن: النظام الاقتصادي (الزراعة. الصناعة. التجارة) بينت الدراسة مجالات النشاط الاقتصادي الأساسية. ثم دورها الإنساني. وتطور نشاطاتها ضمن إطار إسلامي خالص يحقق العيش الكريم. ويبعد عن المجتمع الآفات والأزمات وفق نظام مالي، متجذر في قواعده وأهدافه.

الفصل التاسع: النظام المعماري والفني (العمارة، الزخرف السكة والطراز الموسيقي) أما العمارة فقد تضمنت الدراسة مراحل تطور العمارة الإسلامية وخصائصها المميزة. ضمن ضوابط شرعية، أهمها: عدم الغلو والمبالغة، البساطة. توافق العمار مع الغاية وعدم الإسراف. ثم تعرضت الدراسة إلى تطور العمارة الإسلامية وفنونها خاصة في الخط والزخرفة والأشكال الهندسية، التي لم تخرج عن الضوابط الشرعية. وفي السكة قدمت الدراسة. المراحل الأولى للتعامل النقدي في صدر الإسلام. حيث شهد محاولات أولية نحو نقد إسلامي. تحقق في عهد الخلافة الأموية. خاصة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي يعد أول خلفاء الإسلام في تعريب النقد ووحداته. وضبط وزنه وقيمته. ثم مراحل تطور النقد في عهد الخلافة العباسية. الذي شهد تغيرا واضحا في الوزن والقيمة والنقوش والرسوم والعبارات وحتى الشكل. حيث جاء معلنا عن كيان الخلافة العباسية. كذلك تناولت الدراسة. فن الغناء والموسيقى، من حيث أصولها الأولى. وبيان ما قدمه المسلمون في هذا الفن.

الفصل العاشر: العلوم الشرعية والأدبية (علم التفسير والقراءات والحديث والفقه. وعلم الكلام. والتصوف والفرق الإسلامية) وكذلك (علم اللغة العربية في النحو والشعر والنثر) متناولا تطوره في صدر الإسلام حتى عهد الخلافة العباسية.

الفصل الحادي عشر: العلوم الاجتماعية والإنسانية (التاريخ. الجغرافيا. الفلسفة) تعرضت الدراسة إلى بداية ظهور العلوم وأصولها الأولى في الحضارات المختلفة. ثم بيان تطور هذه العلوم وازدهارها خاصة في عهد الخلافة العباسية. كنتيجة لحركة الترجمة والنقل لعلوم الأوائل التي رفدت هذه العلوم كمرحلة أولى. فبدأت بالحفاظ على التراث القديم. ثم دراسته وتصويبه في المرحلة الثانية. وصولا للمرحلة الثالثة وهي مرحلة الإبداع والابتكار الإسلامي في كافة العلوم العقلية. نتيجة الاستيعاب الأولي السريع زمنيا لكل علوم الحضارات القديمة ومدارسها الثقافية المتنوعة. ثم قدرة الذهنية الإسلامية على التوليد والابتكار والأبداع في مختلف العلوم والفنون. فظهرت المدارس التاريخية والجغرافية وتتابعت طبقات العلماء المسلمين إنتاجاً وإبداعاً. وتنوعت أغراض هذه العلوم. ووضعت أصول أولى لمناهج علمية حديثة أو مهدت لها.

وفي ميدان الفلسفة الإسلامية: فقد تفردت بخصائص متميزة عن فلسفة اليونان والرومان. ثم ظهرت طبقة من جيل المبدعين والعلماء المسلمين، ساهمت في تطور هذا العلم

ومدارسه الحديثة.

الفصل الثاني عشر: العلوم العقلية (الطب والصيدلة) تضمنت الدراسة الأصول الأولى لهذه العلوم في تاريخ الحضارات القديمة. ثم ما قدمه علماء الإسلام في باب علم الطب. من شروح وتصويب لمؤلفات الأعاجم. ومن ثم تقديم مؤلفات وابتكارات واختراعات ساهمت في تقدم هذه العلوم. خاصة في الطب وأقسامه وعلم الأدوية والمستشفيات.

الفصل الثالث عشر: العلوم الرياضية (الحساب، الجبر والهندسة). تناول هذا الفصل أصول هذه العلوم في الحضارات القديمة. ثم دراستها واستيعابها. ومن ثم متابعة تطورها على يد علماء الإسلام في باب المناهج والفروع والأقسام. حيث وضعوا الأسس الأولى لمنهج حساب المثلثات. وابتكروا نظريات حديثة في الجبر والهندسة. وفي الأرقام والرموز الجبرية جعل علماء الغرب يعدون العرب مؤسسي علم الجبر والحساب وحساب المثلثات وجداول اللغوغاريتمات.

الفصل الرابع عشر: العلوم التطبيقية (الكيمياء الحيل والعلوم الطبيعية) تضمنت الدراسة تقديم أصول هذه العلوم في الحضارات القديمة ثم دور علماء الإسلام في تطوير هذه العلوم. من حيث الأدوات والآلات والموازين والاختراعات. وفي المنهج وضع علماء الإسلام خلاصة نتاتجهم وفكرهم في مؤلفات. كانت سببا مباشرا في تقدم الحضارة الغربية الحديثة في كل المجالات.

الفصل الخامس عشر: علم النبات وعلم الحيوان. تناول تقديم دراسة لأصول هذين العلمين وتطورهما تأليفاً وإبداعاً ومنهجاً.

ختاما أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت لتقديم هذه الدراسة. قدر جهدي وطاقتي وإطلاعي. والذي لا نرى فيه كل الكمال. رغبة في تعريف الأمة وأجيالها القادمة بمجدها وتراثها الحضاري. عسى أن يحرك دينامية الأمة. لتعيد دورها الحضاري والإنساني. وعلى أمل أن تقوم الأجيال اللاحقة بهذا الدول بكل قوة واقتدار. والله غالب على أمره.

الدكتور إسحاق رباح

الفصل الأول

الحضارة العربية الإسلامية في المفهوم والمقومات والمصادر

- الحضارة – المدنية – الثقافة.
- مسميات الحضارة.
- مكونات الحضارة «النظم والعلوم والمعارف».
- المقومات.
- المصادر والخصائص.

الحضارة والمدنية والثقافة

الحضارة: يطلق العرب على لفظة الحضارة (التمدن أو التمدين)[١] أي المقيمون بالمدن، وهذه اللفظة تطابق الكلمة اللاتينية **Civis** (التمدن) ومنها اشتقت الكلمات الأوروبية الحديثة الدالة على الحضارة مثل الكلمة الفرنسية **civisation**، والكلمة الإنكليزية **Civilization** والألمانية **Zivlisation**[٢] يقابلها على الضد منها مصطلح (البداوة) الذي يعني التنقل وعدم الاستقرار.

معنى الحضارة: عرف العرب قديماً المقابلة بين معنى الحضارة ومعنى البداوة وهي مقابلة بين الاستقرار والتنقل فيوصف أهل الحضر (سكان المدن) بأنهم (أهل المدر) أو (أهل الحجر) لأنهم يسكنون بيوتاً مبنية من الطين والحجر، خلافاً (لأهل الوبر) الذين يسكنون بيوتاً من وبر الإبل أو شعر الماعز أو صوف الغنم[٣]. فهنا يأتي معنى الحضارة خلاف البداوة وهذا التعريف لا يعطي أكثر من المعنى اللغوي العام.

يرى ابن خلدون في مقدمته أن الفرق بين التحضر والبداوة هو الاجتماع الإنساني والعمران فيقول: (... والاجتماع الإنساني هو عمران العالم. وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التأنس والتوحش، والعصبيات، وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملل والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث عن ذلك العمران بطبيعته من الأحوال)[٤].

فالاجتماع الإنساني ضروري، وهو معنى العمران والمدنية وهو الحضارة، وبذلك يربط بين الحضارة والملك أي بمعنى (الاستقرار والسيادة)[٥]. وقرر ابن خلدون أن ثمة علاقة بين الملك والاستقرار وبين بناء المدن والأمصار، وأن وجه

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص٩٧، الفيروزابادي، القاموس المحيط ج٢، ص٥٦٤.

(٢) ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص١٠.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص١٣٣.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ٨٧١، طبع لجنة البيان العربي، القاهرة ١٩٥٧.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ٨٧١.

الحضارة المشرق هو في بناء المدن.

تعريف الحضارة: للحضارة تعريفات متعددة، كل يعرفها حسب مفهومه وحسب وجهة نظره إلى الحياة المادية، أو التقدم العلمي، أو من الوجهة التاريخية. وعرف بعضهم الحضارة بمعناها العام فقال (أنها تراث وإنتاج مشترك بين الأمم المختلفة، وأن فضل كل أمة إنما يكون بقدر إسهامها في هذا التراث) [١] في حين عرفها المفكر الفرنسي (جورج باستيد) بأنها: وتعني (التدخل الإنساني الإيجابي لمواجهة ضرورات الطبيعة تجاوباً مع إرادة التحرر في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ورغباته ولإنقاص العناء البشري). ويعرفها توينبي: بأنها حصيلة عمل الإنسان في الحقل الاجتماعي والمناقبي وهي حركة صاعدة وليس وقائع ثابتة وجامدة، إنها رحلة حياتية مستمرة[٢]. ويعرفها (البرت اشفينسر) بأنها (الحضارة) هي التقدم الروحي والمادي للأفراد والجماهير على السواء[٣]. ويقول أيضاً أن الطابع الجوهري للحضارة لا يتحدد بإنجازاتها المادية بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لكمال الإنسان وتحسين الأحوال الاجتماعية والسياسية للشعوب وللإنسانية في مجموعها، وأن يكون التفكير خاضعاً لهذه المثل بطريقة حية ثابتة. ويتحدث أبو الأعلى المودودي عن الحضارة فيقول: (إنما هي نظام متكامل يشمل كل ما للإنسان من أفكار وآراء وأعمال وأخلاق في حياتهم الفردية أو العائلية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية) [٤].

فالسلوك الإنساني هو الذي ينتج الحضارة، لأنه استجابة لتحد من ظروف الطبيعة يكون هو المثير والدافع. والحافز للإنسان كي يتغلب على ما يواجهه لإشباع حاجاته ورغباته، ومنافسة الإنسان الآخر له على ذلك، ثم ما يكون من قصور بيئته المادية على تلبية هذه الحاجات والرغبات، وهكذا تكون الحضارة ثمن تحدي الإنسان لبيئته ونوع استجابته لها، ومن هنا يمكن القول: أن الإنسان قادر على صنع الحضارة بما أنعم الله عليه بالعقل والإرادة والعمل، ولذا فلكل جماعة إنسانية حضارتها المتميزة التي صنعتها، وانتقلت من جيل إلى آخر على اختلاف بيئاتهم الطبيعية. لذلك لا نعرف جماعة إنسانية بلا حضارة، فالبدو مثلاً ليسوا خلواً من الحضارة، وهم في بلاد العرب قبل الإسلام كانت لهم نظمهم

---

(١) عبد الرحمن الحجي: حضارة الإسلام في الأندلس، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٩، ص٩.

(٢) توينبي: الحقيقة الحضارية، ص١٢،٢٨. محمد علي ضناوي: الحضارة بين التحدي والتعطيل، ص٥٣٤.

(٣) البرت اسفينسر: فلسفة الحضارة، ص٣٤، ترجمة عبد الرحمن بدوي، طبع وزارة الثقافة المصرية.

(٤) أبو الأعلى المودودي: الحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها، ص٢٨٨.

الدينية والسياسية والاجتماعية وعرفهم وتقاليدهم وقيمهم الخلقية، فكان لهم شعر ومثل وقصص وحكم فيها تأمل وتخيل يدلان على قدرة عقلية، فكانت لهم خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء.

فالحضارة جامعة لمختلف جوانب النشاط المادي والفكري (الثقافي)، وهي تلبي حاجات الإنسان المختلفة، وللحضارة خاصية (الاستمرار) والنماء والبقاء، كما لها خاصية الانتشار في الجماعة الواحدة وبين الجماعات المتعددة، وعلى هذا فإن لكل جماعة إنسانية حضارة والفارق الوحيد بين الحضارات هو مستويات الأفكار والقيم ذاتها[(١)].

تسميات الحضارة: تقترن بكلمة الحضارة تسمية (العربية) أو (الإسلامية) أو كليهما معاً (العربية والإسلامية) كوصف للحضارة. ولا ريب أن استخدام لفظة (الحضارة العربية) إنما يشير إلى دور العرب القيادي ونهوضهم برسالة الإسلام، وغلبت على الحضارة صبغة لغة القرآن (العربية) وثقافتها، وجمعت في نظامها مسلمين وأهل ذمة يتكلمون جميعاً العربية والتي كان نجاحها سبباً في الانتشار وقبول المسلمين من غير العرب لها، وإحلالها في الصدارة على السنتهم، حتى كادت العربية تقضي على اللغات المحلية الخاصة، وكادت تصبح اللغة العالمية الوحيدة. لأن أثرها الحضاري والثقافي لا يقل عن نجاح الفتوح الإسلامية في جوانبها العسكرية والسياسية[(٢)].

ونكون بهذا قد أطلقنا المصطلح على الصورة العربية وعلى المعطيات الحضارية للعرب.

كما أن وصف الحضارة بأنها (إسلامية) يجعلها أقل دقة في الدلالة، فهي تعطي مدلول التنظيم الإسلامي القائم على العقيدة الإلهية، وتهمل الدور القيادي للعرب، وما حملوه مع الدين الإسلامي من تراث حضاري، امتزج معه ليمثل مزج العقيدة الإسلامية بالتراث الحضاري العربي الذي ينسجم مع دور الإسلام وإبراز دور المسلمين من غير العرب مع المسلمين في بناء الحضارة، مع عدم إغفال أثر رسالة الإسلام في قيام الحضارة وصياغة طابع

---

(١) محمد صبحي عيسى: نحو مفهوم الحضارة الإسلامية، ص١١، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني ١٩٧٩.

(٢) محمد صبحي عيسى: نحو مفهوم للحضارة الإسلامية، ص١٣-١٤.

موحد لها في المجتمعات التي دانت بالإسلام[1].

إن دراسة الحضارة كعقيدة ومنهج للحياة يصح تسميتها بـ (الحضارة الإسلامية)، إلا إذا تناولنا دراسة الحضارة في إطار تاريخي فلا ينبغي فيه ربط الحياة التي عاشها المسلمون في بيئاتهم المختلفة كنهج مثالي للحياة، وكلا الأمرين يجعلان دراسة الحضارة عملاً مبتوراً غير متكامل. فاعتبار صفة (العربية الإسلامية) مع الحضارة تعطي دلالة أوسع وأكثر شمولية لأن هذه التسمية تعطي معنى مشاركة العرب المسلمين والمسلمين من غير العرب، والمتكلمين العربية من غير العرب في بناء صرح الحضارة العربية الإسلامية.

وعلى هذا انقسم المفكرون إلى ثلاثة آراء هي:

رأي أول: نادى بتسميتها (حضارة عربية): ويمثله جوستاف لوبون وجاك رينسلد وأدلتهم في ذلك:

١- اختار الله تعالى نبي الإسلام محمد ﷺ من أمة العرب ومن بيئة العرب.

٢- لغة القرآن اللغة العربية.

٣- حمل العرب لواء الإسلام إلى العالم.

٤- انتقال اللغة العربية من الحدود القطرية إلى الدائرة العالمية.

رأي ثاني: نادى بتسميتها (حضارة إسلامية) ويمثله: آدم متنر وجوستاف جروبنام وأدلتهم في ذلك:

١- الله أعلم حيث يجعل رسالته ولولا اختيار الله تعالى لمحمد ﷺ لما ذاع صيته من خلال رسالة الإسلام.

٢- لولا الإسلام لما أصبحت اللغة العربية لغة الحضارة ولما انتقلت إلى دائرة العالمية.

٣- نزول القرآن باللغة العربية جاء تحدياً ومعجزاً للغة العربية ومن ثم تكريماً للعرب.

٣- نزول القرآن لم يكن خاصاً للعرب بل للناس كافة.

٤- الحضارة الإسلامية شارك في قيامها كل الشعوب الداخلة في الإسلام، وتحديدها

---

(١) نفس المصدر السابق، ص١٥.

بالعرب، ويغمط حق الشعوب غير العربية التي ساهمت في ازدهار الحضارة الإسلامية.

رأي ثالث: نادى بالتوفيق بين التسميتين لتصبح (حضارة عربية إسلامية) أو (حضارة إسلامية عربية): اعتمادا على تقديم الكل على الجزء أو بالعكس، أو تقديم العربية على الإسلامية باعتبارها لغة الحضارات وأداتها. والأولى تسميتها «حضارة إسلامية عربية بتقديم الكل (الإسلام) على الجزء (العربي)».

بين الحضارة والثقافة: تناولنا معنى الحضارة وسنتناول هنا معنى الثقافة وما بينهما من علاقة فقد جاءت كلمة الثقافة في اللغة العربية من الفعل (ثقف) وورد معنى (الثقافة) في القرآن الكريم بمعنى (الظفر بالشيء بعد البحث والتنقيب عنه)[1] فقال تعالى ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ [البقرة: ١٩١] ومعاني الثقافة في المعاجم العربية تنطوي على تحديدات متقاربة وهي (سرعة الفهم، والمهارة، والدقة، والبحث والتقصي والمعرفة والفكر...)[2].

والثقافة بمفهومها الحديث تعني (ذلك الكل المركب الذي يحتوي على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعرف والعادات وكل القدرات التي حصل عليها الإنسان كعضو في المجتمع)[3] وعرفها آخر بأنها تعني (التنظيم لأنماط السلوك والأفكار والمشاعر). وعلى هذا الأساس نستطيع أن نميز بين ما هو عام وما هو خاص في الثقافة (فعموميات الثقافة) ترتبط بالعادات والتقاليد والأفكار واللغة وأنماط السلوك المشتركة وهي عامة بين أبناء الثقافة الواحدة. أما (خصوصيات الثقافة) فهي التي تتعلق بالجماعات المهنية والطبقات الاجتماعية وبالجنس والثقافة الفلسفية والتقنية والصناعية.

وقد ميز بعض المفكرين ثلاثة محتويات رئيسة للثقافة:

(المحتوى التقني) المرتبط بالوسائل التي يستغل بها الإنسان العالم المادي.

(المحتوى الاجتماعي) الخاص بالنظام الاجتماعي والأنشطة والمؤسسات الاجتماعية.

---

(١) محمد عبد المنعم الجمال: التفسير الفريد، ج١، ص١٧٦، القاهرة ١٩٥٣.

(٢) انظر لسان العرب لابن منظور المجلد العاشر يقال ثقف الشيء وهو سرعة (التعلم) كما ورد في المصباح المنير (ثقفت الحديث – فهمته بسرعة) وثقفته (أقمت المعوج منه) كما ورد عند ابن دريد (ثقفت الشيء حذقته) وفي أساس البلاغة بمعنى (طلب العلوم والمعارف) وفي القاموس المحيط (ثقف ثقافة صار صادقاً فطناً) وانظر الياس فرج في الثقافة والحضارة، ص٥٤، منشورات دار الرشيد ببغداد، ١٩٧٩.

(٣) حسن الفقي: الثقافة والتربية، الإسكندرية ١٩٧٠.

(المحتوى الفكري) المتعلق بالتقدم المعرفي للثقافة بالمعتقدات والقيم. وأهم ما يميز الحضارة عن الثقافة هو أن الحضارة لها قابلية الانتقال والانتشار والعمومية بين الأمم، في حين نجد الثقافة خاصة بكل أمة.

والملاحظ كثيراً أننا نجد صعوبة في تحديد كلمة (الثقافة)، لأن بعض المؤرخين والكتاب لا يفرقون تفريقاً دقيقاً بين كلمة (حضارة) وبين كلمة (ثقافة)، لذلك كثيراً ما يستعملون كلمة الحضارة مرادفة لمصطلح (المدنية) (فالحضارة مدنية والمدنية حضارة)، فهم يعتقدون أن الأقوام المتخلفين عن أنماط الحياة المدنية من البدو أو من قبائل الأدغال والجبال هم غير متحضرين، وأن كان عندهم مستويات محدودة من الفكر والسلوك، وهذا الرأي يمثل حيزاً كبيراً من مفاهيم لفيف من الباحثين ثبت بطلانه وتناقضه. فالحضارة موجودة في أي مجتمع ولو كان موغلاً في البدائية المدنية. فالمجتمع نفسه والتفاعل مع أنماط معينة من الحياة حضارة، غير أنها تختلف في المستويات ليس إلا[1] وعلى هذا الأساس فليس هناك مجتمع غير متحضر، وإنما هناك درجات ومراتب تصلها الشعوب والأمم في سلم الحضارة: فالأمم المتأخرة لها نصيب في الحضارة ولكنها ليست حضارة سامية، والحضارة في أي من الأمم لا تصبح حية وفعالة، إلا إذا ظهرت آثارها في حياة الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع[2].

إن الحضارة تشمل بصفة عامة جميع أنشطة الإنسان في الحياة المادية والفكرية، وقد انفرد الجانب الفكري للحضارة بتسمية خاصة وهي (الثقافة). وبهذه الحالة فإن الجانب الفكري هو الجانب غير المرئي للحضارة. ومن هنا كان تناول معظم الكتاب لكلمة (الثقافة) مؤكداً لهذا التقسيم دونما إشارة صريحة إلى ذلك.[3] وعلى ضوء ذلك نجد هناك مجتمع متحضر بحكم وراثته الاجتماعية، ولكنه ليس على جانب يذكر من الثقافة، لأن الأفكار والعقائد التي ورثها هذا المجتمع لم يتشبع بها الأفراد حتى تتمثل في حياتهم[4].

أما مفهوم الثقافة العربية الإسلامية فيتسع لتسجيل المساهمات الفكرية لجميع

---

(١) محمد علي ضناوي: الحضارة الإسلامية، ص٥٢٢.

(٢) علي أدهم: الثقافة والحضارة، بحث مجلة آفاق عربية، ص٢.

(٣) محمد صبحي عيسى: نحو مفهوم للحضارة الإسلامية، ص١٥.

(٤) علي أدهم: الثقافة والحضارة، ص٢-٣.

العناصر المكونة للأمة العربية الإسلامية في عصورها المختلفة، باعتبارها محصلة الجهود الفكرية التي أسهم بها كل من دخلوا في الإسلام من عرب وعجم، وقد اتسمت هذه الثقافة بالوحدة نتيجة عاملان هما الإسلام واللغة العربية.

بين الحضارة والمدنية: لقد أثار المعنى الشامل للحضارة محاولات للتمييز بين الحضارة والمدنية. فالمدنية تمثل فيها الجانب المادي (التقني). أما الحضارة فتشمل الجوانب المادية والفكرية، وبذلك فهي أعم وأشمل من المدنية. ويعلق البرت اشفيتسر على محاولة التمييز بين الحضارة والمدنية بقوله: إننا لا نستطيع التفرقة بين الحضارة **cluter** وبين المدنية **civilisition**، فكل محاولات التحضر كانت حتى الآن عمليات، تعمل فيها قوى التقدم في كل مرفق من مرافق الحياة فتتوالى منها الإنجازات الكبرى في الفن والمعمار والإدارة والاقتصاد والصناعة والتجارة والتعمير، وتدفعها قوة دافعة روحية فتنتج تصوراً أعلى للكون، وكل جزء أصاب الحضارة ظهر في النواحي المادية كما ظهر في النواحي الأخلاقية والروحية[١].

إن للمدنية معايير دقيقة تقتبس كل ما ينتمي إليها من الأشياء باعتبارها وسيلة لغايات، يمكن قياس درجة كفايتها والتيقن من نجاحها في أداء مهمتها كالصناعات والمخترعات وغيرها من وسائل المدنية الحديثة، لأنها تقتصر على الأشياء المادية دون الأشياء المحسوسة التي تتمثل في شؤون الحياة[٢]. أما المنجزات الحضارية مثل النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية، فهي لا تخضع لمقاييس المدنية لأن الأمر لا يتعلق بقياس كفاءة هذه الأنظمة لتحقيق غاياتها بل إلى تقدير قيمة هذه النظم للفرد والحياة.

وبهذا يمكن القول إن المدنية في تقدم مستمر، ولكن الحضارة ليست كذلك، ولا يصادف المدنية معوقات كالتي يصادف انتشار الحضارة وانتقالها، والمدنية (التقنية) تستعار بغير أدنى تغيير، وليس كذلك في أمر الحضارة أو تستطيع الحضارة أن تسخر الجوانب التقنية (المدنية) كأدوات لها.

مكونات الحضارة العربية الإسلامية: الحضارة هي حصيلة النشاط الإنساني

---

(١) ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية، ص١٣، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦١.

(٢) حيدر: روح الحضارة العربية (ترجمة عبد الرحمن بدوي)، القاهرة ١٩٤٩، ص١٩، اوليري: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، القاهرة ١٩٦٧.

المادي والعقدي والفكري. وهي حركة صاعدة لها خاصية الانتشار والإبداع والاستمرار، وتشكل النظم العربية الإسلامية عنصراً أساسياً من عناصر مكونات الحضارة العربية الإسلامية، التي يمكن إيجاز عناصرها ومكوناتها بما يلي:

١- النظم العقدية والدينية: وتشمل الإيمان والعبادات والآداب والمعاملات.

٢- الجوانب الفكرية والثقافية: وتشمل العناية بدراسة العلوم ونشرها، والعناية بالفكر العربي والفلسفة الإسلامية والعلوم العقلية والنقلية على تنوعها.

٣- النظم السياسية وتهدف إلى دراسة نظم (الدولة) من قواعد الحكم، وتنظيم العلاقات بين العرب والأمم الأخرى، وتبحث أيضاً في أنظمة الحكم كالخلافة (الإمامة) ونظام الانتخاب و(الوراثة) ونظام الإمارة ونشوء وتطور الفكر السياسي عند العرب المسلمين.

٤- النظم المالية والاقتصادية: وتتناول موارد الدولة المالية من جزية وخراج وعشور، وزكاة وفيء وغنيمة، كما تتناول أوجه إنفاقها حسب القواعد الإسلامية الشرعية، وتشمل أيضاً أمور الزراعة ونظم الأراضي والملكيات، والصناعة وعوامل نموها وازدهارها، والتجارة ووسائل تبادلها والنقود وأنواعها وأوزانها وعيارها ووحداتها.

٥- النظم الإدارية: وتشمل تنظيم الدولة إدارياً وتقسيمها إلى عمالات أو ولايات، وشروط تعيين الولاة والعمال واختصاصاتهم، وإنشاء الدواوين حسب أنواعها وأصنافها واختصاصاتها، كما تشمل نظم الحسبة والشرطة والمظالم وصلاحياتها واختصاصاتها وفق الأسس الشرعية.

٦- النظم القضائية: وتبحث في أصول القضاء، واستقلاله عن السلطة التنفيذية في آداب القضاء، وصفات القاضي، ومنصب قاضي القضاة، وقاضي أهل الذمة.

٧- النظم العسكرية: وتبحث في تكوين الجيوش وتنظيمها وتسليحها وقيادتها وأصنافها (البرية والبحرية)، وفي إنشاء الثغور والحصون والعواصم، وفي الأسلحة وآلات الحصار وفي قواعد الحرب والسلم، والأحلاف والمعاهدات ومعاملة الأسرى وفي العناية بالأسطول الحربي وأنواعه وأصنافه ودور صناعته[1].

---

(١) ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية، ص١٠-١١.

٨- النظم الاجتماعية: وتبحث في مكونات المجتمع العربي الإسلامي، وسبل ضمان الحقوق والحريات بين فئاته، والعناية بالآداب العامة ورعاية الطفولة والأسرة والمرأة العربية، وتكوين المعاهد الخيرية وما يرتبط بها من مرافق إلى جانب التنظيمات المهنية التي تتناول نشوء الأصناف والحرف والمهن والصناعات وتكوين النقابات المهنية والصناعية ووسائل حمايتها.

٩- الفنون العربية: وتبحث في فنون العرب قبل الإسلام وبعده، خاصة في هندسة البناء وعمارة وتخطيط المدن والقصور والمساجد والمدارس والجامعات والحصون والقلاع، وفي بناء السدود والقناطر والجسور، وفي فن البناء والزخرفة والخط العربي، ومن فن التصوير والنقش، وفي فنون الغناء والموسيقى وآلات الطرب، حيث تشكل هذه النظم جميعاً مصدراً رئيساً للحضارة العربية الإسلامية.

النظم الإسلامية: تعرف النظم بأنها قانون يسير مع الحياة. وهو كل أمر يراعي فيه الترتيب والارتباط والانسجام.

والنظام: طبيعة نظرية في الكائنات الحية وقانون إلهي يسير مع الحياة جنباً إلى جنب، إذا انفصل عنها فقدت موازينها واضطربت أحوالها.

وأهمية النظام باعتبارها ضرورة تفرضها الحياة ذاتها. وقد علمنا الخالق «جلّ وعلاّ» من خلال آياته الكونية ضرورة النظام في الحياة. لأن الله تعالى أقام هذا الكون على نظام بديع جعل فيه كل شيء بقدر لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر]. وأعطى لكل آية في هذا الكون خصائص تنفرد بها عن غيرها لقوله تعالى ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس]. وفي قوله تعالى ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

كذلك فإن النظام هو عامل في استمرار الحياة ونموها والمحافظة على كيان الإنسان واستقراره. لأن النظام قانون يسير مع الحياة. والنظام هو أيضاً القانون الذي يربط بين أفراد المجتمع.

مقومات الحضارة: تباينت آراء المفكرين والمؤرخين وعلماء الاجتماع حول مقومات الحضارة، كل حسب اتجاهاته، الديني أو المادي أو التاريخي...، لكن المعروف أن مقومات الحضارة تتحقق في أمرين رئيسيين هما: البيئة الإنسانية ثم البيئة المادية. وهذين

الأمرين لا ينفصلان، ويؤثران ببعضهما البعض بدرجة نسبية ومتفاوتة حتى بين مرحلة وتاريخية أخرى وبين مجتمع وآخر بيان بذلك طبيعة العصر ويستجيب لسنن التطور الاجتماعي والحضاري البيئة الإنسانية. فيها طائفة من المقومات الاجتماعية لا يمكن لأي كيان حضاري أن ينهض بدونها أو يستغني عنها. لأنها تتكفل بتنسيق الحياة الاجتماعية وإقامة التوازن بين مطالب الفرد ومطالب المجتمع. وكذلك التوازن الدقيق بين حدود الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع الحضاري من ناحية، وبين الفرد والشخصية المعنوية للمجتمع الذي ينتمي إليه من ناحية أخرى.

وأرجح التقسيمات حول مقومات الحضارة أربعة تشمل المقوم الطبيعي (البيئة المادية) والسياسي، والأخلاقي والمقوم الثقافي.

١- المقوم الطبيعي (البيئة المادية) ويعد أهم مقومات ظهور الحضارات. ويعتمد على مدى الملائمة بين عامل البيئة الطبيعية ومدى الملائمة مع متطلبات حياة الإنسان وتلبية حاجاته. والبيئة تشمل المناخ، الموقع، توفر المياه، البعد عن الظواهر الطبيعية المهددة لحياة الإنسان والثروة الاقتصادية وغيرها. وحول مستوى الحضارة.

وتعد البيئة المادية: من أهم شروط قيام الحضارات وتشمل على ملاءمة البيئة الطبيعية (تربة ومناخ) لحياة الإنسان وتلبية حاجاته. الموقع الجغرافي، توفر المياه. البعد عن الظواهر الطبيعية التي تهدد حياة الإنسان. توفر الثروات الاقتصادية. وحول مستوى الحضارة هناك رأيان: الأول يذهب إلى القول بالتناسب الطردي مع سهولة البيئة الطبيعية. ورأي آخر تزعمه (توينبي) الذي يرى أن مستوى الحضارة يتناسب تناسباً عكسياً مع يسير البيئة وسهولتها حسب (نظرية التحدي والاستجابة) أي أن الحضارة تنشأ جواباً على التحدي وليست للشروط المادية (لأنها فعل الإرادة الإنسانية).

٢- المقوم السياسي: ويتمثل في السلطة الاجتماعية التي تتكفل بحماية الحقوق والواجبات. بدأت في المراحل التاريخية الأولى مستمدة كيانها من العرف الاجتماعي. ثم انتقلت إلى الحكومة المدنية. وفي العصور الحديثة أخذ التحول الفكري يدفع المجتمعات إلى فصل المقوم السياسي للحضارة عن العقيدة الدينية. وبذلك تعددت النظريات والمذاهب حسب الاعتبارات الاقتصادية والمادية ممثلة في النظام الرأسمالي والاشتراكي.

٣- المقوم الأخلاقي: يُعرف بالقيم التي ترسم للفرد والمجتمع مثالية السلوك

الإنساني في صورتها الأدبية. ومع تطور الحضارة البشرية نجد أن المقوم الخلقي ما زال مرتبطاً بالجانب الروحي للكيان الحضاري، وذلك بسبب الصلة التاريخية العميقة بين الدين والأخلاق. لأن الجانب الروحي فطري ويتميز بالثبات والاستقرار.

٤- المقوم الثقافي: ذلك النشاط الفكري والفني وما يصدر عنه من ضروب المعرفة والتصورات الجمالية، ممثلة في الفنون والفلسفات على اختلاف مذاهبها وألوانها. ويتمثل الجانب الفكري من النشاط الثقافي في المعرفة العقلية «فلسفة ومنطق ورياضيات» وما يتفرع عنها من دراسات. والجانب الفني يتمثل في التعبير الجمالي عن ظواهر النفس والطبيعة. لهذا فإن التراث الثقافي للحضارة يمثل كل ما أنتجته الملكات الفكرية والفنية من فلسفة وأدب وعلوم. وفنون تشكيلية إلى جانب من النشاط الروحي. هذا ويعد المقوم الثقافي من حيث الأهمية المقوم الثاني بعد المقوم الروحي. وقمة المقوم الروحي الدين أولاً ثم اللغة ثانياً لأنها أصل هذا المقوم. والسجل لكل المدلولات الحسية والمجردة إلى جانب رصيد المفهومات الروحية والتصورات الجمالية.

مصادر الحضارة الإسلامية:

أولاً: القرآن الكريم تضمن فلسفة الوجود ومفهومات الحضارة. وهو المقوم الأول للحضارة الإسلامية، وخصائصها النفسية والاجتماعية التي يتميز بها، وتعتبر من مشخصاتها الفلسفية والتاريخية لمنطق الحياة الاجتماعية، وتفسير ظواهرها وقضاياها الفردية والجماعية. وقد لبى القرآن مطالب المجتمع الإسلامي بنوعيها الروحي والمادي. وتكفل بتفسير الحياة من جميع جوانبها. ووضع التصورات الروحية لظواهر الطبيعة ونشأة الحياة واتجاه التاريخ ومضمون المجتمع، وسائر المفهومات التي يحتاج إليها الإنسان بفطرته، لتصور الحياة وتفهم مغزاها ومصيرها من خلال التصور القرآني للإنسان وعلاقته بالخالق والكون.

والقرآن الكريم: كتاب الله تعالى ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت]. وفي قوله تعالى ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ [هود]. وهو كتاب دعوة ودستور نظام ومنهج حياة لكل البشرية، وهو سر أصالة الحضارة وعظمتها والهادي إلى عقيدة التوحيد وتعاليمه ونظمه لسعادة البشر في الدنيا والآخرة. القرآن عقيدة ونظام متكامل، أوامره هدى، أمثاله عبرة لمن اهتدى من واجبات

الأحكام، والمواعظ والأخبار والقصص. لقوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. جاء لخير الإنسانية وسعادتها وشرعته صالحة لكل زمان ومكان لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وحقق القرآن والسنة للحضارة مناحي إنسانية اشتملت على الناحية الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والاقتصادية والأدبية والعلمية والسياسية نوجزها فيما يلي:

١- في الناحية الدينية: شرع القرآن العبادات وبين قيمها الروحية والاجتماعية والإنسانية وهو يدعو إلى إصلاح العقائد (من خلال الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) ويدعو إلى إصلاح العبادات عن طريق الإرشاد إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوي الأداب.

٢- الناحية الاجتماعية والأخلاقية: تعرض القرآن والسنة للمعاملات وشرعها. كذلك شرَّع الحدود والقصاص (لتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم لتحقيق الأمن والطمأنينة) وفي الأداب الاجتماعية شرح القرآن والسنة قيماً دلت على سمو الدين الإسلامي الذي هو دين اجتماعي يهدف إلى سعادة المجتمع في الدنيا والآخرة على السواء منها (أداب الاستئذان، التحية، الصبر، العفو، الصدق، عدم التجسس أو الغيبة، الاتحاد وعدم التفرقة، عدم السخرية، إكرام الجار) ودعوته إلى الإصلاح المالي.

٣- الناحية الاقتصادية وهدفها تحقيق الرفاهية والحياة الكريمة للناس جميعاً، من خلال الفكر الاقتصادي الذي هو بعامة جملة الأراء والمفاهيم المعنوية التي تؤثر في سلوك الإنسان تجاه الثروة وإنتاجها وتوزيعها. ودعامة الاقتصاد الإسلامي هي (الإنتاج – التوزيع – والقيمة النقدية). وقد أرسى القرآن الكريم القواعد الكلية لتنظيم الاقتصاد. وجاء بعناصر متكاملة تمد الفكر العلمي بحاجته منه، وتشمل الأسس التي تكفل للجنس البشري أوضاعاً اقتصادية تحقق له مستويات الأمن والطمأنينة والحياة الكريمة.

كذلك أقر القرآن الكريم عدة مبادئ اقتصادية، عمادها الأول: العمل الذي تقوم عليه المجتمعات، ثم مبدأ العدالة الاجتماعية التي تحققها الزكاة وتحريم الربا وشرعية الميراث والمساءلة تحت مبدأ (من أين لك هذا).

٤- الناحية الأدبية والعلمية: جوّد القرآن الكريم والسنة حسن لغة العرب وعلومهم، لأنه معجز في الأسلوب والألفاظ والطرائق والعبادة والموضوعات الجديرة

بالاحترام. وأما في الناحية العلمية: فقد أطلق الإسلام العقول وحثهم على التفكر والنظر والتدبر. والنصوص القرآنية وجهت نحو ذلك. فنوّه القرآن بشأن العلم والعلماء لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

حتى وصل طلب العلم إلى حد الفريضة وطلبه جهاد.

كذلك حض النبي ﷺ تعلم اللغات الأجنبية فكلّف زيد بن ثابت كاتب الوحي في السنة الرابعة للهجرة بتعلم العبرية، قال له: «تعلم كتاب اليهود فإني والله ما آمن اليهود على كتابي، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية؟ فقال: نعم»[1].

(٥) الناحية السياسية: جاءت دعوة القرآن إلى إصلاح السياسة والحكم من خلال اتباع سياسة رشيدة في التشريع الحكيم، ونظام حكم متفرد ودعوة للأخلاق السامية الكريمة من خلال الدعوة إلى إله واحد وحدّ أمة الإسلام برباط العقيدة، والقضاء على أسباب الحروب والغارات والمنازعات، والدعوة للوحدة وتهذيب الأخلاق والارتفاع، ودعا إلى القيم المثلى (الإخاء، المساواة) وتحديد بواعث الجهاد السامية. والدعوة إلى وحدة الدولة في الدستور ونظام الحكم القائم على الشورى دون تحديد شكل أو نظام واحد. بل ترك للمسلمين حرية اختيار الشكل والوسائل ضمن قواعد حددها للحكم تقوم على الحاكمية لله، الشورى، العدل والمساواة، وجوب تنصيب الخليفة وتحقيق الخيرية، وسعادة البشر) في الدارين. وحول دور القرآن اختلف مفكروا الغرب في النظرة لدوره منهم: ما قاله المستشرقون: الإسلام ليس ديناً فحسب بل نظام سياسي أيضاً (د.متزجرالد)، ويقول الدكتور شاخت «إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدنيا معاً» أو هو دعوة لإصلاح الأخلاق بالدعوة إلى الفضيلة ودعوة للإصلاح الحربي: تهذيب الحرب ووضع قواعدها الإنسانية وهو دعوة لمحاربة الاستشراق والحقيقة أنه منهج عقيدة وحياة متكاملة.

ثانياً: السنة النبوية: هي أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته. وهي المصدر الثاني للشريعة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. والسنة في خصائصها حقيقة مطبقة وليست مجرد نظريات أو أساطير. طابعها إنساني، شاملة حياة البشر في النظم والشرائع والعقائد والاقتصاد والاجتماع، والسياسة والقيم والمثل العليا

---

(١) الترمذي: في الاستئذان وإمتاع الأسماع، ١٨٧، ١٩٤. ابن سعد: كتاب الطبقات ج٢/ ١١٥ ط لندن. الطبري: تاريخ الرسل والملوك. ج٣/ ٤٣.

وسلوك، ومفاهيم وفلسلفات لرسم الحضارة وطبعها بطابع عربي إسلامي أصيل.

ثالثاً: أمة العرب: العرب هم أول من تلقى الدعوة وآمن بها وجاهد في سبيلها وحملوا لواء الدعوة، وحافظوا على تراث الأمم السابقة إلى جانب ما كان عند العرب في الجزيرة العربية من حضارات وتراث، جاء نتاج تجاربهم في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية التي تجلت فيها بلاغتها وثروتها في القرآن الكريم.

رابعاً: اللغة العربية: أداة الحضارة ووسيلتها. وآلة أصالتها وضبطها. وبقدر ما تكون اللغة أصيلة تكون بقدر ما تتميز بها الحضارة من أصالة. واللغة أداة التخاطب وأداة الثقافة الفكرية. وفي الإسلام أصبحت اللغة العربية لغة الإسلام ولغة حضارته الإنسانية. وهي الوعاء الأصيل الذي احتوى الحضارة العربية الإسلامية في جميع مفاهيمها وجوانبها من تشريع عقائدي ونظم سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية. وقد تميزت بها عن سائر حضارات الدنيا بأصالة سماتها ومفاهيمها.

خامساً: الشعوب الإسلامية: وهي تمثل كل من انطوى تحت راية الإسلام من الأمم والشعوب المختلفة، حيث انصهرت في بوتقة الإسلام وشاركت في ازدهار الحضارة الإسلامية. بعد أن تخلت هذه الأمم والشعوب طوعاً عن لغتها وقوميتها وطوائفها. وانضوت تحت لواء الإسلام المكون الواحد.

سادساً: الإطار الجغرافي: جاء انتشار الإسلام متخطياً للحدود الجغرافية أو القومية. لأن هوية المسلم تحددها انتماؤه لهذا الدين (الرابط الروحي) بعيداً عن الحدود الطبيعية أو السياسية أو العرقية أو الطائفية. خاصة وأن انتشار الإسلام جاء في كل مناحي الأرض. هذا التنوع أعطى الحضارة الإسلامية قوة في وحدة العقيدة. ومزيداً من الأصالة والانتشار والعالمية. خاصة وأن أرض الإسلام هي مهد الرسالات السماوية والحضارات البشرية القديمة والحديثة.

سابعاً: التأثيرات الأجنبية في الحضارة الإسلامية ومدارسها الثقافية: جاء انتشار الإسلام في كل بقاع العالم كنتيجة لتعدد الإطار الجغرافي ولوجود المسلمين في كل قارات العالم. حيث تأثرت الحضارة الإسلامية بكل الحضارات والثقافات القديمة الموجودة في البلاد التي دخلها الإسلام، فتفاعلت معها وأثرت فيها وأثرتها ضمن حدود الشرع الإسلامي خاصة حضارة العهد القديم والجديد: التراث اليهودي والمسيحي، والحضارة

اليونانية وميدانها البحر المتوسط، وأشهر مدارسها (الإسكندرية، حران). ثم الحضارة الفارسية وميدانها هضبة إيران، مدارسها (جند نيسابور، حران، نِصيبين). الحضارة الرومانية والبيزنطية وميدانها البحر المتوسط. الحضارة الصينية والهندية: ميدانها حوض نهر السند.

ثامناً: حركة النقل والترجمة (الدور الأول والثاني والثالث) وأزهى أدوارها الدور الثاني.

تاسعاً: ابتكارات وإضافات الحضارة الإسلامية.

وخلاصة ما ذكرنا يمكننا القول: إن أصول الحضارة العربية الإسلامية ترجع إلى ما كان عند العرب في الجزيرة العربية وفي أطرافها خاصة في بلاد العراق والشام ومصر، وما حمله الإسلام من مبادئ وعقائد ونظم، وما وجد في البلاد التي حررها العرب من تراث حضاري، فتكونت منها جميعاً الحضارة العربية الإسلامية، واستطاعت أن تنطلق بحيوية كاملة وبتصورات ثابتة، تمكنت من استيعاب وتجاوز كافة التحديات التي واجهتها، لأنها منبثقة عن ذاتيتها الأصلية وهادفة إلى تحقيق وجودها وتأصيله.

خصائص الحضارة الإسلامية وسماتها: على الرغم من أن لكل حضارة من الحضارات المتباينة التي تفطَّر عنها قلب التاريخ البشري المديد خصائص ذاتية مميزة، فضلاً عن كونها تضفي على تكوينها البنيوي سمات مشتركة تجمع ما بين كل الحضارات، باعتبارها إنجازاً بشرياً – ولا سيما في الجوانب المادية منها. إلا أن للحضارة الإسلامية خصائص متفردة تجعلها تتميز بملامح وقسمات بارزة تتمثل بالإطار الروحي – المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية – الذي صان هذه الحضارة من الإغراق في المادية، وأمدَّها بطاقات هائلة من السمو والمثالية. هذا فضلاً عن المقومات الأخلاقية التي وجهتها لصالح الإنسان وأكسبتها مسحة خيرة[١] وأبرز هذه السمات هي:

السمة الأولى: الربَّانية: وهي الأولى في السّمات الأساسية للحضارة الإسلامية، في المصدر والمنهج، الذي رسمه الإسلام، والمنهج هو منبع الحضارة الإسلامية – للوصول إلى

---

(١) محمود إسماعيل: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، الكويت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٤٨.

غاياته وأهدافه، وفق منهج ربّاني خالص، وذلك لأن مصدره وحي الله إلى خاتم رسله. ولم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد، أو إرادة أسرة، أو إرادة طبقة، أو إرادة حزب، أو شعب، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله، الذي أراد به الهدى والنور والبيان والبشرى، والشفاء والرحمة لعباده[1]. لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤﴾ [النساء]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس]. وقال تعالى يخاطب رسوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وفي كل ذلك دلالة التأصيل الإيماني للجانب الإلهي في الحضارة الإسلامية خاصة في الثوابت – وبالرغم من ذلك، فإن هناك ملاحظة حيوية في هذا السياق، وهي بمثابة الملمح الأساسي لحضارتنا. ولعله غير خاف علينا بأن الوحي الأعلى عندما كان يتنزل بالقرآن الكريم، فقد رسم معالم الطريق لتكوين كيان حضاري باسق مترع بالقيم السامية كالجمال، والحق، والخير وإن كانت معطيات القرآن سواء إبّان العهد المكّي أم المدني، قد جسدت الخلفية الإيمانية لهذه الحضارة فإن ريادة النبي ﷺ لها، هي التي جعلت منها حقيقة ملموسة في دنيا الواقع البشري.

السمة الثانية: الشمولية: لقد جاءت معطيات هذه الحضارة في لحمتها وسداها، بمثابة تطبيق حي لتعاليم هذا الدين الذي جاء من أجل صياغة أنموذج إنساني متمايز في ضوء نسق إيماني. وبالفعل استطاع الإنسان المسلم، أن يُفجِّر ينابيع حضارة باسقة جمعت خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، في آصرة ودِّية تربو على آصرة الدم واللحم.

ولقد تجسَّد هذا الجمع الفريد عبر التلاحم العضوي الحي فيما بين ما هو دنيوي وبين ما هو أخروي. ومن هنا فإن مفاهيم الحضارة في الإسلام، تشي لنا بأنها مفاهيم شاملة فضلاً عن كونها خالدة، لأنها ربانية المصدر لقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك]. وليس أدل على طابع الشمول الذي اتسمت به الحضارة الإسلامية من أنها لم تقتصر

---

(١) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، الطبعة الثانية، مكتبة وهبة، القاهرة، رمضان ١٤٠١هـ/ يوليو ١٩٨١م، ص٣٢.

على الجوانب الروحية كما ذهب إلى ذلك بعض المستشرقين، الذين يتّهمون العقلية السامية بالجدب، اللهم إلا بما يتعلّق بالروحانيات، ولكن هذه الحضارة شملت جوانب الحياة المادية والعقلية والأخلاقية والجمالية فضلاً عن الجانب الروحي[1].

السمة الثالثة: الأخلاقية: وهي مقوِّم أساسي من مقوِّمات الحضارة لأن منبعها إلهي. لهذا تعتبر الأخلاق الرفيعة ضرورة سلوكية لتكوين مجتمع التوحيد الأول، ذلكم المجتمع الذي حمل على عاتقه تكوين هذه الحضارة وعبر نشره لهذا الدين الذي شكَّل البنية الأساسية لحضارتنا. وهكذا يتأكد لنا بأن الأخلاق هي في الحقيقة محور ارتكاز بارز لتعاليم هذا الدين الحق وحضارته الباسقة. ولما كان القرآن الكريم هو الرافد الأول للحضارة الإسلامية، فقد احتوى على معطيات ثرَّة في الإطار الأخلاقي تسوي بين جميع المنتسبين لهذا الدين لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. وكذلك جاءت السنة النبوية لتؤكد المنزع الأخلاقي لرسالة الإسلام، حيث يقول النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق». ومن هنا فإن معطيات حضارة الإسلام في هذا المضمار قد أكدت تأكيداً حياً، على مبدأ حيوي، توسطي في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظنّ بالفطرة الإنسانية واعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا بها الظن، فعدُّوها شراً خالصاً، فكانت نظرة الإسلام – وحضارته – وسطاً بين أولئك وهؤلاء[2].

ولعل أبرز مظهر سلوكي يرتبط بالحضارة الإسلامية، هي خلقية اللاعنصرية. فقد سوَّى الإسلام نظرياً بين الشعوب دون اعتبار للعرق أو اللون، وباشر الموالي (المسلمون من غير العرب) مواصلة دورهم الحضاري السابق تحت مظلة الإسلام، بل إنهم قد أدّوا الدور الأساسي في التوجيه الحضاري والثقافي في ظل أنظمة وحكومات عربية. إن تلك النزعة (المساواتية) تشكل طفرة على صعيد التطور الأخلاقي بفضل الحضارة الإسلامية، التي تميزت عن حضارة الإغريق والرومان. فلقد كان الإغريق ينظرون إلى الشعوب الأخرى

---

(١) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٤.

(٢) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١٢٤.

على أنهم همج وعبيد. ألم يقل أرسطو أنه لكي يوجد مجتمع حر يجب أن يتأسس على حساب مجتمع مسترق؟ ألم يعتبر الرومان أنفسهم فقط (مواطنين) وما عداهم متبربرين[1]؟

السمة الرابعة: الإنسانية: وهي نزعة إيجابية المقاصد، وعلى اعتبار إن الإنسان هو سيد الكون ومهندس الحضارة. وبناءً على تلك الحقيقة اختصّت الحضارة الإسلامية بالطابع الإنساني، فكان الإنسان هو محور هذه الحضارة في التحليل الأخير. وهنا يبرز الجانب الإنساني بحيث لم توظف هذه الحضارة نتاجها في التدمير والتخريب كما هو الحال بالنسبة لحضارة المغول وكذلك في الحضارة الغربية المعاصرة، بل كانت حضارة بناء وعمران، انطلاقاً من الرؤية القرآنية التي ترى في الإنسان خليفة الله على الأرض، والمنوط به عمرانها وازدهارها، لذلك كفلت له العمل والإبداع في إطار الأمان والسلام. لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧]. وقال سبحانه: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الأنفال: ٦١]. وبهذا كان تكوين الحضارة الإسلامية، حضارة إنسانية، وذلك لأنها ملائمة لفطرة الإنسان وخصائصه المتعددة التي تفرد بها دون سائر المخلوقات، فضلاً عن أنها كانت مسايرة لتطلعاته ونشاطاته السوية وقادرة على تلبية حاجاته. وبهذا تكون هذه الحضارة قد أعطتنا في جملة ما أعطت أكمل تصور للإنسان باعتباره كائناً بشرياً خلقه الله تعالى واستخلفه في هذه الأرض من أجل غايات سامية وأهداف نبيلة[2].

السمة الخامسة: العقلانية: يخاطب الإسلام العقل ويحضُّه على التفكير في خلق الكون والوصول – ما استطاع – إلى شواطئ المعرفة، ومراسي العلم، في هذا يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة].

وإذا كانت الحضارة بنت العلم، والعلم هدف وضالة وغاية يسعى المسلم إلى تحصيلها من واقع كتابه الذي آمن به، وتعاليم رسوله ﷺ، فليس ثمة شك في أن العلم يدفع

---

(١) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، ذات السلاسل، الكويت، الكويت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٠-٢١.

إلى الخلق والإبداع والتفكير والتدبُّر، وكلها قِيم تنبت حضارة وتنشئ معرفة[1] وهكذا كانت الحضارة الإسلامية حضارة عقلية، أنار العقل جنباتها، مستخدماً في ذلك الاجتهاد الذي زوَّد حضارة الإسلام بيدنامية ومرونة أتاحت لها البقاء والاستمرارية ردحاً طويلاً من الزمان، كما أن انهيارها لم يكن إلا انعكاساً طبيعياً لانصراف المسلمين عن هذه المصادر الثلاثة، القرآن والسنة والاجتهاد – كما ذهب إلى ذلك محمود إسماعيل – وفي الواقع أن هذه الآليات المعرفية، هي التي سمت بالعقل المسلم أيّما سمو. ولذا فنحن في حاجة ماسّة إلى إعادة تشكيل العقل المسلم، وفق النسق الإسلامي بمفهومه الشامل، وذلك حتى يتسنى لنا تحقيق حضارة إسلامية معاصرة.

السمة السادسة: الواقعية: إننا نعني بـ«الواقعية» هنا مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة، ووجود مشاهد، حيث إنه يدل على حقيقة أكبر منه، ووجود أسبق وأبقى من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً. ومراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت، وتمهد لحياة أخرى بعد الموت، توفى فيها كل نفس ما كسبت، وتخلد فيما عملت. ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة، فهو نفحة من روح الله في غلاف من الطين، وفيه العنصر السماوي والعنصر الأرضي، وهو ذكر أو أنثى لكل منهما تكوينه ونزعاته ووظيفته، كما أنه عضو في مجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا أن يفنى تماماً فيه، ولذا تصطرع في نفسه عوامل الأنانية والغيرية. ومن هنا لم ينس الإسلام – وحضارته – في توجيهاته الفكرية، وتعليماته الأخلاقية وتشريعاته القانونية – واقع الكون والحياة والإنسان بكل ظروفه وملابساته. والواقعية بهذا المعنى ليست نقيضاً للنزعة المثالية المعتدلة في الفلسفة والأخلاق، فإن هذه النزعة مبنية على فطرة الإنسان وتطلعها إلى الترقي وشوقها إلى المثل الأعلى، فهي إذن واقعية مثالية أو مثالية واقعية، حيث سلمت من إفراط غلاة المثاليين، ومن تفريط الواقعيين من البشر[2].

ونظراً للارتباط العضوي الحي بين الإسلام وحضارته، فقد جاءت معطيات هذه الحضارة المتباينة متَّسمة بالواقعية، فلم تنحرف تجاه الروحانية المسيحية، أو المادية اليهودية.

---

(١) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص٢٦.

(٢) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١٤٢-١٤٣.

هذا ما كان في الماضي أما في واقعنا المعاصر، فإن الحضارة الإسلامية مطالبة أكثر من أي وقت مضى، بانتهاج هذه الواقعية، تجاه الماديات المعاصرة، التي أصبحت أصناماً عصرية تعبد من دون الله الواحد القهَّار.

السمة السابعة: التسامح: اتَّسمت الحضارة الإسلامية بطابع التسامح وأتاحت مناخاً حراً لإبداع العقول والقرائح دون تعصب أو مصادرة. وحسبنا انفتاحها على التراث الكلاسيكي الشرقي – الساساني – الصيني – الهندي – والغربي – الإغريقي والروماني – سواء بسواء تنهل منه – دون محاذير تُذكر – لتستوعب وتتمثل وتضيف وتبدع. وقد أشار «كلود كاهن» إلى أن روح التسامح تلك «لم تشهدها الحضارات العالمية قديماً وحديثاً» حيث أتيح لأهل الذمة من يهود ونصارى، فضلاً عن الصابئة وغيرهم أن يعملوا جنباً إلى جنب مع المسلمين في تشييد صرح هذه الحضارة، دون محاذير أو حساسيات دينية، وهل هناك دليل على حرية الرأي أكبر مما يذكره المؤرخون من أهل الملل والنحل من سائر الديانات والمذاهب، حيث كانوا يتحاورون بحرية مطلقة في بلاط الخلفاء المسلمين، وفي موضوعات دينية وعقيدية دون مصادرة أو خوف أو تقية[١].

السمة الثامنة: التنوع في إطار الوحدة: لقد لاحظ الكثير من المؤرخين والمستشرقين، أن حضارة الإسلام هي حضارة «الوحدة والتنوع» ويمكن القول، إن ذلك قد انعكس على ظاهرة نشوء الدويلات الإقليمية في عالم الإسلام، فصرنا نجد تنوعاً في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، ونجد في الوقت نفسه وحدة وتجانساً وتكاملاً في العطاء الحضاري، وفي الأساليب والأهداف الكبرى. إن حضارة الإسلام إذ تقوم على قاسم مشترك من الأسس والثوابت والخطوط العريضة بغض النظر عن موقع الفعالية الحضارية في الزمان والمكان، وعن نمطها وتخصصها. لإنها تنطوي – في الوقت نفسه – على حشد من الوحدات المتنوعة بين بيئة ثقافية وأخرى في عالم الإسلام نفسه، بحكم التركمات التاريخية التي تمنح خصوصيات معينة لكل بيئة، تجعلها تتغاير وتتنوع فيما بينها من صنوف من الممارسات والمفردات الثقافية. إنها جدلية التوافق بين الخاص والعام، أو ما يمكن عدَّه أممية إسلامية تعترف بالتمايز بين الجماعات والشعوب والأمم، ولكنها

---

(١) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

تسعى في الوقت نفسه لأن تجمعها على صعيد الإنسانية[1].

في ضوء هذه المنطلقات، يمكن لنا التأكيد على أن التنوع في إطار الوحدة، كان خاصية أساسية من خصائص الحضارة الإسلامية، التي أسهمت في إضفاء طابع من الثراء الحضاري على كل معطيات هذه الحضارة في جوانبها المتباينة، دون أن يمس ذلك ثوابتها الأساسية بأدنى تغيير، وذلك لأن الثوابت، تمثل الجانب السماوي لهذه الحضارة، أما المتغيرات فهي الجانب الأرضي لهذه الحضارة، وهو قابل للأخذ والعطاء، ومن ثمّ فإن التنوع أبرز سماته، كما أن الوحدة هي الخاصية الأساسية للجانب السماوي، ومن ثم تكون حضارتنا هي فعلاً حضارة التنوع في إطار الوحدة.

السمة التاسعة: العالمية: ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجناس وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]. والواقع التاريخي يزيد هذا المعنى تأكيداً فقد وسعت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها، بالرغم من اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتعدد أجناسهم ولغاتهم سواء من دخل منهم في دين الإسلام أم بقي في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم. والدليل الواضح على عالمية الحضارة الإسلامية هو أن كل البيئات والشعوب التي عاشت في ظلال هذه الحضارة، قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطويراً واضحاً في ظلها، وترتقي بجميع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً. في حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية وأساليب العيش، في مناطق ازدهار الحضارة الإسلامية في بلاد الشام والعراق وما وراءه والشمال الإفريقي؛ وفي جنوب غربي أوروبا شواهد تاريخية لا تقبل النقض فهي تدل على أن أبناء هذه البلاد أنفسهم كانوا حَمَلَة لواء هذه الحضارة بعد أن هداهم الله إلى الدخول في الإسلام، لأن تعاليمه مفروضة عليهم بل تمثّلوها في نفوسهم وآمنوا بها فأصبحوا جزءاً من نسيجها العضوي الحي[2].

السمة العاشرة: قابلية التطور: لما كانت رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات

---

(١) عماد الدين خليل: الوحدة والتنوع في تاريخ المسلمين، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الخامس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا، السنة الثانية، صفر ١٤١٧هـ/ يوليو ١٩٩٦م، ص٦٨-٦٩.

(٢) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص٢٢.

والأديان، ورسولها الكريم ﷺ خاتم الرسل، وحضارته المؤسَّسة على هذه الرسالة استوعبت كل تطورات الحياة الإنسانية وما استجد في حياة الإنسان من تطورات، وهي كذلك لا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، ولا عاجزة عن الفصل في القضايا المتجدِّدة لهذا المجتمع البشري، في بيئاته المختلفة، المتنوعة في نشاطها الإنساني وأنظمة حياتها. ومن ثمّ فإن علماء المسلمين في استجابتهم لدعوة الله قاموا بوضع الكثير من قواعد التشريع وأصوله، ليواجهوا ما يجدّ في حياة الإنسان من وقائع وقضايا مما لم يرد فيه نص قاطع من كتاب أو سنة، كذلك اجتهد المسلمون في مواجهة متغيرات الحياة اجتهاداً واسعاً، استجابة لدعوة الله لهم لإعمال العقل والنظر في الكون من حولهم، لذا فلم تصادفهم واقعة ولم تجد أمامهم حادثة إلا وكان لهم فيها رأي واجتهاد وحل، لذلك خلّفوا لنا تلك الثروة الكبيرة من العلوم والفنون التي كانت وما تزال مَعْلَماً بارزاً من معالم الحضارة الإسلامية، ومصدراً مهماً من مصادر التطور الإيجابي في الحضارات التي جاءت بعدها مثل الحضارة الأوروبية الحديثة[١].

السمة الحادية عشرة: الجمع بين الثبات والمرونة: ربما يسأل سائل لماذا كان هذا هو شأن الإسلام؟ لماذا لم يُودعه الله المرونة المطلقة أو الثبات المطلق؟ والجواب هو أن الإسلام بهذا، يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية بخاصّة، ومع طبيعة الكون الكبير بعامة، فقد جاء هذا الدين مسايراً لفطرة الإسلام وفطرة الوجود. أما طبيعة الحياة الإنسانية نفسها، ففيها عناصر ثابتة باقية ما بقي الإنسان؛ وعناصر مرنة قابلة للتغير والتطور[٢].

السمة الثانية عشرة: المزج بين عالم الروح وعالم المادة: الإنسان في مفهوم الحضارة الإسلامية، هو ذلك الكائن المادي والروحي، وحياته الصالحة المستقيمة هي تلك التي يراعي هذا الجانب وذلك يظهر جلياً في تعاليم الإسلام وتشريعاته، فإلى جانب الدعوة إلى الإيمان والحرص على العبادة، نجد الدعوة إلى الأخذ بالأسباب المادية للحياة، ويظهر ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا

(١) إبراهيم سليمان وآخر: المرجع السابق، ص٢٢-٢٤.

(٢) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١٩٦.

وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك].

السمة الثالثة عشرة: التوسط: يقول الله في كتابه العزيز: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ ﴾[البقرة:١٤٣]. وفي ضوء هذه الآية الكريمة يمكن القول بأن التوسط يعني الوسطية أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف المقابل، ولا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه، ومن أمثلة الأطراف المتقابلة أو المتضادة، الروحانية والمادية، الفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، الثبات والتغير، وما شابهها. ومن معاني الوسطية التي وصفت بها الأمة في الآية الكريمة ورتبت عليها شهادتها على البشرية كلها: العدل، الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد، فما لم يكن عدلاً، فإن شهادته مردودة ومرفوضة. أما الشاهد العدل والحاكم العدل فهو المرضي بين كافة الناس[1].

ولهذا جاء الإسلام – وهو دين الفطرة – نظاماً وسطاً عدلاً، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع، ولا يحيف على المجتمع من أجل الفرد. لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التي تمنح له، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التي تلقى عليه. وإنما يكلفه من الواجبات في حدود وسعه دون حرج ولا إعنات، ويقرر له من الحقوق ما يكافئ واجباته، ويلبي حاجاته ويحفظ كرامته، ويصون إنسانيته[2].

وفي ضور هذه المنطلقات جاءت معطيات الحضارة الإسلامية وسطاً بين معطيات الحضارات الأخرى، مما أضفى عليها طابعاً من التفرُّد، وكانت بحق الحضارة الوسطية، التي جاءت لإقامة التعادل الحضاري في الكون الرحيب، ولا غرابة في هذا فهي حضارة الأمة الوسط، ولعلَّه غير خاف علينا أن الذي أضفى عليها هذا الشرف الرفيع هو رب العزِّة جلَّ جلاله، فضلاً عن أنه تبارك وتقدَّس قد جعلها شاهدة على أمم الأرض قاطبة فأكرم بهذا الشرف من رفعة وعزّة.

السمة الرابعة عشرة: التوازن: من يدرس الأديان والمبادئ الوضعية يجد لوناً من الاندفاع في هذا الاتجاه أو ذاك، فبعض الديانات أهملت بدن الإنسان إهمالاً تاماً، وتوجهت

---

(١) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١١٤-١١٨.

(٢) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١٣٥.

إلى الروح، حتى أنها حصرت كل جهودها في الإنعاش الروحي، على حساب الجسم، وما زال العالم يذكر أن بعض القساوسة والرهبان كان يفتخر بأنه عاش ولم يغسل جسمه، وأن بوذا جلس تحت شجرة عدة أعوام لم يغادرها. وفي المقابل نجد هناك من يتصوَّر أن الإنسان عقل فقط ومن ثم فإن عليه أن يهتم بعقله، أما روحه فلا تذكر ولا يهتم بها، ولما كان الإنسان روحاً وعقلاً وجسداً فلا بدّ من أن ينمو نمواً متوازناً، وإلا أصيب الإنسان بنوع من الخلل وتعثرت حياته[1].

أما الحضارة الإسلامية، فقد قامت على التوازن الحق، منذ أول يوم لانبثاقها الحي من رحم التاريخ، حيث أنه من الضرورة بمكان في منظورها أن يفسح لكل طرف في الحياة مجاله، ويعطى له حقه «بالقسط» أو «بالقسطاس المستقيم» بلا وكس ولا شطط، ولا غلو ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار، كما أشار إلى ذلك كتاب الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن]. وهذا في الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان بعقله المحدود وعلمه القاصر، فضلاً عن تأثير ميوله ونزعاته الشخصية والأسرية والحزبية والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر، ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر – فرداً أو جماعة – من الإفراط أو التفريط، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ[2].

ومن هنا يمكن القول بأن الحضارة الإسلامية، هو الوحيدة التي تقوم في لحمتها وسداها على مبدأ التوازن. ولم تنتكس إلا عندما تنكّر المسلم المعاصر لمعطيات القرآن الكريم في هذا السياق، وراح يأخذ من الحضارة الوضعية التي أعلت الجانب المادي على حساب الجانب الروحي، فأصابه الشقاء كما أصاب الإنسان المعاصر، الذي أصبح حائراً لا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع من منهج السماء، ولم يصبح همّه إلا الاستهلاك، والإغراق في الشهوات، ولا منقذ له من هذا الوضع إلا العودة إلى الدين.

السمة الخامسة عشرة: الوضوح: من مظاهر الوضوح في الحضارة الإسلامية، وضوح الأهداف والغايات فغاية الحضارة الإسلامية واضحة أمام عيني كل مسلم، يكفي

---

(١) نعمان عبد الرزاق السامرائي: المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١١٤.

أن يقرأ المسلم هذه الآية من كتاب ربه، فيعرف بإجمال وتركيز تلك الغاية الكريمة، حيث يقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]. إذن فغاية الحضارة الإسلامية بإجمال، هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وفسر الظلمات بما شئت من الجهل أو الشرك، أو الشك أو الظلم، أو الحقد أو غير ذلك، فلا حرج عليك، فكلها ظلمات تُظلم بها النفس، وتُظلم بها الحياة معاً، وفسر النور بما شئت من العلم أو التوحيد أو اليقين أو العدل أو الحب، أو غير ذلك، فلا حرج عليك. ويترجم الصحابي الجليل ربعي بن عامر هذه المعاني بما عبَّر عنه أمام القائد الفارسي رستم، حين سأله رستم من أنتم؟ فأجابه بقوله: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام». ويكفي أن يكون المسلم على شيء من الفقه في دينه، ليعلم أنه يهدف إلى تكوين الفرد الصالح، والأسرة الصالحة والأمة الصالحة[١].

السمة السادسة عشرة: الجمع بين الجانب التطبيقي والتنظيري: تميزت الحضارة الإسلامية بالطابع التطبيقي إلى جانب التنظير، وهو أمر افتقرت إليه الحضارات السابقة حيث حفلت حضارة اليونان بالجانب التنظيري فقط، في حين ركزت حضارة الرومان على الجانب التطبيقي. وهنا تبرز الحضارة الإسلامية حين تبدع في المجالين معاً وتكرِّس الجانب التنظيري في خدمة الجانب التطبيقي في جميع المناحي الحياتية[٢].

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول بأن هذه الخصائص المتميزة في نسيجها العضوي الحي، هي التي أضفت طابعاً من الشمولية على معطيات الحضارة الإسلامية، وذلك لأنها جمعت في وحدة موضوعية ما بين الثوابت والمتغيرات، ولعل هذا هو الذي جعل منها حضارة حية ديناميّة متفجّرة على الدوام، مما ضمن لها الاستمرارية فضلاً عن البقاء في دنيا الناس إلى ما شاء الله. ومن هنا فنحن في حاجة ماسة إلى هذه الحضارة لكي تساعدنا على تحقيق رسالتنا في الكون كأمة وسطى. وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾[البقرة:١٤٣]وهذاهو المطلوب من امتنا حاضرا ومستقبلا.

---

(١) يوسف القرضاوي: المرجع السابق، ص١٧٨-١٧٩.

(٢) محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٦-٥٧.

*** طرق تسرب الحضارات والثقافات القديمة إلى الحضارة الإسلامية:** تعددت الطرق والوسائل التي عملت على التمازج والتأثير في الحضارة الإسلامية. وأهمها:

١- الاحتكاك المباشر: حركة الدعوة والجهاد وهجرة القبائل العربية واستيطانها في البلاد الجديدة.

٢- دخول سكان البلاد المفتوحة في الإسلام، واختطاط المدن الإسلامية فيها، وإقبال أهلها على الإسلام وعلى اللغة العربية دون إكراه.

٣- امتزاج الحضارة الإسلامية بتراث الحضارات القديمة عن طريق مدارس الثقافات خاصة في (الإسكندرية، أنطاكية، حران، الحيرة، جند يسابور).

٤- حركة النقل والترجمة: (الدور الأول: ١٦٠-١٩٣هـ)، (الدور الثاني: ١٩٣-٢١٨هـ، وهو أزهى عصورها)، (الدور الثالث: ٢١٨-٣٠٠هـ).

*** دور الحضارة الإسلامية وفضلها:** مرت الحضارة الإسلامية بمراحل متلاحقة. تم خلالها إنجاز حضاري متفرد ومتألق. جعلها أولى الحضارات عالميا. بفعل الذهنية الإسلامية. وسرعة استيعابها لكل علوم الحضارات القديمة. ومن ثم إنجازها المتفوق على كل الحضارات السابقة واللاحقة. من حيث النسبية الزمنية في الوصول إلى مرحلة الإبداع والابتكار. وهذه المراحل هي:

١- المرحلة الأولى: حفظ التراث الإنساني القديم ثم نقله وترجمته وهو عصر التكوين الذي استمر من (القرن الأول الهجري إلى القرن الثالث الهجري).

٢- المرحلة الثانية: دراسة التراث القديم وهضمه وتصويبه وتصنيفه واستيعاب جميع ثقافة الحضارات، تمهيداً لمرحلة الإبداع والابتكارات والاختراعات في شتى العلوم والمعارف والفنون (القرن الرابع الهجري).

٣- المرحلة الثالثة: النتائج المثمرة التي وصلت إليها الحضارة والتي توافقت مع الذهنية العربية المتفتحة، والسرعة في النقل والترجمة والاستيعاب والإبداع والاختراع في ظل التطلع الإسلامي، ومن ثم جاء فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية واستمرت هذه المرحلة في (القرن الخامس والسادس الهجري).

أصالة النظم الإسلامية: تمتعت الحضارة العربية الإسلامية بأصالة فاقت فيها

الحضارات. لأنها

أ- لم تأتي عن تطور لنظم سابقة خاصة في الجانب النقلي لأن هذه النظم الإسلامية إلهية المصدر وليست وضعية.

ب- لها شخصية مستقلة ارتبطت بمصادر ربانية أصيلة ثابتة وغير متغيرة وغير متأثرة بمصادر أخرى.

جـ- لها شخصية المرونة والاستمرار والنماء والبقاء ومواكبة لتطور الإنسان في الزمان والمكان.

دور الحضارات والثقافات الأجنبية في الحضارة الإسلامية

ساهمت الحضارات القديمة في إثراء الحضارة العربية الإسلامية في مختلف العلوم والفنون. من خلال تراثها الموروث. وما نجم عن حركة النقل والترجمة التي اعتمدها علماء الإسلام في مختلف صنوف العلم والمعرفة. ولعل أكثر الحضارات تأثيرا في الحضارة العربية الإسلامية. الحضارة اليونانية، الفارسية، الهندية، الرومانية.

الحضارة اليونانية: ميدانها الجغرافي. البحر المتوسط. وأثرها كبير وواضح في حضارة الإسلام. لكن البعض بالغ في دورها حيث زعموا بأن حضارة الإسلام هي صورة للحضارة اليونانية. ومثل هذا الزعم مرفوض. لأننا لا ننكر أننا أفدنا من الحضارة اليونانية. لكننا أخضعنا تراثها للدراسة والتحليل والتصويب. ومن ثم قدمنا إنجازانا وإبداعنا الفكري المميز والمتفرد. وإذا قسنا ما استفدناه من حضارة اليونان. فإن ما استفادته الحضارة الغربية من حضارة الإسلام. فإنه أكبر وأعم من جهة. كذلك لا توجد حضارة عالمية اعتمدت على ميدانها وأصولها دون تأثر من حضارات سابقة. لأن ظهور الحضارات هو نتيجة لتراكم حضارات سابقة. والحضارة اليونانية كغيرها من الحضارات. ظهرت متأثرة وخاصة بحضارات الشرق القديم «الكلدانية، البابلية، الفرعونية».

* الحضارة الهندية: عدّها الكتاب والمؤرخون من أهم الحضارات العالمية الراقية الثمانية (الهندية، الفارسية، الكلدانية، اليونانية، الرومية، المصرية، الإسلامية، العبرانية) وميدانها: (حوض نهر السند) وهي قارة بامتدادها الجغرافي والسكاني حيث تضم مجموعة من الشعوب المختلفة في المذاهب واللغة والثقافة، ولغتها السائدة السنسكريتية وجاء اتصالها مع بلاد العرب قديماً (طرق التجارة والقوافل مع بلاد الإسلام) وأثرها واضح

وكبير في علوم اللغة، والحديث، والحساب، والصيرفة، والطب، والرياضيات خاصة بعد دخول الإسلام إليها وقيام أهم دولتين فيها (الدولة الغزنوية، والدولة الغورية).

الحضارة الفارسية: ميدانها: هضبة إيران وأثرها في الحضارة الإسلامية واضح أكثر من غيرها لأنها أصبحت جزء من الدولة الإسلامية في مرحلة مبكر لم تتعدى عام ٣٥هـ ونأثيرها واضح في علوم اللغة والعلوم الشرعية والقليل من علوم الطبيعة والعلوم التطبيقية لضياع معظم مؤلفاتها بعد غزو الاسكندر الكبير لها، وكان اتصالها قديما ببلاد العرب والمسلمين في الجانب التجاري والثقافي وازداد في عهد الإسلام خاصة بعد أن أصبحت امبراطورية الفرس جزء من العالم الإسلامي ولغتها الفارسية الفهلوية معروفة. الأمر الذي سهل ترجمتها إلى اللغة العربية بكل يسر وسهولة ثم زاد أثرها أكثر في عهد الخلافة العباسية (لاعتماد العباسيين على العنصر الفارسي في الحكم والإدارة والجيش والعلوم والآداب وفي انتقال تراثها إلى حضارة الإسلام الأمر الذي ساهم بظهور طبقة من العلماء والمترجمين من فرس وعرب أجادوا الفارسية وفرس أجادوا اللغتين فجاء أثرها ظاهر وكبيرا، خاصة في علوم اللغة والشريعة والطب والفلك والتنجيم والعمارة والفنون والصناعة والزخرفة.

دور الأمة الإسلامية ووظيفتها كما حددها القرآن الكريم: رسم القرآن الكريم للأمة الإسلامية صورتها ووظيفتها في الأرض، ومكانتها البشرية كما حدد دورها الأساسي في حياة الناس، فقال تعالى في سورة البقرة (وهي سورة مدنية) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [١٤٣][1]. وفي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وهذا تكريم من الله تعالى لهذه الأمة. وأما دور الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً بما نزل عليها من الكتاب والحكمة؛ لتحكم بين الناس بما أراها الله، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وهي التي تنظر في قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم فتزنها وتبدي فيها رأيها فيكون هو الرأي المعتمد، وليست هي التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها، فهي الشهيدة على الناس، وفي مقام الحكم والعدل بينهم.

وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإن الرسول ﷺ هو الذي يشهد عليها فيقرر

---

(١) انظر: الظلال وتفسير ابن كثير.

موازينها وقيمها ويحكم على أعمالها وتقاليدها. وإذا كانت شهادة رسول الله على أمته تقوم في حياته، فإن الله سبحانه الشهيد عليها بما أبقى فيها من كتابه وما أقام فيها من دينه ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] بهذا تتحدد حقيقة هذه الأمة ووظيفتها؛ لتعرفها، ولتشعر بضخامتها، ولتقدر دورها حق قدره وتستعد له استعداداً لائقاً فهي الأمة الوسط بكل معاني الوسطية: سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد. أو من الوسط بمعناه الحسي.

١- فهي أمة وسط: في التصور والاعتقاد، فلا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الإنسانية المتمثلة في روح متلبس في جسد، أو جسد تتلبس به روح. وتعطي لهذا الكيان المزدوج الطبيعة، حقه المتكامل من كل زاد، وتعمل لترقية الحياة ورفعها في الوقت الذي تعمل فيه على حفظها وامتدادها، وتطلق كل نشاط الإنسان في عالم التجرد وعالم النوازع بلا تفريط ولا إفراط في قصد وتناسق واعتدال.

٢- وهي أمة وسط: في التفكير والشعور؛ فلا تجمد على ما علمت وتغلق منافذ التجربة والمعرفة، ولا تتبع كذلك كل ناعق وتقلد دون تبصر وإدراك. إنما هي تستمسك بما لديها من تصورات ومناهج وأصول، ثم تنظر في كل نتاج للفكر والتجريب، وشعارها دائماً: الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها، في تثبت ويقين.

٣- وهي أمة وسط: في التنظيم والتنسيق؛ لا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، إنما تزاوج بين هذا وذاك؛ فترفع ضمير الإنسان بالتوجيه والتهذيب وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب، فهي لا تكل الناس إلى سوط السلطان ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان، ولكن قواما بين هذا وذاك.

٤- وهي أمة وسط: في الارتباط والعلاقات فلا تلاشي شخصية الفرد في شخصية الجماعة أو الدولة، ولا تطلقه كذلك فرداً أنانياً لا هم له إلا ذاته. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء، وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه، ثم تضع من الكوابح ما يقف دون الغلو، وتقرر من التكاليف والواجبات ما يجعل الفرد خادماً للجماعة والجماعة كافلة للفرد، في تناسق واتفاق.

٥- وهي أمة وسط: في المكان فهي تقوم في سرة الأرض وفي أوسط بقاعها، وما تزال هذه الأمة الإسلامية إلى هذه اللحظة تتوسط الأرض بين شرق وغرب وشمال وجنوب.

وهي قادرة من موقعها هذا أن تشهد الناس جميعاً وتشهد على الناس جميعاً، وتعطي ما عندها لكل أقطار الأرض، وعن طريقها تعبر ثمار الطبيعة وثمار الروح والفكر من هنا إلى هناك، فهي تتحكم في ثمار الحركة مادياً ومعنوياً على السواء.

٦- وهي أمة وسط: في الزمان تنهي عهد الطفولة البشرية من قبلها، وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها؛ فهي تقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها، وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى في عهد رشدها، وتزاوج بين رصيدها الروحي من عهود الرسالات ورصيدها العقلي المستمر في النماء، وتسير بها على الصراط المستقيم بين هذا وذاك.

وأمة تلك وظيفتها وذلك هو دورها خليقة بأن تحتمل التبعة وتتقبل التضحية، فللقيادة تكاليفها وللقوامة تبعاتها، ولا بد أن تفتن وتبتلى ليتأكد خلوصها وتجردها واستعدادها للطاعة المطلقة لله وشريعته ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران].

ولكي تقوم هذه الأمة الوسط بدورها، كان لزاماً أن يكون بناؤها الداخلي قوياً محكماً؛ يربط خصائص الإنسان كلها من مادية وروحية في حزمة واحدة، لكي تعمل في تكامل وتناسق، ولذلك كانت الشعائر التعبدية متلبسة بالأشكال الظاهرية، وكانت التكاليف الاجتماعية متلبسة بالتكاليف التعبدية، ليتناسق الظاهر مع الباطن، ولتجد الفطرة حاجتها، كما يجد المجتمع حاجته[(١)].

---

(١) انظر الدكتور إبراهيم الشريف ن ص١٧-٢٥.

الفصل الثاني

النظام السياسي الإسلامي

(الخلافة، الوزارة)

- الخلافة وتطور النظام في صدر الإسلام وعهد الخلافة العباسية.
- الوزارة وتطورها في صدر الإسلام وعهد الخلافة العباسية.

دولة الرسول ﷺ في المدينة

أسس رسول الله ﷺ دولته في المدينة. واتخذها عاصمة ومقراً لدولته الناشئة ووضع أسسها السياسية الأولى كنموذج مثالي لدولة الإسلام، وقد حدد رسول الله ﷺ أسس النظام ممثلة برسائله إلى الأمراء والملوك

أولا: قيامه بتبليغ الرسالة ونشرها بين سائر العرب ثم انتقل بها إلى غير العرب.

ثانيا: حدد طبيعة العلاقة في المجتمع الإسلامي بين المسلمين أنفسهم وبين مكونات مجتمع المدينة (اليهود، المشركين، والقبائل التي على حدود المدينة) (دستور المدينة).

ثالثا: جعل مسجده في المدينة مركز الحكم والإدارة وكل شئون الدولة على اعتبار أن قاعدة الدولة دينية.

رابعا: اعتمد رسول الله ﷺ في سياسته على قاعدة الشورى مع الصحابة.

خامسا: حدد دستور الدولة الإسلامية القائم على أصول الكتاب والسنة.

سادسا: حدد الإسلام قواعد الحكم في الإسلام وترك للمسلمين حرية اختيار الشكل والنظام والوسائل والآليات وكل ما يجمع عليه المسلمون بما يتناسب مع تطور الزمان والمكان والقواعد التي حددها الشرع وهي كما يلي:

أ- الحاكمية لله تعالى لقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]. ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥].

ب- الشورى، لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. وفي قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

جـ- العدل والحرية والمساواة لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

د- وجوبية اختيار الخليفة أو الحاكم لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. وفي قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

هـ- الدعوة لسعادة البشرية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

[الإسراء: ٩].

النظام السياسي في عهد الرسول ﷺ: اضطلع الرسول ﷺ في عهده بأمرين، الأول: أمر تبليغ الرسالة (وهي وظيفة خاصة بالأنبياء) انتهت بوفاته لأنه خاتم الأنبياء والرسل. الثاني: جعل الرسول ﷺ همه بعد تثبيت أمر الرسالة ومعالم الدين الإسلامي أن يهتم بتنظيم المجتمع المدني ليتخذ منه نموذجاً يوضح رسالة الإسلام في المدينة أولاً، ثم يجعلها قاعدة لنشر الإسلام بين قبائل العرب ومن ثم الانطلاق نحو عالمية الإسلام. هذا وقد حصر هذا الأمر في «سياسة أمور المسلمين في أمور الدين وسياسة الدنيا بالدين». لهذا وتطبيقاً لهذه السياسة: فقد بدأ الرسول ﷺ سلسلة أعمال وتنظيمات سياسية وإدارية واجتماعية ومالية جعل هدفها حماية المسلمين وتثبيت نواة الإسلام «فكان مبدأ التأريخ الإسلامي»[1] ومن ثم تحريك المدّ الإسلامي لتطبيق عالمية الرسالة فبدأها:

١- ببناء المسجد لتثبيت قاعدة أساسية وهي أن هذا النظام الجديد قاعدته دينية، وهي منطلق لكل المجالات الدنيوية والأخروية على السواء، وعلى اعتبارها اللبنة الأولى للبناء الاجتماعي الديني باعتباره أداة لصهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة[2].

٢- المؤاخاة: نظام أوجد صيغة سلمية في البناء الاجتماعي بين المسلمين قائماً على الرابط الروحي[3].

الوثيقة(الصحيفة، الكتاب، الدستور)[4]. وهي تعد أول وثيقة في الإسلام حددت تنظيم العلاقات بين المسلمين وساكني المدينة من اليهود وعامة من فيها من المشركين. تحدد فيها المرجع والزعامة والحكم لرسول الله ﷺ بما جاء به من الله تعالى. وجعلت أمة الإسلام أمة واحدة تنظيمها يقوم على عقيدة التوحيد المتعمدة على المبادئ الروحية والأخلاقية التي تمتزج فيها السياسة بالأخلاق. كذلك أكدت الوثيقة على الشورى إلى جانب تمتع الرسول

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة.

(٢) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص٣٢.

(٣) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢/ ١٣٨، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢/ ١٥٢، ١٣٦، عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص١٥٣.

(٤) ابن هشام: السيرة، جـ٢، ص١٥٣-١٥٤، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق، ٢٠، ٤١-٤٧.

ﷺ بسلطات سياسية وإدارية وتنفيذية وقضائية وتشريعية[1] لقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾[النساء:٦٥]. وفي الشورى قوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ﴾ [الشورى: ٣٨]. كذلك أكدت الصحيفة على تنظيم القضاء وتطبيق العدل. وعلى الروح الاجتماعية بين المسلمين ومن عايشهم. وبذلك وضع الرسول ﷺ الأسس الأولى لبناء الدولة الإسلامية الجديدة، وكوَّن أمة واحدة نظم العلاقة بين أفرادها تحت قيادته باعتباره صاحب السلطة الدينية والسياسية والقضائية.

هذا وقد شرع رسول الله ﷺ بعد ذلك بتنظيم إدارة الدولة الإسلامية. منها بعث الولاة من الصحابة واتخذ عدداً من الكتاب. وقاد الجيش وأمر بالقيادة لغيره. واستقبل الوفود وأوفد الرسل إلى الملوك والرؤساء بالدعوة إلى الإسلام[2]. وعقد الاتفاقيات. كذلك قام بإجراءات عديدة أسفرت عن قيام مؤسسات الدولة الإسلامية الأولى. وحول ذلك يذكر فلهاوزن: «وظهرت بين العرب عن طريق الإيمان بالله فكرة الرياسة، وقامت حكومة يرأسها نبي الله وشرع الله والكلمة فيها لله في كل وظائف الجماعة، ومنظماتها على حد سواء، ورابطة الدين منها لا رابطة الدم أساس الجماعة وغرضها سيادة الحق والعدل ولا تمايز فيها بين الأمور الدنيوية والدينية[3].

ولا ريب أن دولة الإسلام التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة اختلفت عما سبقها من الكيانات السياسية اختلافاً جذرياً في المنهج والمنشأ والأهداف، وكان أول ما يميزها عن غيرها من الأشكال السياسية السابقة والمعاصرة لها، أنها جعلت أمور الناس وسياستهم راجعة إلى نظام الإسلام وشرعه، واطمأنت في تنفيذ ذلك إلى عاملين:

الأول: سلطان العقيدة وما يبعثه في نفوس المؤمنين من القيم الروحية التي تجعل الامتثال لأمر الإسلام وطاعة من يمثله في رعاية البشر وسياستهم ضرباً من العبادة.

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٥٤.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٩٦-٩٧، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، الجهيشاوي: الوزراء والكتاب، ص١٢-١٣، ابن حبيب البغدادي: المجد، ص١٢٥-١٢٥، ط الكتب التجارية للطباعة والنشر، بيروت، ٢٦٨-٢٧٠.

(٣) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية، ص٨-١٠، ط القاهرة، ١٩٦٨.

والثاني: سلطان القوة المادية الذي يمثله رئيس الدولة الذي بايعه الناس على السمع والطاعة. ولا شك أن تضافر سلطان العقيدة وسلطان القوة المادية معاً، كان الباعث على امتداد هذه الدولة وتوسعها عبر المكان والزمان[١].

وبهذا وضع الرسول ﷺ أسس الدولة الإسلامية الأولى، وترتب على الخلفاء الذين جاءوا بعد وفاته مسؤولية وضع نظم متممة لنظم الرسول ﷺ في حكم الدولة الإسلامية، فظهرت مشكلة الحكم ومن سيخلفه في قيادة الدولة الإسلامية.

مفهوم الحكم في الإسلام: يقوم الحكم في الإسلام على قاعدة أساسية وهي أن الله سبحانه وتعالى هو المشرع، وهو صاحب الدين والشريعة وأن النظام لم يقم إلا بمقتضى الشريعة، ولتنفيذها والشورى وهي محدد الحكم بالقرآن والسنة النبوية. ومهمة الحاكم كما حددها العلماء (حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين). والطريقة التي سنها لقيام نظام الحكم هي (البيعة) التي تمثل العقد بين الحاكم والمحكوم. على أساس العهد بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله وإقامة الحق والعدل بين المسلمين ورعاية مصالحهم.

ونظام الحكم في الإسلام قائم على فصل السلطات. والسلطة التشريعية مودعة في الأمة كوحدة. ومنفصلة على سلطة رئيس الدولة أي سلطة الخليفة مقيدة بالشرع.

والخلافة: هي رياسة السلطة التنفيذية. وقد خصص للأمة إرادتها في النظام الإسلامي التي يعبر عنها بالإجماع، ويمثل خطاب أبو بكر الصديق في المسجد بعد البيعة الخاصة والعامة سياسة الدولة الإسلامية ومسؤولية الحاكم ومدى العلاقة بين الحاكم والمحكوم وفق المبادئ التالية:

(١) الأمة هي التي تختار حاكمها (بالشورى).

(٢) الحاكم ملتزم بإقامة العدل ومنفذ لأحكام الشرع. قائم على رعاية الدين ومؤتمن على مصالح الأمة وهو مسؤول عن أمانته أمامها. وهي رقيبة عليه ملزمة له بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبالشورى وبما هي مأمورة به من بذل النصح والنصرة له.
(٣) العلاقة بين الحاكم والمحكوم قائمة على أساس المصارحة والمناصحة الصادقة في كل ما

---

(١) محمد ضيف الله بطاينة: الدولة في النظم الإسلامية، بحث في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد عشرون، ١٩٨٥.

يهم الأمة من أمور.

(٤) الأمة مكلفة بإطاعة الحاكم وإعانته على تأدية أمانته ما أطاع الله ورسوله(ما دام ملتزم بأحكام الشريعة).

(٥) الأمة لها حق تقويم الحاكم إن حاد. بل لها حق عزله وفسخ العقد إن لم يقبل التقويم.

(٦) تطبيق المساواة الكاملة بين الناس في نظر الحاكم.

(٧) سياسة الدولة تقوم على القوة العادلة وسبيلها الجهاد في سبيل الله.

(٨) واجب الحاكم والأمة مراقبة المجتمع وحفظه من الفساد.

إما وجوبية تنصيب الخليفة: فقد أجمع أهل السنة وجمهور الفرق الإسلامية الأخرى على وجوبية تنصيب الإمام (الخليفة) [١] ليقيم حكم الله ويسوسهم بأحكام الشريعة وأدلة الوجوب ظاهرة في القرآن والسنة وأقوال العلماء والسنة الفعلية للصحابة.

الوجوبية في القرآن: لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء: ٥٩].

الوجوبية في الحديث الشريف: قول الرسول ﷺ «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية».

الوجوبية في أقوال العلماء والفقهاء:

- الماوردي[٢]: «وعقدها واجب بالإجماع، وإن شذّ عنهم الأصمّ».

- ابن خلدون[٣]: «إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه بالشرع وبإجماع الصحابة والتابعين، واستقر ذلك إجماعاً دالاً على وجوب نصب الإمام».

- الكمال بن أبي الشريف: «وأما وجوبه علينا فلأنه تواتر إجماع المسلمين في الصدر الأول عليه، حتى جعلوه أهم الواجبات».

---

(١) ابن حزم: الفعل، جـ٤/ ٨٧.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٥.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، جـ٢/ ٥١٩.

- السنة الفعلية من الصحابة والتابعين وتابع التابعين من الصحابة والخلفاء الراشدين.

الخلافة في صدر الإسلام: (لغة واصطلاحا).

الخلافة لغة: لقد وردت في القرآن الكريم كلمة خليفة وخلفاء وخلائف كما في الأيات الآتية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ﴾ [النور: ٥٥]. ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ [الأعراف:٦٩]. ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وفي القرآن آيتان يمكن أن نجد في كل منهما معنى فردياً لشخص مميز الأولى جاء بها ذكر داود عليه السلام. والثانية: ذكر آدم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [ص: ٢٦]. ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

ويرجح أرنولد(١): تفسير كلمة خليفة من بعض المصادر الإسلامية أنه بمعنى وكيل ونائب وبديل وخلف. وإن داود وآدم عليهما السلام سميا باسم خليفة إذ كان كل منهما على الأرض نائباً عن الله في هداية الناس وإنذارهم بها أمر الله. إن هذا التفسير لمعنى الآيتين يُصدق على الأنبياء ولا يصدق على الخلفاء لعدم صلتهم بالنبوة، فقد أنكر أبو بكر تسميته بها وقال (لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله) (٢). من هنا أصبحت الخلافة تعني من خلف رسول الله ﷺ في إجراء الأحكام الشرعية.

الخلافة اصطلاحاً: (هي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع(٣)، وهي كما وصفها ابن خلدون(٤) هي (حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال

---

(١) أرنولد: الخلافة، ص٣١.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص١١٦، طبع بيروت ١٩٠٠م.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٥؛ ابن خلدون: المقدمة، ص١٦٦.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص١٦٦.

الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به) ولقب الخليفة يؤكد اتصال الخلفة بسيرة الرسول ﷺ فتبرز حقه في طاعة المؤمنين له.

وعرفها صاحب الأحكام السلطانية بقوله «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»[1].

وعرفها صاحب المقاصد بانها: «رياسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبوة ﷺ[2]».

أما لقب أمير المؤمنين: فيشير البعض إلى أن عمر بن الخطاب أمر أن يلقب به ومعنى هذا أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة وأن عمر صار أميراً لهذه القوة لأن (الأمير) عند العرب يقصد به (قائد الجيش) وكان هذا اللقب يتماشى مع عهد الفتوح لما في هذا اللفظ من معنى السلطتين (الحربية والإدارية) [3].

ويؤكد أرنولد[4] ذلك بقوله: (إن لقب أمير المؤمنين يدل على تقلد الخليفة السلطان كسيد أعلى في الحرب ورئيس للإدارة المدنية).

أما لقب (الإمام) فلقد لقب به الخليفة وقد استعمل في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهذه اللفظة تتمثل في الصفة الدينية من حيث الإمامة في الصلاة ويؤيد ذلك أرنولد[5] بقوله: (وأما لقب الإمام فيوضح الفعالية الدينية لرئيس الدولة لقيامه بوظيفة دينية محدودة).

وقد ورد لفظ إمام في القرآن بمعنى الرئيس أو الزعيم ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. كما وردت اللفظة في القرآن مفردة ومجموعة ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقوله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٥.

(٢) الكمال بن الهمام: المسايرة وشروحها، والمواقف والمقاصد في بحث الإمامة، ٢٢٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص٢٠.

(٤) أرنولد: الخلافة، ص٢٧.

(٥) المصدر السابق، ص٢٧.

ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ [القصص]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

ويرى بعض الكتاب(١) أن لفظ الإمام هو أقرب إلى روح الشرع الإسلامي فيما تطور من نظمه السياسية لأن كل ما في الإسلام من التشريع السياسي وغيره خاضع لنظام النبوة اقتداء به لا إرثاً له ولهذا كان الخلفاء يحافظون على وظيفة الإمامة في الصلاة.

من الملاحظ على مصطلح (الخلافة، الإمامة، أمير المؤمنين)(٢) ما يلي: أنها جاءت كلها بمعنى واحد تمثل صاحب السلطة وقد اجتمعت على تقديم أمور الدين على الدنيا. وسياسة أمور الدنيا بالدين، وكل هذه الألفاظ لم تخرج عن الغرض والمقصد الواحد لها من مفهوم حراسة الدين وسياسة الدنيا بالدين.

خصائص نظام الخلافة: إن اختيار الخليفة (الإمام – أمير المؤمنين) يتم بواسطة أهل الحل والعقد وأهل الشورى. وقد جاءت اختصاصاته شمولية دينية ودنيوية وأول واجباته تطبيق الأحكام الشرعية على كافة المسلمين وكل بلاد الإسلام.

حقوق الخليفة:

١ – حق السمع والطاعة: لأنه وكيل الأمة في تحقيق مقاصد الشريعة.

٢– النصح والإرشاد للخليفة من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لغرض معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، لحديث رسول الله ﷺ «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

٣– النصرة: وجوب نصرة الإمام إذا تعرض لأذى أو تحدد على طاعته ومقاتلته أهل البغي.

شروط الخلافة(٣):

١ – الإسلام: لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

٢– الذكورة.

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ص٢٩٠.

(٢) انظر: ابن خلدون: المقدمة، جـ٢/ ٥١٩، ابن الجوزي/ ٤٩، الطبري، جـ٣/ ٣٧٧ (الطبعة التجارية)، السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٩٤.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٤، ابن خلدون: المقدمة، جـ٢/ ٥٢٢.

٣- البلوغ.

٤- سلامة العقل والحواس (الكفاءة الجسمية والعقلية).

٥- النسب القرشي (مختلف عليه عند بعض الفرق لحديث الرسول ﷺ «الأئمة من قريش»[(١)]، رواية السيوطي «الأئمة من قريش فحكموا فعدلوا»[(٢)].

٦- العلم: العلم المؤدي للاجتهاد.

٧- عدم الحرص على طلب الخلافة.

٨- العدلة والكفاية.

٩- تقديم المفضول على الأفضل (انفردت به فرقة الشيعة).

١٠- الحرية.

شارات الخلافة:

١- الخطبة: بالدعوة للإمام لقول ابن عباس رضي الله عنه (اللهم انصر علياً).

٢- السكة (العملة): بذكر اسم الخليفة ومدينة السكة عاصمة الخلافة وتاريخ الضرب.

٣- الطراز: الملابس الخاصة المميزة للخلفاء.

علامات الخلافة:

١- البردة: (بردة الرسول ﷺ) التي خلعها على الشاعر المخضرم كعب بن زهير ثم انتقلت للأموية (معاوية اشتراها من ورثة كعب) ثم انتقلت للعباسيين (اشتراها أبو سلمة الخلال) أوانها كانت ضمن أمتعة آخر خلفاء الأموية (مروان بن محمد) ثم توارثها العباسيون.

٢- العصا: عصى رسول الله طلبها معاوية وهي عند سعد القراظ (سعد بن عائد).

٣- الخاتم: خاتم رسول الله من الفضة تداوله الخلفاء الراشدون من بعده وعليه نص عبارة محمد رسول الله.

---

(١) المسامرة، ص٢٦١.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء (٦).

* طرق عقد الإمامة أو الخلافة: حدد العلماء أربعة طرق لعقد الخلافة هي:

١- الشورى والانتخاب، ونموذجها الخلافة الراشدة.

٢- العهد والاستخلاف القائم على الشورى (عهد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما).

٣- بالوصية والنص: انفردت بها الشيعة لعلي وآل بيته رضي الله عنه.

٤- بالقوى والغلبة: الثورة والانقلاب.

* مقاصد الخلافة: (واجبات الخليفة)

١- حفظ الدين على أصوله المستقرة (القرآن والسنة).

٢- إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام لكي تصان محارم الله.

٣- إقامة العدل ورفع الظلم، لأن الظلم سبب هلاك الأمم.

٤- حماية البيضة (أصل القوم ومجتمعهم وبيضة القوم ساحتهم).

٥- جهاد من عاند الإسلام أي نشر الدعوة (بالقلم واللسان والسنان) وعلى ذلك تقررت علاقة الدولة الإسلامية مع الدول الأخرى.

٦- تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة ضمن حرية استمرار الدعوة وحماية المسلمين والأمن والسلامة للجاليات الإسلامية.

٧- جباية الخراج والزكاة وكل أمور بيت مال المسلمين.

٨- تقدير العطايا والمكافآت المستحقة من بيت مال المسلمين دون إسراف.

٩- استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يوليهم من أعمال.

١٠- المباشرة (الإشراف والمراقبة): أن يباشر الخليفة بنفسه الإشراف والمراقبة الدائمة.

١١- تأمين العلم والعمل والحياة الكريمة لكل أفراد الأمة إلى جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١٢- جمع الكلمة وعدم حدوث الفرقة والقيام بعمارة الأرض واستخراج خيراتها.

الخلافة الراشدة ١١-٤٠هـ

الخليفة الأول: أبو بكر الصديق رضي الله عنه ١٠-١٣هـ

حددت الشريعة الإسلامية قواعد الإسلام الخمسة في الحكم. وتركت للمسلمين حرية اختيار النظام وشكله وآلياته بما يجمع عليه المسلمون. كذلك ترك رسول الله ﷺ للمسلمين الحرية في اختيار النظام من خلال القواعد الشرعية التي حددتها إلى جانب الاقتداء بدولة الرسول ﷺ ووجوبية وجود الخليفة أو الحاكم[١].

وقد وضح أبو بكر الصديق ﷺ في خطابه بعد وفاة الرسول ﷺ حاجة الأمة إلى خليفة أو حاكم لحفظ كيان الأمة بقوله: «لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم»[٢] وتنفيذا لهذه السياسة اجتمع المسلمون في سقيفة بني ساعدة لغرض اختيار خليفة لهم. وبرزت في هذا الاجتماع كتلتين أخذت كل منها تطرح مرشحيها وتستند بحجج في حقها في الزعامة. الأولى كتلة الأنصار الذين آوو المسلمين ونصروهم وقد رشحوا زعيمهم (سعد بن عبادة) سيد الخزرج. والثانية كلتة المهاجرين الذين استندوا بأحقيتهم إلى أسبقيتهم إلى الإسلام وأنهم أهل الرسول وعشيرته وقد تزعمهم (أبو بكر وعمر وأبو عبيدة). ثم جرى الحوار بين الكتلتين وقد بين أبو بكر ﷺ أحقية قريش في الخلافة اعتماد على حديث رسول الله ﷺ «الأئمة في قريش» وفي المقابل طرح الأنصار مبدأ المناصفة (منا أمير ومنكم أمير)[٣]. لكن المهاجرين احتجوا على ذلك بلسان الصديق بقوله عن حديث الرسول ﷺ «قدموا قريشا ولا تقدموها» و«الأئمة في قريش»، وقول الصديق أيضاً نحن الأمراء وأنتم الوزراء[٤]. هذا وقد انحسم الأمر بعد تراجع زعيم الخزرج عن طلب الخلافة بقوله: (فقوموا فبايعوا أبا بكر)[٥]. وبذلك تمخض اجتماع السقيفة عن رجحان كفة المهاجرين بمبايعة الأنصار والمهاجرين لأبي بكر خليفة للمسلمين. ومن ثم

---

(١) هاشم الملاح: أساليب تداول السلطة في الدولة الإسلامية، مجلة آداب الرافدين، العدد ٧، ١٩٧٦.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١/ ص٣٢، مطبعة النيل القاهرة ١٩٠٤.

(٣) ابن هشام: السيرة، جـ٢/ ١٠١٦.

(٤) الماوردي: الأحكام، ص٢٦؛ ابن خلدون: المقدمة، ص١٥٣.

(٥) الطبري: جـ٣/ ٢٠٩.

يمكن بيان قواعد هذا الانتخاب الذي تم فيه اختيار الصديق والخلفاء الراشدين:

أ- ظل مبدأ الشورى والانتخاب الحر العلني كمبدأ أساس لبيعة الخلفاء الراشدين الأربعة.

ب- رسخت السقيفة مبدأ الانتخاب المباشر لأصلح[1] الصحابة وأكبرهم سناً.

جـ- أثبتت سنة حسنة في البيعة (مصافحة باليد).

د- حددت مراسيم الخلافة بالبيعة الأولى من أهل الحل والعقد (البيعة الخاصة). ثم البيعة الثانية في المسجد (البيعة العامة).

هـ- اعتمدت هذه الطريقة في الانتخاب كمقدمة لنظرية الخلافة عند أهل السنة.

و- اعتمد المسلمون سنة حسنة أخرى وهي خطبة الخليفة في المسجد بعد البيعة العامة، لغرض بيان سياسة ومنهجية الخليفة في الحكم ومسؤولياته تجاه المسلمين. وأصبحت بذلك الخطبة تقليداً سياسياً لكافة خلفاء المسلمين من بعده. وفيما يلي بعض مقتطفات من خطبة الصديق ﷺ: «أما بعد: أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع إليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[2].

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣-٢٣هـ: حاول الخليفة أبو بكر قبل وفاته أن يجنب المسلمين الاختلاف حول اختيار الخليفة، ويظهر أن رأيه استقر على كتاب العهد إلى أحد من الصحابة، فاستشارهم في استخلاف عمر بن الخطاب فحمدوا له ذلك وأجمعوا على رأيه. وكأنهم انتخبوا عمر انتخاباً، وعلى هذا الاختيار تم كتابة العهد بالخلافة لعمر. بعد أن خاطب الصديق جماعة المسلمين بقوله: «أترضى أترضون عمن أستخلف

---

(١) الدوري: النظم الإسلامية، ص٢٦ وما بعدها؛ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١/ ص١٤.

(٢) الطبري: جـ٣/ ٢٠٣؛ ابن هشام: السيرة، جـ٤/ ٣١١.

عليكم؟ فإني والله ما أكون (ادخرت) من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة: وأني قد أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا ثم رفع أبو بكر يديه إلى السماء قائلاً: اللهم إني لم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم... فأصلح اللهم لهم ولاتهم واجعلهم من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته»[1]. فكان استخلاف عمر أقرب إلى الشورى والانتخاب. على الرغم من اعتراض البعض على خلافته. حيث أبدى عبد الرحمن بن عوف تخوفه من غلظة عمر[2]. لكن الصديق ردّ على ذلك بقوله: أنها غلطة في الحق.

وكذلك أبدى طلحة بن عبيد الله رأيه عندما دخل على أبي بكر قائلا (استخلفت على الناس وقد رأيت ما بلغك الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم، وأنت لاق ربك فسألك عن رعيتك فقال أبو بكر لطلحة: أبالله تخوفني؟ إذا لقيت ربي فيسألني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك)[3]. وقد فسر البعض هذا الاعتراض أنه ربما يكون ناتجا عن تطلعات طلحة للخلافة من جهة، أو أنه كان يمثل رأي المتطلعين الآخرين لإشغال منصب الخلافة[4]من جهة أخرى. وحول خلافة عمر يلاحظ أن كتاب العهد إلى عمر لم يكن سوى ترشيح أولي من قبل أبو بكر ولم يصل لحد التعيين. فاستشارته للصحابة في عمر، تمثل بيعة أهل الحل والعقد «البيعة الخاصة» التي اعتمد عليها في الترشيح. ثم تلتها البيعة العامة في المسجد.

خلافة عثمان بن عفان ٢٣-٣٥هـ: فكر عمر رضي الله عنه في مسألة الحكم من غير أن يستقر على رأي وفي رواية الطبري وابن الأثير جاء فيهما. لما طعن عمر دخل عليه بعض الصحابة فقالوا له: (يا أمير المؤمنين لو استخلفت، فقال لهم: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته، فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: إنه أمين هذه الأمة. ولو كان سالم: مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول: «إن

---

(١) الطبري، جـ٣ من ص٤٢٨.

(٢) المصدر السابق، جـ٣، ص٤٣٣.

(٣) هاشم الملاح: أساليب تداول السلطة، ص١٨، مجلة آداب الرافدين، العدد السابع ١٩٧٦.

(٤) المصدر السابق، جـ٣، ص٤٣٩.

سالماً شديد الحب لله»وقد مات رسول الله وهو راض عنهما. يتبين من هذه الرواية أن عمر كان ميالاً إلى العهد في اختيار الخليفة الذي يثق به، ويطمئن إلى نجاحه بدليل الإشارة إلى أبي عبيدة وسالم كما دعا عبد الرحمن بن عوف ليعهد إليه بالخلافة، ويبدو أن زهد عبد الرحمن وعدم ميله للسياسة وتحمل مسؤولية الدولة الإسلامية، جعل عمر يعهد إلى مجلس الستة من الصحابة لاختيار الخليفة من بينهم، من هنا نرى أن عمر يتبين أن عمر لم يكن ميالاً إلى اختيار واحد من الستة فلو كان يطمئن إلى أحدهم لعهد إليه بالخلافة قبل موته، استدلالا لتكملة الطبري حين قالوا لعمر (لو عهدت عهدا) لكنه رد عليهم بقوله: عليكم هؤلاء الرهط الذين مات رسول الله وهو عنهم راض وهم: علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، عبد الرحمن بن عوف، الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله. وهؤلاء هم أهل الشورى[١]وأضاف إليهم ابنه عبد الله بن عمر شريطة أن لا تكون له الخلافة. واشترط أن لا تتعدى الشورى ثلاثة أيام. وأوصى بأن تكون الخلافة للرجل الذي يقع عليه الاختيار من الفريق الذي في صفه عبد الله بن عمر في حالة تساوي الأصوات، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فليكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[٢]، ودعاهم عمر بن الخطاب وقال لهم: «إني وجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر (الخلافة) إلا فيكم[٣] وحذرهم من الاختلاف فيما بينهم بقوله: (أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس» [٤].

وبعد وفاة عمر لم يصل الزعماء الست إلى اتفاق، واحتدم التنافس بينهم فحاول عبد الرحمن بن عوف – بعد أن خلع نفسه – أن يجعل اتباع سياسة أبي بكر وعمر أساساً للترشيح، فدعا علياً وقال له: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده فقال علي: (علي الاجتهاد) في حين أن عثمان أقسم لعبد الرحمن بن عوف ألا يخالف سيرة الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر في شيء ولا يقعد عنها[٥]. ومما ساعد

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ٥، ص٣٤؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٣٦.

(٢) الطبري: تاريخ، جـ٥، ص٣٤-٣٥.

(٣) الطبري، جـ٥، ص٣٥-٥٤؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص١٥-١٦؛ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، جـ١، ص١٩.

(٤) المصدر السابق.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٢٢.

على اختيار عثمان الدعاية الواسعة التي قام بها بنو أمية وحب قريش له فيروي الطبري[(١)]: أن عبد الرحمن بن عوف استشار أشراف الناس وأمراء الأجناد وكان لا يخلو برجل إلا أشار عليه بعثمان، ثم أنه دار متنكراً فما ترك أحداً من المهاجرين والأنصار وغيرهم من ضعفاء الناس ورعاعهم إلا سألهم واستشارهم فلم يلق أحداً يستشيره ويسأله إلا ويقول عثمان[(٢)].

وروى الطبري وابن الأثير عن علي نفسه قوله[(٣)]: حول تولية عثمان فذكر بأن عبد الرحمن بن عوف صهره، وسعد بن أبي وقاص من أقربائه، وأصهاره للنبي في إبنتيه رقية وأم كلثوم وسابقته في الإسلام. وقد وجد علي نفسه مضطراً لمبايعة عثمان كما بايع من قبل أبا بكر وعمر[(٤)].

هذا ولم يستطع عثمان ﷺ إيجاد التوازن في الأحداث والتطورات السياسية، ولم يوفق في ترضية أمراء الأقاليم وكثير من المهاجرين والأنصار لإهمالهم، ولإسناد بعض مناصب الدولة إلى ذوي قرابته من الأمويين[(٥)] ويوضح البلاذري[(٦)] طبيعة حكم عثمان بقوله لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة أميراً فمكث ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً. وأنه لأحب إلى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم... ثم توانى في أمرهم واستعمل أقاربه وأهل بيته في الست الأواخر وأهملهم وكتب لمروان بن الحكم بخمس إفريقيا، وأعطى أقاربه المال وتأول في الصلة التي أمر الله بها واتخذ الأموال واستلف من بيت المال مالا وقال: إن أبا بكر وعمر تركا من هذا المال ما كان لهما وإني آخذه فأصل به ذوي رحمي فأنكر الناس عليه ذلك.

ويبدو أن البلاذري أشار إلى الاتهامات التي وجهها قتلة عثمان ولم يشر إلى دفاع عثمان عن نفسه، والرد على اتهامات قتلته التي أشار إليها الطبري[(٧)] بقوله جمع عثمان مسلمي المدينة وخطب فيهم قائلاً: «إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم

---

(١) الطبري: تاريخ، جـ٥، ص٣٦.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة، جـ١، ص٤٢.

(٣) الطبري: جـ٥، ص٣٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٣، ص٣٥-٣٨.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ص٣٥٤.

(٥) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص٣٥٤.

(٦) البلاذري: أنساب الأشراف، جـ٥، ص٢٥.

(٧) الطبري: تاريخ، جـ٤، ص٣٤٧-٣٤٨.

زعموا أنهم يذاكرون فيها ليوجبوها علي عند من لا يعلم. وقالوا: ما لي من بعير غير راحلتين لحجي، وقالوا، أني لأعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه، وأني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس، وقد أنفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم خمس ما أفاء الله عليه الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته عليهم وليس ذاك لهم، وقالوا: إني أحب أهل بيتي وأعطيهم فأما حبي فإنه لم يحمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم، وأما عطاؤهم فإني أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس...».

ويرى بعض المؤرخين أن من أهم أسباب الفتنة على عثمان رضي الله عنه هو عزله بعض عمال عمر وتوليته أقاربه، حيث عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية العراق وولى مكانه عبد الله بن عامر، وعزل عمرو بن العاص عن مصر وولي بدله عبد الله بن سعد، وجعل معاوية بن أبي سفيان منفرداً بأجناد الشام، وبذلك لم يكن للمهاجرين أمر مهم في الدولة التي قامت بسيوفهم وتضحياتهم[١]. كما أن بعض القبائل والأمصار كرهت الحكم المركزي ووجود التباين الاقتصادي والنزعة الإقليمية[٢] بعد أن توقفت الفتوحات في السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان ﷺ وقلت واردات الجند من الغنائم، فثار عليه بعض رجال الأمصار من الكوفة والبصرة ومصر وساروا إلى المدينة وأحاطوا ببيت عثمان، مطالبين إياه بالتخلي عن الخلافة فلما رفض قتلوه[٣].

وكان جديرا بعثمان أن يعمل بوصية عبد الرحمن بن عوف الذي أخذ عليه الميثاق ألا يحمل بني أمية على رقاب الناس[٤]. وأن يسير بالناس سيرة أبي بكر وعمر لكن عثمان مختلف في الشخصية وفي الأحوال.

ويعلق فلهاوزن[٥]: على خطورة أسلوب التخلص من عثمان ويعدها حادثا حاسما لا يكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التاريخ الإسلامي، فمنذ ذلك الحين صار للسيف للقول الفصل في رئاسة الحكومة الثيوقراطية، وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك أبدا انسدادا تاما. كما سنرى ذلك في خلافة علي، هذا ومن الملاحظ على اختيار عثمان رضي الله عنه أن خلافته

---

(١) بخيث: عصر الخلفاء الراشدين ص٢١٩.

(٢) الدوري: النظم ص٣٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٣ ص٨٥.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥ ص٨٥.

(٥) فلهاوزن: تاريخ الدولة العربية ص٥٠.

جاءت بالشورى بين أهل الحل والعقد وقد تمت له البيعة بعد ترجيح أهل الشورى لعثمان على علي رضي الله عنهما.

خلافة علي بن أبي طالب ٣٥-٤٠هـ: لما قتل عثمان اجتمع من بقي من الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام فأتوا عليا وقالوا له: أنه لا بد للناس من رئيس... وأنا لا نعلم أحدا أحق به منك، وكان علي من السابقين في الإسلام فضلا عن قرابته من الرسول ﷺ وهو زوج ابنته فاطمة، وقد لازم الخلفاء السابقين فكان أبو بكر وعمر يستشيرانه لما عهدا فيه من الدين والفقه والفطنة والذكاء. وبهذا تمت خلافة علي بعد أن رفضها للمرة الأولى. والثانية. ثم قبلها بشروط. أن تكون البيعة من أهل الشورى والبيعة عامة وعلنية في المسجد. ولما استقرت البيعة لعلي شرع لمعالجة عوامل الشكوى والنقمة فبدأ بإزالة عوامل الشكوى في الأمصار الإسلامية، وحث الصحابة علياً على عزل العمال الذين عينهم عثمان فاذعنوا جميعا إلا معاوية في الشام الذي علق على المنبر قميص عثمان(١). ووجد علي أن حسم المشكلة تكمن في عزلهم جميعا فعزلهم، ليبدأ حياة جديدة مع عمال يطمئن إليهم وليسكن الفتنة(٢) مع أن بعض الصحابة نصحوه بابقائهم في مناصبهم ريثما تهدأ الأحوال وتستقر الأمور، لذلك ترك عزل العمال آثارا خطيرة دفع بعضا من المؤرخين إلى القول بأن عليا كان ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية(٣). إلا أن معاوية رفض قرار العزل ولم ينفذه معتمدا على تأييد عرب الشام له، وأدى هذا الموقف إلى احتدام المنازعات بين علي ومعاوية وانتهت بقيام الحرب بينهما واستخدام معاوية وعمرو بن العاص الورقة السياسية بطلب التحكيم الذي إدى إلى تعميق الخلاف وظهور الخوارج كحركة سياسية جديدة على المسرح السياسي في الدولة الإسلامية، وقد انتقدوا موقف علي قبل التحكيم وبعده فاضطر لقتالهم في النهروان، لكن نقمتهم عليه حملتهم لقتله في مسجد الكوفة في شهر رمضان سنة ٤٠هـ، وباستشهاده انتهت خلافة الراشدين وخلا الجو لمعاوية ليعلن خلافته بالشام بعد أن تنازل له الحسن رضي الله عنه عن الخلافة(٤)

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١ ص١٣٣.

(٢) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص٢٤٦.

(٣) **Nicholson Literary History of the Arabs, p191**

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٣ ص١٣٨، ص١٨٠، ص١٩٦، ص١٩٨.

ولعل هناك سببا آخر ساعد معاوية على تمسكه بالمطالبة بالخلافة هو انتقال مركز الخلافة الإسلامية من المدينة إلى الكوفة في خلافة علي ﷺ، مما أعطى الشرعية لمعاوية في المطالبة بالخلافة في دمشق. وفي خلافة علي ﷺ يلاحظ رفضه لقبول الخلافة المرة الأولى والثانية وقبوله لها المرة الثالثة من باب حرصه وحفاظه على وحدة الأمة والبعد عن الفرقة. واشتراطه البيعة الخاصة من أهل شورى بدر وبيعته عامة وعلنية في المسجد.

ومما تجب ملاحظته في نظام الخلافة في عهد الراشدين أن لها صفة جمهورية لا تعتمد على الوراثة، وإنما تستند إلى نوع من الانتخاب، وتمتزج فيها التقاليد العربية بالروح الإسلامية، ففكرة الانتخاب مأخوذة من التقاليد العربية، وفكرة استناد الخليفة إلى موافقة الناس عليه لا إلى أسرته وقبيلته مأخوذة من الإسلام، ثم أن فكرة كون مصدر السلطة إليها وضرورة بيان رأي الأمة – التي لا تجتمع على ضلال – في المرشح هي فكرة إسلامية[١].

القواعد المستنبطة في خلافة الخلفاء الراشدين

أولا: تمت خلافتهم على قاعدة الشورى وبالترشح من أهل الحل والعقد. (البيعة الخاصة).

ثانيا: لم يطلب أحد من الخلفاء الخلافة ولم يرشح نفسه لها ولم يرشحوا أحدا لشعورهم بأنها تكليف وليس تشريف.

ثالثا: تم عقد الخلافة من قبل أهل الحل والعقد بعد البيعة الخاصة. ثم البيعة العامة في المسجد.

رابعا: أن سلطة الخلفاء مطلقة لكنها مقيدة بحدود الشرع ومقاصده.

خامسا: سن الخلفاء الراشدون سنة حسنة بعد البيعة وهي إعلان منهج الحكم في الخطبة.

سادسا: اظهروا تقبل المعارضة الإيجابية التي تحقق أولا مصلحة الدين، ثم مصلحة الأمة ثانيا، شريطة أن لا تؤدي إلى خلاف أو فرقة تؤدي إلى خلاف بل لمصلحة الدين والمسلمين ثالثاً.

---

(١) الدوري: النظم ص٣٤.

سابعا: اعتمد في عملية الاختيار (الشورى) على رأي الأغلبية «المعظم».

ثامنا: استعان الخلفاء بمجلس من الشيوخ يتألف من كبار الصحابة وأعيان المدينة وكان الخليفة لا يقطع أمرا إلا باستشارتهم(١).

الخلافة في العصر الأموي ٤١-١٣٢هـ: ولما استشهد علي ﷺ وقبل أن يتوفاه الله دخل عليه جندب بن عبد الله فقال له يا أمير المؤمنين أرأيت أن فقدناك -ولا نفقدك- أنبايع الحسن؟ فقال لا آمركم ولا أنهاكم وأنتم بأموركم أبصر(٢). فبويع الحسن رضي الله عنه بالخلافة في ٢١ من رمضان سنة ٤٠هـ، ولكن الحسن كان كارها لهذا الأمر ومقدما جمع كلمة المسلمين على الخلافة ولهذا قرر التنازل عنها لمعاوية(٣) ويروي اليعقوبي(٤) سبب ذلك أن الحسن آثر حقن دماء المسلمين، وسلك طريق المفاوضات. ويرى الطوسي(٥) أن تنازل الحسن ولجؤه إلى التسليم، لأنه مغلوب مقهور، وذكر أن سبب تنازل الحسن عن الخلافة وموادعة معاوية هو رضاؤه بالمال الذي بعث به إليه معاوية كشرط من شروط التنازل والصلح. ورأى البعض في تنازل الحسن أنه جاء بسبب ازورار شر ذمة عنه حيث طعنوا فيه، وخالفوه ورجعوا عن إمامته وشكوا فيها(٦).

ومهما يكن من أمر التنازل فيبدوا أن الحسن لم يكن ميالا إلى السياسة لأنه لم يكن مهتما بالخلافة ولا في حصرها في آل علي لعدم إيمانه بشرعية الوراثة في الحكم.

ويرى بعض من المؤرخين(٧) أن مبايعة الكوفيين للحسن جاءت تأكيد لمبدأ الوراثة الذي أصبح فيما بعد مبدأ من مبادئ العلويين. كما أن الأمويين حرصوا أيضا على جعل الخلافة وراثية في بني أمية. حيث استطاع معاوية أن يحصر الملك في أسرته تجنبا للفتن والاختلافات، وعدم افتراق الأمة التي كانت تحدث غالباً بعد وفاة الخليفة. وحول طريقة

---

(١) انظر: أبو يوسف: كتاب الخراج. ص٣٠ (الطبعة السلفية) د. حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي ص٧٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٤٢.

(٣) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص٣١٩.

(٤) اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص٢٥٦.

(٥) الطوسي: تلخيص الشافي، ج٤ ص١٧٨.

(٦) سعد القمى: المقالات والفرق ص٢٣.

(٧) الدوري: النظم ص٣٧

اختيار خلفه. ولاجتهاد معاوية رضي الله عنه بقوله: «لقد رقّ عظمي وكبر سني وخشيت الاختلاف عليكم» فاجتهد اجتهادا. أراد به ان يجنب الأمة الاختلاف على طريق الوراثة وولاية العهد. لذلك يعد معاوية أول من استحدث في نظام الخلافة الوراثة وولاية العهد القائمة على الشورى وهو تقليد جديد جاء به من باب الاجتهاد أولا، ومن معاصرته لنظم الحكم الوراثية في الامبراطورية الرومانية والفارسية كتقليد ثانيا. حيث تشبه بملوك الفرس والروم. حتى قيل فيه أنه حول الخلافة إلى (ملك كسروي وعصب قيصري)[1]. وقيل أن المغيرة بن شعبة هو من أشار على معاوية بذلك وقال له: (قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان)[2] وقد أثار بعمله هذا سخط بعض الأمويين فقد احتج مروان بن الحكم على البيعة ليزيد بقوله: (جئتم بها هرقلية تبايعون لابنائكم)[3] وسخط على معاوية أصحاب الشورى لأن مبدأ الوراثة برأيهم ينافي مبادئ الإسلام، الذي لا يعد السلطة ملكا بشريا وإنما وظيفة دينية مقدسة ولذا لا يمكن أن يورثها الخليفة لمن شاء[4]. لهذا يعد الخليفة معاوية أول من بدل الشورى بنظام الوراثة وولاية العهد القائم على الشورى في النظام السياسي للدولة الإسلامية، وقد استند الخليفة لتدعيم نفوذه على القبائل، لأن الخلفاء الأمويين راعوا فيها التقاليد القبلية، في حين اعتبر منصب الخلافة من وجهة نظر الفقهاء، ملكا دنيويا وهذا بدوره أعطى للحركات الثورية ضد الحكم الأموي الشرعية في القضاء عليه وإسقاطه.

الخلافة في العصر العباسي: ١٣٢-٦٥٦هـ أخذت العناصر المناوئة للخلافة الأموية تعمل في السر والعلانية على إسقاط الدولة الأموية، وفي طليعتها العلويين الذين ما فتئوا يعلنون أن الأمويين ظالمون اغتصبوا الخلافة من مستحقيها، كما نقم بنو عمومتهم من العباسيين على الأمويين لشعورهم بأن الخلافة حق شرعي في آل بيت رسول الله ﷺ، وقد انضم اليهم في نقمتهم على الحكم الأموي الموالي لشعورهم بأن الأمويين لم يساووهم بالعرب في العطاء وفي الوظائف. ووقفت العناصر الإسلامية التي ترى أن الخلافة الأموية لم تسر بموجب كتاب الله وسنة الرسول وأنها صيرت الخلافة ملكا دنيويا يتوارثها بنو أمية.

---

(١) الجافظ: رسالة في معاوية والأمويين ص١٦ صححها ونشرها عزة العطار القاهرة ١٣٦٥هـ.

(٢) ابن الأثير، الكامل ج٢ ص٢٥٢، ابن قتيبة ج١ ص٢٦٠.

(٣) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١ ص٢٧٧.

(٤) **wlhovsen the arab kingdom and its fall p.110**

لهذا طرحت المعارضة شعار الدعوة إلى الرضا من آل محمد والتي عرفت فيما بعد بالدعوة العباسية. واستطاعت هذه الدعوة أن تتغلغل في أجزاء كبيرة من الدولة الإسلامية ولم تلبث أن نجحت عام ١٣٢هـ في إسقاط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

لقد أثر مجيء العباسيين في تطور نظام الخلافة حيث بنوا حقهم في حكم الأمة الإسلامية على القرابة من الرسول ﷺ، واستندوا بأدلة من القرآن ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ ﴾ [(١)]، ووعدوا الأمة بالسير بموجب كتاب الله وسنة نبيه التي حاد عنها الأمويون. وتأكيد لذلك جاء قول داود بن علي بن العباس عند بيعة أبي العباس مخاطبا الناس «أن نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فيكم بسنة رسوله» [(٢)] وقد حاول الخلفاء العباسيون أن يرسخوا في أذهان الناس أن الله قد اختارهم لهذه الأمة، وأن الخلافة ستبقى فيهم وإلى ما شاء الله كما جاء في قول داود بن علي «واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم» لذلك اختاروا لوائهم الظل والسحاب [(٣)]. وأضفوا على أنفسهم صفة من القداسة وتلقبوا بلقب الأئمة. وبذلك حكموا الأمة استنادا إلى تفويض من الله، وقد تجلى ذلك في قول المنصور مخاطبا أهل مكة «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده... فارغبوا إليه وسلوه أن يوفقني للرشاد والصواب وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم» [(٤)] أضف إلى ذلك أن الخليفة أخذ يراعي المراسيم الدينية ويقرب العلماء والفقهاء ويرتدي بردة الرسول ﷺ في خطب الجمع والأعياد والمناسبات الدينية.

وقد سار العباسيون على نظام الوراثة، وغالوا في بتوليه العهد لأكثر من واحد منذ عهد السفاح ١٣٢-١٣٦هـ الذي عهد بالخلافة إلى أخيه المنصور ١٣٦-١٥٨هـ ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى، ولما ولي المنصور الخلافة خلع عيسى وبايع لابنه المهدي وجعل عيسى ابن موسى من بعده، ولما ولي المهدي ١٥٨هـ-١٦٩هـ خلع عيسى مرة أخرى وولى ولديه الهادي والرشيد، وعند تولية الهادي ١٦٩-١٧٠هـ عزم على خلع أخيه الرشيد والبيعة لابنه جعفر، ولما تولى الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ الخلافة بعد موت الهادي المفاجئ عهد

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٥.

(٢) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك، ص٢٦.

(٣) المصدر السابق ص٤٠.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣ ص٣٧٠.

إلى أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمعتصم، وقسم البلاد بينهم، فحاول الأمين ١٩٣-١٩٨هـ خلع أخيه المأمون وتولية ابنه موسى[1].

وقد كان لنظام الوراثة والعهد لأكثر من واحد أثر كبير في إضعاف الخلافة العباسية، وإيجاد روح التنافر والمنافسة والمنازعات بين أفراد الأسرة العباسية، إضافة لما كانت تحاك داخل قصور الخلافة العباسية من المكائد والمؤامرات، التي مكنت العناصر الأجنبية أن تلعب دورها في السيطرة على الخليفة لوقوفها بجانبه، كوقوف البرامكة بجانب الرشيد في محنته ونزاعه مع أخيه الهادي، ووقوف الفضل بن الربيع مع الأمين، والفضل بن سهل مع المأمون، وأدت أيضا إلى الاستبداد بالحكم والاستحواذ على الأموال كما سنرى في فترة النفوذ الفارسي والتركي والبويهي، كذلك مهدت لسيطرة العناصر الأجنبية على الحكم وإلى انفصال كثير من الأقاليم عن الدولة العباسية. وساعدت إلى حد كبير على ضعفها وإسقاطها، إذ لم يلاق المغول (التتر) عناء كبيرا في احتلالهم بغداد سنة ٦٥٦هـ-١٢٥٨م وقضائهم على الخلافة العباسية.

الخلافة في العصر العباسي الأول (فترة النفوذ الفارسي (١٣٢-٢٤٧هـ))

قاوم الموالي السياسة العربية التي انتهجتها الخلافة الأموية، وساندوا كل حركة ثورية ترمي إلى القضاء على الخلافة الأموية، ليصبحوا عمادها وأصحاب النفوذ الحقيقي فيها، فلما ظهرت الدعوة العباسية في خراسان التي كانت مركزا للعناصر الفارسية المتطرفة في عدائها للعرب عامة ولبني أمية خاصة – التفوا حول الدعوة وأيدوها عند قيام الدولة العباسية.

ولم يجد العباسيون بدا من اشتراك العناصر غير العربية في السلطة من وزارة وإمارة وقيادة ودواوين. كما تأثر الخلفاء العباسيون بالنظرة الاستبدادية في الحكم ويؤيد (أرنولد) ذلك بقوله: «ربما تأثر هذا الشكل الاستبدادي في الخلافة عن الفرس... لأن هذا النوع من النظام العباسي لم يعرفه العرب قبل الإسلام، ولا يتفق مع روح المساوات في القرآن أو مع نظرة المسلمين الأوائل». هذه السياسة فتحت باب الصراع بين العناصر غير العربية للسيطرة على الخلافة والخلفاء. فجاءت متسلسلة في النفوذ والسيطرة: في العصر الأول العباسي سيطر العنصر الفارسي ثم تبعه في العصر الثاني سيطرة العنصر التركي. ثم الفارسي في العصر الثالث ثم التركي في العصر العباسي الرابع.

---

(١) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٦٧.

الخلافة في العصر العباسي الثاني: فترة النفوذ التركي: ٢٤٧-٣٣٤هـ: تتميز هذه الفترة بسيطرة العنصر التركي على مركز الخلافة وعلى الخليفة على السواء. وقد ترك تعاظم نفوذهم آثارا سيئة. بدأت ظواهرها منذ عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) الذي استقدمهم وبنى لهم عاصمة خاصة (سامراء عام ٢٢١هـ)[١]. فزاد عددهم ونفوذهم في عهد الخليفة الواثق عام (٢٢٧-٢٣٢) [٢]. بدأ نفوذ الأتراك يتعاظم في عهد الخليفة المتوكل. حيث دبروا له المكائد حتى قتلوه[٣]. وقد قال فيهم الخليفة المنتصر (هؤلاء قتلة الخلفاء)[٤] ولم يسلم هو من القتل حيث دبروا له مكيدة فمات مسموما.

بعد هذا الخليفة جاءت مرحلة تعرض فيها الأتراك للقوة من جانب الخلفاء، خاصة في عهد الخليفة المعتضد وكذلك في عهد ولده الخليفة المكتفي[٥]. لكن نفوذهم عاد ثانية في عهد الخليفة (المقتدر) حيث قتلوه [٦]. وفي عهد الخليفة القاهر بالله ٣٢٠-٣٢٢هـ استعاد الخلفاء العباسية نفوذهم وقوتهم لفترة بسيطة وحد ثقته بهم[٧]، لكنهم استعادوا نفوذهم من بعده خاصة بعد استحداث منصب أمير الأمراء، حيث استفحل نفوذ القادة الأتراك وظلوا يتوارثوا هذا المنصب حتى مجيء مرحلة النفوذ الفارسي البويهي عام ٣٣٤هـ [٨].

فترة النفوذ البويهي ٣٣٤-٤٤٧هـ:

آل بويه ينتسبون إلى الديلم ومذهبهم شيعي زيدي. بدأوا حياتهم في خدمة (مرداويج) إلى أن خلعوه[٩]، ثم استطاعوا أن يكونوا الإمارة البويهية بتأييد من الخليفة

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ج٥/ ٩، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٢٢٣، الأربلي: خلافة الذهب المسبوك ص١٦٠، النيوزبكي: الوزارة ص١٢٨.

(٢) القرماني: أخبار الدول ص١٥٧.

(٣) ابن العبدي: تاريخ مختصر الدول ص٢٤٨، المسعودي: التنبيه مع الأشراف ص٣١٤، الذهبي: العبر في خبر من غبر ج٢/ ص٢.

(٤) المسعودي: التنبيه والأشراف ص٣١٤.

(٥) ابن الأثير: ج٧/ ١٤٧، المسعودي: مروج الذهب ج٤، ١٨١، ١٨٧.

(٦) اليوزبكي: الوزارة ص١٦٦.

(٧) المسعودي: مروج الذهب ج٤/ ٢٢١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣/ ٢٣٨.

(٨) اليوزبكي: الوزارة: ص١٩٤، ١٩٦.

(٩) ابن الأثير: الكامل ج٨/ ٩٧، الفخري ص٢٢٤.

العباسي[1]. لكنهم سرعان ما أظهروا طموحاتهم الخاصة بإقامة خلافة شيعية على حساب الخلافة العباسية السنية. وهذا الأمر حمل البلاد الإسلامية في عهدهم كثيرا من الاضطراب وتدهور الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية. خاصة في أواخر عهدهم[2].

صحب سيطرة البويهية على الخلافة والخلفاء. ظهور الشعوبية وازدياد الصراع الفارسي التركي وانقسام الخلافة العباسية إلى دويلات[3]. كذلك تعرض الخلفاء العباسية على أيديهم لمختلف أنواع القهر والتعذيب، والحجر والعزل والقتل وسمل العيون وحتى سجن الخلفاء وسيطرتهم على السكة والأموال والقطائع. وبذلك أضحت الخلافة العباسية في عهدهم ضعيفة مهانة حتى أنهم فكروا في إنهاء الخلافة العباسية السنية واستبدالها بخلافة فارسية شيعية[4]. لكن عودة التسلط العنصري التركي على الخلافة في عهد السلاجقة بدد آمالهم وطموحاتهم.

الخلافة في الفكر السياسي الإسلامي:

لقد كانت مشكلة الحكم بعد وفاة الرسول ﷺ أساس الصراع السياسي ونشوء الأحزاب والفرق الإسلامية. حتى جعلها الشهر ستاني بأنها (أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة)[5] فأوقد ذلك ظهور العلويين الذين أكدوا على مبدأ القرابة من لرسول الله في تولية الإمامة، كما تحدد موقف المهاجرين من غير الهاشميين على مبدأ أسبقيتهم في الإسلام، وأنهم أولياء الرسول ﷺ وعشيرته، وهذه الفئة تؤيدها العناصر المستقلة المتمثلة بأصحاب النزعات القبلية، التي أكدت على ضرورة اختيار الخليفة بالأسلوب والصفات التي كان يختار فيها رئيس القبيلة. واستفحلت مشكلة الخلافة والحكم حتى أضحت أعظم خلاف بين المسلمين، وتحول الخلاف حولها من جانب ديني إلى جانب سياسي اجتماعي، تمثل بظهور الفرق التي غذتها الصراعات السياسية حيث ظهرت فئة جديدة كان لها دورها الخطير في تغذية الفكر السياسي عند المسلمين وهم الخوارج الذين ظهروا على المسرح

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٢٧٠، ٢٧١، الفخري ص٢٢٥، مسكوية: تجارب الأمم ج٢/ ٨٥.

(٢)ابن الجوزي: المنتظم ج٦ ص٢٧١، ٣٤٠، اليوزيكي: الوزارة ص٢٣٠.

(٣) أبو حيان التوحيدي: مثالب الوزيرين ص٢-٥.

(٤) ابن خلدون: العبر في خبر من غبر ج٣/ ٧٧٨، ابن كثير: البدان والنهيلة ج١١/ ٢١٣-٢١٤، ٢٤٣، ٢٢٦،٢٧٢، ابن الجوزي المنتظم ج٧/ ٤٩. ابن الأثير: ج٩/ ١٥١ اليوزبكي: الوزارة ص٢٤٨.

(٥) الشهر ستاني: الملل والنحل ص٩.

السياسي أثر النزاع بين علي ومعاوية، حتى كان قبول علي للتحكيم السبب المباشر في ظهورهم.

ومما يجب الإشارة إليه أن هذه الأحزاب أو الفرق الإسلامية لم تظهر مرة واحدة، ولم تضع براجمها السياسية بصورة ثابتة ومدونة، وإنما أخذت تستقي أسس مبادئها وأفكارها من المصادر الإسلامية الأساسية وتفسيرها للقرآن الكريم والسنة النبوية ومن تجارب الأمة العربية الإسلامية. ولما كانت هذه الفئات السياسية قد نشأت في مجتمع أساسه الدين، وهدفها قضية دينية أساسية (الخلافة). فلا بد لها أن تأخذ شكلا دينيا لكي تستطيع أن تكسب لها أوسع المؤيدين، لهذا وضعت الفرق الإسلامية (أهل السنة الأمامية. الخوارج المعتزلة... وغيرهم) مبادئها السياسية ونظرتها إلى الخلافة اعتمادا على المصادر الإسلامية، ومن واقع الظروف السياسية التي أحاطت بالأمة العربية الإسلامية، ومن المنطلق الفكري لكل فرقة.

وفي نظرة أهل الجماعة إلى الخلافة كما وضع أسسها المكتوبة الماوردي[١]: في كتابه الموسوم بـ(الأحكام السلطانية) والتي تقول أن الأمة تقوم على الشريعة، وأن تطورها التاريخي يسير وفق الشريعة الإسلامية، التي تتمثل في (القرآن الكريم والحديث والإجماع) وأن استمرار هذه النظم منوط بقوة إجماع الأمة في حالة عدم تبيانها أو وضوحها في المصدرين الرئيسيين، اللذين هما عماد الشريعة الإسلامية (القرآن الكريم والسنة). فالخلافة تعد أساس للنظام السياسي الإسلامي ومظهرا لسيادة الشريعة الإسلامية وسلطانها، فقد رأى الفقهاء أن يضعوا أسسا شرعية للنظم السياسية والإدارية المختلفة. [٢] كما أن الدافع الذي دفع الماوردي أيضا إلى وضع نظريته في الأحكام، إنما تتعلق بالصراع الفكري الحاد الذي ساد الدولة الإسلامية خلال القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، والصورة المتردية التي أصبحت عليها الخلافة العباسية آنذاك، والتي يرجعها الماوردي إلى الواقع السياسي المضطرب، الذي أفقد الوجود البويهي في الحكم السلطة الشرعية التي تقوم عليها الخلافة العباسية كل مبرراتها، وأفقد شخص الخليفة كل سلطة فعلية في الوقت الذي يرتكب فيه البويهيون كل الجرائم باسم الخليفة، باعتبار أن الخلافة من الناحية المبدئية هي

---

(١) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ن ٤٥٠هـ) ببغداد.

(٢) اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية (١٣٢-٤٤٧هـ) ط٢ ١٩٨٦

الوجود السياسي الوحيد من وجهة النظر الإسلامية.

إن نظرية الخلافة التي وضعها الماوردي احتلت مكانا كبيرا في البناء الفكري السياسي الإسلامي، لأنها كونت قاعدة فقهية، جعلت فيه للتشريع العملي السبق على الجدال الفكري، الذي وجد عند الفرق الإسلامية حيث وضحت البنية الحقيقية للخلافة كمؤسسة دينية سياسية. سار عليه الفكر السياسي الإسلامي طيلة هذه العصور وفي هذه الاتجاه وأن ما جاء به ابن خلدون بنظريته في (الدولة والعصبية) إنما هو نتيجة للتطور الذي عرفه الفكر السياسي الأشعري، وما صحبه من مرحلة جديدة من الصياغة على يد الغزالي، وبقي محتفظا ببنائه في الأزمنة اللاحقة[1].

وحول الاختلاف بين التطور للنظرة العامة لمفهوم الخلافة وبين تصور الأمامية للمفهوم نفسه، ظهرت نظريتين سياسيتين مختلفتين، وتصورين متناقضين للتاريخ، وكل تصور للشرعية (شرعية الخلافة) هو أساس هذا الاختلاف، تصور يقضي بوجود الإمام الذي يملك القدرة على إدراك ما يوحي به باطن القول لا ظاهره فحسب، فيوجه الناس إلى العمل بموجب معرفته وعصمته. وتصور يقضي بوجود الفقهاء الذين ينكرون القول بالباطن ويأخذون بالتأويل الذي يفترض العلم، والاجتهاد لا العصمة وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس أو كما يجهلون، ليس له قدسية إلا أن كفايته وأخلاقه جعلت الناس يختارونه أو أنه تلقى الخلافة من قبله. ليس يتلقى وحيا، وليس له سلطة روحية، وإذا انحرف وخالف القرآن والسنة فلا طاعة له على الناس، إذ (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق). وليس له أن يشرع إلا في حدود القوانين الإسلامية وإلا تشريعة بالمل[2] وللإمام حقوق على الفرد والأمة: الطاعة والنصرة استنادا إلى خطبة أبي بكر عند توليه الخلافة بقوله «أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم»[3].

ولما برز الخوارج على مسرح الأحداث السياسية في الدولة الإسلامية أثناء النزاع بين علي ومعاوية، صاغوا نظريتهم في الإمامة فيما ذكره ابن الجوزي بقوله: (ومن رأي الخوارج

---

(١) سعيد بنسعيد: دولة الخلافة ص١٦٨.

(٢) أمين: ضحى الإسلام ج٣ ص٢٢٠

(٣) الطبري ج٣ ص٢٠٣ ومن التام السيرة ج٤ ص٣١١.

أن لا تختص الإمامة بشخص إلا أن يجتمع فيه العلم والزهد، فاذا اجتمعا كان إماما ولو كان نبطيا[1] محتجين بالآية الكريمة ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وخلاصة آرائهم: إن الأمامة لا تقوم إلا بانتخاب حر صحيح تقوم به عامة المسلمين وجوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش، وهم يرون الخروج على الإمام إذا خالف الكتاب والسنة حقا وواجبا، وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله، ومن خرج على الإمام المنتخب إذا لم يتغير حالة نصب القتال معه، [2] ويطلب من الإمام خضوعا تاما لله واتباعا دقيقا لأوامر الشرع وهم يرون وجوب طاعة الإمام الذي اختاروه والخروج للقتال معه، كما لم يجوزوا للإمام المختار أن يتنازل أو يحكم في أمر الخلافة ولذلك قالوا للإمام علي: لما حكمت الرجال؟ ولا حكم إلا لله). وقد كذبوا على علي ﷺ لأنهم هم الذين حملوه على التحكيم ثم فارقوه بعد التحكيم ثم فارقوه بعد التحكيم.

وقد حدد (المعتزلة) وهم الفريق الآخر من الكتل الإسلامية الأصول في تنصيب الإمام وقالوا: إن الإمامة تقوم على (الاختيار والبيعة) ورفضوا (النص) و(الوصية) مخالفين بذلك الأمامية، كما خالفوا (المرجئة) الذين أجازوا أمامه (المتغلب) على السلطة والمغتصب للإمامة[3] وهم يرون أن أسلوب (الاختيار) يتفق مع اختلاف وتطور الأمة مع تطور الأزمنة، وأن كل ذلك أنها يتحدد بالاجتهاد، أي ان الاختيار متروك إلى الفعل البشري، وما تقتضيه مصالح الناس[4] ومن هذا المنطلق تدخل عملية الاختيار للإمام كبعد سياسي من أبعاد الحرية والاختيار عند المعتزلة. وتمشيا مع الطابع السياسي لمنصب الإمام. رأي المعتزلة جواز عزله إذا أخل بشرط من الشروط المطلوب توافرها فيه، لأن منصب الإمام يستند إلى رضا المحكومين، وأنه حتى بعد بيعته يظل استناده بجماعة المسلمين لا إلى قوة غيبية أو عصبية قبلية أو أسرية، فالإمام يستشير أصحابه فيما يفعله ليعرف الصواب من الرأي[5] كما كان يفعل رسول الله ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

---

(١) ابن الجوزي: تلبيس ابليس ص٩٦

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص١١٤ وما بعدها.

(٣) حمد عمار: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ص١٩٠.

(٤) نفس المصدر السابق ص١٩٤

(٥) الهمداني: المعنى المفتي في أبواب التوحيد والعدل ج١٥ ص٢٥٢

وانطلاقا من هذه النظرية رفض المعتزلة مبدأ (العصمة) عند الإمام، لأنهم يعتقدون بجواز خطأه، ويكون هناك من ينبهه ويقومه وهم الأمة. لذلك فقد سمى المعتزلة الخليفة أو الإمام باسم (الوكيل عن الأمة) والوكيل لا يأتي إلا بعد موافقة موكله[1]. وبذلك تدخل عملية الاختيار للإمام كبعد سياسي من أبعاد الحرية والاختيار عند المعتزلة.

وخلاصة القول: إن التفكير بمسألة الحكم لم تظهر إلا بعد وفاة النبي ﷺ حيث واجه المسلمون وصحابة الرسول رضي الله عنهم مشكلة من أصعب المشاكل، وهي من سيخلف النبي ﷺ؟ فالمهاجرون الأولون نادوا بوجوب حصر الخلافة في قريش محتجين بقول النبي ﷺ «والأئمة من قريش» و «قدموا قريشا ولا تقدموها» [2] في حين أن كلمة (إمام) و (الأئمة) الواردة في هذا الحديث لم تعرف بلغة ذلك العهد كعلم على خليفة النبي ﷺ بل هو اصطلاح على إمام الصلاة فحسب، وهذا بدوره يدل على عدم وجود نصوص تفيد بتحديد الخلافة في قبيلة أو بيت أو أسرة[3]. كما عبر عن هذا الاتجاه أيضا حديث عمر بن الخطاب ﷺ في اجتماع السقيفة مع الأنصار بقوله لهم «والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورها منهم... من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته... »[4].

ويبدو أن هذا الاتجاه يرجع إلى عصبية قريش وقوتها في تلك الفترة، في حين نجد أن الأمامية أرادت حصر الإمامة في علي وأولاده رضي الله عنهم حيث قالوا: «أن النبي ﷺ نص عليه وأوصى في حياته» [5] في الوقت الذي لم يرد عند غيرهم أن عليا ﷺ ذكر نصا يفيد أن الرسول ﷺ عينه للخلافة من بعده، ولو كان لديه نص وذكره، لما بقي المهاجرون والأنصار على رأيهم ولبايعوه[6]، ولا يعقل أن ينكر الصحابة عليه هذا العهد.

---

(١) الهمداني ج٢٠ ص٥٢

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٦.

(٣) بخيت: عصر الخلفاء الراشدين ص٥١ وما بعدها.

(٤) الطبري: تاريخ ج٣ ص٢٠٩، ابن الجوزي: مناقب عمر بن الخطاب ص٣٤.

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص١٤٦

(٦) أمين: فجر الإسلام ص٣٢٦.

في حين نجد أن الخوارج أكدوا على الانتخاب الحر المباشر، ورفضوا حصر الإمامة في قبيلة أو أسرة، وجوزوا أن تكون الإمامة في غير قريش[١]. كما جوز بعضهم إمامة المرأة منهم، إذا قامت بأمورهم وخرجت على مخاليفهم[٢]. وحددوا صفات الإمام فقالوا: «لا تختص الإمامة بشخص إلا أن يجتمع فيه العلم والزهد فإذا اجتمعا كان إماما ولو كان نبطيا» [٣].

كذلك أكد المعتزلة على (الاختيار والبيعة) للإمام، ورفضوا (النص) و(الوصية)[٤] لأنهم رأوا في القول (بالوصية) ما يسلب الحرية الإنسانية، واختيار فعاليتها في قدرة الإنسان على اختيار السلطة العليا في المجتمع الذي يعيش فيه[٥]. وهم يتفقون مع الخوارج في جواز إمامه غير القرشي في حالة عدم وجود قرشي تتوافر فيه شروط الإمامة[٦] لأنهم يعتقدون أن أسلوب الاختيار للإمام يتفق مع اختلاف وتطور الأمة مع تطور الأزمنة والعصور، ويبدو أن هناك عوامل كان لها أثرها في ترك الرسول ﷺ للأمة الأسلامية باتخاذ الأسلوب الملائم الذي يتفق وواقعها وظروفها، لإيمانه بتطور الأنظمة السياسية للأمة خلال مسيرتها التاريخية الطويلة. وربما كان لقوة الشعور القبلي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في أشكال حياته السياسية بل كان يترك لأعضاء القبيلة أمر انتقاء أميرهم[٧].

ويعلل البعض الآخر ذلك بقوله: «إن الرسول ﷺ لم يتسلم سلطته السياسية بصفته الشخصية، وإنما بصفته رسول الله... ولما كانت صفة الرسالة أو النبوة قد انتهت بوفاته لأنه خاتم الأنبياء، وأن النبوة لا تورث، فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الأخرى غير قابلة للوراثة أو التصرف، وتعود بوفاة صاحبها إلى أصحابها الأصليين وهم أبناء الأمة

---

(١) الشهر ستاني: الملل والنحل ج١ ص١١٤ وما بعدها

(٢) نفس المصدر السابق والصحيفة

(٣) ابن الجوزي: تلبيس ابليس ص٩٦

(٤) محمد عمار: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية ص١٩٤.

(٥) نفس المصدر السابق ص١٨٢

(٦) الأشعري: مقالات الإسلاميين ج١ ص٤٦١

(٧) ارنولد: الخلافة ص١٤.

ليختاروا من يولونه أمورهم السياسية، طبقا لما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد في هذا المجال»[1]، ويؤيد ذلك ما أكده القرآن الكريم ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وهكذا كانت الخلافة مصدرا مهما من مصادر الفكر السياسي عند المسلمين. كثر حولها الخلاف والاختلاف.. وتعددت على قاعدتها الفرق الإسلامية. فساهمت في تطور الفكر السياسي عند المسلمين بما غذته من آراء وأفكار، وتركت آثاراً كبيرة ساهمت في سير الأحداث التي وقعت لاحقاً في التاريخ الإسلامي القديم والحديث.

(١) هاشم الملاح: أساليب تداول السلطة مقاله بمجلة آداب الرافدين العدد ٧ لسنة ١٩٧٦

وفيما يلي موازنة عامة حول تطور الخلافة وفق الجدول التالي

الخلافة الراشدة ١٠-٤٠هـ	الخلافة الأموية ٤٠-١٣٢هـ	الخلافة العباسية	
		العصر الأول ١٣٢-٢٣٢/ ٢٤٧هـ	العصر الثاني ٢٣٢/ ٢٤٧-٦٥٦هـ
قائمة على الدين	قائمة على الدين والسياسة وأقرب إلى نظام الملك	قائمة على الدين والسياسة مع تغليب الجانب السياسي، وهي أقرب إلى نظام الملك	قائمة على السياسة والدين مع تغليب السياسة على الدين وأقرب إلى نظام الملك
قائمة على نظام الشورى	قائمة على نظام الوراثة القائمة على الشورى وولاية العهد لأكثر من واحد	قالب على نظام الوراثة وولاية العهد والنسب لرسول الله، ولاية العهد لأكثر من اثنين إلى ثلاثة	قامت على نظام الوراثة ولاية العهد لأكثر من اثنين وتعدته إلى ثلاثة
قامت على النسب القرشي دون تحديد أسرة أو قبيلة	قامت على النسب القرشي المحدد في الأموية	قامت على النسب القرشي المحدد بالعباسية	قامت على النسب القرشي العباسي المحدد
لم تعرف الوراثة ولم يطلب أحد من الخلفاء الخلافة	انحصرت الخلافة في البيت الأموي في الفرع (السفياني ثم المرواني) وانحصرت الوراثة في الأبناء أو الإخوة أقرب لاعتماد قاعدة واحدة في التوريث	- قامت على الوراثة في البيت العباسي - وولاية العهد في الأبناء أو الإخوة أو أولادهم وتقديم الصغير على الكبير عدم اعتماد قاعدة واحدة في التوريث	-قامت على الوراثة في البيت العباسي - وولاية العهد جاءت في الأبناء أو الإخوة أو أولادهم وتقديم الصغير على الكبير عدم اعتماد قاعدة واحدة في التوريث. وظهر تدخل العناصر غير العربية في ولاية العهد
سلطة الخليفة مركزية مطلقة ومقيدة بالكتاب والسنة	سلطة الخليفة مركزية مطلقة	سلطة الخليفة مركزية ومطلقة	سلطة الخليفة غير مركزية بسبب نفوذ العناصر الفارسية والتركية
عاصمتها المدينة المنورة	عاصمتها دمشق	عاصمتها بغداد/ سامراء	اعتمد أكثر من عاصمة بغداد/ سامراء/ وغيرها حسب نفوذ أمراء الاستبداد
حافظت الخلافة على وحدة الدولة الإسلامية	حافظت الخلافة على وحدة الدولة الإسلامية	حافظت الخلافة على وحدة الدولة الإسلامية مع ظهور بداية الانقسام وتعدد الدول الإسلامية	لم تحافظ الخلافة على وحدة الدولة بل ظهرت دويلات مستقلة وشبه مستقلة على حساب دولة الخلافة

الخلافة الراشدة ١٠-٤٠هـ	الخلافة الأموية ٤٠-١٣٢هـ	الخلافة العباسية	
		العصر الأول ١٣٢-٢٣٢/ ٢٤٧هـ	العصر الثاني ٢٣٢/ ٢٤٧-٦٥٦هـ
ظهرت في عهدها قوة مركز الخلافة وسلطان الخلفاء	ظهرت في عهدها قوة سلطة الخليفة ومركزية الخلافة	ظهرت في عهدها قوة سلطة الخليفة ومركزية الخلافة	ظهرت في عهدها ضعف مركز الخلافة. وضعف الخلفاء بسبب سيطرة العناصر غير العربية على الخلافة خاصة العنصر الفارسي والتركي بحيث لم يبقى للخليفة إلا المظهر الديني لا مركزية
اعتمدت في الإدارة والحكم على العنصر العربي	اعتمدت في الإدارة والحكم على العنصر العربي حتى وصفت بالعصبية	اعتمدت في الحكم والإدارة على العنصر الفارسي حتى وصفت بأنها (أعجمية)	اعتمدت في الحكم والإدارة على عناصر غير عربية تناوبت بين (الفارسية/ التركية في ظل أبعاد العنصر العربي عن مسرح السياسة باستثناء الخلافة
طابع الحكم اعتماداً على الشورى	طابع ملكي وراثي شوري إسلامي - نادي معاوية بمبدأ الجبر القياسي القائم على موافقة الأحداث لمشيئة الله وإرادته - نادى بولاية عثمان - نادى بالإيلاف الإلهي لقول معاوية «قد أمرني الله عليكم» - نقل مركز الخلافة من المدينة إلى دمشق ليوافق البيئة وموقع العاصمة من العالم الإسلامي	طابع ملكي وراثي شوري إسلامي	طابع ملكي وراثي شوري إسلامي

الوزارة

أصل الوزارة واشتقاقها:

الوزارة لغة: اختلف اللغويون والمفسرون والكتاب في اشتقاق لفظ الوزارة على أقوال: فقيل أنه مأخوذ من (الوزر)[1] (بكسر الواو وسكون الزاي) كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[الشرح: ٢، ٣] وهو بمعنى الثقل لأن الوزير يحمل عن الحكومة أعباء الدولة ويقوم بإدارة شؤونها فيقول ابن خلدون: (أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا فلا بد من الاستعانة بابناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنه فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده)[2] وقيل أنه مأخوذ من (الوزر)[3] (بفتح الواو والزاي) وهو الملجأ والمعتصم كما في قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾[القيامة: ١١، ١٢] لأن الخليفة أو السلطان يلجأ إلى رأيه وتدبيره ومعونته عند نزول الشدائد ووقوع النوائب وقيل: إن اللفظ مشتق من (الأزر)[4] وهو الظهر كقوله تعالى على لسان موسى ﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[طه: ٢٩-٣٢]، وقيل: قد تكون الكلمة مأخوذة من (المؤازرة)[5] وهي المعاونة لأن الوزير عون الملك يحمل ثقلة ويعينه برأيه ويحمل عنه أعباء السياسة[6].

---

(١) ابن منظور لسان العرب مادة (وزر) معجم متن اللغة المعجم الوسيط، تفسير الطبري ج١٦ ص٥٤٠ الفناري رسالة في الوزارة محفوظة ورقة ٣.

(٢) ابن خلدون المقدمة ص٢٠٨.

(٣) الفخري ص١٢١، الماوردي: أدب الوزير ص٩، الفيروز آبادي، القاموس المحيط الحمودي رسالة في الوزارة (مخطوطة) ورقة ٦ظ، أحمد الدمنهوري نفح الوزير (مخطوطة ورق ٢ظ محمد السهر وردي تحرير الأحكام (ومخطوطة) ورقة ٢٢ والفناري: رسالة في الوزارة ورقة ٣ و.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، فريد وجدي دائرة المعارف ص٧٧٤، معجم متن اللغة، القاموس المحيط – القاموس الوسيط.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٣.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج٥ ص٤٤٨، دائرة المعارف البريطانية (مادة وزير) ج٣٣ ص٢٢٨. المقدمة: ابن خلدون ج١ ص٤١٩.

الوزارة اصطلاحا: ذكر: إن اللفظ فارسي معرب وأصله من (الزور)[1]. وهو عند الفرس اسم للشدة والقوة فاقتبس منهم وعُرب. وكان يطلق الفرس الساسانيين على الوزير لقب (بزرك خرم دار) أو (برج خرمدار) ومعناه (كبير عمال الدولة) أو رئيس رؤسائها ووزير وزرائها[2] كما كان اليونان والرومان يطلقون اسم (وزير الملك) على من يدبر أمره ويرجع الملك إلى رأيه وتدبيره[3] وقد ذهب بعض المستشرقين إلى القول إلى أن أصل كلمة وزير فهلوية (أي فارسية قديمة) وهي مشتقة من لفظ (فيشيرا) **Vi-Chira** التي تعني الأمر أو التقرير أو القاضي أو الحكم[4] ولكن بين القضاء والوزارة فرقا واضحا من حيث طبيعة العمل والمسؤولية، مما يحملنا على عدم موافقة المستشرقين على رأيهم في اشتقاق هذا اللفظ من هذا الأصل الفارسي القديم[5].

وهناك نص آرامي يمكن اعتباره وسيطا بين العربية والفارسية جاء بلفظ **Gaziroat** وتعني (الوزير). كما أخذ المؤرخون من هذا النص العبارة. السريانية (راس الكزبر) وأطلقوها على (رئيس الشرطة) لكن وظيفة (الكزبر) لا تعني في الحقيقة أكثر من مساعد لرئيس القرية[6] ونرى أنه لا توجد أية صلة بين هذه الشخصية وبين الوزير الذي كان يتولى شؤون الوزارة في الدولة الفارسية، كما أن مفهوم (الوزير) في اللغات الفهلوية والعبرية والآرامية يختلف في خصائصه اختلافا كليا عن مفهوم الوزير في العصر العباسي[7] ويتضح مما سبق ذكره أن لفظة وزير (عربية) وقد وردت في القرآن على لسان موسى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾[طه: ٢٩].

ومع أن اللفظة قرآنية إلا أن معناها السياسي مستحدث في الإسلام، وقد عُرف هذا اللفظ قديما عند بني إسرائيل وقدماء المصريين قبل الفرس الفهلويين[8]. وظهر منصب

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٥ ص٤٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ ج١ ص ٨٦٩، الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٨٥.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٤.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج٣ ص١٧٢.

(٥) صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ص٢٩٤.

(٦) **Sourdel, Apte, Clt, p45**

(٧) المصدر السابق ص٤٨.

(٨) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٩٧.

الوزارة عند اللخميين في الحيرة –كما ذكرنا سابقا– لكنه كان على نطاق محدود مما دعا اللغويين العرب إلى الإجماع بأن لفظة وزير عربية وأنها ليست من مستحدثات العصر العباسي الأول، لأن هذه اللفظة وردت في القرآن، وفي السقيفة حيث خاطب أبو بكر الصديق الأنصار بقوله (منا الأمراء ومنكم الوزراء) [١] ويقول ابن خلدون (كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيسر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيرا) [٢]. هذا ومع أن اللفظة قرآنية إلا أنها تعد مستحدثة بمعناها السياسي في الإسلام.

وقد استعملت هذه اللفظة أيضا في العصر الأموي حيث يقول ابن الأثير (إن زيادا كان يسمى وزير معاوية) [٣] إلا أنها لم تستعمل بمفهومها الوظيفي وسلطاتها المعروفة المحددة إلا في العصر العباسي الأول. هذا وقد اتفق المفسرون واللغويون والمؤرخون على أن معنى الوزارة في الإسلام لم يخرج عن معنى (الملجأ، المعاونة، المشاورة).

الوزارة عند الأمم القديمة: تعد وظيفة الوزير من الناحية التاريخية وظيفة قديمة، وسابقة للعصر الإسلامي. فقد عرفها قدماء المصريين، وبنو إسرائيل وأمة الفرس. فحمل يوسف عليه السلام لقب العزيز. وهذا اللقب يمكن اعتباره مرادفا للقب (الوزير) كما كان يعد آصف بن برمنة بمثابة الوزير لسليمان بن داود عليهم السلام[٤].

وكان ملوك العرب قبل الإسلام في اليمن والحيرة والشام يطلقون على من يؤازرهم في أعباء الملك بـ (الراهن) لأنه مرتهن بالتدبير، وأطلقوا عليه أيضا اسم (الزعيم) لأنه زعيم بصواب الرأي. وسموه أيضا (الكافي) لأنه يكفي الملك مهمات الأمور ولقبوه أحيانا (الكامل) لأنه يجب أن يكون كامل الفضائل[٥] وكان هارون وزيرا لموسى، فقد دعا موسى عليه السلام ربه تعالى بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾[طه: ٢٩، ٣٠]. وقال تعالى مستجيبا لموسى عليه السلام: ﴿ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٣٥]، أي أن الله تعالى شد عضد موسى بأخيه هارون عليه السلام ليعينه على تحمل أعباء النبوة.

---

(١) أحمد الحموي: مجموع الرسائل (مخطوطة) ورقة ٢٢ظ، ابن منظور: لسان العرب ابن الأثير الكامل ج٢، ص١٢٣.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص١٩٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٤٤.

(٤) أحمد الحموي: مجموعة رسائل (مخطوطة) ورقة ٢٢و.

(٥) محمد أحمد: برانق الوزراء العباسيون ص٤.

وأورد صاحب كتاب منهاج الوزارة قوله: فإن (أعلى المناصب وأفضل الرتب النبوة ثم الخلافة ثم الوزارة وإن جميع الملوك والسلاطين يحتاجون إلى الوزراء حتى الأنبياء والرسل مع علو شأنهم وسمو سلطانهم فإنهم يحتاجون إليهم)[1].

أدلة وجوب الوزارة:

(١) جاء في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾[طه: ٢٩].

(٢) في السنة: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيرا، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه» رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم.

عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحصنه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله» رواه البخاري.

(٣) السنة الفعلية: القدوة فيها رسول الله ﷺ، حيث عمل الصحابة إلى جانبه كمستشارين ومعاونين وكذلك عمل الصحابة إلى جانب الخلفاء كمستشارين ومعاونين بمعنى أنهم مارسوا الاختصاص دون أن يتلقبوا بلقب وزراء.

(٤) تقرير العلماء والفقهاء: قرر ابن خلدون: (إن السلطان بنفسه ضعيف يحمل أمرا ثقيلا... فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه).

تطور الوزارة:

الوزارة في عهد الرسول ﷺ: شهد عهده قيام الصحابة بدور الاستشارة والإعانة في إدارة شؤون الدولة المختلفة، حيث قاموا بمهام الوزراء وإن لم يتلقبوا بهذا اللقب. ومن أهم المهام التي قاموا بها كتابة ما نزل به الوحي. ومن كتابه علي وعثمان، كذلك عمل خالد بن سعيد العاص ومعاوية بن أبي سفيان بكتابة بعض الكتب التي ترتبط بمصالح الدولة، وقام المغيرة بن شعبة والحسن بن نمر يكتبان الكتب التي تختص بالمداينات والعهود

---

(١) أحمد محمود الجيلي: مناهج الوزراء في النصيحة (مخطوط) ورقة ٨ «والوزير حبا للملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه وتدبيره». الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٠.

والمعاملات. وتولى زيد بن ثابت الكتابة إلى الملوك إلى جانب كتابة ما نزل به الوحي. وعين الرسول حنظلة بن الربيع كاتبا احتياطيا ينوب عن كل كاتب إذ غاب عن عمله [١]. واختص صاحبه أبي بكر ﷺ بخصوصيات الدولة حتى لقبه القياصرة والأكاسرة بوزير رسول الله ﷺ [٢].

وحول ذلك يذكر الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس: أن رسول الله قال (إن الله أيدني بأربعة وزراء اثنين من أهل السماء جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر)[٣] وبهذا يمكن القول أن الصحابة قاموا بمهام الوزراء دون أن يطلق عليهم هذا الاسم، منعا لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام)[٤]. وقد غلب على عمل الصحابة لقب مستشار أو كاتب أكثر من لقب وزير.

الوزارة في عهد الخلافة الراشدة: ظهرت مهام الوزارة في صدر الإسلام بصورة غير مباشرة واستمر دور الصحابة بين الاستشارة والكتابة والمعاونة للخلفاء. فكان عمر بن الخطاب بمثابة وزير لأبي بكر، بينما كان عثمان وعلي وزيري عمر وأصبح مروان بن الحكم بمثابة الوزير في خلافة عثمان[٥] كذلك عرفت لفظة الوزارة في عهد الصديق بقوله في السقيفة (نحن الأمراء وأنتم الوزراء) وعلى ذلك يمكن القول أن الخليفة في صدر الإسلام كان لا يستقل بالسلطة وتصريف الأعمال، شأنه في ذلك شأن النبي يستعين في إدارة أمور الدولة بالصحابة وأعيان المدينة ورؤساء القبائل. من خلال اجتماعه بهم في مسجد المدينة بحيث لا يقطع الخليفة أمرا دون استشارتهم، وهم بذلك نزلوا منزلة الوزراء وإن لم يطلق عليه هذا اللقب[٦]. مع أن الخليفة عمر بن الخطاب حاول تحديد اختصاصها بقوله في كتابه إلى أهل الكوفة «إني بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرا، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا».

الوزارة في عهد الأمويين: لما تولى بنو أمية الخلافة اتسعت دولتهم، فاحتاجوا

---

(١) برانق: الوزراء العباسيون ص٣٣.

(٢) ابن خلدون: ج٢/ ٦٠٤، السيوطي تاريخ الخلفاء ص٤١.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص١٢٥، أحمد الجيلي: منهاج الوزراء ورقة ٩هـ أسلم ابن سهل الرزاز الواسطي، تاريخ واسط من ٢٠٦، تحقيق كوركيس عواد مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٧.

(٤) ابن المقفع: التبر المسبوك (مخطوط) ورقة ٤ ابن خلدون المقدمة: ج١ ص٤٢٠.

(٥) الشيخ علي بن مجد الدين (مخطوط بالفارسية) تحفة الوزراء في المواعظ ورقة ٢٦ والسيوطي.

(٦) اليوزبكي: الوزارة في العصر العباسي ص٢١.

إلى من يستشيرونهم ويستعينون بهم في أمور الدولة السياسية والإدارية، فاتخذوا بعض المقربين إليهم من الأمراء، والولاة كوزراء نظروا لهم في شؤون الحكم والإدارة والشؤون المالية وديوان الجند[1]. ومنحوهم صلاحيات واختصاصات واسعة كانت أقرب إلى اختصاص الوزارة، لكنها في الحقيقة كانت أقرب للكتابة من الوزارة. ومع هذا التقدم لم تظهر الوزارة في العصر الأموي بالصورة التي ظهرت عليها في العصر العباسي، لأن منصب هؤلاء انحصر في الكتابة أكثر مع ارتفاع شأن متوليها حيث كان يطلق على الكاتب (أمين سر الخليفة وصاحب ديوانه وسجلاته)[2] فكان الكاتب أبرز الموظفين في العصر الأموي، لتعدد صلاحياته الأقرب للوزارة لأنه يعاون الخليفة في شؤون الدولة ويحفظ سره[3] فكان لعلو شأنه في مأمن من الأخطار والمحاسبة التي هددت متولي الوزارة في العصر العباسي.

ولما كان الكاتب في عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين، يتولى كتابة الرسائل والحسابات وضبط دواوين الدولة ومراسلاتها. أصبح في العصر الأموي يتولى اختصاصات أوسع شملت أسرار الدولة وإنشاء رسائلها واختص أهل الذمة بوظيفة الإشراف على الدواوين لأن كتابها في مطلع العصر الأموي كانوا يكتبون بلغات مختلفة، حتى عربت الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان[4]. وعلى هذا ارتفعت أهمية الكاتب. وحدد لمن يتولاها شروطا أهمها: أن يكون ذا ثقافة واسعة في اللغة العربية وآدابها. مطلعا على سير الأولين وأخبار الأقدمين وأحوالهم وسياساتهم وقد نبغ في العهد الأموي جماعة من الكتاب. أطلق عليهم لقب (أمناء السر) نذكر منهم، أبا العلاء سالم بن عبد الله كاتب الخليفتين هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وهو أستاذ عبد الحميد الكاتب شيخ الكتاب في العصر الأموي ومع ارتفاع شأن الكتابة والكاتب فلم يطلق خلفاء بني أمية على أمين سرهم لقب الوزير، بل غلب عليهم لقب كاتب أو مشير. وعليه يمكن القول أن الوزارة لم تظهر رسميا

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج١ ص٤٢٢.

(٢) جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ص١٥٨.

ويقول المسعودي: (وكانت بني أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة، وتقول الوزير مشتق من الوزارة والخليفة أجل من أن يحتاج إلى المؤازرة) التنبيه والأشراف ص٢٩٤.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ ص٤٥٢

(٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص١٨٤

إلا في عهد بني العباس[1]. لأنها في عهد الأمويين عرفت في الاختصاص دون التسمية، حتى أن البعض عرف الحجابة بمعنى الوزارة.

ويشير المسعودي إلى هذا بقوله: كانت ملوك بني أمية تنكر أن تخاطب كاتبا لها بالوزارة وتقول: الوزير مشتق من المؤازرة، والخليفة أعلى من أن يحتاج إلى المؤازرة[2] ويذكر المصري في كتابه مسالك الإبصار (لم تكن للوزارة رتبة تعرف مدة بني أمية وردحا من دولة السفاح، بل كان كل من أعان الخلفاء على أمرهم يقال له وزير بمعنى أنه مؤازر له لا أنه متولي رتبة خاصة يجري لها قوانين وتنظم بها دواوين[3] ولا يستثنى من هذا إلا زياد بن أبيه إذ لقبه بعض الناس بالوزير في عهد معاوية بن أبي سفيان)[4]. كذلك لقب روح بن زنباح وزيرا لعبد الملك بن مروان.

الوزارة في عهد العباسيين: لما قامت الخلافة العباسية واتسعت دواوينها وتشعبت مصالحها وشؤونها، عظم شأن الوزير (وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعينت مرتبته في الدولة وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقابة وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته في قسم الأعطيات بين الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان. ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الضياع والشياع ورفع إليه فصار اسم الوزير جامعا لخطتي السيف والقلم وسائر معاني الوزارة والمعاونة)[5].

وتحدث صاحب الفخري عن الوزارة في العصر العباسي الأول فقال: (والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس فأما قبل ذلك لم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية قادا حدث أمر استشار ذوي الحجى والآراء الصائبة فكل منهم يجري مجرى وزير) فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين

---

(١) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة، ص٣٢.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٤

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص١٢٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٣ ص٢٤٤-٢٤٥ اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص٢٥٩.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ج١ ص٤٢٣.

الوزارة وسمي الوزير وزيرا، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا[١] وذكر ابن خلكان أنه (لم يكن قبل أبي سلمة الخلال وزير أبي العباس السفاح من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها)[٢].

في هذا النص يتضح أن الخليفة أبو العباس هو أول خليفة استحدث منصب الوزارة، وولى بعض الفرس هذا المنصب تقديرا لجهودهم في معاونة بني العباس على إقامة دولتهم[٣]. وعلى هذا المنهج استمر نظام الوزارة في الدولة العباسية – في العصر العباسي الثاني مع اختلاف شكل الوزارة وسلطة الوزراء

مظاهر الوزارة في عهد الخلافة العباسية: اقتبس العباسيون نظام الوزارة بالمعنى السياسي من الفرس. وقد جعلوا جل وزرائهم من هذا العنصر. ومرجع استئثار الفرس بهذا المنصب خاصة في العصر العباسي الأول: يعود لمعرفتهم القديمة لوظيفة الوزارة والكتابة، وإلى تأثيرات أخرى منها أن العديد من أمهات أو زوجات الخلفاء كن من العنصر الفارسي، ثم مشاركة الفرس للعباسيين في مرحلة الدعوة، وأول من تلقب في الإسلام بلقب وزير هو (أبو سلمة الخلال) الذي منح لقب وزير آل محمد لإخلاصه للدعوة والخلافة. وعلى هذا قرر العباسيون اختصاص الوزارة وقوانينها، واعتبروا الوزير بمثابة الساعد الأيمن للخليفة واعتبرت الوزارة أعلى المناصب وأهمها بعد الخلافة ولهذا ميز الوزراء بلباس خاص (دراعة، كرسي) ومجلسه إلى جانب مجلس الخليفة)، كذلك اتسعت اختصاصات الوزراء حتى شملت تعيين الولاة والعمال وعزلهم، والأشراف كذلك على الأمور المدنية والعسكرية والسياسية. لكن مفهوم الوزارة تراجع في العصر العباسي الثاني خاصة بعد ظهور منصب أمير الأمراء الذي أصبح متوليه صاحب السلطة العليا في دولة الخلافة.

أما أهم وأول وزراء العباسية لأول خليفة عباسي هو: جعفر بن سليمان (أبو سلمة الخلال) وقد استوزره السفاح وفوض إليه الأمور وسلم إليه الدواوين ولُقبه بوزير آل محمد[٤].

---

(١) ابن طباطبا: الفخري ص١٢١

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص١٢٢

(٣) Sourdel. P65

(٤) انظر القلقشندي: صبح الأعشى ج١/ ٩٣.

صفات الوزير: اتفق غالبية الكتاب والمؤرخين على تحديد الصفات الواجبة في الوزير. فمنهم من رفعها إلى مستوى شروط الخلافة ما عدا النسب القرشي. ومنهم من حددها بصفات مميزة ذكر منهم:

الماوردي[١]: حددها في: جمع خصال الخير، العفة، الاستقامة، صادق صاحب تجربة، أمين، حليم، عالم، ذكي وصبور، صاحب لباقة، قليل الطمع، عدل بين الناس، ذكي وصاحب فطنة، بعيدا عن الهوى.

الفخري[٢]: جعل الوزير وسيط بين الملك ورعيته لذلك يجب أن يكون طبعه يناسب طباع الملوك. وتتوفر فيه الأمانة والحكمة والدهاء والحزم والحلم والوقار.

صاحب الآثار[٣]: جمع صفات الوزارة في النزاهة وعزة النفس وسداد الرأي والفهم والعلم بكل الأمور، صاحب خبرة، أمين مقتصد.

المسعودي[٤]: حدد صفات الوزير. بأنه صاحب علم وكتابة، أمين، صدوق، حازم، صاحب رأي.

مراسم وامتيازات الوزراء: اتصفت مراسم الوزراء بالفخامة والعظمة بسبب أهمية هذا المنصب، حيث يتم تعيين الوزير بمرسوم مكتوب. وبعد التكليف يحضر الوزير إلى دار الخلافة ويقف أمام الخليفة مرتديا الخلعة السلطانية (زي الوزارة). ثم يعود إلى دار الوزارة في موكب مهيب، وفيها يتقبل التهاني بالتعيين وبقراءة مرسوم تقليده للوزارة[٥]. ولأهمية هذا المنصب فقد تمتع الوزير بامتيازات منها:

هدايا تقدم له بعد المراسم، ثم تعد له دار خاصة للوزارة ولمسكنه ويقوم على حمايته عدد من الحراس لحماية الوزير والوثائق. كذلك يعين للوزير نائب في حال غيابه. وحول أعطيات الوزراء فقد تباينت مرتبات الوزراء بين الزيادة والنقصان، تبعا لاختلاف

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢١، ٢٦-٢٧، أبو يعلي: الأحكام السلطانية ص١٥.

(٢) الفخري: الآداب السلطانية ص١٢٠-١٢١.

(٣) الحسن بن عبد الله: آثار الأول ١٢٢-١٢٤.

(٤) المسعودي: التنبيه والأشراف ص٢٩٤.

(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٢٩٤. الصابئ: رسوم دار الخلافة ص ١٣٠. آدم: الحضارة الإسلامية ج١/ ١٥٠ اليوزبكي: الوزارة والكتاب ص٣١.

شخصيات الخلفاء والوزراء والعصور وأيضا تعددت ألقاب التفخيم للوزراء. منها (وزير الوزراء) وزير آل محمد، السلطان[١] وتعددت أيضا صلاحيات الوزير أعلاها التحدث باسم الخليفة أمام الوفود أو السفراء[٢] كذلك تعددت وتباينت الامتيازات للوزراء، على اعتبار الوزير الشخص الثاني في الأهمية بعد الخليفة في المرتبة، لذلك تعرض بعض الوزراء لنهايات مأساوية، خاصة إذا حدث تصادم في الصلاحيات بين الخليفة والوزير[٣].

وأما اختصاصات الوزراء فقد تباينت صعودا وهبوطا تبعا لشخصية الخليفة والوزير والعصر[٤]. حيث بدأت في أوائل العهد العباسي محدودة ومرتبطة بالخليفة مباشرة، على الرغم من تعدد صلاحياته حتى وصلت حد الإشراف على جميع الدواوين المركزية في الدولة[٥]. وعلى ذلك يعد عهد الخليفة المهدي عهد أبهة الوزارة، وكذلك الخليفة الهادي مع أنه كان يتابع الأمور بنفسه[٦]. ثم علت أهمية الوزارة في عهد الخليفة الرشيد، حيث تطور نظام الوزارة واتسعت اختصاصاتها، لكن الرشيد أدرك خطورة هذا المنصب خاصة بعد محاولة البرامكة التعدي على صلاحيات الخلفاء حيث نكبهم[٧]. وفي عهد الخليفة الأمين لعب الوزراء دورا خطيرا في سياسة الدولة وتحويلها لخدمة مصالحهم الخاصة من خلال الدسائس والمؤامرات، فكانت نتيجتها مقتل الخليفة (الأمين) بسبب هذه السياسة[٨]. وفي عهد المأمون ارتفعت أهمية الوزارة واتسع اختصاصها، لكن المأمون أدرك متأخرا خطورة هذا الصنف من الوزراء فتخلص من وزيره الفضل بن سهل، وعاد الخليفة من خراسان إلى

---

(١) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص٦٠.

(٢) الصابئ: رسوم دار الخلافة ص١٣٠، القلقشندي: صبح الأعشى ج٥/ ٤٤٨، ج٩، ٤٠٣-٤٠٤.

(٣) الصابئ: رسوم دار الخلافة. القلقشندي ج٥/ ٤٤١.

(٤) الدينوري: الاختبار الطوال ص٣٦٨. صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٢٩٦. ابن الطقطقي: الفخري ص١٥٧.

(٥) الدوري: النظم الإسلامية ص٢١٩. ابن الطقطقي الفخري ص١٣٣.

(٦) ابن الطقطقي، ١٣٣، ١٣٦، الجهشياري: الوزراء ص١٤٦.الطبري: ج٦/ ٣٨٣، الدوري: العصر العباسي الأول ص١٢٣.

(٧) اليوزبكي: الوزارة العباسية ص٥٧-٥٩، الطبري ج١٠/ ٥٠-٥١. الجهيشاري. الوزراء ص١٧٧، ٢٠٤، أحمد رفاعي: عصر المأمون ص١٥٩.

(٨) اليعقوبي: تاريخ ج٣/ ١٦٦، الجهيشاري: الوزراء والكتاب ص٢٧٨، اليوزبكي: الوزارة العباسية ص١١٦.

عاصمة الخلافة بغداد وبهذا أعاد للخلافة هيبتها[1] أيضاً. تعاظمت اختصاصات الوزراء في مرحلة النفوذ التركي فكانت على حساب الخلافة والخلفاء. ثم ضعف شأن الوزير في مرحلة (إمرة الأمراء) [2] وعندما استولى البويهيون على بغداد عام ٣٣٤هـ، ضعف وتدنى صلاحيات واختصاص الخلفاء والوزراء كذلك. لهذا تعد الفترة البويهية أعظم العهود المظلمة في تاريخ الوزارة[3] لسيطرة العنصر الفارسي البويهي المطلقة على مركز الخلافة وسلطة الخلفاء.

نظرية الوزارة: تناول الماوردي في كتابه الموسوم (الأحكام السلطانية) النظم السياسية والإدارية في العصور الإسلامية من خلافة ووزارة ودواوين من وجهة النظر الإسلامية: ويصح القول أنه وضع نظرية الخلافة والوزارة بما تتفق والنظرة الإسلامية العامة.

ولما كان نظام الوزارة مرتبطا من حيث الأهمية بالخلافة. فقد عدّ في المرتبة الثانية بعدها. ولما كانت الخلافة تعد أساسا للنظام السياسي الإسلامي. فقد رأى الفقهاء أن يضعوا أسسا شرعية للنظم السياسية والإدارية المختلفة. وقد بنى الماوردي (نظرية الوزارة) على آراء من سبقه من الباحثين. وعلى تطور نظام الوزارة خلال العصور الإسلامية السابقة، فنظمها ووسع حدودها لكي يوفق في ذلك بين آرائه المستمدة من الشريعة الإسلامية وواقع الأمة الإسلامية.

وبين أيدينا كتاب آخر يحمل نفس الاسم (الأحكام السلطانية) للقاضي أبي يعلي محمد بن الحسين الحنبلي، وهو يتفق تماما في نظريته عن الخلافة والوزارة مع نظرية الماوردي مما يحملنا على الاعتقاد أن هذه النظرية مقتبسة عن الماوردي المؤلفة سنة ٤٥٠هـ، بينما توفي أبو يعلى سنة ٤٥٨هـ[4]. وأنهما كذلك بدءا بتأليف كتابيهما في نفس فترة الحكم البويهي.

نظام الوزارة: تبدأ دراستنا لنظام الوزارة كما ورد في الكتابين اللذين أشرنا إليهما،

---

(١) الجهشياري: ص٣٠٦، ٣١٢-٣١٣، ابن الأثير: الكامل ص١٠٧، اليوزبكي ص١١٨، ١٢٧-١٢٨.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري ١٧٣، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ١٦٠-١٦١، اليوزبكي ص١٣٥-١٣٦.

(٣) الفخري: ص٢٣٢، ابن الأثير: الكامل ج٧/ ١٤٧، السلوك ج١ ص٢٧. اليوزبكي. الوزارة ص٢٦٥.

(٤) اليوزبكي: الوزارة ص٩، ٢٨٠-٢٨١.

بدراسة الشروط المتوفرة في في الوزير وواجباته. ولما كانت الوزارة غير قادرة كالإمامة أن تجمع بيدها أمور الدين والدنيا لذا أصبحت سلطات الوزير قاصرة على معاونة الخليفة في الإشراف على أموال الدولة وإدارة الحكومة[1] لهذا تحدث الماوردي وأبو يعلى عن وزارتي التفويض والتنفيذ بإسهاب. والحقيقة أنه من العسير معرفة أصل العبارتين. حيث أن الماوردي وأبا يعلى وغيرهم من الفقهاء والكتاب لم يدرسوا أصلهما والظروف والدوافع التي أحاطت بهما فكلاهما يقول: إن وزير الدولة لا يخلو من أن يكون وزير تفويض أو وزير تنفيذ فإن لكل من هذين القسمين حكما يخصه ووضعا يلزمه[2].

وتقليد الوزارة جائز للخليفة من الوجهة الشرعية وذلك استنادا إلى قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩]. فإذا جاز ذلك في النبوة كان في الإمامة أجوز. لأن ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه إلا باستنابة، ونيابة وزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل وأمنع من الخلل[3] ويذكر ابن خلدون[4] في في نوعي الوزارة (... ثم جاء في الدولة العباسية بشأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة، والسلطان أخرى..) فانقسمت الوزارة حينئذ إلى: وزارة تفويض ووزارة تنفيذ.

أولاً: **وزارة التفويض**: ووزير التفويض: هو الذي يستوزره الإمام ويفوض إليه تدبير الأمور برأيه وامضائها على اجتهاده. دون الرجوع إليه (وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه) (٥).

في تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة[6] إلا (النسب القرشي) وحده، ويحتاج (الوزير) فيها إلى شرط زائد على شروط الإمامة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من

---

(١) Rosonthel: Political Thoughy in medieval Islam p47.

(٢) اليوزبكي: الوزارة ص٢٨١، ص٢٨٢.

(٣) الماوردي الأحكام ص١٢، أبو يعلى الأحكام ص١٣، السهروردي تحرير الأحكام ورقة ٢٢ظ

(٤) ابن خلدون: المقدمة ج٢-٦٠٧-٦٠٩.

(٥).ابن خلدون/ المقدمة ج٢/ ٦٠٧.

(٦) شروط الإمامة: الإيمان العلم العدالة الكفاية سلامة الحواس والأعضاء والنسب القرشي.

أمري الحرب والخراج، فله خبرة بها ومعرفة بتفصيلها[1].

وطريقة تعينه لا تنعقد إلا بعقد وصيغة معينة، ولا تتم إلا بشرطين أحدهما عموم النظر وثانيهما مباشرة النظر وعلى ذلك تحددت **اختصاصات وزير التفويض**:

١. يجوز لوزير التفويض: أن يحكم بنفسه، وأن يقلد الحكام، كما يجوز ذلك للإمام.

٢. ويجوز أن ينظر في المظالم ويستنيب فيها لأن شروط المظالم فيه معتبرة.

٣. ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه، وأن يقلد من يتولاه لأن شروط الحرب فيه معتبرة.

٤. ويجوز أن يباشر تنفيذ الأمور التي دبرها، ويستنيب في تنفيذها، لأن شروط الرأي والتدبير فيه معتبرة، ويباشر النظر في الأمور المالية ويتصرف بها ويجوز له أن ينيب.

وكل ما صح من الإمام صح من وزير التفويض إلا ثلاثة أشياء هي:

الأول:- ولاية العهد: فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير.

الثاني:- أن للإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير.

والثالث:- إن للإمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده الإمام. وما سوى هذه الثلاثة فوزير التفويض إليه يقتضي جواز فعله[2].

٥. لا يجوز أن يكون أكثر من وزير تفويض واحد.

ثانيا: وزارة التنفيذ: أما وزير التنفيذ فحكمه أضعف من وزير التفويض، وشروطه أقل من وزير التفويض، وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه ولاية خاصة، والفرق بين الخلافة والوزارة، أن الخليفة يطالع ما أفضاه الوزير من تدبير، والخليفة يتصفح أفعال الوزير وتدبيره للأمور ليقر منها ما وافق الصواب، ويستدرك ما خالفه: لأن تدبير الأمة إليه موكول وعلى اجتهاده محمول، لأن النظر فيه مقصور على رأي الإمام وتدبيره، ووزير التنفيذ وسيط بين الإمام والرعية والولاة، يؤدي عنه ما أمر وينفذ عنهم ما ذكر ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش والحماة، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وتجدد من حدث ملم ليعمل فيه ما يؤمر به، فهو معين في تنفيذ الأمور وليس بوال عليها ولا متقلد لها، فإن شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص، وإن لم يشارك فيه كان باسم الوساطة والسفارة

(١) الماوردي: ص٢٢، أبو ليلى ص١٣.

(٢) الماوردي: ص٢٥، أبو ليلى ص١٤.

أشبه[١]. ولا تفتقر وزارة التنفيذ إلى تقليد، وإنما يراعي فيها مجرد الإذن ومطلق الاسم، ولا يعتبر في المؤهل لها الحرية إلا العلم لأنه ليس له أن ينفرد بولاية ولا تقليد فتعتبر فيه الحرية ولا يجوز له أن يحكم فيعتبر فيه العلم إنما هو مقصور النظر على أمرين: أحداهما أن يؤدي إلى الخليفة وثانيهما:- أن يؤدي عنه.

شروط وصفات وزير التنفيذ: تعددت حوله الشروط والصفات وأهمها:
الأمانة حتى لا يخون فيما ائتمن فيه، ولا يغش فيما قد استنصح فيه وصدق اللهجة حتى يوثق فيما يؤديه، ويعمل على قوله فيما ينهيه. قلة الطمع حتى لا يؤتشي فيمايل، ولا ينخدع فيتساهل. أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء لأن العداوة تمنع التعاطف. وأن يكون ذكورا لما يؤديه إلى الخليفة وعنه، لأنه شاهد له وعليه.والذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الأمور فتشتبه. وأن لا يكون من أهل الأهواء فيخرجه الهوى عن الحق إلى الباطل ويتدلس عليه المحق من المبطل. والحنكة والتجربة التي تؤدي إلى صحة الرأي وصواب التدبير، فإن في التجارب خبرة بعواقب الأمور[٢]. هذا ويجوز لوزير التنفيذ أن يكون من (أهل الذمة) ولا يجوز ذلك لوزير التفويض. ويجوز التقليد لأكثر من وزير تنفيذ. ولا يتم تعيينه بعقد وعزله يتم بالمتاركة. ولا يشترط فيه الحرية أو الإسلام أو المعرفة بالأحكام الشرعية أو الكفاية. وهو بهذا لا يشترط لتعيينه تقليد أو عقد أو صيغة معينة، وإنما يكتفي فيها مجرد الإذن.

---

(١) الماوردي ص٢٥، أبو يعلي ص١٥، السهروردي: تحرير الأحكام ورقة ٢٤ظ. الماوردي ص٢٧، أبو يعلى ص١٥.
(٢) الماوردي ص٢٧، أبو يعلى ص١٥.

الفصل الثالث

النظام الإداري

(الإمارة. الدواوين. ديوان البريد. الحجابة. الكتابة)

- الإمارة (إدارة الأقاليم)
- الدواوين
- ديوان البريد
- الحجابة
- الكتابة

الإمارة (إدارة الأقاليم)

الإمارة: وظيفة هامة وأساسية في النظام السياسي الإسلامي. وهي بمثابة الولاية العامة، على اعتبار أن الأمير نائب عن الخليفة في إقليم الدولة لإدارتها واستقرار الأمور فيها لصالح الدولة الإسلامية وتأتي في المرتبة الثالثة بعد الخلافة والوزارة.

نظام الإمارة (الولاية) عند العرب قبل الإسلام: يرجع نظام الإمارة إلى العصور السابقة للإسلام أيام قيام الممالك العربية في جنوب الجزيرة العربية في اليمن وحضرموت وعمان حيث كان ملوك سبأ ومعين وحمير يبعثون الولاة لحكم الولايات التابعة لهم، وكان هؤلاء الولاة يختارون من الأسرة المالكة، وكانت صلاحياتهم تتحدد في إدارة أمور الولاية المختلفة، وفي حماية الأمن وقيادة الجيوش، وقد ظل هذا النظام قائما حتى سقوط هذه الممالك، إذ حل النظام القبلي محله وساد الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام.

الإمارة في الإسلام: لم تكن حكومة النبي ﷺ حكومة دينية فقط بل كانت حكومة سياسية تجمع بين السلطة الدينية والدنيوية فعندما ظهر الرسول ﷺ في مكة لم تتح له الظروف أن يضع نظاما إداريا لعدم إمكانية قيام دولة فيها، ولما هاجر إلى المدينة تمكن من أن يؤسس حكومة فيها، فجمع بيده السلطتين. الدينية والسياسية، وبعد تنظيمه لإدارة الدولة الجديدة وإقرار الأمن، اتجه إلى توسيع حركة انتشار الإسلام خارج المدينة، فأرسل البعوث من الشخصيات الإسلامية إلى القبائل المختلفة في الجزيرة العربية في الحجاز واليمن لترسيخ مفاهيم الإسلام ومبادئه، ولم تكن لهذه الشخصيات سلطات إدارية وسياسية، وإنما كانت أعمالهم تنحصر بالدرجة الأولى في نشر الإسلام، ولتعليم الناس مبادئ الإسلام وجمع الزكاة والصدقات والإمارة على الصلاة، فقد عين الرسول ﷺ عتاب بن أسيد واليا على مكة[1] والمهاجر ابن أبي أمية على صنعاء وزياد ابن لبيد الأنصاري على حضر موت، وعدي ابن حاتم على طيء وبني أسد، والعلاء ابن الحضري على البحرين[2] وقد سمح بالإمامة والصلاة والقضاء وجباية الصدقات والزكاة.

وبهذا يعد الرسول ﷺ رئيس الدولة ورئيس الحكومة الإسلامية وصاحب تنفيذ الأمور الشرعية والدنيوية. وهو أول من استحدث نواة النظام الإداري حيث عين السفراء.

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٢ ص٥٠٠ تحقيق السقا، الطبري ج٢/ ٤٠٠، المقريزي إمتاع الإسماع ج١/ ٤٠٣.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة ص٩٦-٩٧.

والعمال (الولاة) والكتاب والسرايا. وقد اقتصرت في عهده وظيفة العمال (الولاة) على إقامة الصلاة وجباية الخراج. والفصل في الخصومات. وقد تخير رسول الله ﷺ (ولاته وعماله) ممن عرفوا بقوة الإيمان والعلم والخبرة والتفقه في أمور المسلمين وقد استشار أصحابه وعمل برأيهم في غير الأمور الدينية وكان دائم القول (أشيروا علي أيها الناس).

الإمارة في عهد الخلفاء الراشدين: عندما تولى أبو بكر الخلافة اتجه أول الأمر إلى إقرار سلطان الإسلام في الجزيرة العربية بالقضاء على الحركات المعادية للإسلام ولسلطة قريش، والتي أطلق عليها خطأ في التاريخ الإسلامي بحروب الردة، إذ لم يكن أغلب زعماء هذه الحركات قد دانوا بالإسلام وارتدوا عنه بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم عين حكاما على الولايات في الجزيرة العربية ليسهل إدارتها، فقسمها إلى ١٤ ولاية إدارية، وعين على كل ولاية واليا يرتبط بالعاصمة مباشرة وهي (مكة والطائف وصنعاء وحضرموت ونجران وجرش والبحرين)[١].

وقد تخير الصديق خيرة الولاة والعمال وجعل هدف الإمارة الأول هو نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية تحت شعار (الجهاد في سبيل الله)، وعلى هذا المبدأ تم في عهده تحرير جزء من العراق وبلاد الشام، ثم أخذ يعين الولاة على الأمصار الإسلامية المحررة من قادة الجند، ومنحهم سلطات إدارية كولاة فضلا عن السلطات العسكرية.

ولما ولي عمر بن الخطاب الخلافة اتسعت في عهده الدولة الإسلامية حيث تم تحرير العراق وفارس والشام ومصر، فتطلب منه الوضع الجديد أن يضع نظاما إداريا دقيقا ليسهل عليه إدارة الدولة الواسعة، والإشراف على تنظيم مواردها، فقسمها إلى اثنا عشر ولاية هي الأحواز والبحرين، وولاية سجستان، ومكران، وولاية طبرستان، وولاية خراسان وولاية الكوفة، وولاية البصرة، وولاية الموصل، وولاية حمص، وولاية دمشق، وولاية فلسطين، وولاية مصر..

وكان عمر يختار ولاته من العرب لا تعظيما لعرقهم أو جنسهم ولكن لمقدرتهم على فهم أصول الشريعة وتعاليمها، فإن عليهم أن يقيموا بالناس الصلاة ويقضوا بينهم بالحق ويقسموا بينهم الأموال والغنائم،[٢] ويجمع الزكاة والجزية والخراج. وهم من الشخصيات

---

(١) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص١٧٠.

(٢) صبحي الصالح/ النظم الإسلامية ص٣٠٨.

التي تتصف بالمقدرة الإدارية وقيادة الجيش. وكان عمر يوصي أولئك الولاة بحسن معاملة الرعية والرفق بهم وعدم تكليفهم فوق طاقتهم، ويحملهم مسؤولية تطبيق الإسلام وسننه فقال موضحا واجباتهم (أيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم (جلودكم) ولا يأخذوا أعشاركم (أموالكم) ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي، فوالذي نفس عمر بيده لأقصن له منه) [١] وكان عمر يسأل الرعية إذا أوفدت إليه في موسم الحج عن حال امرائهم وسيرتهم فيهم فيقول لهم: هل يعود مرضاكم، هل يعول العبيد، كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه؟ فإن قالوا لخصلة منها لاعزله[٢]. ويسأل القضاة ويستحلفهم عن مدى تطبيق الوالي للعدل. وسار عثمان سيرة عمر في أيامه الأولى، إلا أنه في أواخر أيامه اعتمد على عشيرته واقربائه فتذمرت الرعية في مختلف الولايات، وأدت إلى الفتنة التي انتهت بمصرعه، ولما جاء علي بن أبي طالب بادر إلى عزل ولاة عثمان منعا لاستمرار التذمر والشكوى، فكان عزل بعضهم وخاصة معاوية عاملا مهما من عوامل استمرار الفتنة التي انتهت بمصرعه أيضا. في ذلك دلالة على سعة النظم الإدارية واختيار الخلفاء الراشدين لعمالهم وولاتهم. ومحاسبتهم ونصحهم واقتصار اختصاصهم ضمن حدود معينة.

الإمارة في العهد الأموي: بلغت الدولة في عهدهم أقصى اتساع لها، لذلك اهتم خلفاء بني أمية في اختيار ولاتهم من العناصر العربية الموالية لهم، ومن أفراد البيت الأموي لعظم مساحة الامبراطورية ولقوة العناصر المعارضة لسيادتهم من علويين وموالي، فكان لا بد لهم أن يسندوا إمارة الولايات إلى العناصر المخلصة والقوية والكفوءة، وقد تهيأ لهم نخبة طيبة من القادة والعسكريين والإداريين لإدارة الولايات البعيدة عن مركز الامبراطورية الأموية التي قامت بمهمة توسيع الفتوحات، والقضاء على الحركات المناوئة للخلافة الأموية. كزياد بن أبيه وعمرو بن العاص والحجاج بن يوسف الثقفي وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن قاسم الثقفي، وموسى بن نصير وطارق بن زياد وعبد العزيز بن موسى بن نصير وغيرهم من الشخصيات العربية التي كانت تتمتع بعبقرية فذة في القيادة والإذارة والسياسة. هذا وقد قسمت دولة الخلافة الأموية بسبب اتساعها إلى ست وحدات إدارية كبيرة. هي: ولاية الحجاز، مصر (السفلى والعليا)، وولاية العراق (العربي والعجمي) وولاية

---

(١) الطبري: تاريخ ج٦ ص٢٠. أبو يوسف: الخراج ص٦٦ الطبعة الأميرية.

(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٣٠١.

الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، ولاية إفريقيا (المغرب والأندلس، ولاية الشام وتضم (فلسطين، دمشق، الأردن وحمص).

وقد بدأت إقامة الولاة في عاصمة الولاية، وفي الفترة المتأخرة أقام الولاة بعيدا عن ولاياتهم وفي عاصمة الخلافة، حيث بدأ الضعف يسري في هذا النظام، خاصة بعد وجود بعض المناصب التي قللت من اختصاص العمال والولاة، مثل صاحب الشرطة وصاحب الخراج وكان أخطرهم على الولاة صاحب البريد، واتبع الخلفاء الأمويون طريقة الخلفاء الراشدين في اختيار وتعين (الولاة، الأمراء والقضاة وقواد الجيش والحرب والمشرفين على الشرطة. ومنحوهم صلاحيات واسعة بحيث كانوا لا يرجعون إلى الخليفة إلا في الأمور المهمة لكن وجد من أصحاب السلطة الآخرين ممن أثروا على سلطة الولاة مثل (صاحب الخراج) الذي نافسه في المسؤولية، هذا وقد ضعف منصب الإمارة نتيجة لضعف النظام الإداري في أواخر العصر الأموي، عندما سمح الخلفاء المتأخرون لولاة الأقاليم أن يقيموا في العاصمة بعيدا عن ولاياتهم، وينيبون عنهم ولاة يحكمون الولاية باسمهم، وما ترتب على ذلك من اختيار عناصر ضعيفة أهملت أحوال الرعية، وانصرفت إلى مصالح شخصية انحصرت بجمع المال والإثراء على حساب الرعية[١].

الإمارة في العصر العباسي: ورث العباسيون النظام الإداري الذي كان سائدا في العصر الأموي، إلا أنهم لم يراعوا في اختيار الولاة من العناصر العربية بل آثروا استخدام الموالي وخاصة العنصر الفارسي الذي ساهم في نجاح الدعوة العباسية، إلى جانب استعمالهم على الولايات الهامة بعض أفراد البيت المالك، الذين كانوا يقيمون في العاصمة بعيدا عن ولاياتهم. وقد اتبع الخلفاء العباسيون سياسة تغيير الولاة بين وقت وآخر. وكانوا لا يسندون المنصب إلا لمن عرف بالمرونة السياسية والخبرة الإدارية وحسن التدبير، وكان أهم الأمراء من البيت العباسي ومن العنصر الفارسي. منهم: في عهد الخليفة أبو العباس اسماعيل بن علي العباس على فارس، وسلمان بن علي على البصرة، وعيسى بن موسى على الكوفة، وصالح بن علي على قنسرين والعواصم، والعباس بن محمد في الجزيرة، وجعفر بن سليمان في المدينة، كما استعمل بعض العمال العرب على الولايات منهم زيد بن حاتم المهلبي على إفريقيا، والحسن بن قحطبة والمسيب بن زهير الضبي كما أنه لم يتردد في استخدام الموالي

---

(١) أمير علي: مختصر تأريخ العرب والتمدن الإسلامي ص١٦٧، ص١٩٠ النسخة الانكليزية.

الذين يأمن لهم[1]. ويعد الخليفة المنصور المؤسس الحقيقي للنظام الإداري العباسي الذي تميز عهده بظهور نظم متقدمة ومتحضرة وموازية للإدارة.

وظلت أقاليم الدولة مقسمة كما كانت عليها أيام الأمويين. وهي ولاية الحجاز وتضم (مكة والمدينة واليمن وعمان) وولاية العراق وتشمل (الكوفة والبصرة وواسط وحلوان وجنوب الموصل) وولاية الجزيرة وتضم (الموصل وديار ربيعة وديار مضر (الرقة) وديار بكر (آمد)) وولاية الشام وتضم (قنسرين ودمشق والأردن وفلسطين) وولاية مصر وتضم (مصر وبرقة والفسطاط والقطائع) وولاية إفريقيا وتضم (ما بين طرابلس إلى مراكش وقصبتها القيروان) وولاية ما وراء النهر وتشمل (جيحون وفرغانة والشاش واشروسنة والصفد وبخاري) وولاية خراسان وتضم (إيران الشرقية الشمالية ومرو) وولاية الديلم (شمال غرب إيران وتشمل) (قومس وجرجان وطبرستان) وولاية أرمينيا وتشمل (ارمينيا واذربيجان وتفليس) وولاية الجبال وتشمل (الري وهمدان وأصفهان) وولاية البصرة وتشمل (عربستان والبصرة) ولاية فارس وتشمل (فارس وشيراز واصطخر) وولاية كرهان وتشمل (جنوب وشرق فارس) وولاية الهند وتشمل (مكران وبلوجستان وحوض السند) [2]. كذلك تخير الخلفاء العباسسية ولاتهم وحاسبوهم وقيدوا سلطاتهم. وولوا أمور الولايات الهامة للأمراء العباسيين، والولايات البعيدة لمن وثقوا بهم والمقربين لهم خاصة من العنصر الفارسي.

هذا وقد تقلصت صلاحيات الوالي في العصر العباسي، وضعفت منزلته بسبب استحداث منصب الوزير في العصر العباسي، وأصبح الوالي يأتي بالمرتبة الثانية بعد الوزير، وقد تعرض الولاة بين الحين والآخر إلى العزل والمصادرة واستخدمت الرشوة في اختيارهم منذ فترة النفوذ التركي والبويهي، وأدى الوضع إلى تداعي نظام الإدارة، ويشير (محمد كرد علي) إلى ذلك بقوله: (... ومن أهم الدواعي إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء، ونشأ ذلك عن شراهة نفوس الوزراء والعمال وإضاعة الحقوق) [3]. كذلك زاد من ضعف اختصاصات الأمراء ظهور مناصب أخرى نافست سلطتهم خاصة صاحب الخراج وصاحب الشرطة وأخطرهم على الإطلاق صاحب البريد لأنه عين الخليفة على كل

---

(١) شاكر مصطفى: دولة بني العباسي ج١ ٣١٤.

(٢) نفس المصدر السابق ج١، ص٣١٦-٣١٧.

(٣) محمد كرد علي: الإدارة الإسلامية في عز العرب ١٦٧.

الأمور الدينية والدنيوية.

ومن عوامل ضعف مكانة الوالي، استبداد الوزراء بالسلطة والنفوذ، وأصبحت أبرز أعمال الوزير إدارة الأمور المالية في الدولة، والإشراف على تنظيم إدارة الدولة، وجباية الضرائب والأموال، وتولية وعزل الولاة في أرجاء الإمبراطورية العباسية[١] وأدى ذلك إلى مجيء ولاة ضعفاء، حيث أخذت مناصب الولاية يتولاها من يدفع أعلى رشوة للوزير مثلها في خلافة المقتدر تولية أبو علي محمد بن عبيد الله الخاقاني، كذلك أسرف الخليفة في في تولية العمال حتى أنه ولى على الكوفة في خلال عشرين يوما سبعة من العمال، دفع كل واحد منهم رشوة كبيرة له، كما ولى (بادور أيا) خلال أحد عشر شهرا أحد عشر عاملا[٢]. أخذ من كل واحد منهم رشوة كبيرة فقيلت فيه أشعار كثيرة منها[٣].

وزير مـــا يفيق من الــــــرقاعة   يولـــي ثم يعزل بعـد سـاعـة

إذا أهل الرشا صـــــــاروا إليه   فاحظى القوم أوفرهم بضاعة

لقد أدى هذا الأسلوب إلى حرمان الدولة من ولاة أكفاء، وما صحب ذلك من انتعاش النزعة الإقليمية وظهور دويلات صغيرة انفصلت عن جسم الدولة العباسية، ويشير إلى ذلك ابن الأثير بقوله: (ولم يبقى للخليفة الراضي (٣٢٣-٣٢٩هـ) غير بغداد وأعمالها فكانت البصرة والأحواز، وفارس وكرمان، والري والجبل وأصبهان، والموصل وديار بكر ومضر، ومصر والشام والمغرب وإفريقيا، وخراسان وما وراء النهر، وطبرستان وجرجان، والبحرين واليمامة) [٤]، قد انفصلت عن الدولة العباسية، يحكمها ولاة مستقلون استقلالا رسميا أو فعليا عن الخلافة العباسية.

ومن عوامل تدهور إدارة الأقاليم استحداث ظاهرة الإنابة في الولاية إذ أصبحت تسمية الوالي للولاية منذ عهد الرشيد لا تلزم صاحبها بالسفر إلى ولايته. ومباشرة الحكم فيها، ورضى الخلفاء العباسيون أن يمنحوا الولاة الولايات لمن يختارون من رجالهم يديرونها

---

(١) اليوزبكي: الوزارة ص١٦٤.

(٢) اليوزبكي: الوزارة ص٢١٩.

(٣) عريب: صلة الطبري ج١٢ ٢٣.

(٤) ابن الأثير: الكاحل ج٨ ص١١٢-١١٣.

باسمهم ولحسابهم [1]. مما أضعف الرقابة المركزية على الولايات. وتمادى الولاة في إرهاق الرعية في الخراج وجمع الأموال، والأخذ بالإرهاب والدمار، وعدم رعاية الحدود والحقوق. فكانت نتيجة ذلك قيام الثورات في مختلفة أقاليم الدولة العباسية[2].

ومما زاد في ضعف الإدارة العباسية أن الخليفة العباسي كان يعهد للوالي إدارة أكثر من ولاية، مما أدى إلى تسلط الولاة وتوسع نفوذهم، وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا في الولايات الشرقية للدولة العباسة، وأضحت قسمة الدولة بين القواد الكبار تدبيرا إداريا اعتياديا، الأمر الذي فسح المجال للعناصر المغامرة للانفصال عن الدولة[3].

ونتيجة لتدهور النظام الإداري والمالي في الدولة العباسية حتى ٣٢٤هـ اضطر الخليفة العباسي إلى استحداث منصب (أمير الأمراء) الذي يعبر حقيقة عن ضعف نظام الخلافة والوزارة[4] على السواء. لأن صاحب هذا المنصب أصبح صاحب السلطة الأولى في الدولة.

كان حكام الولايات يسمون أول الأمر: العمال (جمع عامل) ويدل هذا المعنى على أن صاحبه لم يكن مطلق التصرف في شؤون الولاية، وقد تطورت صلاحيات العامل وتوسعت سلطاته بمرور الزمن فسمي بـ (الوالي) ثم لقب بـ (الأمير) وهذا اللقب يدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة، ويقول (متز) في ذلك: (كان حكام الأقاليم والولايات يلقبون بلقب أمير، ذلك اللقب الذي كان قد أطلق على أمراء الجيش، وظل ليدل على السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها الولاة) وكان الوالي أو العامل أو الأمير يجعل من المسجد دارا للحكم وديوانا للاجتماع، ففيه تلقى الخطب الدينية والسياسية، ومنه تصدر الأخبار، وتعقد فيه ألوية الجهاد وغيرها.

نظرية الإمارة عند الفقهاء: لقد وضع الفقهاء أسس نظرية الإمارة على البلدان، وحددوا أنواعها واختصاصاتها من وجهة النظر الشرعية. فقد ذكر الماوردي في أحكامه أنواع الإمارة واختصاصات كل أمير فقال: وإذا قلد الخليفة أميرا على إقليم أو بلد كانت

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٦٥-٢٦٦.

(٢) شاكر مصطفى: دولة بني العباسي ج١ ص٥٦٢.

(٣) نفس المصدر السابق ج١ ص٥٦٠.

(٤) اليوزبكي: الوزارة العباسية ص١٤٩.

إمارته على ضربين الإمارة العامة وهي ضربين إمارة استكفاء وإمارة استيلاء. ثم الإمارة الخاصة:

(١) **إمارة الاستكفاء**: وهي أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم على جميع أهله فيشتمل نظره فيه على ثمانية أمور:

أحدها: النظر في تدبير الجيوش وترتيبهم في النواحي وتقدير أرزاقهم.

الثاني: النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

الثالث: جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال (عمال الخراج والصدقات).

الرابع: حماية الدين والذود عن الحريم ومراعاة الدين.

الخامس: إقامة الحدود في حق الله وحقوق الرعية.

السادس: الإمامة في الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

السابع: تيسير الحجيج.

الثامن: إذا كان الإقليم ثغرا متاخما للعدو فعليه جهاد من يليه من الأعداء وقسمة الغنائم في المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس[1]. والشروط المطلوبة في إمارة الاستكفاء هي نفس شروط وزارة التفويض لأن الفرق بينهما خصوص الولاية في الإمارة وعمومها في الوزارة فالإمارة نيابة عن المسلمين.

(٢) **إمارة الاستيلاء**: إمارة (الاستيلاء) التي تنعقد عن (اضطرار) فهي أن يستولي الأمير بالقوة على بلاد ويقرها الخليفة (عن اضطرار). وفيها يكون الوالي مستبدا بالسياسة والتدبير، ويوجب إقامة الشرع والطاعة الدينية، وعلى المستولي أن يحفظ هيبة الخلافة وأن يبدي من الاحترام وتطبيق الحدود الشرعية التي يزول معها حكم العناد وينتفي بها أثر المباينة له، وأن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والأحكام والأقضية فيها نافذة. والحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق[2]. فيوجب على الوالي أن يقوم بالحكم حسب الشريعة الإسلامية وأن يذود عن الدين قولا وعملا مقابل حصوله على الصفة الشرعية لحكمه من الخليفة.

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٣٠-٣١.

(٢) نفس المصدر السابق ص٣٤.

(٣) أما الإمارة الخاصة: فهي أن يكون الأمير مقصور الإمارة على تدبير الجيوش، وسياسة الرعية وحماية البيضة والذود عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات[١].

---

(١) المصدر السابق ص٣٢.

الدواوين

الديوان: موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال وما يقوم به الجنود والعمال[١].

أصل الديوان: فارسي معرب[٢]. يعود إلى عهد كسرى الذي دخل على مجموعة من الموظفين وقد رآهم يتحادثون ويتحاسبون فقال (ديوانه – أي مجانين) وهي بالفارسية تعني الشياطين لحذق الموظفين في أعمالهم العلمية والحسابية والقانونية.

لذا فإن أصل الديوان فارسي معرب. وقد خففت ديوانه[٣] بعد حذف الهاء وأصبحت في العربية ديوان، وتعارف عليها بداية أنها أطلقت على الموظفين الذين يقومون بالأعمال الإدارية، ثم أطلقت على المكان الذي يقوم به الموظفين[٤]. ثم استقرت على الدفتر أو السجل الذي تحفظ فيه المعلومات. كذلك أُطلق الديوان على «اسم ديوان كتاب الرسائل ومكان جلوسهم بباب السلطان، وقد تفرد بهذه الوظيفة بناظر واحد ينظر في سائر هذه الأعمال، وقد يفرد كل صنف منها بناظر على حسب مصطلح الدولة»[٥].

تطور الدواوين:

الديوان في عهد رسول الله: لم يكن في عهد رسول الله ﷺ إلا ديوان لإحصاء الأموال وضبط العطاء[٦].كذلك وجد مبدأ إحصاء الناس وكتابتهم على عهد رسول الله ﷺ. وقد أخرج البخاري لسنده عن حذيفة ﷺ قال: قال النبي ﷺ (اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل...) وأخرج أيضا في مسنده عن ابن عباس

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٧٥. وقال فيه ابن الأثير هو الدفتر الذي يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء.

(٢) وقيل أن أصله عربي ومعناه الأصل الذي يرجع إليه ويعمل بما فيه وفي قول ابن عباس ﷺ (إذا سألتموني عن شيء من عذيب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر من ديوان العرب) القلقشندي: صبح الأعشى د١/ ص٩.

(٣) ديوانه في الفارسية: اسم الشياطين لحذفهم الأمور. ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦١٣

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية/ ١٧٥، ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦١٢.

(٥) ابن خلدون/ المقدمة: ج٢/ ٦١٣.

(٦) ابن خلدون/ المقدمة: ج٢/ ٦١٣

رضي الله عنهما.. قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني كتب في غزوة كذا وكذا، وأمرأتي حاجة. قال ارجع فحج عن امرأتك) وظاهر في هذا أن الكتابة في زمن النبي ﷺ لم ترتفع إلى مستوى الديوان الذي استحدث في عهد الخلفاء الراشدين، وخاصة عهد الخليفة الفاروق عمر ﷺ. حيث ذكر: قال جماعة بل سبب تدوين عمر للديوان. أنه أتى أبو هريرة من البحرين بأموال كثيرة. فاستكثروه وتعبوا في قسمته، فسعوا إلى إحصاء الأموال، وضبط العطاء والحقوق، فأشار خالد بن الوليد بالديوان لقوله: رأيت ملوك الشام يدونون. فدون لنا ديوانا فقال عمر: ذلك وهذا الرأي الأرجح[1].

الدواوين في عهد الخلافة الراشدة: ترجع نشأة الديوان إلى رواية أبي يوسف التي مفادها (أنه لما قدم أبو هريرة من البحرين ومعه خمسمائة ألف درهم خطب عمر بن الخطاب في الناس بقوله: أنه قد جاء مال كثير فإن شئتم أن نكيل لكم كيلا، وإن شئتم أن نعد لكم عددا، وإن شئتم أن نزن لكم وزنا فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين دون للناس دواوين يعطون عليها فدون عمر الديوان[2]. كما تذكر رواية أخرى أن أحد الأشخاص لما رأى تردد عمر بن الخطاب في كيفية توزيع الأموال، أخبره أنه كان لملوك الشام ديوان دونوا فيه الأسماء والأموال ونصحه بتدوين الديوان وتجنيد الجند[3]. وحوّل أول من أشار على الخليفة عمر استحداث نظام الديوان، يذكر أن خالد بن الوليد هو أول من أشار على الخليفة بذلك بقوله (إني رأيت ملوك الشام يدونون ديوانا). أو الوليد بن هشام أو الهرمزان (أو المرزابة حامي الحدود) والراجح في القول يعود لخالد بن الوليد.

ومهما يكن أصل الكلمة فإن عمر بن الخطاب هو أول من وضع أسس التنظيم

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦١٤. ويذكر ابن تيمية في ذلك: فلما كان عهد عمر بن الخطاب كثر المال، واتسعت البلاد، وكثر الناس. فجعل ديوان العطاء للمقاتلة وغيرهم، ولما استقر رأي عمر على تدوين الديوان دعا عقيل بن أبي طالب، ومخدمة بن نوفل وجبير بن مطعم.. وأمرهم أن يكتبوا الناس على منازلهم وترتيب الأنساب مبتدأ بالقرآن. انظر: أبو يوسف: الخراج ص١٥، ٢٦، الماوردي: الإحكام السلطانية ص١٧٥. البلاذري فتوح البلدان ٤٥٨. الطبري تاريخ ج٣/ ٢٧٨ المطبعة التجارية. ابن الجوزي سيرة عمر بن الخطاب ص٨٨ ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦١٤.

(٢) أبو يوسف: الخراج ص٤٥.

(٣) الطبري: تاريخ ج٤ ص٢٠٩. في رواية أن الهرمزان هو من أشار على الخليفة عمر باستحداث الديوان.

الإداري للدولة الإسلامية بإدخاله نظام الدواوين[1]. وقد عبر الماوردي عن أهمية خطوة عمر بن الخطاب في استحداث الديوان لكونه (موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال)[2].

وفي رواية أبي يوسف، يظهر لنا أن سبب إستحداثه يعود لكثرة الأموال الواردة من الفتوحات، ورغبة عمر في تنظيم توزيعها وتثبيت مقاديرها بأسماء مستحقيها، وتوفير ما زاد عن حاجة المسلمين للضرورات المقبلة. فلما استقر ترتيب الناس في الديوان صنفهم بداية حسب النسب والقرابة من الرسول ثم السابقة في الإسلام، ثم أصبح يتم تقدير عطائهم حسب جهودهم. وحول ذلك قال عمر: (لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه)[3] وقد سار عمر بن الخطاب على سياسة التفضيل في العطاء بينما سوى أبي بكر الصديق بين الناس في العطاء[4] وسار عثمان بن عفان بسيرة عمر، أما علي ابن أبي طالب فقد اعتمد سياسة أبي بكر في التسوية في العطاء[5] وعلى هذا فالخليفة عمر بن الخطاب وإن حافظ على فكرة الإسلام الجوهرية القاضية بالمساواة بين الناس بغض النظر عن أنسابهم، لكنه أصر على المفاضلة بينهم من حيث الإيمان، ومن هنا كانت القرابة من الرسول ﷺ والسبق إلى الإسلام عاملين أساسيين في تحديد مركز المؤمن[6] وعلى أية حال فإن سياسة الخلفاء الراشدين جاءت وفق اجتهادهم وخدمة للإسلام والمسلمين. والمعروف أن الخليفة عمر رضي الله عنه أقر أربعة دواوين: أولها ديوان الجند الذي تضمن أسماء الجند والمقاتلة وأعطياتهم وأرزاقهم وأهليهم وديوان الجند يعني السجل الذي حفظت فيه أسماء المقاتلين وأعطياتهم، ثم صار يعني المكان الذي يحفظ فيه السجل فذكر القلقشندي[7] بأنه (اسم الموضع الذي يجلس فيه الكتاب) ويرى بعض المؤرخين[8] أن استحداث عمر للديوان إنما

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٦، الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٩٩.

(٢) الماوردي/ الأحكام ص١٩٩.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٩٩-٢٠١.

(٤) ابن الأثير: الكامل ج٢ ص٤٢٢.

(٥) أبو يعلى: الأحكام ص٢٢٢.

(٦) جورتيبارم جوستاف: حضارة الإسلام ص٢١٩ القاهرة ١٩٥٦.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٩٠.

(٨) الدوري: النظم الإسلامية ص١٨٧.

أراد به أن يجعل من العرب أمة عسكرية ليوجهها للجهاد في سبيل الإسلام، من خلال تخصيص رواتب وأعطيات للمقاتلة من بيت المال، تكفيهم مؤونة العمل. وأن يحفظ لهم سجلا بأسماء المحاربين وأهليهم فكون (ديوان الجند) وإن أطلق عليه آنذاك اسم (الديوان) لأنه كان الديوان الوحيد المعروف في تلك الفترة.

ولم يسجل عمر بن الخطاب جميع العرب في الديوان، كما لم يفرض لهم جميعا نفس العطاء، بل سجل أولا أهل المدينة لأنهم نواة الأمة الإسلامية، ثم القبائل المقاتلة التي اشتركت في الفتوحات ومن لحق بهم من القبائل لتعزيز قوة المسلمين العسكرية، ولم يدخل أهل مكة في الديوان لعدم اشتراكهم في الفتوحات بداية، كما لم يدخل الأعراب الذين بقوا في الجزيرة ولم يشتركوا في الحروب لكنه كان يوزع على المحتاجين منهم من أموال الصدقات[(١)] والزكاة. ويروي البلاذري[(٢)]: أن عمر سأل بمن أبدأ؟ قال عبد الرحمن بن عوف: ابدأ بنفسك فقال: لا ولكن أبدأ ببني هاشم فبدأ بالأقرب من رسول الله ففرض للعباس ثم لعلي...)

وقد ساوى عمر بن الخطاب بين العرب والموالي في العطاء بحسب الأسس التي وضعها، كما ساوى بين المهاجرين ومواليهم وبين الأنصار ومواليهم[(٣)]. وكتب إلى أمراء الجيوش والأقاليم (ومن اعتقتم من الحمراء (الأعاجم) فاسلموا فألحقوهم بمواليهم، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم)[(٤)] وحول زمن تدوين هذا الديوان تختلف المصادر أنه كان في سنة ١٥هـ[(٥)] وتجعل روايات أخرى زمن التدوين في أوائل سنة ٢٠هـ[(٦)].

وقد كان عمر بن الخطاب يميل في التنظيم الإداري إلى المركزية، ولذلك ربط الجند بالمركز (العاصمة) حين أنشأ ديوان الجند، وصاروا يطلقون اسم الديوان على ديوان الجند نفسه لأنه كان الوحيد في زمن عمر[(٧)] هذا مع وجود الديوان الثاني (ديوان الخراج) الذي

---

(١) الدوري: النظم الإسلامية ص ١٩٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان.

(٣) ابن سلام: الأموال ص٢٣٤-٢٣٥.

(٤) المصدر السابق نفسه ص٢٣٥.

(٥) الطبري: تاريخ ج٤ ص١٦٢.

(٦) المقريزي: المخطط ص١٤٨، اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص١٣٠.

(٧) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٣١٣.

أبقى عليه كما هو بلغاته وموظفيه في بلاد العراق وفارس والشام ومصر. وبقيت تستعمل فيه لغاتها المحلية كالفارسية في العراق وفارس والرومية في الشام والقبطية في مصر واستمر ذلك إلى عهد خلافة عبد الملك بن مروان. فنقل ديوان الشام إلى العربية سنة ٨١هـ[١]. وأتم ولده الوليد بن عبد الملك تعريب الدواوين الأخرى في الأقاليم الإسلامية. كذلك ظهر في عهد الخليفة عمر (ديوان الرسائل). والديوان الرابع (ديوان العطاء)، حيث فرض عمر ﷺ العطاء للناس حتى للأطفال، وحول ذلك ورد قول عمر بن الخطاب (ألا لا تتعجلوا أولادكم بالغطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام عطاء. ففرض للمنفوس مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتي درهم فإذا بلغ زاده[٢].

يتبين لنا مما تقدم أن الديوان. ظهر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ. وكان ديوان الجند والعطاء بالعربية. وذكر أن بداية التدوين كانت بين عام ١٥هـ أو ٢٠هـ وقد بقي ديوان العراق بالفارسية، وديوان الشام بالرومية، وكتاب الدواوين من أهل الذمة [٣] حتى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي قاد حركة التعريب في الدواوين والنقد والطراز.

الدواوين في العصر الأموي: لما استتب الحكم للأمويين واقتضت الحاجة إلى تطوير طبيعة الدواوين المختلفة الموجودة، وإستحداث دواوين جديدة تتناسب مع سعة الدولة وامتدادها في ثلاث قارات. وظهرت الحاجة لتنظيم شؤونها المختلفة. استحدث الأمويون دواوين جديدة بصورة تدريجية يصعب تحديد بدايات نشوء أغلبها. كما أن بعض هذه الدواوين لم تصل درجة التنظيم والاستقرار إلا في العصر العباسي الأول. وفيما يلي ذكر أهم الدواوين في العهد الأموي.

(١) ديوان الجند والعطاء: وهو الديوان الذي وضع أسسه الأولى الخليفة عمر بن الخطاب لحفظ أسماء الجند وتحديد أعطياتهم ومرتباتهم، وقد تطورت طبيعة هذا الديوان، فبعد أن كان يتولى الإنفاق على الجند ومن شملهم العطاء، أصبح في العصر الأموي يقوم بوظيفة إحصاء أسماء الجند وتسجيل مقدار أعطياتهم.

١. ديوان الخراج: ويتولى أمور تنظيم الخراج وكيفية جباية أموال الخراج، وهو من

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٠٢.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ١٧٨.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٧٨، ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦١٤.

الدواوين المحلية التي كانت موجودة في بلاد الشام، وقد أحدثه البيزنطيون، وكانت لغته يونانية[١].

(٢) ديوان الرسائل: وهو أول ديوان استحدث في الإسلام، ويمكن أن نعتبر بدايات تكوينه رسائل النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، ورسائله المكتوبة إلى القادة والأمراء الذين ولاهم أمور البلاد. ثم تطور هذا الديوان في عهد الصحابة[٢].

وارتفع شأنه في العصر الأموي من حيث مكانة من يتولاه (الكاتب) وشروط تعيينه وأهميته حتى أصبح بمكانة أمين سر الخليفة، وقد تحددت اختصاصاته في مكاتبات الخليفة إلى الولاة والقواد في الأمصار، كما تولى الإشراف على مكاتبات الخليفة مع الدول الأجنبية، ويشير الجهشياري[٣] إلى رفعه ومكانة الكاتب بقوله إلى أن كتابه كانوا من العرب والموالي، ويبدو أنه بلغ درجة من التنظيم في عهد عبد الملك.

(٣) ديوان البريد: اهتم العرب بتأمين طرق مواصلاتهم، حتى كانت إحدى المميزات المهمة في تفوقهم العسكري على أعدائهم. وكان للطبيعة الجغرافية دور مهم في تحديد وسائل الاتصال والانتقال لا سيما في فترات حروب التحرير العربي الإسلامي أو في فترات مقاومة الحركات المناهضة للدولة، وقد عنى الجغرافيون العرب بوصف الطرق ووسائل النقل، كما حددوا الطرق التي تربط بين ديار المسلمين وبلاد الروم. وأشهر الجغرافيين العرب الذين عنو بذكر الطرق ومسالكها الجغرافي المشهور ابن خرداذبة[٤] وحول سرعة النقل ذكر أن المسافة التي قطعت بريديا من طرابلس إلى الإسكندرية تمت في ثلاث ساعات، وهذا بدوره يدل على سرعة نقل الأخبار ولمسافات طويلة. كما عنى العرب بإنشاء القناطر والجسور لربط الطرق وتسهيل مهمة النقل، لذلك فقد استحدثوا نظام البريد لربط أجزاء الدولة بالعاصمة، ونقل المعلومات والأخبار إليها. وقد تعددت مهمات البريد تبعا لتطور أحوال الدولة الإسلامية، فعلى الرغم من أن البريد كانت مهمته الأولى نقل الرسائل في أرجاء الدولة الإسلامية، إلا أنه كان يقوم بنقل الجنود والوفود والسفراء

---

(١) الجهشياري: ص٢٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٩١.

(٣) الجهشياري: ص٣٥.

(٤) انظر المسالك والممالك: ص١٠١-١٠٤.

العرب والأجانب، ويتبادل الرسائل بين الدول المجاورة. وأعدت له محطات بريدية خاصة في أوقات الحروب، شحنت بالمقاتلين لحماية الطرق وفي ذلك دلالة على الأهمية الحربية للبريد، ثم اتسعت صلاحيات صاحب البريد حتى أصبح متوليها يقوم حاليا مقام مدير المخابرات العسكرية. حيث كانت له عيون يوافونه بكل حدث وخبر جديد لذلك عني به الخلفاء الأمويون به لضمان سلامة الدولة وأمنها. وفي عهد العباسيين كانت الظروف تستلزم الإكثار من العيون في سرعة جمع المعلومات وإيصالها عن الحركات المناهضة للدولة في الداخل وتتابع القتال مع الروم[١] الأمر الذي استدعى اعتماد الخلفاء في نقل الأخبار بوساطة البريد الجوي. وحول ذلك فقد ذكر المسعودي أن الحمام الزاجل استخدم لنقل الأخبار سنة ٢١٢هـ-٨٣٧م حين نقل الحمام إلى المعتصم نبأ الظفر ببابك الخرمي (فأطلقت الطيور إلى المعتصم وكتب إليه بالفتح)[٢] كذلك استخدمت سفن البريد لنقل الأخبار في المناطق التي تقع على مجاري الأنهار، وكانت حاجة الدولة أحيانا تدعو إلى استخدام العدائيين لإيصال الأخبار[٣]. واستعمل العرب المسلمون النار في الإشارات لنقل الرسائل والأخبار فكتب عمر بن الخطاب لمعاوية في الشام في (إقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها)[٤] أيضا استخدموها في الثغور والعواصم العربية البرية والبحرية، حيث كانت توقد النار ليل نهار، ويستفاد من دخانها ولهيبها إشارات في نقل الأخبار عند تقدم الأعداء، فكانت تصل الرسائل من الاسكندرية إلى سبتة في ليلة واحدة، وهكذا لعب ديوان البريد في العصور الإسلامية دورا مهما وخطيرا في مجالات تنظيم نقل المخابرات والمعلومات السرية، داخل الدولة وخارجها وعن التحركات العسكرية للأعداء.

وكان صاحب البريد عينا على العمال في الولايات، إضافة إلى أنه كان يرسل العيون من الرجال والنساء ينتقلون في البلاد على شكل سواح أو فقراء أو حجاج، لجمع الأخبار ليس في داخل الدولة وإنما من الدول المجاورة. وقد غدا للعرب نظام جيد للاستخبارات منذ أيام الخليفة معاوية، فكانوا يقدمون المعلومات عن قوة العدو ونقطة ضعفه وتخطيط حصونه، وغير ذلك. وفرض صاحب البريد رقابة محكمة على الأجانب الذين يدخلون

---

(١) انظر: نظير سعداوي: نظام البريد في الدولة الإسلامية ص٥٣ وما بعدها.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٣٥١.

(٣) العدوى: الحمام الزاجل في العصور الوسطى المجلة التاريخية م٢ ج١ مايو ١٩٤٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص١٣٤.

الدولة الإسلامية. وفرض معاوية رقابة دقيقة على أفراد الجاليات وأسرهم وعين موظفا عربيا في كل حامية. ليتحرى عن الداخلين والخارجين واستمر هذا النظام قائما في عهد العباسيين(١). وقد أضيفت لصاحب البريد وظائف أخرى خطيرة. تعدى فيها على اختصاصات صاحب الخراج والشرطة. منها إشرافه على حال الخراج والضياع وحال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملونه من الإنصاف والرفق والجور والعسف فيكتب به شروحا، وما يعرف ما عليه الحكام في حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائفهم ويفرد لكل ما يكتب فيه من أصناف الأخبار كتبا(٢).

وقد نصح أبو يوسف الخليفة الرشيد بأن يكتب إليه صاحب البريد بكل ما يحدث، وأن يتوعد الخليفة عمال البريد على ستر الأخبار عنه، ويحذر ميلهم مع العمال على الرعية، وطلب إليه أن يدر لرجال البريد الرزق من بيت المال لكي لا يرتشوا(٣).

(٤) ديوان المستغلات: وكان هذا الديوان يدير ممتلكات الدولة وأموالها غير المنقولة كالأراضي والأبنية والعمارات(٤).

(٥) ديوان النفقات: مهمته النظر في الإنفاق على الجيش(٥) كما يتولى توفير الأموال لنفقات الجهاز الإداري.

(٦) ديوان الصدقات: ومهمته النظر في موارد الصدقات والزكاة وفي تحديد مستحقيها وكيفية توزيعها حسبما جاء في القرآن: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾ [التوبة: ٦٠] ويرد ذكر هذا الديوان لأول مرة في خلافة هشام بن عبد الملك(٦).

(٧) ديوان الخاتم: استحدث هذا الديوان في، خلافة معاوية بن أبي سفيان، على أثر تزوير حدث في إحدى رسائله إلى زياد بن أبيه، أمره فيها بإعطاء حاملها مائة ألف درهم،

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص١٥٦-١٥٧، ص١٦٠-١٦٦.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١١٢.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص١٨٥-١٨١.

(٤) الجهشياري: ص٤٧.

(٥) الجهشياري: ص٣٥.

(٦) الجهشياري: ص ٦٠.

فبدل حاملها المقدار إلى مائتي ألف درهم وعلى أثر ذلك أمر معاوية بأن تحفظ نسخه من أوامره في مكان أمين وأمر كذلك بأن تخرم النسخة الأصلية بالخيط وتختم بالشمع الأحمر(١) وتختم بختم صاحب الديوان وهذه الوظيفة تقابل في العصر الحاضر دوائر الحفظ أو أمانة سر ديوان الدولة. وبقي هذا الديوان على هذا النحو حتى يعد أواسط أواسط عهد الدولة العباسية، حيث تحولت اختصاصات هذا الديوان إلى الوزراء. وكان ديوان الخاتم أكبر الدواوين، وكان ختم الرسائل معروفا على عهد النبي ﷺ حيث اتخذ خاتما من فضة نقش عليه عبارة (محمد رسول الله). ثم تختم بهذا الخاتم الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وفي عهد الخليفة علي رضي الله عنه ذكر أن الخاتم سقط في بئر هرماس فاستحدث معاوية ديوان الخاتم(٢).

(٨) ديوان الطراز(٣): ويقوم هذا الديوان كمشرف على إنتاج الملابس ضمن الضوابط الشرعية والأزياء الرسمية والإعلام وشارات الدولة، وصح تسمية المشرف عليه بـ (صاحب الطراز) ويرى الدوري(٤) أنه نشأ في خلافة عبد الملك على أن الجهشياري(٥) يشير لنشأته في خلافة هشام بن عبد الملك. وقد كان قبل ذلك معروفاً عند الفرس والروم وفي عهد الدولة الإسلامية أخضع هذا الديوان للضوابط الشرعية حيث حرم وضع الصور والعبارات التي لا تتوافق ومتطلبات الشريعة في اللباس الإسلامي، واستعاضوا عنها كتابة بالخط العربي والآيات القرآنية وذكر الأسماء عليها.

حركة التعريب: ثم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان تعريب الدواوين والسكة والطراز والورق (الكاغد).

تعريب الدواوين: كانت غالب الدواوين قبل عهد الخليفة عبد الملك تكتب بلغات أجنبية. منها الفارسية في العراق والشرق، والرومية في الشام، والقبطية في مصر، وبقيت على

---

(١) الجهشياري: ص٢٢، الفخري: الآداب السلطانية ص٧٩، ابن خلدون ج٢/ ٦٤٥.

(٢) انظر: الطبري ج٣/ ٢٧٧، ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦٤٣. وعمر رضي الله عنه أول من ختم بالطين. وكان يعرف في عهد الخلافة العباسية بطين الختم ويجلب من سيراف، مقدمة ابن خلدون ج٢/ ٦٤٥.

(٣) الطراز: وهي أن تكتب أسماء الخلفاء والسلاطين وعلاماتهم وشعاراتهم على أثوابهم من الحرير أو الديباج (ابن خلدون: المقدمة).

(٤) الدوري: النظم الإسلامية ص١٩٧.

(٥) الجهشياري: ص٦٠.

حالها حتى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي شعر بأهمية استكمال سيادة الدولة بسيادة لغتها وحضارتها، مع أن الدواوين الأولى (الجند وبيت المال) والرسائل كانت تكتب باللغة العربية منذ نشأتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(١). أما الدواوين الأخرى التي وجدت في البلاد المفتوحة كديوان الخراج فقد أبقاها العرب على حالها، وهي المختصة بالجباية. وحساباتها حتى عهد الخليفة عبد الملك. ويبدو أن تعريب دواوين الخراج كان يقصد منه ضبط أعمالها والإشراف عليها منعا للغش والتزوير(٢). وحركة التعريب بذاتها أدت إلى إيجاد طبقة جديدة من الكتاب وإلى نهضة لغوية أدبية رائعة(٣).

بدأ عبد الملك عمله الجليل هذا بتعريب ديوان الخراج في الشام، من خلال كاتبه على الرسائل سليمان بن سعد الخشني. الذي حوّل هذا الديوان من الرومية إلى العربية(٤). سنة ٨١هـ، فكافأه عبد الملك بخراج الأردن مقابل هذا العمل حيث بلغ يومئذ حوالي ١٨٠ ألف دينار(٥).

وأما ديوان الخراج في العراق فقد عُرّب سابقا على تعريب ديوان خراج العاصمة، لأن أصل الديوان فارسي المصدر ولذلك عرب سنة عام ٧٨هـ خلال ولاية الحجاج بن يوسف حيث عهد إلى صالح بن عبد الرحمن بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية، وكان صالح يحذق الفارسية والعربية معا، وجعل له أجلا لذلك، فأتم صالح مهمته بنجاح، وفي رواية أخرى ذكر أن الحجاج أمر كاتبه (داذان فروخ) مقابل مائة ألف درهم، لكنه تظاهر بالعجز عن هذا العمل فأمسك عنه وأبى فدعا عليه إذ أنه قطع أصل الفارسية(٦).

وعربت دواوين الخراج المصرية في ولاية عبد الله بن عبد الملك خلال خلافة الوليد سنة ٨٧هـ وصرف (انشناس) عن الديوان. وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص(٧). غير أن ديوان الخراج في خراسان عُرّب متأخراً سنة ١٢٤هـ حيث كتب نصر بن

---

(١) الدميري: حياة الحيوان ج١ ص٧٦.

(٢) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص١٦٦.

(٣) الريس: الخراج والنظم المالية ص٢٢٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٢٠١ الجهشياري: الوزراء ص٤٠.

(٥) المصدر السابق والصحيفة، ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦١٥. الماوردي/ ١٧٩.

(٦) المصدر السابق نفسه ص٣٠٨-٣٠٩.

(٧) المقريزي: الخطط ج١ ص٩٨.

سيار إلى عامله «يوسف بن عمر». بتحويل هذا الديوان من الفارسية إلى العربية. ولا يستعان فيه من الكتاب بغير العرب. وقد قام بعملية التعريب الكاتب «إسحاق بن طليق». وهو من بني نهشل- وقد كان مع نصر بن سيار فأصبح خاصا بالديوان[1] وكان أثر التعريب عظيما على دولة الإسلام فقد أصبحت العربية لغة دواوين الخراج، الأمر الذي ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة، من جهة وساعد على شيوع اللغة العربية وانتشارها بين الموالي وأهل الذمة[2]. فأصبحت لغة السياسة والإدارة والاقتصاد فضلا عن كونها لغة الدين من جهة أخرى.

تعـريب السكـة (النقود): دفع نجاح عملية تعريب الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان إقدامه سنة ٨٣هـ على تعريب النقود، وسك عملة عربية إسلامية، بعد أن كان العرب يتعاملون حتى هذا التأريخ بالدنانير الذهبية البيزنطية والدراهم الفضية الفارسية. ويمكن القول أن أُولى فكرة للتعريب جاءت مبكرة منذ عهد الخلافة الراشدة. واستمرت محاولاتها طيلة العهود الإسلامية. بدأها الخليفة عمر بن الخطاب حين أمر بنقش الدراهم الكسروية وجعل عليها عبارة (الحمد لله) ونقش على بعضها الآخر عبارة (محمد رسول الله) أو (لا إله إلا الله وحده)، ثم ثبت معيارها وأوزانها[3]. كذلك نقش الخليفة عثمان على الدراهم عبارة (الله أكبر)[4]. أما علي بن أبي طالب فقد شغلته الفتنة عن نقش عبارات إسلامية على العملة المتداولة في بلاد الإسلام. ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة كتب إلى زياد بن أبيه والي العراق ليضرب عملة جديدة غير عملة عمر ينقش عليها اسمه[5]. ولما أعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في الحجاز ضرب دراهم ونقش على أحد وجهي الدرهم (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (أمر الله بالوفا والعدل)[6] وضرب أخوه مصعب سنة ٧٠هـ دراهم في العراق أعطاها للناس في العطاء[7]. ونقش على أحد

(١) الجهشياري: الوزراء ص٦٧.

(٢) الدوري: النظم الإسلامية ص١٩٩، علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص٥١٩.

(٣) المقريزي كتاب النقود ص٣٢.

(٤) المصدر السابق والصحيفة.

(٥) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧٣.

(٦) المصدر السابق والصحيفة

(٧) المقريزي ص٣٣.

وجهي الدرهم (بركة) وعلى الوجه الآخر كلمة: (الله)[1]. ولم يكن في الأمصار الإسلامية في بداية العهد الأموي دور سكة عربية إسلامية معترف بها قبل عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، بل كان لأمراء الولايات دور سك خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم. وكانت قيم النقد غير مستقرة الأمر الذي شجع على التزييف والتلاعب[2].

إن ما فعله عبد الملك والحجاج من تعريب للنقود جاء مبنيا على محاولات الخليفة عمر بن الخطاب الذي قدم أول فكرة نحو التعريب من جهة. ومن ثم تميز النقود المتداولة في الإسلام عـن غيرها. إلى جانـب توحيـد القيمة والوزن. ولما نظر عمر بن الخطاب إلى الدراهم الفارسية التي اختلفت أوزانها عشرة قراريط، أو اثني عشر قيراطا، أو عشرين قيراطا، فجمع ذلك فبلغ اثنين وأربعين فأخذ ثلثه أو (معدله) فكان أربعة عشر قيراطا فاعتمده وزناً شرعياً[3]. محدداً كاملا غير منقوص.[4] وروى البلاذري[5]. إن سعيد بن المسيب سأل: عن أول من ضرب الدنانير المنقوشة؟ فأجاب: عبد الملك بن مروان عام الجماعة سنة ٧٤هـ وضرب الدراهم بدأ في سنة ٧٥هـ ثم أمر بتعميمه في جميع النواحي سنة ٧٦هـ. وقال ابن الأثير[6] أنه لما صارت الخلافة إلى ملوك بني أمية وقد أغفلوا أمر المعاملة بما تشاغلوا به عن أمور نفوسهم، تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر، فعني عند الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم فضربت السكة في دمشق. ويرى بعض المؤرخين أن هناك صلة بين سوء العلاقات بين دولتي الإسلام والروم، وبين تفكير المسلمين في وضع عملة مستقلة[7] ويعلل هذا الإجراء بسبب الحرب التي أدت إلى انقطاع التجارة وقلة النقد، مما دعا عبد الملك إلى الشروع في إصدار عملة خاصة ليحقق للدولة استقلالها الاقتصادي من

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٤٨.

(٢) الخربوطلي تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ص٤٢٤.

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧١.

(٤) المقريزي كتاب النقود ص٣١-٣٣.

(٥) البلاذري فتوح البلدان ص٤٧١.

(٦) ابن الأثير الكامل ج٤ ص١٧٤ بولاق ١٢٩٠هـ.

(٧) الريس الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص٢٢١ الأتليدي أعلام الناس ص٢٧٤.

Gibbon The Decline and fall the roman Empire vol 5.p388

خلال إنشاء دارا لضرب النقد الإسلامي.

وقيل: إن الحرب اقترنت بمسألة خطيرة وأدى سوء العلاقات مساسا بالدين والمصلحة الاقتصادية. وهي الممثلة بالقراطيس (القراطيس) (ورق البردي) التي ذكرتها المصادر العربية وخلاصة هذه المسألة كما ذكر البلاذري[١] أن القراطيس كانت تؤخذ من مصر إلى بلاد الروم التي تضرب فيها الدنانير، وكانت الأقباط تكتب في رؤوس الطوامير (العمق) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح كما ترسم في صدرها الصليب فأمر عبد الملك أن يكتب في مكانها آية ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وغيرها من نصوص في ذكر الله، فكره ذلك ملك الروم واشتد عليه. فكتبت إلى الخليفة عبد الملك محذرا عليه هذا العمل بقوله: (إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابا نكرهه فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه)، قال: فكبر ذلك في صدر عبد الملك لأنه كره أن يدع سنة حسنة سنها، وإزاء هذا التهديد استشار من حوله فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بأن يحرم دنانيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككا، ويمنع أن يدخل من بلاد الروم شيء من القراطيس) فمكث حينا لا تحمل إليهم فانقطعت التجارة التي كان بها يتم التبادل بالأوراق والدنانير. ويبدو أن السبب المباشر الذي دفع عبد الملك إلى تعريب النقود يعود إلى توقف التجارة وانقطاع النقود، ثم رغبته في تحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة. فأنشأ دارا للضرب[٢]. ويعلل أمير علي[٣] هذا الإجراء بقوله: إن الدولة الإسلامية التي مضى عليها أكثر من نصف قرن منذ أيام التحرير الأولى لا يمكنها أن تظل معتمدة في نشاطها الاقتصادي المتزايد على النقد الأجنبي، كما أن العملة الفارسية كانت أدنى من وضع نظام ثابت لها. فأصبحت النقود عربية صرفة، وبعث بها عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف والي العراق حتى إذا فرغ من ضربه بعث بالسكة إلى سائر الأمصار، لتضرب الدراهم بها، وكان قد ضرب في دمشق دنانير من الذهب بدأت سنة ٧٣هـ واستكملة سنة ٧٨هـ كنقد إسلامي صرف بعد أن كانت كلها حتى ذلك التأريخ رومية[٤].

وكتب عبد الملك إلى عماله في الأمصار يأمرهم بأن يقسروا الناس على التعامل

---

(١) البلاذري فتوح ص٤٤٩.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص٩٨.

(٣) أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص١٦٤-١٦٥.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٧٢، ٤٧٣.

بالسكة الجديدة، وأن يتهددوا بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة، وأن يجمعوا النقود القديمة المتداولة حتى يحولها إلى سكة إسلامية[1].

الدواوين المستحدثة في العصر العباسي: حدث تغيير كبير في نظم الإدارة في العصر العباسي. نتيجة إفادتهم من العنصر الفارسي في إدارة الدولة. ثم تبع ذلك تطور وتحديث لدواوين الدولة ومؤسساتها. فأوجدوا دواوين جديدة بصورة تدريجية وبحسب مقتضيات الحاجة وزادوا في عملية الإشراف عليها باستحداث منصب الوزارة، حتى أصبح الوزير هو المهيمن على جميع دواوين الدولة، وأما التطورات التي أحدثها العباسيون على الدواوين فقد بدأها الخليفة أبو العباس حيث نظم دواوينها على أسس حديثة فجعل سجلات الدواوين في دفاتر بدلا من صحف متفرقة وحول ذلك يذكر. يذكر الجهشياري[2] إن خالد البرمكي قام بجمع ما في الدواوين من صحف وجعلها في دفاتر. وأنشأ المنصور ديوانا خاصا لحفظ أسماء من صودرت أموالهم من بني أمية وسمي بديوان المصادرات[3] ويبدو أن المصادرة كانت بالدرجة الأولى من أموال وضياع بني أمية التي صودرت منذ عهد أبي العباس السفاح.

كذلك استحدث الخليفة المهدي ديوان الأزمة سنة ١٦٢هـ[4] وهو ديوان صغير يشرف على أعمال الدواوين الأخرى لضبط حساباتها وتدقيقها. كذلك أنشأ المهدي ديوان زمام الأزمة سنة ١٦٨هـ لغاية الإشراف على دواوين الأزمة[5].ثم أنشأ المهدي ديوان المظالم للنظر في شكوى الرعية من الولاة بسبب ظلمهم وتعسفهم في الجباية، وكان يغلب على هذا الديوان أن ينظر في غلاء الأسعار وفي كثر إيداع الناس السجون من غير تدقيق في دعاويهم، وأحيانا كان ينظر فيما وقع ظلما من مصادرة أملاك بعض الناس[6]. من قبل المتنفذين في الدولة.

وأحدث الرشيد في عهده دواوين جديدة أهمها ديوان الصوافي، ومهمته النظر في

---

(١) الدميري: حياة الحيوان ج١ ص٧٦.

(٢) الجهشياري: ص٩٨.

(٣) اليعقوبي: تاريخ ج٣ ص١٢٧، الفخري ص١١٥.

(٤) الجهشياري: ص١٤٦.

(٥) الجهشياري ص١٦٨.

(٦) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٣١٧.

أمور الأراضي التابعة للدولة[1]. ويبدو أنه نفس الديوان الذي استحدثه عمر بن الخطاب في العراق لإدارة أملاك الدولة التي استصفاها المحررون من ممتلكات كسرى ومرازبته، وأراضي من قتل عنها أهلها أو هربوا عنها. كذلك استحدث ديوان الضياع، ومهمته إدارة ضياع الخليفة الخاصة وأسرته، وهي ضياع واسعة ومنتشرة في أرجاء الإمبراطورية العباسية[2]. ويرد أيضا ذكر ديوان الجهبذة في عهد الخليفة المأمون ويظهر أنه كان شعبة من بيت المال، ومهمته تدقيق حسابات بيت المال وتدقيق نوعية موارده[3]. ولما أكثر المعتصم من استخدام الغلمان الأتراك حملته كثرتهم ورغبته في ابتياعهم إلى إحداث (ديوان الموالي والغلمان) ويبدو أن هذا الديوان ينظر فضلا عن ذلك في شؤون الجواري والموالي المتصلين ببلاط الخليفة.

وظهر في العصر العباسي الثاني ما سمي بديوان الاستخراج، ومهمته متابعة أخبار الوزراء والكتاب والحجاب والعمال والولاة المتهمين بالرشوة والمحسوبية، وغرضه إحصاء أسمائهم، وتحديد أوضاعهم، ومصادرة أموالهم التي جمعوها من الحرام بأمر من الخليفة[4].

وهكذا وجدنا أن الدواوين نشأت بالأصل امتدادا للدواوين الأموية، ثم تطورت وتوسعت بسبب حاجة الدولة وتعدد أعمالها، ثم استحدثت دواوين جديدة خلال عهد الخلافة العباسية وعلا منصب صاحب الديوان. المتميز عن باقي موظفي الدولة بمميزات خاصة منها (الدراعة، الكرسي، المخدة، المسند) وجعل لهم عمامات من ألقابهم الشيخ. وله عمامات كبيرة تتفاوت في ضخامتها حسب مراتبهم، وقد أطلق على طبقة الكتاب أصحاب العمائم وفيما يلي أهم الدواوين في عهد الخلافة العباسية.

١- ديوان الزمام.

٢- ديوان المظالم.

٣- ديوان الشرطة والأحداث.

٤- ديوان المستغلات.

---

(١) الجهشياري ص١٦٦.

(٢) الجهشياري ص٢٧٧، الدوري: تاريخ العرق الاقتصادي ص٢٥-٢٧.

(٣) الدوري: النظم ص٢٠١.

(٤) صبحي الصالح: النظم ص٣١٧.

٥- ديوان البريد.

٦- ديوان الجند.

٧- ديوان العطاء.

٨- ديوان الموالي والغلمان.

٩- ديوان الدية.

١٠- ديوان الجهباز.

١١- ديوان الرسائل والإنشاء.

١٢- ديوان المكاتبات.

١٣- ديوان الخراج.

١٤- ديوان الطراز.

١٥- ديوان الاستخراج.

١٦- ديوان الخاتم.

ودواوين أخرى منها ديوان الصوافي، ديوان الفضّ، ديوان النفقات وديوان التوقيع.

الملاحظات على الدواوين في عهد الخلافة العباسية: استعان العباسيون في هذه الإدارة برجال أكفاء في الإدارة وخاصة من العنصر الفارسي لأنهم أصحاب الديوان. وأهمهم أبو سلمة الخلال الذي أصبحت مقاليد الأمور بيده، وخلفه خالد بن برمك الوزير الأول في دولة بني العباس الذي نظم الدواوين وجعل لها دفاتر خاصة (سجل). وزاد اهتمام العباسيين بديوان العراق. مركز عاصمة الخلافة، وقد استحدثوا دواوين جديدة وطوروا دواوين سابقة. كان غرضها ضبط الأمور وحماية الرعية. وتركزت الدواوين في بغداد وكل إمارات دولة الخلافة، واستحدثوا (ديوان الدار) الديوان الكبير وقد اشتمل على ثلاثة أقسام، ديوان المشرق وديوان المغرب وديوان السواد (العراق)، وقد تميزت دواوين الخلافة العباسية بأنها كانت أقرب إلى النظم الحديثة لعصرنا الحاضر حيث استدعتها حاجة الدولة واتساعها وتعدد مصالحها وتقدمها الحضاري.

البريد

البريد لغة واصطلاحا: قال صاحب الفخري: (البريد أن يجعل خيل مضمرات[1] في عدة أماكن، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرسا مستريحا، وكذلك يفعل في المكان الآخر، والآخر حتى يصل بسرعة وأما معناه لغة فالبريد اثنا عشر ميلا، وأظن أن الغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد هي هذا القدر[2]) ولفظ بريد قيل إنه عربي، ومعناه الرسول أو الثابت[3]، وقيل إنه فارسي معرب، وأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه محذوف الذنب: وذلك لأن فرس البريد كانوا يحذفون ذنبه ليمتاز بذلك عن غيره من الدواب الأخرى، قال امرئ القيس:

على كل مقصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا[4]

أو قيل أن البريد أصله من اللاتينية (**Veredu**) أي خيل وناقل البريد **Veredaril**

---

(١) تضمير الفرس أن تعلفه حتى يسمن ثم ترده إلى القوت – لسان العرب، القاموس.

(٢) الفخري لابن الطقطقي ص٧٩، وقال في صبح الأعشى ج١٤ ص٣٦٦: (أما معناه لغة فالمراد منه مسافة معلومة مقدرة باثني عشر ميلا)... وقد قدره الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنه أربعة فراسخ والفرسخ، ثلاثة أميال... وقد ضبط بعضهم ذلك بقوله:

إن البريد من الفـــــراسخ أربع والفرســــخ فثلاث أميال ضعوا

والميل ألف أي من الباعات أقل والباع أربــــــــع أذرع فتتبعوا

فالبريد = ٤ فراسخ = ١٢ ميلا = ١٢٠٠ باع = ٤٨٠٠٠ ذراع

حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح ص٦٤ وراجع لسان العرب.

(٣) قال في لسان العرب: (وبرد لي عليه كذا وكذا أي ثبت، ويقال: ما يرد لك على فلان... أي ما ثبت ووجب... والبريد الرسل على دواب البريد، والجمع برد، وبرد بريدا أرسله وفي الحديث: إنه ﷺ قال: إذا أبردتم إلى بريدا فاجعلوه حسن الوجه حسن الإسم، البريد الرسول، وإبراده إرساله..)

(٤) قال في صبح الأعشى ج١٤ ص٣٦٧: (ثم اختلف فيه فقيل: إنه عربي، وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مشتق من بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه وقيل من أبردته إذا أرسلته. وقيل من برد إذا ثبت: لأنه يأتي بها تستقر عليه الأخبار، يقال: اليوم يوم بارد سمومه أي ثابت. وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب. قال ابن الأثير في النهاية: وأصله بالفارسية (بريده دم) ومناه مقصوص الذنب...) وراجع لسان العرب، الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم ج٢ ص٤٠٤، الكامل للمبرد ج١ ص٢٣٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣.

أو لعلها معربة تدل على مسافة معلومة.

اقتصر الغرض من البريد في صدر الإسلام توصيل أوامر الخلفاء إلى ولاتهم وعمالهم، ونقل أخبار الولاة والعمال إلى الخلفاء. ثم توسعوا في اختصاصه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة: فهو كما ينقل أمره إلى ولاته وعماله، كان رقيبا عليهم، ينقل أخبارهم إليه، كذلك كان يتجسس على الأعداء، ويتعرف ما عندهم، فالبريد من هذا الوجه أشبه بقلم المخابرات في وزارة الدفاع الآن، قال الصاحب علاء الدين: (ومن جملة الأشياء وضعهم البريد بكل مكان طلبا لحفظ الأموال، وسرعة وصول الأخبار، ومتجددات الأحوال، فكان البريد مقصورا على أغراض الدولة، ثم أبيح فيما بعد للرعية أن ينتفعوا به في نقل رسائلهم) [١].

نشأة البريد: والبريد اختراع قديم جدا، عرفه الفرس والرومان، ولكن الفضل في تقدمه يرجع إلى ما قام به دارا الأول من ربط أجزاء الإمبراطورية الفارسية في الشرق الأدنى[٢].

البريد في صدر الإسلام: كان البريد معروفا عند ملوك العرب في الجاهلية[٣]، وكذلك كان معروفا في صدر الإسلام، ففي الحديث عن ﷺ قال: (إذا أبردتم إلي بريدا فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم[٤])، وقد ذكر المؤرخون أن المسلمين بينما كانوا يقاتلون الروم في موقعة اليرموك جاء البريد يحمل وفاة أبي بكر، وتولية عمر رضي الله عنهما، وعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجند، وتولية أبي عبيدة بن الجراح مكانه[٥]. كذلك عُرف في عهد الخلفاء الراشدين: مثله: البريدي من السعاة (المشاة) وراكبي الدواب، كذلك رتب عمر بن الخطاب البرد الحربية، وعرف في عهدهم كذلك: الفيج (وهو لقب البريدي الساعي على قدميه) والشاكري (الذي يركب دواب البريد، والجمازات الذي يركب الجمال

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص١٧٩.

(٢) صبح الأعشى ج١٤ ص٣٦٧ كثير من مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل، ومنها الفيج وهون الساعي على قدميه، والشاكري بمعنى راكب البريد، والاسكدار وهو السجل الذي يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات، ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها – الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم ج٢ ص٤٠٤

(٣) الكامل للمبرد ج١ ص٢٣٢ ط التقدم سنة ١٣٢٣.

(٤) لسان العرب.

(٥) الطبري ج٤ ص٣٥، ط التجارية.

أو الجمل أو الجُمال).

البريد في عهد الأمويين: يعد الخليفة معاوية أول من عنى بالبريد في الإسلام لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها: فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم، وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد[1] ولكن أمره أُحكم، ونُظم في عهد عبد الملك بن مروان، حتى أصبح أداة هامة في إدارة شؤون الدولة، وقد أثر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: (وليتك ما حضر بابي إلا أربعة المؤذن فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشر ما أتى به، ولو وجد خيرا لنام، والبريد، فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك، فافتح الباب، وأرفع الحجاب، وخل بين الناس وبين الدخول) (٢). وقد زادت أهمية صاحب البريد بعد أن وضعت له شروط. أهمها ثقة الخليفة فيه من جهة. ثم أهمية منصبه واتساع صلاحياته حتى أصبح عين الخليفة على كل ما يجري في الإمارة وساعده في ذلك كتاب ومساعدين ومترجمين.

البريد في عهد العباسيين: أهتم العباسيون في البريد، وعنوا به عناية كبرى، واعتمدوا عليه كثيرا في إدارة شؤون دولتهم، وكان أبو جعفر المنصور يقول: (ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم، فقيل له: يا أمير المؤمنين من هم؟ قال: أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية، فإني عن ظلمها غني، والرابع ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات، يقول في كل مرة آه آه فقيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلي بخبر هؤلاء على الصحة) [3].

ولقد بلغ من انتظام أعمال البريد في زمانه أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم: من بعد صلاة الصبح، ومن بعد صلاة المغرب، فكان ملما بأحوال دولته إلماما تاما، فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى تقصيرا

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ١٣٤ط منير، صبح الأعشى ج١٤ ص٣٦٨.

(٢) صبح الأعشى ج١٤ ص٣٦٨، ويذكر هذا القول عن زياد أيضا، وراجع العقد الفريد ج١ ص٧٩ ط لجنة التأليف، وفي رواية إلا عن ثلاثة، راجع مقدمة ابن خلدون ج٢ ص٦٠٥.

(٣) الطبري ج٦ ص٣١٣ ط الاستقامة.

من أحد عماله لأمه ووبخه، أو عزله عن عمله مهانا. وبذلك اتسعت صلاحيات البريد وصاحب البريد لتشمل نقل الكتب والرسائل من الخليفة، ونقل المؤن والجنود والسفراء. ونقل كل الأخبار الدينية والمدنية إلى الخليفة خاصة بعد أن أصبحت أهمية صاحب البريد على حساب الأمير وصاحب الشرف وصاحب الخراج. ويقول فون كريمر.

يقول فون كريمر: (إنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة، بل والإشراف على أعمال الوالي، كما كان بعبارة أخرى مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها[١]، فكان الخلفاء يعدون عمال البريد عونا لهم على الإشراف على أمور دولتهم وبواسطتهم كانوا يقفون على أعمال ولاتهم وسائر رجال دولتهم) ومن ثم نرى أن الخلفاء كانوا لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية: لأن على ما ينقلونه من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم، أو بمعاصريهم[٢].

يعد الخليفة أبو جعفر المنصور أول منظم لديوان البريد في عهد الخلافة العباسية، وقد أفرد للبريد في بغداد ديوانا مركزياً خاصا له ومرتبطا بجميع أنحاء الدولة. ونظمت في عهده برودا حربية خاصة بشؤون الدولة ومواجهة الخارجين عن نفوذها. لذلك تخير الخلفاء أصحاب البريد، لأهمية منصبهم وزادت النفقات عليه لأنه أصبح عين الخليفة. كذلك تم استخدام وسائل متقدمة للبريد مثل الحمام الزاجل الذي اعتمد في عهد الخليفة (المعتصم) كوسيلة من وسائل النقل الجوي. كذلك استخدم نظام الخاتم أو التوقيع على البريد، ووضعت عليه علامة خاصة ومميزة منها عبارات دينية وأطلق على ديوان البريد ديوان الرسائل.

أنواع البريد ووسائله: تعددت الوسائل وتطورت حسب حاجة دولة الخلافة أهمها البريد البري (بالدواب) والسعاة، البريد الحربي، البريد الجوي. ثم المراسلة بالنار والبريد البحري والنهري.

(١) البريد الحربي: بدأه الخليفة عمر بن الخطاب ثم تطور على عهد الخلافة الأموية والعباسية وحول ذلك ذكر آدم متز بقوله وكانت تنظم أثناء الحروب برد حربية لشؤون الحكومة: فمن ذلك أنه لما استطال صاحب القيروان على أرض مصر أنهض المقتدر مؤنسا

---

(١) انظر كتاب النظم الإسلامية: للدكتور حسن إبراهيم وزميله ص٢٥٧.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي للأستاذ جورجي زيدان ص٢٣٩.

الخادم، وندب معه العساكر لمحاربة صاحب القيروان عام ٣٠٢هـ-٩١٤م، وتقدم علي بن عيسى بترتيب الجمازات[١] من من مصر إلى بغداد لتبلغه كل يوم[٢] وظاهر النص أن البرد الحربية تعددت مهامها بين المدنية والعسكرية. فهي توصل الأخبار والجند والمؤن والسلاح والمد وتتابع سير المعارك والنصر هذا وأصبح للبريد ديوان مركزي كبير في بغداد لتسلم البريد والتقارير المرسلة من أنحاء البلاد، وكان صاحب البريد يعرض على الخليفة الهام منها، ويرسل ما عداها إلى الدواوين المختلفة[٣]. كما كان له محطات[٤] على طول الطريق، وقد ساعدت معالم هذه الطرق التي أقامتها الحكومة التجار في أسفارهم، كذلك كانت نواة للبحوث الجغرافية التي ولّدت كتب المسالك والممالك والمعاجم. إلا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة، وليس لنقل مراسلات الجمهور، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة، ومع ذلك (فقد كانت تحمل فيه إلى جانب الرسائل، أشياء خاصة تبعث للسلطان مما يحتاج إلى سرعة الإيصال، فمن ذلك أن البريد كان يحمل إلى المأمون ثمارا غضة من كابل أثناء ولايته على خراسان) [٥]ولأهمية هذا المنصب وخطورته. عمد بعض الخلفاء والأمراء إلى الحيطة والحذر: فجعلوا بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا، فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كان متسما بتلك العلامة، ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه: إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه، كان حدث حينما دعا المنصور إليه أبا مسلم الخراساني، فقد خاف عاقبة تلك الدعوة، ولما عزم على المضي للخليفة استخلف على عسكره أبا نصر بن الهيثم وقال له: إن جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو كتابي، وإن كان مختوما بكل الخاتم فاعلم أنه ليس ختمي)، وحين مثل أبو مسلم بين يدي المنصور قتله، وكتب على لسانه كتابا لابن الهيثم، وختمه بخاتم أبي مسلم، فلما وصله

---

(١) جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزا وجمزى وهو عدو دون الحضر، وفوق العنق وبعير جماز وناقة جمازة... والجمز الذي يركب الجمازة – القاموس، لسان العرب.

(٢) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج٢ ص٤١٤.

(٣) راجع الإدارة العربية للحسيني ص٢٩٩.

(٤) وبلغ عدد سكك (محطات) البريد في إبان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق رجالها ١٥٩.١٠٠ دينارا في السنة.. وفي أيام الدولة الأموية كان ينفق على البريد أربعة ملايين درهم – ابن خرداذبة ص١٥٣، تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص٢٤١.

(٥) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج٢ ص٤١٤.

الكتاب مختوما بكل الخاتم عرف أن أبا مسلم لم يكتبه[١].

(٢) البريد الجوي (الحمام الزاجل): لم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البري، ولكنهم خطوا خطوات واسعة في تنظيم نقله وسرعة وصوله، واستعملوا في ذلك الحمام الزاجل، وقد اعتنى خلفاء بني العباس كالمهدي ثالث خلفائهم بهذا الحمام الرسائلي، وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق، وبالغوا في ائتمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار[٢].

وفي أوائل القرن الرابع الهجري نجد أخبارا كثيرة عن استخدام الحمام في نقل البريد، وسرعة توصيل الأخبار، ومن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة عام ٣٠٤-٩١٦م، وروسل بالقدوم على الخليفة، كتب على عدة أطيار بخروجه من يومه، وذكر الثعالبي: أن الرسائل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد، وواسط، والبصرة، والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة[٣].

(٣) المراسلة بالنار والدخان: استعمل المسلمون في المراسلة طريقة أسرع من الحمام، وهي بناء المناظر أو المنائر، كالأبراج العالية على المرتفعات، ونقل الإشارات عليها بإشعال النار أو نحوه فينتقل الخبر بها من منظرة إلى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب. واستخدم هذه الطريقة الحجاج بن يوسف، واتخذ المناظر بينه وبين قزوين، وكان إذا دخن أهل قزوين دخلت المناظر إن كان نهارا، وإن كان ليلا أشعلوا نارا، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر في وقت قصير[٤]، واستخدمها المسلمون (استخداما حسنا في القرن الثالث الهجري على الساحل الإفريقي الشمالي، فقد كانت الرسائل تصل من الإسكندرية إلى سبتة في ليل واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات، ولم يبطل هذا الخط الأخير إلا في سنة ٤٤٠هـ،١٠٤٨م حينما ثار المغرب على الفاطميين، ولم يعد في إمكانهم حماية الحصون من البدو) [٥].

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ج٢ ص٤١٦.

(٢) صبح الأعشى ج١٤ ص٣٩٠.

(٣) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج٢ ص٤١٦.

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي للأستاذ جورج زيدان ص٢٤٢.

(٥) الحضارة الإسلامية للأستاذ آدم متز ج٢ ص٤١٦.

وقد ذكر القلقشندي فصلا مفيدا عن هذه المناور ختمه بكلمة قال فيها: (على أن مرتبها بهذه المملكة أولا أني بحكمة ملوكية لا تساوي مقدارا، إذ قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى، وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يأتي من الخبر بما هو أسرع في البريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام، وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليلة) [١].

(٤) البريد النهري والبحري تعددت وسائله وسفنه ومحطاته، خاصة في البلاد التي تقع على ساحل الأنهار والبحار: واختلفت صناعة السفن من بحر إلى آخر حسب، نوعية المياه (الحلوة المالحة). وتحددت مهامه بنقل الجند والمؤن والسلاح والأخبار، ومجابهة الأعداء وخوض المعارك البحرية.

الخلاصة: مما تقدم يمكن القول، إن وظائف البريد تعددت وتنوعت وتطورت تبعا لتطور حاجة الدولة. كذلك تعددت وسائله حتى أضحى موازيا للبريد في عصرنا. أما أهم وظائفه فهي. نقل الرسائل والكتب الحكومية للداخل والخارج. ثم نقل الجند والمؤن والسلاح والأفراد والأمراء والولاة. ونقل أخبار المعارك ومتجددات الأحوال العامة في دولة الخلافة. إلى جانب نقل كتب التولية والعزل. ونقل المعلومات المدنية والعسكرية إلى الخليفة (مدير المخابرات العسكرية والمدنية) حتى لقب صاحب هذا الاختصاص بصاحب الخبر[٢].

---

(١) صبح الأعشى ج١٤ ص٤٠٠.

(٢) المقريزي: الخطط: ج٤/ ٨٨.

الحجابة

الحاجب: هو الذي يتولى الإذن للناس في الدخول على السلطان والحديث معه في شؤون حوائجهم.

الحجابة في صدر الإسلام: منصب استحدث في عهد الخلافة الأموية. فلم يعرف في عهد النبي ﷺ وعهد الخلافة الراشدة مثل هذا المنصب. ولم يحجب أحدا عن الرسول والخلفاء ولم يمنع أحد من الدخول عليهم والمعروف أن الخليفة معاوية هو أول من استحدث هذا المنصب.

عهد الخلافة الأموية: اتخذ معاوية ﷺ ومن جاء بعده من الخلفاء وظيفة (الحجاب) وسبب اختيار معاوية هذا المنصب هو. مقتل ثلاثة من الخلفاء الراشدين. أو ربما تشبها لما كان عند الفرس والأكاسرة، أو لغرض حماية الخلفاء وعدم تعرضهم للاغتيالات إلى جانب تلافي وقوف الناس وازدحامهم على أبواب الخلفاء وشغلهم عن النظر في أمور الدولة. وحول أسباب استحداث هذا المنصب يذكر ابن خلدون (وأما مدافعة ذوي الحاجات عن أبوابهم فكان محظورا بالشريعة فلم يفعلوه، فلما انقلبت الخلافة إلى الملك وجاءت رسوم السلطان وألقابه، كان أول شيء بدئ به في الدولة شأن الباب، وسده دون الجمهور، بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال الخوارج وغيرهم، كما وقع بعمر أو علي أو معاوية، وعمرو بن العاص وغيرهم، مع ما فتحه من ازدحام الناس عليهم، وشغلهم عن المهمات، فاتخذوا من يقوم لهم بذلك، وسموه الحاجب[1].

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء في عصرنا وكان يشغل منصبا ساميا في البلاط. ومهمته إدخال الناس على الخليفة حسب مراكزهم وحسب أهميتهم وحول ذلك يذكر ابن خلدون: (كان مخصوصا في زمن الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة، ويغلق بابه دونهم، ويفتحه لهم على قدره في مواقيته) مراعيا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم. لقوله تعالى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

الحاجب في عهد الخلافة الأموية: ذكر المؤرخون أن أول من استحدث هذا المنصب الخليفة معاوية ولأهمية هذا المنصب وخطورته: فقد تخير الخلفاء الأموية حجابهم من أصحاب الكتابة والنسب العريق، والأمانة والصدق وحسن المظهر، والمعرفة بأحوال

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦٠٥-٦٠٦ وما بعدها.

الناس وقدرهم. وحول ذلك يوصي الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بن مروان حيث ولاه على مصر فيقول له: (...وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه، لتكون أنت الذي تأذن له أو ترده...)[1]وفي أمر الخليفة عبد الملك لحاجبه يبين له مواقيت الدخول عليه إلا في حالات منها قوله: (قد وليتك حجابة بابي إلا عن ثلاثة: المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر جاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد)[2]هذا فقد اشتهر عدد من الحجاب في عهد الخلافة الأموية.

أشهرهم: خالد وسعيد: موليا الخليفة عبد الملك بن مروان. أبو عسكر مولى الخليفة سليمان بن عبد الملك وحاجبه وغيرهم.

مجلس الخليفة: ينعقد في قاعة أو بهو كبير، ترخى على جدرانه الستائر الحريرية، وعلى أرضه تفرش الأبسطة والوسائد، وفي أطرافه مناور من الذهب والفضة وموضوع عليها الشموع. وبين قاعة الاستقبال ومجلس الخليفة ستائر تفصل بين الجلساء ومجلس الخليفة. ويبدأ دخول الناس على الخليفة بعد فتح الستائر في بداية النهار، حتى إذا انتصف، وضع الطعام ورفعت الستور. وانتهى دخول الناس على الخليفة.

الحجابة في الخلافة العباسية: اتخذ العباسيون الحجاب وبالغوا فيها تشبها بالأكاسرة وحماية لأنفسهم خاصة من الساخطين عليهم. وقد زادوا في منع الناس من ملاقاتهم إلا فيما عظم من الأمور. وزادت أهمية الحجاب بعد الخليفة المهدي وارتفعت مقاماتهم حتى علت على منصب الوزراء. وصار بمجلس الخليفة – داران (دار الخاصة ودار العامة) وحاجب الخاصة وحاجب العامة. ثم استحدث العباسيون حاجبا ثالثا لقبوه الحاجب الأكبر وهو يساوي منصب رئيس الوزراء[3]. كذلك زادت اختصاصات الحاجب حتى وصل بهم الأمر: أخذ البيعة لولاة العهد (الربيع – أخذ البيعة للمهدي)، وتعيين الوزراء للخليفة المهدي (يعقوب بن داود) من قبل الربيع بن يونس. وأعرق حجاب الخلافة العباسية. الربيع بن يونس وولده الفضل، وعباس بن الفضل حيث أشرفوا على

---

(١) المحاسن والمساوئ/ ج١/ ١٢٤. الفخري في الآداب السلطانية: ٩٢.

(٢) ابن خلدون. المقدمة ٦٠٥.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٦٨٨-٦٨٩.

الدواوين وتدبير أمور الدولة.

وقد علت منزله الحاجب وزادت اختصاصاته حتى غدا يستشار في كثير من مهام الدولة وفي شئون توجيه سياستها وتدخلوا بالوشاية وصولا لمصالحهم الخاصة وتدخلوا في تعيين الوزراء وعزلهم وأخذ البيع والخلع لولاة العهد وألزموا أصحاب الدواوين بالرجوع إليهم في كل أمور الدولة[1]. ومن أمثلة الحجاب الذين استبدوا بنفوذهم في الدولة (حجر بن ياقوت)[2]وحول زيادة اختصاصات الحاجب ذكر مسكويه في كتابه (تجارب الأمم) «غلب محمد بن ياقوت على تدبير الأمور، ونظره في جباية الأموال، وحضور أصحاب الدواوين مجلسه، وتفرده بما يعمله الوزراء»[3].

---

(١) كتاب المحاسن والمساوئ ج١/ ١٢٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) انظر: د. حسن إبراهيم حسن. تاريخ الحضارة الإسلامية.

الكتابة

عرفت الكتابة قبل الإسلام استدلالا بالصكوك، والمبايعات، ووثيقة المقاطعة لقبيلة الرسول ﷺ واتصال العرب بالأمم الأخرى ثقافة وتجارة. وذكرت أسماء كثيرة لكتاب عرفوا في الجاهلية والإسلام، أشهرهم كتاب الوحي منهم: عمر، وعثمان، علي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت أحد الذين كتبوا للرسول ﷺ في تدوين القرآن(١). وفي الرسائل التي أرسلها إلى الملوك والأمراء وبعضهم كان يكتب له في حوائجه(٢).

الكتابة في عهد الخلافة الراشدة: ظهرا بتوالي الأيام أن الأعباء التي كن يقوم بها الوزير مرهقة ولا يستطيع القيام بها لوحده. لذلك أصبح من الضروري تعيين موظفين يعينون الوزير للإشراف على الدواوين(٣). لذلك ظهرت أهمية الكتابة وأهمية من يتولاها.

حتى أضحى الكاتب من أكبر أعوان الخليفة وقال ابن خلدون: (إن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربع، لأنها: إما أن تكون في أمور حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور الحماية والمطالبة. وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن بعد عنه في المكان أو في الزمان، وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه، وصاحب هذا هو الكاتب. وإما أن تكون في أمور جباية المال وإنفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه...، وصاحب هذا هو صاحب المال والجباية. وإما أن يكون في مدفعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجع لصاحب الباب الذي يحجبه) ولأهمية هذا المنصب حددت شروط لمن يتولاها وقد ظهر ذلك في عهد الرسول ﷺ حيث كان يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط، وكان أغلبهم يعبر عن رأيه بأبلغ العبارات. وكان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وسعيد بن العاص، يكتبون القرآن ويحررون الكتب التي كان الرسول الكريم يرسلها إلى الملوك والأمراء.

---

(١) الطبري: ج٢/ ٤٢، البلاذري: فتوح البلدان/ ٤٧٨. المسعودي: الإشراف والتنبيه ص٢٤٥. يذكر أنه كان للنبي ﷺ نيف وثلاثون كاتبا ج١/ ص٩٢.

(٢) البلاذري: التنبيه والإشراف ص٢٤٥، القلقشندي. صبح الأعش ج١/ ص٩٢. ويذكر الطبري في تاريخه ج٢/ ٤٢ أن أبي بن كعب أو من كتب للنبي ﷺ، أبي الفداء تاريخه/ ج١/ ١٥٤.

(٣) الوزارات في العصر الحديث.

الكتابة في عهد الخلافة الراشدة: لما ولي أبو بكر الخلافة، اتخذ كتابا له من الصحابة أشهرهم عثمان بن عفان رضي الله عنه[1]، واتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم، ولما اتسعت الدولة عين لكل ولاية كاتب في ديوانها، وكان الكاتب يكتب في ديوان الجند وبيت المال كذلك اتخذ الخليفة عثمان مروان بن الحكم. كاتبا له ولشدة اهتمام الخلفاء بالكتاب واختيارهم، روى الجهشياري أن علي بن أبي طالب قال لكاتبه: (يا عبد الله، ألق[2] دواتك، وأطل شباة[3] قلمك، وفرج بين السطور وقرمط[4] بين الحروف) [5].

ملاحظات حول نظام الكتابة في عهد الخلافة الراشدة: أولا: جاءت حاجة الدولة للكتاب بعد زيادة أعباء الوزراء واتساع ميدان دولة الخلافة. ثانيا: عين الخلفاء الكتاب وقد حصرت في أمر الجند وأمر بيت المال والعطاء والخراج والرسائل. ثالثا: تخير الخلفاء كتابهم بسبب أهمية هذا المنصب وخطورته وحددوا شروطا لمن يتولاها.

الكتابة في عهد الأمويين: ولما انتقلت الخلافة إلى بني أمية، تعدد الكتاب لتعدد مصالح الدولة، واشتهر منهم خمسة هم: كاتب الرسائل، وكاتب الخراج، وكاتب الجند، وكاتب الشرطة، وكاتب القاضي. وكان كاتب الرسائل أهم هؤلاء الكتاب. وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين[6]. ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم في عهد بني أمية.

ومن الكتاب الذين ذاع صيتهم في عهد بني أمية، زياد بن أبيه، كاتب أبي موسى الأشعري. وسالم كاتب هشام بن عبد الملك. وعبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمد.

الكتابة في عهد الخلافة العباسية: استمر في عهدهم الكتاب الخمسة وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة، وكثيرا ما كان يتولى الخليفة ذلك بنفسه، فقد أثر عن أبي جعفر المنصور أنه لما جاءه كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي، هم

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج١/ ص٩٢.

(٢) ألق الدواة أيلقيها، أصلح مدادها.

(٣)بفتح الشين: سن القلم.

(٤)القرمطة: الدقة في الكتابة والتقريب بين الحروف.

(٥) كتاب الوزراء والكتاب ص٢٣.

(٦)مقدمة ابن خلدون ص٢٠٥-٢٠٦.

كاتبه أن يجيبه، فقال له المنصور: «لا! بل أنا أجيبه إذا تقارعنا على الأحساب فدعني وإياه». كذلك كان الوزير يتولى الكتابة أحيانا. وتولى كاتب الرسائل مركز الوزير فأخذ يذيع البراءات والمراسيم.

وكان ملوك فارس يسمون كتاب الرسائل تراجمة الملوك، وكانوا يقولون لهم: لا تحملنكم الرغبة في تخفيف الكلام على حذف معانيه، وترك ترتيبه والإبلاغ فيه، وتوهين حججه.

وكان ديوان الرسائل في عهد العباسيين من الدواوين الهامة في الدولة. وكانت مهنة صاحب هذا الديوان، ومركزه لا يقل عن مركز الوزير، في إذاعة المراسيم والبراءات، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية وختمها بخاتمه. كما كان كاتب الرسائل يجلس مع الخليفة في مجلس القضاء للنظر في المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة. وقد جرت العادة أن يتسلم الشاكي أو المدعي صورة من الحكم، ثم تحفظ الصورة الأصلية في دار السجلات. وقد قضت طبيعة العمل المتصل بهذا الديوان وماله من أهمية وخطر، وحرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ، الخلفاء كانوا يختارون الكتاب من رجال الأدب من أعرق الأسر ممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب.

وقد زخر العصر العباسي الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم. فقد اشتهر منهم الربيع بن يونس في عهد المنصور يحيى بن خالد البرمكي والفضل بن الربيع في عهد هارون الرشيد، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يوسف في عهد المأمون، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر في عهد المعتصم والواثق.

ارتفعت في عهد الخلافة العباسية منزلة الكتابة والكاتب في أنه إنفرد بالأمر دون الخليفة، فكان يصدر السجلات، ويكتب اسمه في آخرها (توقيعا) ويختم عليها بخاتم السلطان، ثم صارت الكتابة إلى وزرائهم وكان الوزير يجلس بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله، ويوقع على القصص والشكاوي المرفوعة إليه[(١)]. وأول من وقع الرقاع والقصص بين يدي الخليفة (جعفر بن يحيى البرمكي) بعدما أطلق له الخليفة الرشيد في كل

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦٠٩.

أمور الدولة ومقاليدها[1]. وفي أخريات دولة بني العباس استقلت الكتابة، وعهد فيها إلى غير الوزراء. وكانوا ببغداد يلقبون (كتاب الإنشاء). وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الوزراء... أو كاتب السير، وأوكل أمور هذا الديوان إلى الوزير وكانوا يسمونه (ديوانه العزيز) وهو الذي يخاطبه الملوك في مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية في هذه الأيام[2]. وقد تخير الخلفاء كتابهم لسمو هذه المرتبة. من أرفع الطبقات وأهل المروءة والحشمة وزيادة العلم وعارضة البلاغة[3]. وأحسن من كتب في صفات الكتاب. عبد الحميد الكاتب برسالة أو رد نصها ابن خلدون[4]. يقوله: (فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآدات، وتفقهوا في الدين، وأبدأ ويعلم كتاب الله عز وجل والفرائش، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وأرووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هومكم) [5].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦١٨.

(٢) جرجي زيدان – تاريخ التمدن ١٩٦٠.

(٣) ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦١٩.

(٤) ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦٢٠-٦٢٥.

(٥) ابن خلدون المقدمة ج٢/ ٦٢١.

الفصل الرابع

النظام القضائي

القضاء

الحسبة

المظالم

النظام القضائي

القضاء في اللغة والاصطلاح:

القضاء: من الوظائف الداخلة تحت الخلافة إلا أنه بالأحكام الشرعية الملتقاة من الكتاب والسنة، فكان ذلك من وظائف الخلافة ونموذجا في عمومها.

القضاء لغة: (الانقطاع) وجاءت كلمة القضاء من (قضى) بمعنى مات وانقطع، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] أو أراد أمرا: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ [غافر: ٦٨] أو بمعنى اكتفى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] وتأتي بمعنى الحكم ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] والمعنى الأخير في الآية هو المقصود في القضاء.

القضاء اصطلاحا: فيقول ابن خلدون[١]: (القضاء منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعي وقطعا للنزاع، ويقول الجرجاني في (التعريفات): (القضاء في الخصومة إظهار ما هو ثابت). ويقول آخر (حكم حاكم أو محكم بأمر ثبت عنده)[٢]. والتعريف العام للقضاء: سلطة تفصل بين المتخاصمين وحماية الحقوق العامة وفق الأحكام الشرعية. وعرفه الجرجاني: (القضاء في الخصومة إظهار ما هو ثابت)

القضاء قبل الإسلام. لم يكن النظام القضائي الذي وجدناه في عصر صدر الإسلام مشابهاً للقضاء في أمر الأحكام عند العرب قبل الإسلام لأنه قائماً على النظام القبلي. ولم يساعد هذا النظام على إيجاد سلطة تشريعية فيها، بل سادت في القبيلة العادات والتقاليد وكان للعرب أكبر الأثر في ذلك وكان لكل قبيلة (شيخ) أو حاكم يحكم بين من تنازع من أفرادها بحسب تقاليدهم وتجاربهم، وكانت بعض القبائل تحتكم إلى شيخها أو كانوا يحتكمون أحيانا إلى الكهان والعرافين، فكانوا كلما عرفوا رجلا بسداد الرأي وصحة الحكم ووفرة العلم احتكموا له، وكان المتخاصمون غير ملتزمين بتنفيذ أحكامهم[٣] وكانت حكومة قريش يقوم فيها بما بشبه ما يقوم به القضاء فقد كان يحتكم إليها القريشيون

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٥٦٧.

(٢) أحمد المبارك: نظام القضاء في الإسلام ص٥ طبع أبو ظبي.

(٣) أحمد أمين: فجر الإسلام ص٢٧٧.

وغيرهم من قبائل العرب فيما كان يقع بينهم من الخصومات. وأشهر من تولى القضاء قبل الإسلام وهاشم بن عبد مناف، وأبو لهب، وقس بن ساعدة الأيادي وأمية بن أبي الصلت، وزهير بن أبي سلمى.

القضاء في عهد الرسول ﷺ: فلما جاء الإسلام تولى الرسول ﷺ في المدينة الفصل في الخصومات بدليل قوله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[المائدة: ٤٨] وفرض نفسه حاكما أعلى وقاضيا بموجب ما جاء في إحدى بنود الصحيفة الذي عقده الرسول بين المسلمين، وبين أهل المدينة من اليهود والمشركين جاء فيه (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله والي محمد رسول الله)[١].

وكان النبي ﷺ ينيب عنه أحيانا أحد أصحابه للنظر في الخصومات، كما كان يرسل بعضهم لحسم الخصومات، فلما قلد عليا على قضاء اليمن قال له «إذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقضين حتى تسمع من الظيخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء»[٢] كما علم أصحابه أساليب التظلم والشكوى بقوله: «البينة على من ادعى واليمين على من أنكر»[٣].

وكان حكم الرسول ﷺ مقترنا بالتنفيذ الذي لا حاجة معه إلى استئناف كما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾[النساء: ٦٥] وقد جعل الإيمان الكامل بإمارة قبول التحكيم وقد نبغ في عهد الرسول ﷺ ستة قضاة من كبار الصحابة هم: علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وغيرهم ولم يؤثر عن عهد الرسول ﷺ تخصيص رجلا للقضاء بل كان يعهد لبعض أصحابه. لكنه أذن لبعض الصحابة بالقضاء والفتيا. وقد اشتهر في عهده حوالي ١٣١ صحابيا في القضاء، نبغ منهم ستة ومن النساء عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وأقر رسول الله ﷺ عدة طرق للإثبات. هي البينة، اليمين، الكتابة، شهادة الشهود والعدول، الفراسة والقرعة، وأقر كذلك أصول القضاء. اعتمادا على الأصول الأولى خاصة الكتاب والسنة ثم الاجتهاد.

---

(١) ابن هشام: السيرة ج١ ص٣٤١.

(٢) صبحي الصالح: النظم ص٣١٩.

(٣) المصدر السابق ص٣٢٠.

القضاء في عصر الراشدين: أسند الصديق أبي بكر أمور القضاء إلى عمر بن الخطاب ولكنه لم يلقبه بـ(القاضي)[1] ولما تولى عمر الخلافة وتوسعت الدولة الإسلامية في عهده، واختلط العرب بسكان البلاد المفتوحة، ازدادت القضايا في هذه الأمصار وتعذر على الخليفة النظر فيها، وكذلك الولاة ففصل عمر بين القضاء والولاية، وشرع في تعيين القضاة في البلاد المفتوحة، فولى أبا الدرداء قضاء المدينة وشريحا الكندي قضاء الكوفة وعثمان بن أبي العاص قضاء مصر، وأبا موسى الأشعري قضاء البصرة[2].

ويعد الكتاب الذي بعثه عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري مصدرا من مصادر الأحكام يرجع إليه القضاة، ويستقي منه الفقهاء أحكامهم، ويعد دستورا في أصل سياسة القضاء الإسلامي هذا نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لإنفاذ له وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضية أمس فراجعت فيه اليوم عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم أعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بنظائرها واجعل لمن ادعى حقا أو بينة أمرا ينتهي إليه، فإن احضر ببينة أخذت له بحقه وإلا استحالت القضية عليه فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعماء... وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم، فإن استقرار الحق في مواطن الحكم يعظم الله به الأجر ويحسن به الذكر»[3].

كذلك تبين مبلغ اهتمام الخلفاء الراشدين بالقضاء لما ورد في كتاب علي بن أبي طالب إلى مالك الأشتر عندما ولاه مصر وجاء فيه «واختر بين أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة... وأضرمهم عند اتضاح الحكم..

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ٢٥٤، ج١/ ٩٩-١٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ ج٤ ص٢٦٣.

(٣) الماوردي: الأحكام ص٧١، ابن القيم: أعلام الموقعين، ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٥٦٧، ابن الجوزي: سيرة عمر بن الخطاب ص١١٦، العقد الفريد ج١/ ١٠٠ طبع لجنة التأليف، المبرد، الكامل ج١١/ ٧-٨، الجاحظ: البيان ج٢/ ٢٣.

ثم أكثر تعاهد قضائه وافسح به من البذل ما يزيل علته»[1] هذا ويعد الخليفة عمر ﷺ هو أول من فرض العطاء للقضاة، وأول من فصل القضاء عن الإمارة، وأول من وضع دستورا للقضاء إلى جانب دستور المرافعات ومصادر الأحكام وقواعد القضاء والمجالس القضائية.

مميزات القضاء في عهد الخلافة الراشدة:

- اعتبر القضاء من أهم وظائف الدولة والخلافة لذلك كان الخليفة هو الذي يعين القضاة أو الولاة باعتبار ولايتهم ولاية عامة.

-اقتصر حكم القاضي بداية دون كاتب أو سجل، وإصدار الحكم يتم مباشرة. وانحصر معظم القضاء بالفيتا والسؤال.

-لم يكن في عهد النبي، أو عهد الخلفاء سجن بالمعنى المعروف إنما كان السجين يوضع في المسجد أو في منزل خاص لمنع اختلاط الناس به وفي عهد علي ﷺ تم بناء أول سجن في الإسلام (كبناء) خاص للمسجونين.

-لم يقتصر اهتمام الخلفاء الراشدين بالقضاء والعدل بين المسلمين بل تعدى العدل الإسلامي إلى أهل الذمة وكل فئات الناس على اختلاف مذاهبهم.

-اعتمد نظام القضاء بداية على أحكام القرآن والسنة ثم الإجماع والقياس والاجتهاد والرأي.

-عمر بن الخطاب أول من ولى قضاة مستقلين في الولايات وفوضهم فيه وأول من وضع دستور القضاء في الإسلام.

-تميز القضاء على عهد الخلفاء بالاستقلال ورفعة المنزلة. ولم يكن للقاضي كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام.

-اعتمد المسجد كدار للقضاء والقاضي يحكم وينفذ بواسطة صاحب الشرطة.

-عرف في القضاء – قاضي ذو سلطات عامة، وآخر ذو سلطات خاصة كذلك تم تعيين قضاة خاصون للثغور والجند.

القضاء في العهد الأموي: في العصر الأموي لم يتدخل خلفاء بني أمية في أحكامه كما لم يتأثر القضاة بالسياسة، فكان القاضي يحكم بما يملي عليه علمه بكتاب الله وسنة رسوله

---

(١) ابن أبي الحديد: نهج البلاغة ص٢١٠.

وأحكام الخلفاء الراشدين وما يوحيه إليه اجتهاده. وامتنع الخلفاء عن مباشرة القضاء بأنفسهم، ولم يتأثر القضاء بالسياسة، خاصة بعد تفرق الفقهاء والتابعين في الأمصار الإسلامية. وكان الخليفة يعين قضاة عاصمة الخلافة، ويوكل أمر تعيين قضاة الأمصار إلى ولاته، وكان عمل القضاة قاصرا على إصدار الأحكام فيما لهم اختصاص فيه، أما تنفيذ الأحكام فقد كانوا يشرفون عليها بأنفسهم، والقاضي غالبا ما يكون مجتهدا فلا يلتزم برأي معين، وإنما يقضي برأيه واجتهاده فيما ليس فيه نص قاطع أو إجماع سابق، وإذا استشكل عليه أمر استعان بالفقهاء الموجودين في المصر، ولم تكن أحكام القضاء قد عرفت التسجيل وإنما تعرض الدعوى فينظر بها القاضي ويفصل فيها ويعرف الخصمين بحكمه[١]. هذا وقد قدر الخلفاء شروطا للقضاة أهمها (العفة والورع، التقوى والعلم، سليم من العيون، لا تأخذه في الحق لومة لائم).

القضاء في العصر العباسي الأول: حاول الخلفاء العباسيون أن يضفوا على حكمهم صفة القداسة، انطلاقا من الإئمة وقد وعدوا السير بموجب كتاب الله وسنة نبيه. وتأكيد لهذه السياسة بين داود بن علي عند بيعة أبي العباس بالخلافة مخاطبا الأمة بقوله (إنا نحكم فيكم بما أنزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فيكم بسنة رسوله) [٢] وأخذ الخلفاء العباسيون الأوائل يراعون المراسيم الدينية ويقربون الفقهاء والعلماء إليهم، لإضفاء الصفة الشرعية على أعمالهم وأحكامهم. ومع المكانة الكبيرة التي كان يتمتع فيها القضاة، فقد رأينا الكثير من الفقهاء يمتنعون عن تولي القضاة تأثما وخشية أن يحملهم الخليفة وعمال الأقاليم على الإفتاء بما يخالف آراءهم في تفسير أحكام الشريعة الإسلامية كتنفيذ بعض أعمالهم السياسية[٣].

ولا يتفق ذلك مع ميل هؤلاء الفقهاء إلى العدل، فقد اعتذر أبو حنيفة النعمان عندما دعاه المنصور تولي القضاة وقال له: «اتق الله ولا تزغ في أمانتك إلا من يخالف الله، والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب» [٤]. وقد ضعف في هذه الفترة روح الاجتهاد في الأحكام بسبب اعتماد القضاة كل حسب مذهبه ووفق المذهب الرسمي للبلد الإسلامي.

---

(١) محمد سلام مذكور: القضاء في الإسلام ص٢٩ القاهرة ١٩٦٤.

(٢) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص٢٦.

(٣) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٢٩٦-٢٩٧.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٣٧٤.

وقد تأثر القضاء بالسياسة ولهذا امتنع العدد من القضاة تقلد هذا المنصب مثل (أبو حنيفة في عهد المنصور). كذلك استحدث العباسيون في عهد الخليفة الرشيد منصب قاضي القضاة. واستحدث أيضا قضاء أهل الذمة أو ما أطلق عليه (قاضي العجم). وزادت أهمية القضاة والقضاء، حتى كان الوالي يحضر مجلس القاضي. وقد اتسعت اختصاصاتهم حتى شملت (الحقوق العامة، الوصايا، الأوقاف، مصالح الطرق والأبنية). وأضيف إليها وظيفة المحتسب والشرطة والمظالم. ولأهمية منصب القضاء فقد عين الخلفاء من يتولى منصب قاضي العاصمة. وقد تخيروا في قضاتهم من أهل الدين والعلم والعدل والنزاهة.

القضاء في العصر العباسي الثاني: حدث تطور هام في نظام القضاء خاصة في العصر العباسي المتأخر بسبب بظهور المذاهب وبعدها فكان القضاة في العراق يحكمون وفق مذهب أبي حنيفة، وفي الشام والمغرب وفق مذهب مالك، وفي مصر وفق مذهب الشافعي. وهناك مذاهب أخرى كمذهب الزيدية في اليمن ومذهب الأمامية في العراق وفارس، وهم يقولون: بضرورة توافر الاجتهاد في الأئمة. وقد ظلت مذاهب السنة الأربعة مصدر التشريع، ولم يتقلد القضاء إلا من هم أصحاب المذاهب الأربعة فكان إذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع في بلد من البلدان أناب عنه قاضيا يحكم بمذهب المتخاصمين[1].

وتطرق الفساد إلى القضاء لتأثره بالسياسة، وأصبح الخلفاء العباسيون يتدخلون في حمل القضاة في كثير من الأحيان على السير وفق رغباتهم، لذلك كثيرا ما اعتذر المرشحون لمنصب القضاء عن قبوله، خشية تدخل الخلفاء في أحكامهم القضائية وحول ذلك ذكر السيوطي: (أن الخليفة المطيع قلد القضاء لأبي الحسن محمد بن الحسن الشيباني الهاشمي بعد تمنع شديد وشرط لنفسه شروطا منها: ألا يرتزق على القضاء ولا يخلع عليه، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع).

ومما زاد في فساد القضاء دخوله في نظام الالتزام حتى صار القضاة يضمنون دخل القضاء بما يؤدونه إلى الخليفة أو السلطان، وأول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب سنة ٣٥٠هـ في أيام معز الدولة البويهي، حيث سمي بقاضي قضاة بغداد والتزم القضاء على أن يؤدي ٢٠٠ ألف درهم عن كل سنة[2].

---

(١) اسماعيل فرج: القضاء الإسلامي ص٢٦.

(٢) حسن إبراهيم: النظم الإسلامية ص٣٥٢.

منصب قاضي القضاة: استحدث في العصر العباسي الأول منصب (قاضي القضاة). وكان عادة يقيم في حاضرة الدولة العباسية (بغداد)، ويولي من قبله قضاة ينوبون عنه في الأقاليم والأمصار الإسلامية، وأول من تولى هذا المنصب وتلقب به أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري صاحب كتاب الخراج، وكان أحد كبار فقهاء عصره ومن أحدهم ذكاء وفطنة، وأكثرهم رزانة وجرأة في الحق. درس على يد الإمام أبي حنيفة ولازمه زمنا طويلا، فكان من أبرز طلابه. عمل قاضيا للخليفة المهدي، للمهدي ولموسى الهادي، وشغل منصب القضاء في خلافة الرشيد[1]. ثم عينه (قاضي القضاة) وهو بمثابة منصب وزير العدل الآن، وكانت واجباته ليست مقصورة على الإشراف على شؤون القضاء في الدولة العباسية أو تعين القضاة في الأمصار، وإنما كان يفتي الخليفة الرشيد في شؤونه الخاصة والعامة، ويحضر مجالسه العلمية ويصاحبه في أسفاره وغزواته وحجه[2].

فلما توفي أبو يوسف ولّى الرشيد (وهبا بن وهب القرشي) المكنى بأبي البحتري، وكان هذا فقيها إخباريا نسابا ولكنه مهتم في الحديث فلم يسد الفراغ الذي تركه أبو يوسف، وله في بلاط الرشيد فتاوى غريبة لم يرض عنها كبار الفقهاء[3].

قاضي أهل الذمة: لقد شهدت العصور الإسلامية التسامح والأمن والرخاء الذي نعم به أهل الذمة، وذلك بما وضع الإسلام من قواعد وتشريعات لتنظيم العلاقة بينهم وبين المسلمين، وبما وضع الرسول ﷺ من السنن التي اعتبرت أسسا سار عليها ممن جاء بعده من الخلفاء. كما وضع القرآن نظاما إنسانيا عادلا لتحديد العلاقة بينهم وبين المسلمين كي لا تحدث الفرقة والنزاع[4]. فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ولهذا سمح الخلفاء لأهل الذمة باختيار رؤسائهم الروحانيين، والاحتكام إليهم في أمورهم الدينية والدنيوية. هذه السياسة حملت الكثير من أهل الذمة إلى الاحتكام إلى القضاة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص٤٣٢.

(٢) الجومرد: هارون الرشيد ج٢ ص٢٥٠.

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٤ ص٢٤٨.

(٤) انظر اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٩٤.

المسلمين، وقد أجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لأهل ملته. ولدينا تقاليد لقضاة أهل الذمة أوردها القلقشندي: مما يدل على أن سلطتهم كانت بإذن من الخليفة[1] خاصة في في الأندلس – لكثرة ما فيها من أهل الذمة– فقد خصص المسلمون لهم قاضيا منهم يعرف باسم قاضي النصارى أو قاضي العجم.[2] فإذا حدث نزاع بين مسلم وذمي فإن قضاة المسلمين هم الذين يحكمون بينهم[3] وكان القضاة يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود[4]. وقبول شهادة الذمي على المسلم بعد استحلافه في محل عبادته وبيته وكتابه المقدس[5]. هذا إلى جانب وجود قضاة آخرين من ذوي سلطة عامة، وقضاة ذوي سلطة خاصة، وقاضي الثغر (قاضي الجند).

صفات القاضي: حدد الفقهاء والعلماء مجموعة من الشروط التي يجب أن تتوفر في القضاة عند اختيارهم أهمها: غزارة العلم والتقوى والورع والعدل فقد أشار الماوردي[6]: إلى الصفات الواجب توفرها في القاضي بقوله: أن يكون رجلا حرا بالغا، صحيح التمييز، جيد الفطنة، بعيدا عن السهو والغفلة، ويشترط فيه الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ بل يجوز، تقليده القضاء بين أهل دينه كما يشترط فيه العدالة، وأن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة، عفيفا عن المحارم، بعيدا عن الريب، مأمونا في الرضا والغضب والتقوى والعدل والورع، جيد الفطنة.

ومن الشروط المعتبرة فيه أيضا: (سلامة السمع والبصر ليصح بهما إثبات الحقوق وليفرق بين الطالب والمطلوب، ويميز الحق من المنكر، ومن الشروط الأخرى المعتبرة في القاضي أن يكون عالما بالأحكام الشرعية أصولها وفروعها وبكتاب الله ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، وعموما وخصوصا، ومجملا ومفسرا. وكذلك العلم بسنة رسول الله من أقواله وأفعاله وعلمه بتأويل السلف فيما اجتمعوا عليه واختلفوا فيه، ويتبع الإجماع ويجتهد برأيه في الاختلاف. ثم العلم بالقياس الموجب لرد الفروع إلى الأصول المتطرف بها

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج١١ ص٤٠٢ وما بعده ج١٢ ص٢٢٤ وما بعدها.

(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٤٤٩، ص٤٦٢ القاهرة ١٩٥٩.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة في مصر ص٤٥١.

(٤) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ص٢٠٨ ترجمة حسن حبش القاهرة ١٩٥٨.

(٥) سحنون، المدونة ج٤ ص١٠٤، ابن أبي أصيبعة بحوث الأنبار ج٢ ص٢١٨.

(٦) الماوردي: الأحكام ص٦٥-٦٦.

والمجتمع عليها، حتى يجد طريقا إلى العلم بأحكام النوازل وتمييز الحق من الباطل، فإذا أحاط علمه بهذه الأصول صار من أهل الاجتهاد في الدين وجاز له أن يفتي ويقضي) هذا من هنا يتبين لنا أن مصادر التشريع الإسلامي لدى القضاة تستند إلى: القرآن، السنة النبوية. الإجماع. القياس (عند أهل السنة) أو الاجتهاد (عند الأمامية).

وظل القرآن هو المصدر الأول للشريعة الإسلامية خاصة، وإن قسما كبيرا من آياته تتعلق بالأحكام، أما السنة: فهي المصدر الثاني ويقصد بها كل ما جاء منقولا عن النبي وما اتبعه صحابة الرسول لكونهم اتباعا لسنة ثبتت عندهم، وعلى هذا تشمل السنة أربعة أوجه (قول الرسول وفعله وإقراره وما جاء عن الصحابة)[1]. أما الإجماع فمعناه الاتفاق وهو أصل من أصول التشريع عند المسلمين وهو ما اتفق عليه جمهور الصحابة والفقهاء. وأما القياس: فهو أحد مصادر التشريع أيضا يرجع إليه المجتهدون عندما يلتمسون نصا لحل حادثة فلا يجدونه في الكتاب أو السنة أو الإجماع[2].

سلطة القاضي: ظل الخليفة في عصر الراشدين وبني أمية هو الذي يعين القاضي أو يفوض أمر تعيينه إلى أحد الولاة، حتى استحدث الخليفة الرشيد منصب قاضي القضاة، فصار يعين القضاة، كما أطلق الخلفاء لولاتهم أمر اختيارهم وتعيينهم[3]. وكانت صلاحيات القاضي لا تقتصر على النظر في الأمور الدينية والخصومات التي لها علاقة بالقضاء، وإنما تعداه إلى الأمور العامة كإقامة الصلاة والخطبة، والإشراف على الأماكن الدينية، وعلى أموال الغائبين والمفقودين، والقيام في الذهب والفضة والمكاييل، وولاية الحج وأخذ البيعة للخليفة ومصاحبة الجيش في الحروب[4]. إلى جانب نظر القاضي في الأمور الجنائية والسرقة وشاربي الخمر، وفي قضايا الأحوال الشخصية من زنا ومواريث، ومداينات، ووصايا، ومناكحات وطلاق وغيرها. كما فوضت إلى القضاة أحيانا الشرطة علاوة على توليهم أمر القضاء وكذلك الحسبة وحول ذلك ذكر الماوردي أن الحسبة كانت أحيانا تضاف إلى القاضي، مع ما بين القضاء والحسبة من التباين لأن عمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، وعمل المحتسب مبني على الشدة والسرعة في الفصل. ولتضخم

(١) عبد الحميد كبة: التنظيمات القضائية والحركة التشريعية في العراق ص٩.

(٢) المصدر السابق والصحيفة.

(٣) اسماعيل فرج: القضاء الإسلامي ص٢٧.

(٤) عبد المنعم ماجد: الحضارة الإسلامية ص٤٦-٤٧.

أعمال القاضي كان سببا في اتخاذه نوابا ومساعدين له في القضاء أو ما يضاف إليها عرفوا (بنواب الحكم)[1].

أنواع القضاء: ويفرق الماوردي بين نوعين من القضاء أحدهما ذو سلطات عامة ومطلقة، والآخر ذو سلطات خاصة ومحدودة فالأول: هو الفصل في المنازعات وقطع التشاجر والخصومات واستيفاء الحقوق ممن مطل بها وإيصالها إلى مستحقيها، والحجر على من يرى الحجر عليه، وتنفيذ الوصاية على الوصي فيما أباحه الشرع، وتزويج الأيامي، وإقامة الحدود على مستحقيها والنظر في مصالح الناس بالكف عن التعدي في الطرقات والتسوية بالحكم بين القوي والضعيف، والعدل في القضاء بين الوضيع والشريف ولا يتبع هواه في تقصير الحق أو ممايلة مبطل[2] وأما الثاني: أن يكون القاضي عام النظر خاص العمل، فيقلد النظر في جميع الأحكام في أحد جانبي البلد أو في محله منه، فينفذ جميع أحكامه في الجانب الذي قلده والمحلة التي عينت له وينظر فيه بين ساكنيه[3]. وحول اختصاص قاضي الثغر ذكر الماوردي أن وظيفة (قاضي الثغر) كما ورد ذكر (قاضي العسكر) لأول مرة في خلافة عمر بن الخطاب، ولم تكن تقتصر على (قاضي العسكر) على الفصل في قضايا الجند بل كان يفصل أيضا في قسمه غنائم البر والبحر.

دار القضاء: كان القضاة منذ أيام الراشدين أشبه بالمستفتين، فإذا حكم القاضي بشيء بين المتخاصمين اقتنعوا به غالبا، ولم يزل القضاة كذلك في الدولة الأموية حتى حدث ما دعا القاضي أيام معاوية إلى تسجيل أحكام القضاة بسجل خاص. فذكر الكندي في تاريخ قضاة مصر: أن جماعة اختصموا إلى قاضي مصر في ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا، فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه[4].

وكان القضاة منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين يجلسون في المسجد لقضاء الخصومات بين الناس، ولما استحدث منصب القضاء أخذ القاضي يزاول النظر في

---

(١) الولاة ص٥٩٠.

(٢) انظر: الأحكام السلطانية ص٧٠-٧١.

(٣) الماوردي: الأحكام ص٧٢.

(٤) الماوردي: الأحكام ص٧٣.

خصومات الناس في المسجد مجلس الحكم، ثم وجدوا أن هذا لا يتفق وحرمة بيوت الله لئلا ترتفع الأصوات، وتحدث الخصومة في المسجد ولا بأس من أن يجلس القاضي في بيته ويأذن للناس، ولا يمنع أحدا من الدخول عليه[١] وكان صاحب الشرطة يتولى تنفيذ أحكام القضاة عند الضرورة[٢] وقد أشار الفقهاء إلى الأحوال التي لا يقضي فيها القاضي إذا كان عطشانا أو جائعا أو خائفا أو مريضا، ولا في حر أو برد أو غير ذلك من العوائق التي تعوقه عن الفهم[٣] أما مجلس الحكم فيعقد علنا في أيام محددة. ومجلسه يتكون من القاضي، الشهود العدول، الموقعين (الكتبة)، الحجاب، موظف التنفيذ، ظهور الخصم إما بمفرده أو بواسطة وكيل.

امتيازات القضاة (اللباس والراتب): من الأمور التي كان يمتاز بها القاضي اللباس فقد كانت لبسة القضاة مثل سائر الناس وأول من غير لباس القضاة والعلماء أبو يوسف القاضي وجعله بهيئة خاصة[٤]. ويؤيد ذلك ما ذكره الكندي[٥]: أن القاضي كان يرتدي السواد (شعار العباسيين) ويعمم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة وكانت القلنسوة السوداء في القرن الثاني الهجري خاصة هي التي تميز القضاة وتلبس مع الطيلسان[٦] ومن الامتيازات الأخرى الرواتب، وأول من فرض للقضاة عطاء هو عمر بن الخطاب حيث جعل للقاضي سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم في كل شهر، وجعل لشريح مائة درهم ومؤونته من الحنطة. وارتفعت رواتب القضاة في العصر الأموي، حيث كان قاضي مصر في ولاية عبد العزيز بن مروان يتقاضى مائتي دينار في الشهر[٧]. وازدادت هذه المرتبات في العصر العباسي وذلك لمنع أخذ الهدايا لضمان سير العدالة والبعد عن الظلم.

الحسبة: وظيفة دينية لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على القائم بأمور

---

(١) اسماعيل فرج: القضاء الإسلامي ص١٥.

(٢) المصدر السابق ص٣٧.

(٣) عبد المنعم ماجد: الحضارة الإسلامية ص٤٨. انظر الشيرزي. نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٥ القاهرة ١٩٤٦.

(٤) اسماعيل فرج: القضاء الإسلامي ص٩٧.

(٥) الكندي: الولاة والقضاة في مصر ص٣٧٨.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج١ ص٣٧٣.

(٧) علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ص٥٢٥.

المسلمين، يعين لذلك من بدا أهلا له، فيتعين فرضه عليه، بحكم الولاية وإن كان على غيره من فروض الكفاية. والحسبة لغة وردت من تحسب الأخبار أي تجسسها أو تحسسها وبطلبها تحسبا[١]. وهي من الناحية الفقهية: الأمر بالمعروف إذا أظهر تركة ونهي عن المنكر إذا أظهر فعله[٢]. لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾ [آل عمران: ١٠٤]. والحسبة لغة اسم من الاحتساب وهو ادخار الأجر والثواب عند الله تعالى.

والمشرف عليها يسمى (المحتسب)[٣] وأهم شروط متوليها أن يكون رجلا عنيفا خيرا ورعا عالما غنيا عارفا بالأمور، محنكا فطنا لا يميل ولا يرتشي فتسقط هيبته، ويستخف به ولا يعبأ به[٤]. ويضيف الماوردي[٥]: إلى صفاته أن يكون حرا عدلا ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة.

وقد أسند منصب القضاء والحسبة أحيانا إلى رجل واحد مع ما بين الوظيفتين من الاختلاف، فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل[٦] والحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم لأن النظر في المظالم موضوع لما عجز عنه القضاة والنظر في الحسبة موضوع لما رفه عنه القضاة[٧] وكان المحتسب يستعين بالخبراء الذين يختارون من بين أرباب الصناعة والتجارة وهم الذين سموا بالعرفاء[٨] لمنع الغش في الصناعات والمعاملات والموازين والمكاييل[٩].

نشأة الحسبة: ترد بعض الإشارات التاريخية إلى أن الحسبة نشأت منذ عهد الرسول

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ج١ ص٣١٦

Encyclopaedia of Islam (Art Aisba) T 2 P.337

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٤٠، ابن تيمية: الحسبة في الإسلام ص٥٠.

(٣) The Ency of Islam (Art Muhtasib T3. P. 751)

(٤) عبد الرزاق الحصان: الحسبة ص٣٠.

(٥) الماردي: الأحكام ص٢٤١.

(٦) المصدر السابق ص٢٤٢.

(٧) الماردي الأحكام ص٢٤١.

(٨) المقريزي: إغاثة الأمة في كشف الغمة ص١٩ ط٢.

(٩) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق الياز القاهرة ص١٩٤٦.

ﷺ فقد مارسها بنفسه[١]، وفوضها أحيانا لغيره، وتبعه من بعده الخلفاء الراشدون، ثم صارت ولاية من الولايات الدينية ويرى بعض من المؤرخين[٢] أنها نشأت منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ووضع أسسها واختصاصاتها وكان يقوم بها بنفسه أول الأمر، ثم أوكلها إلى رجل أطلق عليه (المحتسب). وروي عنه أن حاسب جمالا لأنه أحمله ما لا يطيق. كذلك حرق بيتا لبائع خمر[٣]. كذلك استخدم عمر بن الخطاب محتسبا على سوق المدينة (السائب بن يزيد) وولى السيدة الشفاء على سوق المدينة وسمراء بنت نهيك الأسدية. وكانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب الناس على ذلك بالسوط[٤].

شروط المحتسب: أن يكون حرا، عدلا، ذا رأي وصرامة، وخشونة في الدين، وعلم بالمنكرات الظاهرة، لذلك كان يتولاها رجل وجيه في دينه اتخذ الأعوان لمساعدته وينوبون عنه في المدن والأعمال، ويطوفون على أرباب الحرف والمعايش، في الأسواق والطرقات، يفتشون القدور واللحوم وأعمال الطهاة وما إلى ذلك[٥].

وكان للحسبة دارا خاصة. يطلب فيها المحتسب جميع الباعة إلى داره في أوقات معينة ومعهم موازينهم ومكاييلهم فيعايروها. فإن وجد فيها خللا صادرها، وألزم صاحبها بشراء غيرها، أو أمره بإصلاحها، وقد بقيت هذه الدار طوال عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية[٦].

واجبات المحتسب واختصاصاته: من الأمور التي ينظر فيها المحتسب مراعاة أحكام الشرع، مراقبة أداء العبادات وإقامة الشعائر الدينية والمحافظة عليها، والنظر في أرباب البهائم ومراقبة من يتصدى لتفسير القرآن، والنظر في الآداب العامة، وفي البيوع الفاسدة في السوق والموازين والمكاييل، ومراقبة النقود التي يتعامل بها الناس[٧]. وقد

---

(١) مر رسول الله على طعام فقال: يا صاحب الطعام أفلا جعلته فوق كي يراه الناس من غش فليس مني، انظر صحيح مسلم ج١/ ٩٩ باب ٤٣، نيل الأوطار ج٥/ ١٨٠ طبع الحلبي.

(٢) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٢٩٨.

(٣) ابن القيم الجوزية: الطرق الحكمية ص٢٤٧، ٢٥٨.

(٤) د. مشرفة مصطفى: القضاء في الإسلام ١٨٧-١٨٨.

(٥) المادري: الأحكام السلطانية ٢٠٩، ٢٢٠.

(٦) المقريزي: الخطط ج١/ ١١٠، ٤٦٤، الماوردي ص٢٢٠.

(٧) عبد الرزاق الحصان: الحسبة ص٢٦-٢٧، ص١١٦.

أضاف ابن خلدون إلى ما ذكر من واجبات المحتسب: أنه يحول دون مضايقة الناس في الطرقات ويمنع الحمالين وأهل السفن من المبالغة في الحمل أو شحن السفن، ويحكم بهدم المباني المتداعية للسقوط حتى لا تقع على المارة، ويمنع معلمي الكتاتيب من ضرب الصبيان، ويحكم في الدعاوي المتعلقة بالغش والتدليس ويحمل على المماطلين على أداء ما عليهم من الديون[1] ونظافة المرافق العامة والصحة العامة ومراقبة الأطعمة والأشربة، مراقبة التعلم والأطباء، مراقبة المصالح العامة وأضيفت صلاحيات جديدة أخرى خلال العصر العباسي. فأصبح ينظر بالإضافة إلى ما ذكر في حقوق الإماء وفي منع إخصاء العبيد، وفي مراقبة القضاة والوعاظ وأئمة المساجد والأطباء، والمعلمين، والصناع، كما ينظر في أمور الزنا والغش، وفي محاسبة أصحاب السحر والشعوذة[2]. وينظر أيضا في مساعدة الفقراء، وإنشاء الملاجئ للضعفاء والمحتاجين ومنع المنكر كتعاطي المسكرات والتجسس، الغيبة، والنميمة، والكذب وترك الصلاة، والفطر في شهر رمضان[3].

وقد حدد الفقهاء أعمال المحتسب بأمرين: أحدهما: أمر بالمعروف، والثاني: نهي عن المنكر. الأول: الأمر بالمعروف يشمل كل ما يتعلق بحقوق الله وحقوق الآدميين، وما يكون مشتركا بينهما كأخذ الأولياء بنكاح الأيامى وإلزام أحكام العدة إذا فورقن، ويأخذ السادة بحقوق العبيد والإماء، وأن لا يكلفونهم من الأعمال مالا يطيقون، وكذلك أرباب البهائم يأخذونهم إذا قصروا في علوفتها، وأن لا يستعملوها فيما لا تطيق، ويأخذ بمن قصر كفالة اللقيط[4].

وأما النهي عن المنكر فمنها ما يتعلق بحقوق الله، وحقوق الآدميين وما يكون مشتركا بينهما.

الثاني. النهي عن المنكر في حقوق الله بما يتعلق فأما يتعلق بالعبادات والمحظورات والمعاملات. ففيما يتعلق بالعبادات كالمخالف للمشروع والمسنون من التعاليم الإسلامية وما يتعلق بالمحظورات: هو أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظان التهمة قال النبي (دع

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص١٩٦.

(٢) عبد الرزاق الحصان: الحسبة ص٢٧-٢٨.

(٣) ابراهيم دسوقي: الحسبة في الإسلام ص٩، د.إبراهيم الشهاوي: الحسبة في الإسلام ص١٢٠.

(٤) الماوردي: الأحكام (٩) ٢٤٧.

ما يريبك إلى مالا يريبك)[1] ويمنع ما منعه الشرع من الأمور المنكرة كالزنا والبيوع الفاسدة والغش والتطفيف والبخس في المكاييل والموازين[2]. وأما ما ينكر من حقوق الآدميين كالاعتداء على الجار. وللمحتسب أيضا الإشراف على أهل الصنائع في الأسواق، ليراقب التقصير في الصناعة من حيث الأمانة أو الخيانة أو الجودة والرداءة، وكذلك أصحاب الحرف والمهن كالأطباء والمعلمين[3] وأما ما ينكره المحتسب من الحقوق المشتركة كمنع الإشراف على منازل الناس، ومنع أئمة المساجد والجوامع من إطالة الصلاة حتى يعجز عنها الضعفاء[4] ويمنع القضاة من حجب الخصوم إذا قصدوه، إذا قصدوه، ويمتنع من النظر بينهم إذا تحاكموا، ويمنع أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق، ويلزم السادة في الإنفاق على عبيدهم في حال امتناعهم، وله أن يمنع أرباب السفن من حمل سفنهم مالا تسعه ويخاف من غرقها[5]. وينظر والي الحسبة في مقاعد الأسواق ويمنع ما ستضر به المارة ويمنع من خصاء العبيد والبهائم... كما يمنع من التكسب بالكهانة[6].

ومن عمل المحتسب إذا كان في القضاة من يحتجب عن الخصوم إذا قصدوه، ويمنع النظر بينهم إذا تحاكموا إليه، حتى تقف الأحكام وتتصرخ الخصوم أن ينكر عليه مع ارتفاع الأعذار ولا يمنعه علو مرتبته من أن ينكر عليه فعله[7].

وينبغي على المحتسب أن يقصد مجالس الأمراء والولاة ويأمرهم بالشفقة على الرعية والإحسان إليهم ويذكر لهم ما ورد في[8] ذلك من الأحاديث، وليكن في وعظه وقوله في ردعهم عن الظلم.

مراحل التأديب: تباينت العرف والتعريف بأصول التصرف الصحيح، منها الوعظ والنصح والإرشاد، مرحلة التقريع، مرحلة التغير باليد، مرحلة التهديد والتخويف،

---

(١) المصدر السابق ص٢٤٩.

(٢) المصدر نفسه ص٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه ٢٥٢.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٥٦.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٥٧.

(٦) المصدر السابق نفسه ص٢٥٨.

(٧) الحصان: الحسبة ص١٧٣.

(٨) المصدر السابق ص١٨٣.

مرحلة الضرب والحبس والتجريس.

علاقة الحسبة بالقضاء والمظالم: الحسبة قاصرة عن أحكام القضاء في الدعاوي الخارجة عن ظواهر المنكرات، وتشبه الحسبة ولاية المظالم في استقرار موضوعهما على الرهبة والقوة والصراحة وفي تطلع كل منهما إلى إنكار البغي والعدوان[١].

وإذا جاز لوالي المظالم أن يحكم فإن والي الحسبة يأمر وينهي من غير أن يحكم وإنما الحسبة على هذا كله أمر بالمعروف ونهي عن المنكر[٢].

الفرق بين المتطوع والمحتسب: كما كانت وظيفة الحسبة من الولايات الإسلامية، وأصبحت من الوظائف الإدارية في الدولة يقوم بها شخص يسمى بـ(المحتسب) يقوم على تطبيق ما جاء في الشريعة الإسلامية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فظهرت إلى جانب المحتسب وظيفة المتطوع. وقد وضح لنا الماوردي[٣] واجبات كل منها والفرق بينهما:

الأول: أن فرضه متعين على المحتسب بحكم الولاية وفرضه على غيره داخل فروض الكفاية.

الثاني: أن قيام المحتسب عن حقوق تصرفه الذي لا يجوز أن يتشاغل عنه وقيام المتطوع به من نوافل عمله الذي يجوز أن يتشاغل عنه بغيره.

الثالث: المحتسب منصوب للاستعداء إليه فيما يجب إنكار وليس المتطوع منصوبا للاستعداء.

الرابع: إن على المحتسب إجابة من استعداه وليس على المتطوع إجابته.

الخامس: إن على المحتسب أن يبحث عن المنكرات الظاهرة ليصل إلى إنكارها ويفحص عما ترك من المعروف الظاهر ليأمر بإقامته، وليس على المتطوع بحث ولا فحص.

السادس: يتخذ المحتسب الأعوان ليكون له أقهر وعليه أقدر وليس للمتطوع أن يندب لذلك أعوانه أن يندب لذلك أعوانا.

السابع: للمحتسب أن يعزر في المنكرات الظاهرة التي لا يتجاوز فيها الحدود وليس

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٣٢٩.

(٢) أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص٢٦٨-٢٧١.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٤٠.

للمتطوع أن يعزر على منكر.

الثامن: للمحتسب أن يرتزق على حسبته من بيت المال، ولا يجوز للمتطوع أن يرتزق على إنكار منكر.

التاسع: وللمحتسب الاجتهاد برأيه فيما يتعلق بالعرف دون الشرع وليس هذا للمتطوع.

قاضي المظالم: نظره قائم على: (قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة وزجر المتنازعين عن التجاحد بالهيبة).

ديوان النظر في المظالم (قاضي المظالم): يعد منصب المظالم من المناصب القضائية العليا والهامة في الدولة الإسلامية. يتولى صاحبها النظر في قضايا الظلم والتعدي والفساد التي يرتكبها كبار رجال الدولة، وفي أحكام القضاء التي لا يتفق فيها المتخاصمان وعرفها ابن خلدون بأنها: (وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المعتدي... وكان الخلفاء الأولون يباشرونها بأنفسهم إلى المهتدي من بني العباس) [١].

والغرض الأساس من إنشاء ديوان المظالم هو التصدي لتعدي أصحاب النفوذ والجاه. ولهذا كان يتولى رئاسة هذا الديوان بداية الخليفة ثم ألقيت الوزير أو الوالي. وقد تطورت وتوسعت أعمال هذا الديوان، مع توسع الدولة العربية وتطور حياتها الاقتصادية والاجتماعية فأصبح يعرف بـ (ديوان المظالم) ويسمى رئيسه (صاحب المظالم) [٢].

وترد الإشارة إلى وجود مثل هذا النظام (المظالم) في عصر ما قبل الإسلام، فقد اجتمعت بطون قريش فتحالفوا على رد المظالم بمكة وأن لا يظلم أحد إلى منعوه وأخذوا للمظلوم حقه وكان الرسول ﷺ يومئذ معهم قبل النبوة وهو ابن خمس وعشرين سنة فعقدوا حلف الفضول[٣]. لإنصاف المظلوم من الظالم والحكم بين المتخاصمين. أو ربما مارس هذه الوظيفة ملوك الفرس الساسانيين.

تطور ديوان المظالم: بدأت نواته الأولى في عهد النبي ﷺ حيث كان يسمع

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٤٦ القاهرة ١٣٢٢.

(٢) حسن إبراهيم: النظم الإسلامية ص٣١١.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٧٩. سيرة ابن هشام ج١/ ٩٠-٩٢.

شكاوى الرعية ويحكم بينهم[1] ثم تولى الخليفة علي بن أبي طالب النظر في المظالم في عصر الراشدين، ولم يفرد لسماع الظلامات يوما معينا بل كان ينظر في شكاوي من يأتيه من المتظلمين[2]. ولم يظهر نظام المظالم كمؤسسة رسمية في الخلافة الإسلامية إلا في عهد الأمويين، فكان عبد الملك بن مروان أول من أفرد له يوما واستمر الخلفاء الأمويون ينظرون بأنفسهم إلى مظالم الناس. ويعد الخليفة عمر بن عبد العزيز أول من ندب نفسه للنظر في المظالم. وفي العصر العباسي مارسه الخلفاء بأنفسهم، وانتدبوا تارة ممن ينوب عنهم من الوزراء كما فعل الرشيد عندما أوكل لوزيره يحيى البرمكي النظر في المظالم[3]. وأول الخلفاء العباسية الذين جلسوا للمظالم. المهدي والهادي والرشيد ثم المأمون وآخر من جلس المهتدي حتى عادت الأملاك إلى مستحقيها[4] ولأهمية هذا المنصب حدد الفقهاء شروط الناظر في المظالم أهمها: أن يكون جليل القدر، نافذ الأمر عظيم الهيبة ظاهر العفة قليل الطمع، كثير الورع لأنه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة[5] في كف الخصوم عن التجاحد، ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب[6] كالخلفاء وولاة العهود وأمراء الأقاليم والوزراء. وهذه الوظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء.

مجلس المظالم (محكمة المظالم): تنعقد برياسة الخليفة أو من ينوب عنه وقد بدأ انعقادها في بيت الخليفة، ثم أصبح لها دارا خاصة. وبعد قاضي المظالم أعلى رتبة في النظام القضائي، وينعقد مجلس المظالم من خمسة أصناف لا يستغنى عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم: أحدهم الحماة والأعوان لجذب القوى وتقديم المجرم والثاني، القضاة والحكام لاستعلام ما يثبت عندهم من الحقوق ومعرفة ما يجري في مجالسهم بين الخصوم، والثالث الفقهاء: ليرجع إليهم فيما أشكل ويسألهم عما اشتبه. والرابع: الكتاب ليثبتوا ما جرى بين الخصوم وما توجه لهم أو عليهم من الحقوق. والخامس: الشهود والحماة والأعوان ليشهدهم على ما

---

(١) الخراج لأبي يوسف ص٥٨ الأميرية.

(٢) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص٣١١.

(٣) انظر اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص٦٥ وما بعدها ط٢ مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٦.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٥٧١، الماوردي: الأحكام السلطانية ص٦٤-٦٥، ٦٩، ٧١.

(٥) الماوردي: الأحكام ص٧٧.

(٦) أبو يعلى: الأحكام ص٦٣.

أوجبه من حق وأمضاه من حكم(١).

الجهاز الإداري لديوان المظالم: وكان الجهاز الإداري الذي يتولى أعمال ديوان المظالم يتكون من:

١-صاحب الديوان: ويقوم بعمل خلاصات ما كان يقدم من الشكاوى والظلامات لكي يعرضها على الخليفة، ويتولى تنظيم معاملة الشكوى من حيث طريقة تدوينها والتعليق عليها، وجمع الشكاوى التي صدر بها الحكم مع خلاصاتها وتدوينها في سجل خاص، ليمنع التلاعب والتزوير(٢). كما يتولى الإشراف على أعمال الكتاب وتنظيم أعمالهم في الديوان.

٢-كاتب تثبيت: يتولى تثبيت الظلامات والشكاوى في سجل خاص بحسب نوعيتها وأسماء المدعي والمدعى عليه وإحالتها إلى صاحب الديوان(٣).

٣-كاتب نسخ: ويقوم باستنساخ خلاصات الشكاوى حسب رأي صاحب الديوان.

٤-كاتب إنشاء: يتولى أمر إنشاء الكتب التي يراد توجيهها إلى المؤسسات المختلفة، ويتولى النيابة عن صاحب الديوان في عرض الظلامات وتقديم خلاصاتها إلى الخليفة عند غيابه.

٥-كاتب تحرير: يتولى تحرير الكتب وقرارات ديوان المظالم حسب اختصاصاتها(٤).

وكان الوزير ينوب أحيانا عن الخليفة في حضور مجلس المظالم، وإصدار الأحكام ويبدو أن قيام الوزير بالتوكل عن الخليفة في المظالم قد أصبح منذ القرن الثاني الهجري عرفا ساريا فقد أناب الرشيد يحيى البرمكي للنظر في المظالم.

اختصاصات ديوان المظالم: يختص ديوان المظالم بالنظر في تعدي الولاة على الرعية وأخذهم بالعسف وفي جور العمال فيما يجبونه من الأموال، ويأخذ العمال بها وينظر فيما استزاده، فإن رفعوه إلى بيت المال أمر برده، وإن أخذوه لأنفسهم استرجعه لأربابه، وينظر في

---

(١) الماوردي: الأحكام ص٨٠ أبو يعلى: الأحكام ص٦٠.

(٢) مسكوبة: تجاوب الأمم ج٥ ص٢٨-٣٠.

(٣) حسام الدين السامرائي: المؤسسات الإدارية في الدولة العباسية ص٦٤٠ دار الفتح – دمشق ١٩٧١.

(٤) نفس المصدر السابق ص٢٦٥.

أعمال كتاب الدواوين والتثبيت فيما يستوفونه من الأموال، وفي تظلم المرتزقة من نقص أرزاقهم أو تأخرها عنهم. والنظر أيضا في اغتصاب الأموال السلطانية من الولاة كالأملاك أو تغلب الأقوياء وتصرفهم بأملاك الرعية بالقهر والغلبة، وفي أموال الوقوف الخاصة والعامة، وفي تنفيذ ما وقف القضاة من أحكامهم لضعفهم عن إنقاذها وعجزهم عن المحكوم عليه، لعلو قدره وعظم خطره وقوته، فيكون ناظر المظالم أقوى يدا وأنفذ أمرا كما ينظر فيما عجز عنه المناظرون من الحسبة في المصالح العامة كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه. والتعدي في أمر عجز عن منعه، وفي مراعاة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها وإخلال بشروطها، وأخيرا النظر بين المتشاجرين والحكم بين المتنازعين[1] من كبار رجال الدولة.

الفرق بين المظالم والقضاء: بين الماوردي الفروق بين صلاحيات صاحب المظالم وبين صلاحيات القاضي، ومن أهم هذه الفروق (إن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد، ما ليس للقضاة في كف الخصوم ومنع الظلمة من التغالب والتجاذب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من المبطل، وأنه يستطيع من تأديب الظالم ويأخذ من عدوانه بالتقويم والتهذيب، وأن له رد الخصوم إذا عضلوا (إذا استعصى التوفيق بينهم) وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراضي، وأنه يجوز له أحلاف الشهود عند ارتيابه فيهم والاستكثار من عددهم ليزول عنه الشك.

وهكذا كان ديوان النظر في المظالم بمثابة المحكمة العليا أو محكمة الاستئناف في عصرنا الحاضر لمحاكمة كبار رجال الدولة في القضايا التي ترفعها الدولة عليهم أو التي يرفعها الرعية لإعادة الحقوق إلى أصحابها.

---

(١) الماوردي: الأحكام ص٨٠-٨١، أبو يعلى: الأحكام ص٦١-٦٤.

الفصل الخامس

النظام المالي الإسلامي

النظرية المالية في الإسلام وتطورها

المصادر المالية

النفقات والعطاء

النظرية الإسلامية في المال: يعد المال بكل أشكاله وأنواعه مال الله والإنسان مستخلف فيه مؤقتا، لذا يتصرف فيه وفق الشروط التي وضعها صاحب المال (الله). وملكية الإنسان للمال إنما هي ملكية أسمية فقط ولمدة محدودة. وهي في الحقيقة استخلاف بشروط صاحبها الذي خلقها وأودعها وخلق الإنسان لقوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧] وعلى هذا الأساس وبصفة الإنسان مستخلف في الأرض وعلى المال مؤقتا وليس مالك حقيقي. لذلك فهو ملزم بتطبيق أحكام الشريعة فيه. وعليه اتباع التوجيه الإسلامي في حال التصرف بهذا المال. وبهذا المفهوم للمال أقام النبي ﷺ ومن أتى بعده من الخلفاء الراشدين النظام المالي الإسلامي.

هذا وقد تطلب مصلحة الدولة الإسلامية أن يكون لها نظام مالي، يقوم على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها، لذلك أنشأت بيت المال الذي يقوم على صيانة النظام المالي وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية. وأطلق على من يشرف عليه (صاحب بيت المال) وأفرد له ديوان خاص.

ديوان بيت المال[1]: اصطلاح على المؤسسة التي قامت بالإشراف على ما يرد من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المحددة (وزارة المالية) وكان بيت مال المسلمين أحد الدواوين العظيمة، وقد سمي بالديوان السامي لأنه أصل الدواوين ومرجعها إليه. ويعده ابن خلدون من أهم وظائف الدولة، لأنها تهتم بحفظ حقوق الدولة في دخلها وخرجها وهي جزء كبير من الحسبان، لا يقوم بها إلا المهرة من أهمل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان والتنظيم الاقتصادي في الإسلام قائم على أساس مفهوم محدد رسمه القرآن والسنة وطبقة المسلمون في الدولة الإسلامية. وهذا النظام قائم على ركنان أساسيان هما: موارد بيت المال (موارد الثروة). ومصارف هذه الموارد.

تطور النظام المالي الإسلامي:

أولا: تنظيمات الرسول ﷺ المالية: بعد نجاح الدعوة الإسلامية الرسول ﷺ في المدينة شرع في تنظيم شؤون الدولة الإسلامية الأولى، فأخذ بإرساء دعائم هذه الدولة الجديدة من الناحية الإدارية والمالية، فبدأ بخطوة اقتصادية واجتماعية مهمة حين آخى بين المهاجرين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ١٥ – بيروت- ١٩٧٠ الحسن بن عبد الله: أثار الأول، ص٧٤، القاهرة ١٢٩٥هـ.

والأنصار، ثم اتبعها بخطوات أهم وهي وضع دستور للمدينة نظم فيه العلاقة بين المسلمين واليهود، ثم وضع أسس للمبادئ المالية الأساسية في الجزية والخراج والتي لم يشرع القرآن فيهما تشريعا ولم يذكرهما بشيء تفصيلي في احتسابها وأخذها.

فاتبع الرسول ﷺ من أجل ذلك مجموعة تدابير راعى فيها طريقة فتح البلاد حربا أو صلحا، كما راعى وضع أهلها عربا أو غير عرب، ووفق حالتهم المعاشية ففي الجزية: أولا فرض الرسول ﷺ أول الأمر الجزية على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) ثم ألحق بهم المجوس[1]. فيروي أبو يوسف (أن رسول الله ﷺ قد قبل من مجوس أهل البحرين الجزية وأقرهم على مجوسيتهم) [2]. فرضها على الرجال دينارا ونحوه وليس في ذلك النساء والصبيان[3]. وذلك استنادا إلى ما جاء في القرآن فقال تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

أما في الخراج: ثانيا فقد راعى الرسول ﷺ في فرض الخراج حسب طبيعة الأراضي التي افتتحها الرسول ﷺ وهي: الأراضي التي فتحت حربا أو عنوة: وتشمل:

أ-الأراضي التي لم يكن سكانها عربا: وهي أراضي بني النضير وبني قريظة وخيبر ووادي القرى، فكانت أول أرض فتحها رسول الله أرض بني النضير في سنة ٤هـ=٦٢٥م[4]. فأجلاهم الرسول ﷺ إلى خيبر ومنهم من توجه إلى الشام[5]. فكانت أرض بني النضير ملكا للرسول لم يسهم فيها لأحد م المسلمين لأنهم (لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب) ينفق منها على أهله والباقي يجعله في سبيل الله[6] استنادا إلى ما جاء في الآية الكريمة: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر:٧]. وفي سنة ٥هـ=٦٢٦م وبعد معركة الخندق حاصر الرسول ﷺ بني قريظة في حصنهم وقسم أموالهم بين المسلمين

(١) اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٧٥.

(٢) أبو يوسف: الخراج ص١٥.

(٣) الصولي: أدب الكتاب ص٤١٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص١٧.

(٥) ابن هشام: السيرة ج٢ ص١٩٢.

(٦) أبو عبيد: الأموال ص١٢.

وأخرج منها الخمس فكان للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم[1]. وفي سنة ٧هـ=٦٢٨م حاصر الرسول ﷺ أهل خيبر في حصنهم فطلبوا منه أن يعاملهم في الأموال على النصف وفي الأراضي على نصف ثمارها[2] وذكر أبو عبيد (أن أهل تبوك أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على أن لهم رقابهم ونصف أرضهم ونخلهم[3] ولرسول الله شطر من أرضهم ونخلهم) وفتح الرسول ﷺ وادي القرى عنوة وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر[4].

ب- الأراضي التي يمتلكها العرب: نظام العشور فقد اتبع الرسول ﷺ سياسة خاصة مع الأراضي التي يمتلكها العرب، فلم يضع عليها الخراج، بل فرض عليها العشر وله في ذلك هدف سياسي اجتماعي، فالخراج يحمل معنى الخضوع والذلة وهو يريد للعرب وحدة سياسية[5].فالأراضي العربية التي فتحت عنوة فرض على بعضها العشر وترك البعض الآخر. فذكر أبو عبيد أن الرسول ﷺ لما افتتح مكة وأنه من على أهلها فردها عليهم ولم يقسمها ولم يجعلها فيئا[6]. ويذكر أبو يوسف: (أن رسول الله ﷺ افتتح فتوحا من الأرض العربية فوضع عليها العشر ولم يجعل على شيء منها خراجا فاجروا الأرض العربية كلها هذا المجرى)[7]. فاعتبرت أراضيهم عشرية وليست خراجية.

٢-أراضي الصلح: إن الأراضي العربية التي فتحت صلحا كأراضي اليمن فقد فرض عشر الإنتاج على ما سقي سقيا طبيعيا ونصف العشر على ما سقى بآلة[8] وفي البحرين تركت لهم الأرض على نصف الثمر[9] وكذلك في بعض مدن شمال الجزيرة ففرض الرسول ﷺ ضريبة مشتركة واحدة هي الجزية فقط مثل أهل (تيماء) و(تبوك) و(أذرح) و(جرش)

---

(١) ابن هشام: السيرة ج٢ ص٢٥٤.

(٢) أبو عبيد الأموال ص١٥.

(٣) المصدر السابق الصفحة.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٩.

(٥) الدوري: النظم الإسلامية ص١٠٢.

(٦) أبو عبيد الأموال ص١٥.

(٧) أبو يوسف: الخراج ص٣٣.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٧.

(٩) الدوري: النظم الإسلامية ص١٠٢.

و(أيلة) واشترط عليهم ضيافة المسلمين[1].

فكانت لهذه التنظيمات المالية أهمية كبيرة للخلفاء الراشدين باعتبارها سوابق مهمة أجراها الرسول ﷺ فأخذوا بها نصا وروحا واسترشدوا بأهدافها وغاياتها ولا سيما في البلاد التي حررها العرب خارج الجزيرة العربية.

ثانيا: النظم المالية في عهد الخلافة الراشدة: بعد حركة الدعوة والجهاد تدفقت الأموال على المسلمين وكان لا بد لهذه الأموال من نظام يتحكم فيها وينظم توزيعها ويحفظ ما زاد منها. لذلك بدأت التنظيمات الإسلامية بالتبلور نتيجة الحاجة الماسة إليها[2] واتخذت نظما تنسجم مع واقع العرب والدين الإسلامي فاستحدث ديوان بيت المال وبين موارده ومصادره.

وديوان بيت المال: هو الاصطلاح الذي أطلق على المؤسسة التي قامت بالإشراف على ما يرد من الأموال وما يخرج منها في أوجه النفقات المختلفة. ويسمى أيضا (بيت مال المسلمين) وهذه العبارة تبين الاتجاه الديني للأموال، أما تسمية (بيت مال العامة) فنلاحظها في العصور المتأخرة حيث استحدث بيت المال الخاص، وقد استخدم هذا التعبير للتفريق بين بيت المال وبيت المال الخاص، والتسميتان الأوليتان كثيرا ما تردان في نص واحد للدلالة على المسمى نفسه[3].

وكان بيت المال أحد الدواوين العظيمة الأهمية في الدولة الإسلامية حتى سمي بـ(الديوان السامي) لأنه (أصل الدواوين ومرجعها إليه)[4]. ويعده ابن خلدون من أهم وظائف الدولة لأنها تهتم بحفظ حقوق الدولة في دخلها وخرجها (وهي جزء كبير من الحسبان لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ويسمى ذلك الكتاب بالديوان)[5].

وحول تطور النظام المالي في صدر الإسلام يمكن التأكيد على الملاحظات التالية.

- احترم المسلمون شروط الصلح (في الخراج) سواء كان خراج آجره أو خراج

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ص٤٨-٧١.

(٢) خولة شاكر: بيت المال نشأته وتطوره ص٢٦ مطبعة وزارة الأوقاف – بغداد ١٩٧٦.

(٣) خولة شاكر/ بيت المال ص١٤.

(٤) الحسن بن عبد الله: آثار الأول ترتيب الدول ص٧٤ القاهرة/ بولاق ١٢٩٥هـ.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص١٥ تحقيق أ.م كاترمين بيروت ١٩٧٠.

جزية.

- طبقت الجزية منذ عهد الرسول ﷺ على اليهود والنصارى والحق بهم المجوس (الصابئة).

- إذا اعتبرت الجزية والخراج ضريبتين كانتا موجودتين في عهد الفرس والروم، لكن الإسلام جعلهما مختلفتان في المقصد لأنهما خاضعتين لنظام مقرر ومحدد على مبدأ (طاقة دفع الضرائب) لأعلى حاجة الإمبراطورية ومتطلبات الحرب أو على رغبة الحاكم المؤلة، كذلك ألغى الإسلام ضرائب كثيرة كانت مفروضة على أهل البلاد المفتوحة، ضريبة المنازل، المهن، التجارة الداخلية، الماشية، إصلاح القنوات، رسوم النقل الداخلي، وعلى دور العبادة وأملاكهما وتبرعات وضرائب رجال الدين.

- النظام المالي الإسلامي (في الضرائب) بسطه الإسلام وخفف كثيرا من أعبائه.

- النظام المالي الإسلامي قضى على مبدأ التمايز بين الطبقات وقرر المساواة في تحمل الأعباء وقرر التوازن بين مصلحة الفرد والمجتمع والأمة والمصلحة العامة.

- أشرف الخلفاء بداية على جباته الخراج ومحاسبة الولاة وعمال الخراج وقد استحدث عمر رضي الله عنه (نظام المقاسمة) في محاسبة الولاة والعمال.

المصادر المالية في الإسلام:

جاءت مصادر بيت المال حسبما حددها الخلفاء الراشدون وفقهاء المسلمين فيما بعد، من كل مال استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم حقا من حقوق بيت المال[1]. وكذلك التي يستحقها المسلمون –من الناحية الشرعية- من أوجه رئيسية خمسة هي: الجزية، الخراج، الفيء، الخمس من الغنيمة والصدقة (الزكاة)[2] إلى جانب مصادر أخرى. ويعد الفيء من حقوق أخرى استحدثت. ويعد بيت المال لأن صرفه منوط برأي الإمام واجتهاده، في حين أن الغنيمة[3] ليست كلها من حقوق بيت المال وإنما قسم منها يكون من حقوق بيت المال وهو سهم الله وسهم (للرسول) الذي يصرف في مصالح المسلمين بحسب

---

(١) الماوردي: الأحكام ص١٢١٣ ط١ القاهرة ١٩٦٠.

(٢) الماوردي: الأحكام ص٢١٣.

(٣) (الغنيمة) قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

اجتهاد الإمام. أما الصدقة (الزكاة) فقد ميز الفقهاء بين نوعين، صدقة المال الباطن (أي المخفي) ولا يترتب لبيت المال فيها من حقوق لأن أصحابه يقومون بإخراج زكاته في وجوهها الشرعية، والثاني: صدقة المال الظاهر كزكاة (الزروع والثمار والمواشي)[1] وهي التي يقوم والي الصدقات بجبايتها لمصلحة بيت المال[2].

وهناك مصادر أخرى كانت ترد بيت المال من الضرائب السائدة في البلاد كضرائب النوروز والمهرجان، ومن واردات الصوافي (التي استصفاها عمر بن الخطاب من أملاك ملوك الفرس وحاشيتهم) ومن ضرائب المكوس (عشور التجارة) ومن أموال الجزية والخراج. حيث تشكل موارد ضخمة ترد إلى بيت المال.

أولا: الجزية[3]: مبلغ من المال معين على الرؤوس ويسقط بالإسلام، وهي قديمة جديدة فرضها الروم على أهل الشام ومصر كما فرضها ملوك الفرس على عامة أهل العراق واعفوا منها الأمراء والمرازبة[4] والأساورة[5] والموابدة[6] والهرابذة[7] والدهاقين[8] ومن في خدمتهم. وهي عندهم دون مقابل وثابتة ولا تسقط عن مكلفها. أما الجزية في الإسلام فهي مؤقتة وتسقط بالإسلام، أو عدم قدرة المفروضة عليهم الذي من دفعها أولم يتوفر لهم الحماية أو شاركوا في الجهاد ولما تم تحرير العراق وفارس والشام ومصر فرض عمر بن

---

(١) الماوردي: الأحكام ص٢١٤، أبو يعلى الأحكام ص٢٣٦.

(٢) الماوردي: الأحكام ص٢١٥.

(٣) الجزية: يذكر أبو يوسف أصل كلمة الجزية من لفظة الجوالي (جمع جالية)، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطنا آخر فيه قيل: لأهل الذمة الذي أجلاهم عمر من جزيرة العرب (جالية) ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزية التي أخذت منهم، ثم استعملت في كل جزية تؤخذ وإن لم يكن صاحبها جلا من وطنه (أبو يوسف: الخراج ص٣) انظر رسائل الصابئ ص١٤٥، دائرة المعارف الإسلامية (مادة جزية) ج٦ ص٤٥٤.

(٤) المرازبة: رؤساء الفرس.

(٥) الأساورة: قواد الفرس وميجيدو الرمي بالسهام.

(٦) الموابذة: جمع موبذ وهو قاضي المجوس فارسي معرب (الجاحظ البيان ج٣ ص١٣)

(٧) الهرابذة: جمع هربذ، وهم قومة بيوت النار يديرون المراسيم الدينية فيها، فارسي معرب (الجاحظ ج٣ ص١٣).

(٨) الدهاقين: جمع دهقان وهو زعيم فلاحي العجم ورئيس الأقاليم، وهو لفظ فارسي معرب (الدينوري: الأخبار الطوال ص٤٧).

الخطاب الجزية على غير المسلمين ما عدا نصارى تغلب وأهل نجران[1] حيث فرضت عليهم ضريبة واحدة بدل الجزية والخراج.

فالجزية: هي ما يؤخذ من أهل الذمة وقيل: هي الخراج المضروب على رؤوس أهل الذمة[2] وتؤخذ ممن دخل الذمة من أهل الكتاب ومن المجوس والصابئة لقاء الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين كما في قول النبي (احفظوني في ذمتي) [3] وقد أوجبت الجزية على أهل الذمة استنادا إلى ما جاء في القرآن والسنة والإجماع. لأن الإسلام قدر حرية الأديان ورعايتها ولم يحارب إلا الوثنية، لأنها تتنافى مع كرامة الإنسان واحترام عقله، لقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة:٢٩]. وكذلك لم يجبر الإسلام أحدا من أهل الذمة على اعتناق الإسلام.

وقد اجمع الفقهاء على أخذها من أهل الكتاب ومن المجوس، فقد أخذها الرسول ﷺ من مجوس هجر، كما أخذها عمر بن الخطاب من مجوس العراق[4]، وقد اختلف الفقهاء ممن تؤخذ الجزية بعد اتفاقهم على أخذها من أهل الكتاب والمجوس. فقال أبو حنيفة واجبة بدل النصر والجهاد وتؤخذ من أهل الكتاب والمجوس وعبدة الأوثان من العجم، ولا تؤخذ من عبدة الأوثان من العرب، وأما كيفية أخذها فقد اختلفوا في تفسير قوله تعالى: ﴿يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة:٢٩]. والمعنى حتى يعطوا الجزية عن رقابهم، واختلف في اشتقاقها فقال الماوردي[5] (ت ٤٥٠هـ) وأبو يعلى (ت ٤٥٨هـ): اسمها مشتق من الجزاء إما جزاء على كفرهم لأخذها منهم صغارا أو جزاء على أماننا لهم لأخذها منهم رفقا وقيل: هي مشتقة من جزاه بمعنى قضاه[6] لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ فتكون الجزية في هذه الحالة مثل الفدية بدل القتل بسبب الكفر (المالكية). والشافعية أوجبوها بدلا من الدم

(١) أبو يوسف: الخراج ص٦٩.

(٢) المصدر السابق والصحيفة و

(٣) الماوردي: الأحكام ص١٤٣.

(٤) الطبري: اختلاف الفقهاء ص١٩٩، أبو عبيدة: الأموال ص٣٣. ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص٢، الصولي: أدب الكتاب ص٢١٤.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٤٢، أبو يعلى: الأحكام السلطانية ص١٣٧.

(٦) ابن قدامة المقدسي: المغني ج١٠ ص٦٥٧، الماوردي: الأحكام ص١٣٦.

وسكنى الدار.

ويبدو أن الرأي الأول هو الأصح، حيث ثبت ما ورد في القرآن ومن أحكام الرسول والخلفاء الراشدين، ومن جاء بعدهم أنهم كانوا يأخذون الجزية (أمانا) من أهل الذمة لقاء تعهد المسلمين بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم وعباداتهم، ولقاء إعفائهم من مهمة الدفاع عن البلاد عن طريق الخدمة في الجيش[1].

وتجب الجزية على الذكور العقلاء والبالغين، ولا تجب على الصبيان والنساء والشيوخ والرهبان والمجانين والمرضى والعميان[2].

مقصد فرض الجزية: لما كان الجهاد فرض على المسلمين فقط، فأوجب الشرع على غير المسلمين المساهمة في نفقات الحرب عن طريق الجزية التي تؤخذ منهم وتصرف على المقاتلين من المسلمين (فتكون خلفا عن النصرة)[3]. كما أنها تستخدم لسد نفقات وأرزاق الجند في المنطقة المفتوحة[4]. ويؤيد ذلك ما رواه ابن القيم في أحكامه (إنما تؤخذ الجزية منهم سنة بسنة جزاء تأمينهم وإقرارهم على دينهم يتصرفون في جوار المسلمين وذمتهم آمنين)[5]. والواقع أن الجزية لا تعتبر عقوبة في حق الذمي لبقائه على دينه، وإنما هي مساهمة مادية منه بالدفاع عن بلاده التي يسكنها وهي (دار الإسلام)، فلو كانت الجزية عقوبة لو جبت على جميع أهل الذمة دون استثناء، ولفرضت بالدرجة الأولى على رجال دينهم باعتبارهم أصحاب الدين المخالف للإسلام. ومما يؤكد على أنها كانت تدفع بدل الخدمة العسكرية، إنها تسقط حال اشتراك الذمي مع المسلم في مهمة الدفاع عن بلاد الإسلام، أو في حالة عجز المسلمين عن حمايتهم، ومما يؤكد أنها كانت تدفع بدل الخدمة العسكرية إعفاء من اشترك من أهل الذمة بالقتال مع المسلمين. وللدلالة على ذلك مسالمة قبيلة الجراجمة – وهي قبيلة مسيحية بجوار أنطاكية– المسلمين وتعهدت بالقتال معهم على ألا تؤخذ منهم

---

(١) اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٦٣.

(٢) أبو عبيدة: الأموال ص٥١، أبو يوسف: الخراج ص١٢٢، الشافعي: الأم ج٤ ص٩٨، القرطبي: تفسير ج٤ ص٩٨.

(٣) انظر: زيدان/ أحكام الذميين ص١٤٣.

(٤) انظر: فإن فلوتن: السيادة العربية ص٥٠.

(٥) ابن القيم: أحكام أهل الذمة ص١٧.

الجزية وأن تعطي نصيبها من الغنائم[1]. ولا نؤيد ما ذهب إليه بعض الفقهاء من أن الجزية تؤخذ من أهل الذمة بالإذلال لهم والشدة معهم عند أخذها. لذلك تعد الجزية. جزاء حماية أهل الكتاب في أنفسهم وأموالهم وكنائسهم واقطاعاتهم وبدل عدم اشتراكهم في القتال والدفاع عن البلاد وكذلك هي بدل دفع المسلم للزكاة والتي لا يدفعها أهل الذمة.

وتسقط الجزية عن الذمي في حالة إسلامه أو عجزه أو فقره أو عجز المسلمين عن حمايته أو التحاقه بأهل دار الحرب[2]. والدليل على على صحة ذلك: أنه عندما حشد الامبراطور البيزنطي هرقل جيشا ضخما لمهاجمة المسلمين لبعض المدن المحررة في بلاد الشام، كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمال المدن يأمرهم بأن يردوا إليهم الجزية بقوله: (إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم أن نصرنا الله عليكم)[3].

الجباية (وقتها ومقاديرها): أما وقت جباية الجزية ففي المحرم ابتداء السنة الهجرية أو في آخرها وكانت أحيانا تقسط إلى أقسام حسب إمكانيات دافعها وأما مقادير الجزية فقد اختلفت باختلاف أئمة المسلمين والزمان والمكان في تقديرها: فقد وضع الرسول ﷺ الجزية على من بالمدينة ومكة وخيبر واليمن ونجران من النصارى واليهود والمجوس، وجعلها على الرجل دينارا واحدا واستثنى من ذلك النساء والصبيان[4]. ثم جعلها عمر بن الخطاب على أهل السواد في العراق دينارا (اثني عشر درهما). على الطبقة السفلى، وعلى الوسطى دينارين (أربعة وعشرين درهما) وأسقط ذلك على النساء والصبيان والشيوخ والرهبان[5]. وفعل ذلك على قدر الطاقة واليسار. ويبدو أن الخليفة عمر أراد من هذا الإجراء أن يجعل من هذا التقسيم نظاما ثابتا واحدا بعيدا عن الإجحاف في حق أهل الذمة ويسير عليه المسلمون فيما بعد.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص١٥٩ طبعة ليدن ١٨٦٦.

(٢) انظر اليوزبكي/ تاريخ أهل الذمة ص٦٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص٨١، القاهرة ١٣٠٢هـ

(٤) الصولي: أدب الكتاب ص٢١٤.

(٥) ابن القيم: أحكام ص٢٨، الصولي ص٢١٥.

ويؤكد الماوردي[1] ما ذهبنا إليه فيقول: وجعلها عمر نظاما ثابتا واحدا يسير عليه الولاة في سائر الأمصار ليمنع اجتهادهم. فكتب بذلك عمر نظاما ثابتا يسير عليه الولاة في سائر الأمصار ليمنع اجتهادهم. فكتب بذلك عمر بن الخطاب إلى عماله في الأمصار وأوصاهم بأن لا يوضع عليهم أكثر من ذلك، ومن عجز منهم خفف عنه)[2].

فلا يتعين في الجزية ذهب وفضة، بل يجوز أخذها ما يتيسر من أموالهم من ثياب وسلاح ومواشي وحبوب وغير ذلك[3] وروي عن علي بن أبي طالب أنه كان يأخذ الجزية من صاحب البر، برا ومن صاحب الحبال حبالا، ولا يأخذ فيها خمرا ولا خنازير، ولا يباع في الجزية بقرهم ولا حميرهم ولا مواشيهم. هذا وقد حث الإسلام على الرفق والإنصاف في جباية الجزية وعدم تعريض أهل الذمة للضرب أو الوقوف في الشمس ولا غيرها ولا يكلفوا فوق طاقتهم[4].

وفي العصر الأموي ازداد عدد الداخلين في الإسلام، وأدى هذا إلى قلة الوارد من الجزية إلى بيت المال، في الوقت الذي ازدادت فيه حاجة الدولة إلى الأموال بسبب توسع الفتوحات وتعاظم نفقات الدولة والخليفة! ففرض الحجاج في ولايته على العراق الجزية على من أسلم من الموالي[5]. وأدت هذه السياسة إلى قلة الداخلين في الإسلام، وإلى نقمة الموالي على الأمويين بسبب استمرارهم في دفع الجزية، رغم أن الإسلام يعفي المسلم من دفع الجزية واستمر هذا الوضع حتى خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩هـ، حيث أسقطها برفع شعار (أن الله بعث محمدا داعيا إلى الإسلام ولم يبعثه جابيا)[6] وبهذا أعاد الخليفة عمر بن عبد العزيز التأصيل الشرعي للجزية.

وعلى هذا أمر عمر ولاته بإسقاط الجزية عمن أسلم من أهل الذمة وعدم الجور في جبايتها فقال: (إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام، واختار الكفر عتيا وخسرانا مبينا، فضع الجزية على من أطاق حملها وخل بينهم وبين عمارة الأرض، فإن في ذلك صلاحا

---

(١) الماوردي: الأحكام ص١٣٨.

(٢) ابن آدم: الخراج ج١ ص٩.

(٣) ابن القيم: أحكام ص٢٩، الصولي: أدب الكتاب ص٢١٥.

(٤) الصولي: أدب الكتاب ص٢١٥، أبو يوسف: كتاب الخراج ص٧٠.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص١٣١.

(٦) أبو يوسف: الخراج ص١٣١.

لمعاشر المسلمين وقوة على عدوهم، وقال: بلغني أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال له عمر: (ما أنصفناك أن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك، قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه) [1].

ثانيا: الخراج[2]: هو ما يخرج من غلة الأرض، ومعناه المال المضروب على الأرض، والجمع إخراج وأخراج[3] وفي اصطلاح الفقهاء الخراج ما وضع على رقاب الأرضين من حقوق تؤدي عنها[4] وقد ورد على لسان الفقهاء استعمال الخراج بمعنى الجزية فما قال أبو حنيفة (ولا يترك ذمي في الإسلام بغير خراج راسه)[5] ولكن المعنى الشائع في استعمال كلمة الخراج عند الفقهاء والمؤرخين هو: ما يفرض على الأرض من ضريبة مالية وأراضيها تسمى بالأراضي الخراجية[6] وأول من فرضها الرسول ﷺ على أهل هجر وعلى كل فرد ذكر كان أو أنثى[7]. وفعل عمر بن الخطاب عند تحريره العراق ما فعله الرسول ﷺ، فكانت أغلب أراضي السواد في العراق قد حررت عنوة عدا عدة قرى تم تحريرها صلحا، فقد تركها عمر بيد أصحابها مقابل مقدار معين من المال[8]. وتسمى أراضي الصلح. وجعل بدل الجزية والخراج فكانت ضريبة واحدة كما فعل مع نصارى تغلب عندما ضاعف الصدقة فهو خراج في الحقيقة[9].

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص١٢٦، أبو عبيدة: الأموال ص٤٥.

(٢) الخراج: كلمة عربية استعارها العرب من مصطلحات الروم الإدارية، ولعلها مأخوذة من الكلمة اليونانية (Kornia) أو (خورنيا) ومعناها بصفة عامة الضريبة التي فرضت على غير المسلمين في دار الإسلام وهي (تماثل الجزية سواء بسواء) وظلت كلمة خراج تدل على هذا المعنى العام نفسه في كتب الفقه المتأخرة، ولعل كلمة (خراج) قد اعتبرت عربية الأصل بمعنى (خراج الأرض) وقد جرت العادة قبل ذلك بأن يدفعوا ضريبة من هذا القبيل في تلك الربوع أيام خضوعها لحكم الروم والفرس، واحتفظ العرب بكثير من تفاصيل النظام القديم في جبايتها (دائرة المعارف الإسلامية) (مادة خراج) ج٨ ص٢٨٠ وما بعدها.

(٣) المنجد ص١٦٩، وفي المصباح المنير: الخراج والخرج ما يحصل من غلة الأرض ج١ ص٢٢٧.

(٤) الماوردي: الأحكام ص٤١، أبو يعلى: الأحكام ص١٤٦.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص١٣٢.

(٦) اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة ص٦٧.

(٧) أبو يوسف: الخراج ص١٢٩.

(٨) الكاساني: بدائع الصنائع ج٢ ص٥٨.

(٩) المصدر السابق والصحيفة.

أما الأراضي التي حررت عنوة (بالحرب) أبقاها بيد أصحابها مقابل مقدار من الخراج عليها، وأبقى الجزية[1] عليهم، وحجة عمر في إبقاء الأرض بيد أصحابها وتركها لهم قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ فتلا عليهم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فاجمع على تركه وجمع خراجه وقرره في أيدي أهله ووضع الخراج على أراضيهم[2].

أما الأراضي العشرية التي يمتلكها الذمي فهي عند أبي حنيفة تصبح خراجية وعند أبي يوسف تبقى عشرية وعليه أن يدفع مضاعفا كما هو الحال بالنسبة لنصارى تغلب[3] وتتميز الأراضي الخارجية عن أراضي العشر في الأمور التالية[4]:

(أ) الأراضي الميتة والتي أحياها المسلمون هي أرض عشرية لا يجوز أن يوضع عليها الخراج.
(ب) ما أسلم عليها أصحابها فهم أحق به فتكون أرض عشرية وليست خراجية.
(جـ) ما ملك من المشركين عنوة وقسم بين الفاتحين أرض عشرية.
(د) ما صولح عليها أهلها فهي أرض صلح يقع عليها العشر وليس الخراج.

جباية الخراج فقد اتخذت طريقتين: الأولى: ما يفرض على مساحة الأرض كما فعل عمر بن الخطاب في أراضي السواد[5] في العراق بعد تحريرها فقد تركها بأيدي أهلها، وفرض على كل جريب[6] أرض صالحة للزراعة قفيرا[7] وما يزرع فيها ودرهما. أما الثانية: ما يؤخذ بالمقاسمة وهو أخذ نسبة معينة من الحاصل نحو الخمس أو السدس وما أشبه

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص٤٤.
(٢) أبو يوسف: الخراج ص٣٥.
(٣) الكاساني: بدائع الصنائع ج٢ ص٥٨.
(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٤٧.
(٥) أرض السواد: والسواد ما حوالي الكوفة والبصرة من القرى والرساتيق وقيل: إنما سمي بالسواد لكثرة النخل والشجر ولخضرته واسوداده، ولأن الخضرة تقارب السواد، ولأن العرب تسمى الأسود أخضر والأخضر أسود (ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص٢٠٩)
(٦) الجريب = ١٣٦٦ متر.
(٧) القفيز = ٧٥١/ ٢كغم (الريس: الخراج في الدولة الإسلامية ص٢٧٧).

ذلك[١].

هذا ويؤخذ الخراج مرة واحدة في السنة إذا كان حسب المساحة، وأما خراج المقاسمة فيتكرر أخذه بتكرار زراعة الأرض[٢]. وبذلك يكون قرار عمر بإبقاء الأرض بأيدي أصحابها من أهل الذمة أن تحول حكم الأرض في السواد من الغنيمة إلى الصلح دون أن يكون بين أهل الأرض والمسلمين عهد أو شرط صلح اتفقوا عليها[٣] وقد راعى المسلمون في فرض الخراج بحسب كثافة الأرض وخصوبتها ونوعية الإنتاج وأثمانه وطريقة السقي وموقع الأرض من المدن والأسواق[٤]. وعدم تكاليف صاحبها فوق طاقته، ويتجلى هذا في قول عمر بن الخطاب لحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف لما مسحا سواد العراق، ووضعنا عليه الخراج قال عمر لهما: (لعلكما حملتما الأرض مالا تطيق) قالا لا بل حملناها ما تطيق: ولو زدنا لأطاقت)[٥].

وقد اتبع علي بن أبي طالب السياسة التي رسمها عمر بن الخطاب بالنسبة للخراج والتزم بها معظم خلفاء بني أمية وولاتهم في العراق، حيث كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على الكوفة قائلا له (... وأمرتك ألا تطرق عليهم أراضيهم وألا تحمل خرابها على عامرة ولا عامرا على خراب، ولا تأخذ من الخراب إلا ما يطيق، ولا من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق، وتسكين لأهل الأرض، وأمرتك ألا تأخذ في الخراج أجور الضرابين، ولا إذابة الفضة ولا هدية النيروز والمهرجان ولا ثمن الصحف، ولا أجور البيوت ولا دراهم[٦] النكاح، ولا خراج من أسلم من أهل الذمة)[٧].

وكان الخراج حتى خلافة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) يؤخذ في أيام النيروز الذي كان

---

(١) الكاساني: بدائع الصنائع ج٢ ص٦٣.

(٢) ابن عابدين: رد المحتار على الدر المختار ج٣ ص٣٦٥.

(٣) الراوي: العراق في العصر الأموي ص٦٠.

(٤) الماوردي: ص١٤٣، ص١٤٤، أبو يعلى ص١٥١.

(٥) الكاساني ج٢ ص٦٢، ٦٣، يحيى بن آدم: الخراج ج١ ص٩.

(٦) دراهم النكاح: يراد بها بغايا كان يؤخذ منهن الخراج.

(٧) أبو عبيد: الأموال ص٦٥، ابن القيم ص٣٨، ٣٩.

معمولا به أيام الفرس، واقتدى بهم ملوك الإسلام فأمر المتوكل بتأخير الخراج حتى يتم نضوج الحاصل[1] رفقا بالرعية، ولكن المتوكل قتل ولم يتم ما دبر حتى قام المقتضد فأخر جباية الخراج من نيسان إلى سبعة عشر من حزيران[2].

وحول نظام الأراضي: فقد قسم العلماء هذا النظام إلى ثلاثة أقسام هي:

أ) ضياع الخلافة. ب)الإقطاع: ويشمل اقطاعات كبار الموظفين واقطاعات خاصة (الأفراد الشعراء) واقطاعات أراضي الموات لإصلاحها واقطاعات عسكرية للجيش.

ج) أراضي الوقف.

ثالثا عشور التجارة: والعشر: هو مقدار الضريبة المفروضة على أموال أهل الذمة المعدة للتجارة، والمنقولة من دار الحرب إلى دار السلام وبالعكس، ويزيد هذا المقدار وينقص بناء على قاعدة المعاملة بالمثل[3] (خذوا منهم ما يأخذون منا) [4]. والأموال الخاضعة لضرائب التجارة وجميع عروض التجارة من حبوب وحيوانات، وثياب وأمتعة وأطعمة، وكذلك الذهب والفضة نقودا كانت أو معدنا وغيرهم[5] وقد حدد عمر بن الخطاب الضرائب المفروضة على التجارة بقوله: (خذوا من المسلم ربع العشر ومن الذمي نصف العشر ومن الحربي العشر) [6].

ويشترط في المال الخاضع لضريبة العشر أن يبلغ النصاب، وأن يكون معدا للتجارة واختلف في تحديد نصاب المال وهو يتراوح بين ١٠-٢٠ دينارا، ولا تجب ضريبة العشر على الذمي والمسلم إذا انتقل بتجارته من بلد إلى آخر بدار الإسلام[7] وتستوفى ضريبة العشر من

---

(١) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية ص٣١.

(٢) البيروني: ص٣١-٤١.

(٣) اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٦٩.

(٤) السرخسي الحنفي: شرح السير الكبير ج٤ ص٢٨٣.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص٢٣٣، ص١٣٤.

(٦) أبو عبيد: الأموال ص٥٣٣، ص٥٣٤، أبو يوسف: الخراج ص١٣٥، ابن القيم: أحكام ص١٦٦.

(٧) أبو يوسف: الخراج ص١٣٣.

الذمي والمسلم والحربي مرة واحدة في السنة مهما تكررت مرات التجارة[1]. فإذا ازداد المال أخذ من الزيادة وحدها لأنها لم تفسر[2]. ويعفى العبد من ضريبة العشر إن كان عليه دين بقدر ما معه أو ينقص عن النصاب فيمنع أخذ العشر منه ولا يقبل منه إلا ببينة من المسلمين[3]. ويعفى أيضا من ضريبة التجارة كل من دخل بميرة والناس إليها بحاجة ليكثروها على المسلمين[4]. ويعفى العبد من ضريبة التجارة على البضاعة إن كانت ملكا له[5].

أما العشور على تجارة الخمور والخنازير فاختلف الفقهاء في جبايتها فمنهم من فرضها على الخمور دون الخنازير، ومنهم من فرضها على الاثنين معا[6]. لاستوائهما في المالية أما الضريبة على تجارة العبيد فكانت تبلغ عشرة دراهم على كل فرد وعلى الخيل ثمانية دراهم[7]. ولم تفرض العشور على التجارة الداخلية ويؤيد ذلك الماوردي بقوله: (وأما أعشار الأموال المتنقلة في دار الإسلام من بلد إلى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد، ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة، وقل ما تكون إلا في البلاد الجائرة)[8].

رابعا: الزكاة والصدقة[9]: وهي شرعا تملك جزء من المال عينه الشارع لمستحقه بشرائط مخصوصة (النصاب والحول) والزكاة والصدقة هي أول ضريبة إسلامية فرضت على الأغنياء والقادرين من المسلمين على الأموال المرصدة للنماء، إما بنفسها أو

---

(١) أبو عبيد: الأموال ص٥٣٣، ص٥٣٨.

(٢) ابن القيم: أحكام ص١٦١.

(٣) المصدر السابق ص١٦٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٦٧.

(٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص٢٦٢.

(٦) أبو يوسف: الخراج ص١٣١.

(٧) الشافعي: الأم ج٤ ص١٢٥.

(٨) الماوردي: الأحكام السلطانية ص ١٨٣.

(٩) الزكاة: مأخوذة من زكاة الشيء يزكو إذا نما وازداد فيقال: زكا الزرع والمال يزكو إن كثر وزاد، وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، فكأن الخراج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعله الله للمساكين (القرطبي تفسير آية الزكاة).

بالعمل فيها طهرة لأهله، والزكاة والصدقة تأتي بمعنى واحد، وتجبى مرة واحدة في السنة، وقد كانت أول الأمر اختيارية استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[المعارج: ٢٤-٢٥]. ثم أصبحت فيما بعد إجبارية بدليل قوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم ...﴾[التوبة: ١٠٣]. لأن إخراج شيء من مال المسلم والتصدق به على فقراء المسلمين يطهر المال ويبعد عن صاحبه الحسد والحقد، ويخلف من صاحبه الرحمة، ويذهب عنه البخل والأثرة.

أما مصارف الزكاة فقد حددها الشرع في ثمانية أصناف من الناس، ذكرهم القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: ٦٠]. أما مقادير الزكاة والصدقات فقد حددها الرسول ﷺ لعدم وجود نص قرآني يحدد مقاديرها، وقد فرضت الزكاة على أموال التجارة وعلى الذهب والفضة وعلى الزروع والثمار وعلى الإبل والمواشي والمعادن (الركاز) كذلك حدد العلماء طرق جباية الزكاة شريطة عدم التعسف والظلم والإجحاف.

وكان جباة الخراج يشرفون على جباية الزكاة والصدقات، وكان بعضهم يسيئون استعمال صلاحياتهم في جبايتها. وحول ذلك أشار فقد أشار أبو يوسف في كتابه الخراج بقوله (وقد بلغني أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم في الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما يحل ولا يسع)[١] فاقترح أبو يوسف على الخليفة الرشيد ضرورة تعيين موظفين أمناء للإشراف على جباية الزكاة والصدقات وأما شروط المال الخاضع للزكاة ففيه شرطان:

الأول: أن يبلغ النصاب: ويختلف بحسب اختلاف الأموال.

الثاني: أن يبقى في حوزة صاحبه حولا كاملا. وقد وضع الفقهاء مقادير الزكاة على الأموال المختلفة فجعلوا ضريبة الزكاة على أموال التجارة ٢.٥٪ وعلى الذهب والفضة ٢٠ درهما للفضة و٢٠ مثقالا للذهب ومقدارها ٢.٥٪ أيضا. أما الزكاة على الزروع والثمار فاختلفت باختلاف طريقة السقي، فوضعوا على الزروع التي تسقى سيحا أو بصورة طبيعية

(١) أبو يوسف: الخراج ص٩٥.

١٠٪ وعلى الزروع التي تسقى بآلة ٥٪، وليس على الخضر ولا على الأعلاف ولا على العشب عشر[١].

وأما ما توجب فيه الزكاة: فقد حددها العلماء والفقهاء في الذهب والفضة والسوائم والركاز والزروع والثمار وحددوا كذلك نصابها. ومقدار الزكاة عليها وفيما يلي بيان ذلك:

أ- زكاة النقد (الذهب والفضة) مئتا درهم (٢.٥٪).

ب- زكاة السوائم (الإبل والغنم والبقر والجاموس)

أما زكاة المواشي، فعلى الإبل والغنم والبقر خمس في الإبل وثلاثون في البقر وأربعون في الغنم، واشترط فيها أن تكون سائمة في المراعي وغير مشتغلة في شيء. أما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها إذا إذا كانت من أموال التجارة فيزكي صاحبها عنها بقيمتها النقدية. وقد فرض الفقهاء الزكاة على المعادن.

أ- الركاز: وهو ما وجد تحت الأرض أو في البحر كالمعادن والكنوز فقال الحسن البصري: ما كان من ركاز في أرض الحرب ففيه الخمس، وما كان في أرض المسلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر.

ب- زكاة الزروع والثمار: العشر على الأراضي التي تسقى بماء المطر، ونصف العشر إذا كانت مروية بآلة وغيرها.

خامسا: الفيء والغنيمة: (أ) الفيء هو ما يحصل عليه المسلم دون قتال[٢] ويقسم خمسة أخماس كما جاء في القرآن: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١] والأربعة أخماس الباقية من الفيء تقسم بين الجند وفي شراء الأسلحة والمعدات الحربية[٣].

(ب) الغنيمة: الغنيمة في اللغة: ما يناله الرجل أو الجماعة من عساكر الكفار عن طريق الحرب ما عدا الأرض، وهي كل ما حصل عليها المسلمون عن طريق الحرب من

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص٩٥

(٢) يحيى بن آدم الخراج ص١٧. عرفها: كل مال وصل من المشركين للمسلمين من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب.

(٣) الماوردي: الأحكام ص١٢٧.

أموال العدو وممتلكاته[1]. وتقسم إلى خمسة أخماس، وتوزع حسبما جاء في القرآن: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويختلف (المالان الفيء والغنيمة) في حكمهما وهما مخالفان لأموال الصدقات من أربعة أوجه[2] أحدهما: أن الصدقات مأخوذة من المسلمين تطهيرا لهم والفيء والغنيمة مأخوذان من الكفار والثاني: أن مصرف الصدقات منصوص عليه ليس للأئمة اجتهاد فيه، وفي أموال الفيء والغنيمة ما يقف مصرفه على اجتهاد الأئمة والثالث: أن أموال الصدقات يجوز أن ينفرد أربابها بقسمتها في أهلها ولا يجوز لأهل الفيء والغنيمة أن ينفردوا بوضعه في مستحقه حتى يتولاه أهل الاجتهاد من الولاة. والرابع: اختلاف المصرفين حسبما جاء في القرآن.

سادسا: المصادر الأخرى (اللقطة وأراضي الوقف والضرائب المستحدثة)

أما الضرائب المستحدثة في العصرين الأموي والعباسي. فهي ضرائب جديدة مستحدثة (وهي غير الشرعية المنصوص عليها) أوجدها الخلفاء. فقد أرجع الأمويون بعض الضرائب الساسانية التي ألغاها الخليفة عمر بن الخطاب منها (هدايا النوروز والمهرجان) وهي ضرائب اعتاد الناس تقديمها باسم هدايا للملوك الساسانيين في عيدي النوروز والمهرجان، وكان ذلك منذ خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ أنه (طالب أهل السودان أن يهدوا له في النوروز والمهرجان ففعلوا ذلك فبلغ عشرة آلاف ألف درهم)[3] وقد أبطلها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ثم أعيدت من بعده، وقد وردت إشارات إلى وجودها في العصر العباسي أيضا فقد ذكر الفخري[4]. إن بعض الناس قد أهدى خالد بن برمك في يوم نيروز هدايا من فضة وذهب. وروى أيضا[5] أن أحمد بن يوسف وزير المأمون أهدى للخليفة يوم نيروز هدية قيمتها مليون درهم. ويذكر المسعودي[6] الهدايا التي قدمت

---

(١) يحيى بن آدم الخراج ص١٧.

(٢) الماوردي: الأحكام ص١٢٦.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص٢٣-٢٤.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٤٠.

(٥) المصدر السابق ص٢٠٦.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ج٢ ص٢٧٩.

للخليفة العباسي المتوكل يوم النيروز.

ويفهم من هذه النصوص أن هدايا النوروز في العصر العباسي لم تكن تؤخذ من عامة الشعب، وإنما تقدم للخليفة ووزيره من قبل كبار رجال الدولة والحاشية. وهناك ضرائب أخرى فرضت في فترات متباينة في العصر الأموي والعباسي فقد روى بندلي[1] جوزى: أن الأمويين وضعوا ضرائب على الصناعات والحرف، وأن هذه الضرائب لم تكن محدودة، بل كانت تعتمد على رغبة العمال، ولذا فقد تكون أشد وطأة من الجزية والخراج. وقد فرض الخليفة العباسي المهدي ضريبة على الأسواق والحوانيت كما فرضت ضرائب[2] على الطواحين فذكر اليعقوبي[3] أن (أجرة الأسواق ببغداد جميعا ومن رحى البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثنا عشر مليون درهم).

ومن الضرائب الأخرى (الغرامات) التي تأخذها الشرطة من الجناة فيقول الجهشياري[4]. (قلد المهدي عمارة بن حمزة الخراج بالبصرة فكتب إليه أن يضم الأحداث إلى الخراج ففعل ذلك) كذلك فرض المتوكل الضرائب على الأموال المدفونة والكنوز، كما فرض الخمس على ما يستخرج من البحر مثل العنبر واللؤلؤ والأحجار الكريمة وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يعرف أصحابها. وفرضت ضريبة المواريث وهي ما تؤخذ من مواريث من يموت ولا يخلف[5] وارثا له.

ولما ازدادت حاجة الخليفة أخذ يصادر الوزراء والكتاب، فكان الواثق أول خليفة صادر كتابه ووزراءه بغية الحصول على الأموال[6]. وهناك ضرائب فرضت على الدور (تدعى ضريبة العرصة) ولعلها فرضت على الدور المنشأة على أرض حكومية وفرضت عامة أحيانا[7]. وفرضت ضرائب على ما يباع من المواشي وكذلك فرضت على بيع الخمور.

---

(١) بندلي جوزي: من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص٤٢.

(٢) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص١٣-١٤.

(٣) اليعقوبي: البلدان ص٤٢، ص٣٠.

(٤) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص١٤٩.

(٥) متز: الحضارة الإسلامية ج١ ص١٨٩.

(٦) انظر الطبري: حوادث سنة ٢٢٧هـ.

(٧) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٠٢-٢٠٤.

وفرضت ضرائب أيضا على الأرزاق والرواتب في أواخر القرن الرابع الهجري[١].

ويبدو أن تعدد هذه الضرائب وتنوعها، كان بسبب قلة الموارد المالية للدولة واضطراب الوضع السياسي، وسيطرة العناصر الأجنبية على الحكم من أتراك وبويهيين وإنفاقهم أموال بيت المال على بذخهم وترفهم.

النفقات (والعطاء): يعد الفيء والغنيمة والجزية والخراج والعشور والزكاة والمواريث، والضرائب المستحدثة من المصادر المالية المهمة للدولة الإسلامية، وينطلق تنظيم توزيعها حسبما جاء في آية الغنائم[٢]، التي تقتضي توزيع غنائم الحرب إلى خمسة أخماس يعطي الخمس إلى من ذكر في الآية الكريمة ويوزع أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين، وينسب إلى عمر بن الخطاب، تقرير مبدأ أن ما وقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة وأسرى حرب إنما هو داخل في الغنيمة، وهو من نصيب المقاتلين، وينسب إلى عمر بن الخطاب، تقرير مبدأ أن ما وقع في أيدي المحاربين من أموال منقولة وأسرى حرب إنما هو داخل في الغنيمة، وهو من نصيب المقاتلين. أما الأراضي والعقارات والدور (الأموال غير المنقولة) فليس كذلك إذ هي من حق جمهور المسلمين وهي فيئهم. وللدولة حتى الإشراف عليها وجباية غلتها بواسطة موظفيها وتنفق مواردها لصالح المسلمين. إن هذا النهج ناتج عن قدرة الخليفة عمر في تأويل النصوص وتطبيقها بما يخدم مصلحة الأمة، وقد برر عمر بن الخطاب موقفه هذا بقوله، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذه البلد وبغيره فقالوا الرأي رأيك[٣].

وقد استقر رأي عمر على هذا التدبير بعد أن استشار كبار الصحابة الذين اختلفوا في الرأي (فأما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم[٤] ووافقه الزبير بن العوام[٥] وكان رأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر[٦] ويذكر اليعقوبي أن عليا عارض قسمة الأرض وقال لعمر: (إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجيء بعدنا شيء ولكن

---

(١) المصدر السابق نفسه: ص٢٠٤-٢٠٦.

(٢) انظر سورة الأنفال آية ٤١.

(٣) أبو يوسف: الخراج ص٢٤-٢٥.

(٤) البلاذري: فتوح ص٢١٨.

(٥) أبو يوسف: الخراج ص١٥.

(٦) أبو يوسف: الخراج ص١٤.

نقرها في أيديهم يعملونها فتكون لنا وطن بعدنا) [١].

ومن هذا الأساس أورد أبو يوسف حكمه في الأرض المفتوحة بقوله: (وأيما أرض افتتحها الإمام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فإن رأى أن ذلك أفضل في في سنة من ذلك -وهي أرض عشر- وأن لم ير قسمتها ورأى الصلاح في إقرارها في أيدي أهلها كما فعل عمر بن الخطاب في أرض السواد فله ذلك -وهي أرض خراج- وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهي ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفوا من ذلك ما لا يطيقون[٢].

وقد أوضح عمر بن الخطاب سياسته المالية في توزيع العطاء أمام صحابة رسول الله فقال لهم ما ترون: فأني أرى أن أجعل عطاء الناس في كل سنة، وأجمع المال فإنه أعظم للبركة فوافقوه أكثرهم، ففرض الأعطيات، واستشارهم في ترتيب الناس على منازلهم وقال: (ألا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه) [٣]، وقد عبر عن هذا المنطلق بقوله: (ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو أمنعه، وما أحد أحق من أحد، وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله، فالرجل وبلاءه في الإسلام والرجل وحاجته) [٤].

وعلى هذا الأساس فقد ساوى عمر بن الخطاب كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم ومواليهم، فكتب إلى أمراء الأجناد (ومن أعتقهم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم في العطاء[٥]. وميز عمر بن الخطاب نساء النبي ﷺ في العطاء ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف أو عشرة آلاف درهم - على خلاف الروايات- ثم سوى بين النساء بحسب طبقتها وجعل للمرأة عشر أعطيات زوجها، وفرض للمهاجرين خمسة آلاف درهم في السنة وللبدريين (الذين شهدوا معركة بدر) أربعة آلاف درهم. وفرض لكل مولود مائة درهم فإذا ترعرع بلغ به مئتي درهم، فإذا بلغ رشده زاد له في العطاء، ولم يكن يفرض

(١) اليعقوبي: تاريخ ج٢ ص١٢٩.

(٢) المصدر السابق ص٢٥-٢٧، ص٦٣، ٦٩.

(٣) الماوردي: الأحكام ص١٩٠.

(٤) الطبري: ص٢٣-٢٤، أبو يوسف الخراج ص٤٦.

(٥) الطبري ج٤ ص١٦٢ ١٦٣، البلاذري: فتوح البلدان ص٤٦٤، أبو يوسف الخراج ص٤٢.

للمولود أول الأمر حتى يفطم، ثم أمر مناديه أن يهيب بالناس (أن لا تعجلوا بفطام أولادكم، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام)[1].

المصارف (العطاء والأرزاق): وتعني المصارف حق الإشراف المباشر على الثروة المتدفقة على بيت المال وبتحديد أبواب المصارف (أو النفقات) في أبواب (الرواتب. العطاء. الأرزاق)

الرواتب: حددث بالزمان (سنوية) وبنيت على السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين والجهاد والشجاعة. وفي ذكر السابقة في الإسلام جاء قول عمر بن الخطاب (قسمنا رسول الله ﷺ فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام والرجل وحاجته في الإسلام).

رواتب الجند: المسلمون جميعا لهم حق في المال باعتبارهم جند الدولة وعليهم فرض الجهاد. وقد صنفهم عمر بن الخطاب على أساس القربى لرسول الله ﷺ وعلى قدر السابق في الإسلام وحضور المشاهد محدد إلى موقعة بدر، ومن بدر إلى الحديبية ومن الحديبية إلى نهاية الردة: أهل القادسية واليرموك. الروادف وحدد الرواتب لأبناء البدريين وفي النساء المهاجرات، نساء أهل بدر، نساء ما بعد الحديبية، نساء ما بعد اليرموك والقادسية ثم سوى بين النساء بعد ذلك.

العطاء[2]: تعرضت للزيادة والنقصان[3]. وتباينت طرق صرفها، وأول من فرضها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه منها فرضه عطاء لأمراء الجيش، والقرى على قدر حاجتهم. وفي دفع رواتب الموظفين والجند والشرطة والعمال وسائر موظفي الدولة. وفي أرزاق الجند (رواتبهم) وصيانة الأنهار وإصلاح مجاريها. وحفر الترع والزراعة وغيرها. وكذلك في النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب ودفن موتاهم. ومنح العطايا والمنح للأدباء والعلماء.

الأرزاق: فرضها عمر بن الخطاب إلى جانب العطاء النقدي من أموال الفيء حتى جعلها أرزاقا شهرية وعينية، تمثلت بقدر ما يكفيه الفرد من الدقيق والزيت والخل. وقد

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٦٤.

(٢) انظر: أبو يوسف، الخراج ٢٤-٢٥، ١٤-١٥، ٤٢، ٤٦.

(٣) البلاذري: فتوح ص٢١٨، ٢٦٤، اليعقوبي: تاريخ ج٢/ ١٢٩، الطبري: ج٤، ٢٣/ ٢٤، ١٦٢-١٦٤.

فرض هذا القدر للرجل والمرأة والمملوك على السواء وشملت الأرزاق الضعفاء والمعوزين وسد ضرورات الناس وحاجتهم في حال الكوارث أو إذا حدث نقص في المحاصيل، أو حدث غزو، أو أصاب المسلمين ضرر في الممتلكات كذلك كانت تقدم على أشكال أرزاق تقدم للقضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال، وأرزاق تقدم إلى أمراء الجيش على قدر ما يصلح لهم من الطعام ويتوافق مع ما يقومون به من أمور.

الفصل السادس

النظام العسكري

- الجهاد (بواعثه ومراحله) والتنظيم العسكري.
- الجيش
- الشرطة
- البحرية

بواعث الجهاد في الإسلام ودوافعه: كثير من المفكرين يخلطون بين منهج الإسلام في النص على استنكار الإكراه في العقيدة. ومنهجه في تحطيم القوى التي تعبد الناس وتمنعهم من العبودية لله وحده. لأن الجهاد في الإسلام له بواعثه الخاصة التي تختلف عن الحروب وفلسفاتها وبواعثها عامة. خاصة وأن تكييف الجهاد في الإسلام يختلف عن تكييف الحروب التي عرفتها الأمم من قبل ومن بعد. ولمعرفة هذه البواعث يجب أن نلتمس طبيعة الإسلام ذاته ودوره في الأرض وأهدافه العليا التي قررها الله تعالى، وذكر أنه أرسل من أجلها الرسل وجعل محمدا ﷺ خاتم الأنبياء والرسالات.

أولا: إعلان تحرير عام للإنسان: وتم ذلك من خلال:

(أ) تحرير الإنسان من عبودية العباد والظواهر الكونية، وذلك بإعلانه ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين.

(ب) إعلان الإسلام بالتحرير لم يكن نظريا فلسفيا سلبيا، وإنما كان إعلانا حقيقيا واقعيا إيجابيا، يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ويخرجهم إلى عبودية الله وحده.

(ج) إعلان الإسلام وتحرير الإنسان موضوعه البشرية جمعاء.

(د) هدف الإسلام تحرير الإنسان من عبودية العباد. فهو يهدف ابتداء إلى إزالة الأنظمة التي تقوم على أساس حاكميه البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان، ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحرارا بالفعل في اختيار العقيدة بمحض اختيارهم، بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم.

(هـ) لا يعني إطلاق الحرية للبشر أن يجعلوا إلههم هواهم. بل قاعدة النظام أن الذي يحكم البشر هي العبودية لله وحده (الحرب الدفاعية).

ثانيا: غرض الجهاد إنساني محدد في قتال الوثنيين، ودفاعا عن النفس والعقيدة ونشر الدعوة ودفاعا وردعا عن دولة الإسلام.

ثالثا: جعل الجهاد فرضا من فروض الإسلام (غرض ديني) وهو الأول لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ كذلك أكد القرآن على ثواب الجهاد في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

رابعا: قد يضاف إلى العامل الديني في الجهاد عوامل أخرى لكنها تعد ثانوية إلى جانب الدافع الديني الأساس.

خامسا: يعد الدافع الاقتصادي عاملا ثانويا مشجعا ليس إلا.

سادسا: التزام المسلمين في جهادهم بحفظ العهود وإنسانية القتال.

مراحل الجهاد في الإسلام: مرَّ الجهاد في الإسلام بمرحلتين رئيسيتين. الأولى: يمثلها عهد النبوة. وفيها شرع الجهاد ووضعت قواعده وحددت أهدافه الرئيسية. وانتهت هذه المرحلة بتوحيد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام. والثانية: هي المرحلة التي تلت الأولى وبدأت بقيام الخلافة الراشدة ثم الأموية والعباسية، وفي هذه المرحلة تم تطبيق النظام الإسلامي على المستوى الإنساني والعالمي.

مرحلة عهد النبوة: مر الجهاد في عهد رسول الله ﷺ بمراحل، كل مرحلة كانت تواجه واقعا قائما بما يكافئ هذا الواقع، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها. والجهاد حركة دائبة بوسائل متجددة، لكنه لا يخرج عن قواعد الدين المحددة ولا عن أهدافه المرسومة.

مرحلة ما بعد النبوة: تمثل بدايتها قيام الخلافة الإسلامية وتطبيقها النظام الإسلامي وامتداده إلى المجال العالمي، بحيث قدمت لأول مرة نموذجا إنسانيا في تاريخ البشرية أمة واحدة تضم شعوبا متعددة تحكمها شريعة واحدة على أساس المساواة التامة والعدالة المطلقة. وتجمع بينهم آصرة واحدة تتخطى حواجز الجنس والقوم واللغة واللون، وتربطهم ربوبية واحدة، وتبرز فيهم إنسانيتهم. وهذا لم تتجمع عليه الإنسانية لا من قبل ولا من بعد.

النظم العسكرية وتطورها:

الحرب عرّفت أنها[1]: (رحى ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمارها الحذر) وهي شيء طبيعي لا تخلو منه أمة ولا جيل، وضرورة اجتماعية طالما كانت هناك أطماع ومظالم بشرية استدلالا بقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾. والحرب في الإسلام: حرب دفاعية[2] ارجعه إلى

(١) انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١/ ١٠٨ ط لجنة التأليف.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦٥٣، وحول تدرج الإذن بالجهاد انظر الآية: سورة الحج ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ وفي سورة البقرة ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي سورة النساء ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ

أمرين: الدفاع عن النفس عند التعدي والدفاع عن الدعوة إذا وقف أحد بسبيلها بفتنة من آمن، أو بصد من أراد الدخول في الإسلام عنه، أو يمنع الداعي من تبليغ دعوته.

تطور النظم العسكرية: وتشمل فترة ما قبل الإسلام، ثم صدر الإسلام وعهد الخلافة الأموية والعباسية، وفيما يلي بيانها:

التنظيم العسكري قبل الإسلام: يرتبط إنشاء الجيش المنظم بوجود الدولة، فقد كان لدى العرب المتحضرين قبل الإسلام الذين أقاموا دولا في اليمن، وتدمر والأنباط والمناذرة والغساسنة. جيوشهم المنظمة التي خاضت حروبا هجومية أو دفاعية معروفة ومشهورة في التاريخ ضد الفرس والروم والأحباش.

أما القبائل البدوية فلم تكن لها جيوش بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما كانت القبيلة بأجمعها هي الجيش تقاتل وتهاجم وتدافع، لذلك كانت حياتهم تكاد تكون حربا دائمة وقدراتهم القتالية وإقدامهم في الحرب جعلت منهم مقاتلين مثاليين. وكأن للدولة العربية التي قامت في الجزيرة العربية وعلى أطرافها نظام عسكري فكان لدى القريشين نظام عسكري قائم على توزيع قياداته ومهامه بين بطون قريش، أشهرها (إمارة الركب) التي يقود صاحبها المركب في خروجهم للقتال وكانت ببني أمية، وكانت قيادة الجيش في المعركة مهمة، وفي الحرب كانت لهم الراية المسماة بـ(العقاب) وأسندت مهمة حملها لبني عبدالدار. وظهر لدى المناذرة والغساسنة تنظيم عسكري أكثر تعقيدا إذ كون الغساسنة فرقا عسكرية منظمة هي الملحاء، والشهباء، وكون المناذرة كتائب عسكرية منظمة هي الشهباء والدواسر والرهائف والصنائع والوضائع[1].

وكانت أهداف الحروب عند العرب قبل الإسلام للثأر والدفاع والاستيلاء، أما في عصر الرسول ﷺ وعصر الراشدين والعصور الإسلامية التالية، فقد أصبحت للحرب غاية سامية لخدمة الدعوة الإسلامية والدفاع عن معتنقي الإسلام وتأمين حرية انتشاره خارج

ٱللَّهِ ﴾ وفي سورة الأنفال ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ ﴾، الحرب في الإسلام لم تكن معتدية والإذن بها جاء متدرجا ثم تصنيف الناس وموقف الإسلام من كل صنف.

(١) أحمد بدر: التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ص١١٠ مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ١٩٨١- دمشق.

الجزيرة العربية وهذه الحرب هي الجهاد في سبيل الله.

وقد عبر ابن خلدون[1] عن أشكال الحروب بقوله: واعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة، فقد بدأها الله وأصلها إرادة الانتقام بعض البشر من بعض.. وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل، وسبب هذه الحروب إما غيرة ومنافسة. وإما عدوان، وإما غضب لله ودينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده، فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة، والثاني هو العدوان أكثر ما يكون من الأمم الوحشية... لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعاشهم فيها بأيدي غيرهم، والثالث المسمى في الشريعة بالجهاد، والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والمانعين لطاعتها... فالصنفان الأولان منها حروب بغي وفتنة، والصنفان الأخيران حروب جهاد وعدل.

الجهاد وتنظيم الجيش في الإسلام: كان الجيش الإسلامي في عهد الرسول ﷺ لا يتحدد بفئة معينة وإنما كان يشمل المؤمنين بالإسلام كافة، شبابا وشيوخا وحتى النساء. وفرض الإسلام المشاركة في القتال للقادرين عليه، فأصبح كل مسلم جندي عليه المشاركة في الدفاع عن الإسلام ونشره، وكان الرسول ﷺ هو قائد هذه الجماعة المؤمنة[2]. الذين كانوا يقاتلون على شكل صفوف متراصة استنادا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾[الصف: ٤]. وقسم الرسول ﷺ الجيش: إلى عرافات جعل على كل عشرة رجال عريفا[3]، وعلى كل عشرة عرفاء نقيبا وهو شيخ القبيلة ويرأسهم الأمير أو (القائد) ويختار من هو أيقظ عينا وأبصر بالحرب[4].

والجهاد في الإسلام يعني قتال أعداء الدين، وقد تطور مفهومه وأهدافه مع تطور أوضاع المسلمين، إذ يتجلى فيه أول الأمر الطابع الدفاعي عندما كان المسلمون ضعفاء، والهجومي عندما أصبح المسلمون أقوياء. فقد أذن الله للمسلمين القتال دفاعا عن النفس والعقيدة بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ﴾ [الحجر:٣٩].

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٧١، طبع دار الكتاب العربي بيروت.

(٢) محمد فرج: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ١٣٥ دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٥٨.

(٣) الطبري: تاريخ ج٤ ص٨٧.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤١ طبع مصر ١٣٠٥هـ.

وجعل الإسلام في القتال دفعا للعدوان والأذى للمسلمين والعقيدة الإسلامية فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠]. وبعد أن بسط الإسلام سيادته على الجزيرة العربية، تطلب من المسلمين نشره خارج الجزيرة العربية فدعى القرآن إلى قتال المشركين فقال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وأصبح الجهاد فرضا على المسلمين فقال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ...﴾[البقرة:٢١٦]. ومهما يكن من أمر موقع الجهاد بين الفروض الدينية. فإن كلا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحض المسلمين على الجهاد، وتعد القائمين به بالأجر والثواب والمتخلفين والقاعدين عنه بالعقاب والعذاب. وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين فقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾[النساء: ٩٥] كما نزلت الآيات القرآنية التي تحض المسلمين على الثبات في الحرب والتعاضد والصبر والطاعة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]. وتجعل الآيات القرآنية جهنم وبئس المصير لمن ينهزم ويتخاذل في الحرب كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وقد حثت الآيات القرآنية المسلمين على الثبات في القتال فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾[الأنفال: ٦٥]. ووعد الله سبحانه المقاتلين المنزلة العالية والأمر العظيم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾[التوبة: ١١١]. هذا وقد نهى الرسول ﷺ عن قتل أصحاب الصوامع والعاجزين والأطفال والنساء والأسرى، وعن تدمير الحرث إلا بما

يكتسب منه العدو في الحرب.

تنظيم الجيش في صدر الإسلام

الجيش في عصر الرسول ﷺ: عمل النبي على تعليم أتباعه فنون القتال وتدريبهم على استعمال السلاح. وحث القرآن على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ...﴾ غير أن الرسول لم يكره المسلمين على الاشتراك في القتال فكان يقول للمسلمين قبل كل معركة (لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد)[1].

الجيش في عهد الخلافة الراشدة: سار الخليفة الأول أبو بكر على نهج الرسول ﷺ في عدم إكراه المسلمين على الاشتراك في القتال، فكتب إلى قواده عند فتح العراق والشام (أن يأذنوا لمن شاء بالرجوع ولا يتستفتحوا بمتكاره)[2].

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة اتجه بثقل المسلمين إلى الجهاد والفتوح، وتطلب منه الأمر أن يضع نظاما للجيش ينسجم مع خطة التحرير بالدعوة والجهاد التي شرع بتطبيقها. ففرض التجنيد الإجباري بعد أن وجد الناس يتشاغلون بكسب المال عن القتال، وأمر عماله في الجزيرة العربية بإحضار كل فارس وذي نجدة أو رأي، أو فرس أو سلاح وآلات، وقذف فيه بالفتوح فإن جاء طائعا وإلا حشروه حشرا وقادوه مقادا[3]. قائلا لهم «لا تدعوا أحدا إلا وجهتموه إلي والعجل العجل»[4] وبهذا التخطيط السليم استطاع أن يكون الجيوش العظيمة، التي استطاع بها أن يحرر العراق والشام ومصر. ولضمان سير هذه الجيوش وحرصا على تجهيزها وتموينها، أنشأ ديوان الجند الذي سجل فيه أسماء المقاتلين ووجهتهم ومقدار أعطياتهم وأرزاقهم، وكان القتال في عهده قائمة على الدافع الديني ورغبة في نشر الإسلام، واقتضى الأمر أيضا إنشاء ديوان بيت المال لتوفير الأموال اللازمة لنفقات الفتوح. وأقام لهذه الجيوش المعسكرات والحصون، فبنى المدن البصرة والكوفة

---

(١) ابن سعد: الطبقات ج٢ ص٢٧.

(٢) الطبري: تاريخ ج٤ ص٢٩.

(٣) المصدر السابق ج٤ ص٦٣، يعد عمر بن الخطاب أول من جعل الجند فئة مخصوصة وأنشأ ديوان الجنود للإشراف عليه وتقيد أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم.

(٤) المصدر نفسه ج٤ ص٨١.

والفسطاط لاتخاذها معسكرات لإقامة الحاميات العسكرية وعوائل المقاتلين فيها. وهو بذلك أول من قام بهذا العمل.

ولما ولي عثمان الخلافة اقتدى بسياسة عمر في فرض التجنيد الإلزامي إلا أنه عندما أذن لمعاوية بالقتال بحرا أمره أن يخير الناس ولا يكرههم على ركوب البحر(١) ولما حدثت الفتنة في أواخر أيامه، وانقسم المسلمون على أنفسهم انشغل في إخمادها. خمدت جذوة الجهاد وتوقفت الفتوحات. وفي خلافة علي توسعت شقة الخلاف بين المسلمين، وأصبح القتال في سبيل الدفاع عن الرأي الذي يراه كل مسلم صالحا لاستقامة الأمور، وضعف وازع القتال في سبيل نشر الدين بالنسبة لما كان عليه الحال أيام عمر بن الخطاب، فخفت الروح العسكرية، ووهنت عزائم الناس في القتال، لأنهم منشغلون في الحروب الأهلية ولم يكن أغلبهم مقتنعا بحل الحرب التي يخوض المسلمين غمارها ويريقون في ساحاتها دماء المسلمين(٢). أضف إلى ذلك قيام الصراعات السياسية على الخلافة وظهور الخوارج في النزاع بين علي ومعاوية، مما زاد في ضعف روح الجهاد في سبيل الله، وانشغل الخليفة في مقاومة أعدائه ومنافسيه مما أقعده عن التفكير في مواصلة الفتوحات.

الجيش في العصر الأموي: عندما استقر الأمر للأمويين أصبحت عملية إعداد الجند وتهيئة المقاتلين تأخذ الجزء الأكبر من سياسة الدولة الأموية، وقد أولى الخليفة معاوية بن أبي سفيان مسألة تكوين الجيوش اهتماما خاصا، وقد أعانته قابليته السياسية والإدارية في اختيار قادة الجيش والولاة الأكفاء لإدارة الأمصار الإسلامية، وقرب رؤساء القبائل العربية من قيسية ويمانية إليه، وإغراهم بالأموال والمناصب لأنهم يشكلون العمود الفقري للجيش العربي، واستطاع بهذه القبائل أن يجند الأعداد الكبيرة من الجند للحملات البرية والبحرية، وأنشأ المعسكرات (الأجناد) وعين عليها القوات والأمراء، واستمر الجيش العربي في العصر الأموي في توسع وتطور، حتى بلغ ذروته أيام الخلفاء عبد الملك بن مروان، الذي شهد عصره تطورا كبيرا في مؤسسات الدولة الأموية وخاصة المؤسسات العسكرية، فقد أعاد تطبيق التجنيد الإلزامي وكان لهذه السياسة أهميتها الكبيرة في توسيع حركات التحرر العربي الإسلامي على الجبهات الشرقية والشمالية والغربية، ولم يسمح لأحد من المسلمين بالتخلف

---

(١) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٤٨٩.

(٢) المصدر السابق والصحيفة.

عن الجهاد وحروب التحرير[1]. بعد تقاعس المسلمون عن الحروب وانصرافهم عن القتال لذلك شرَّع عبد الملك (التجنيد الإجباري).

وبفضل إجراءات التجنيد الإلزامي استطاع الأمويون توسيع حركة الجهاد والتحرير فقد تمكن الحجاج بن يوسف الثقفي في ولاياته على العراق من إرسال الجيوش العربية لتحرير أواسط آسيا وشمال الهند، والوصول إلى حدود الصين بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن قاسم الثقفي، ومن أجل تحقيق ذلك فقد رحَّل سبعين ألف عائلة من الكوفة والبصرة وأسكنهم خراسان، لتكون قاعدة لحركات التحرر العربي الإسلامي في أواسط آسيا. واستخدم الأمويون إضافة إلى الجند النظامي والمتطوعة الجند المرتزقة[2]، المحترفة للقتال.

الجيش في العصر العباسي: استمد العباسيون قوتهم من الجيش الذي نما نموا عظيما بمن كان فيه من العرب والموالي. وكانت سياسة الخلفاء العباسيين تنحصر في حفظ التوازن بين عنصري الجيش (العرب والفرس)، إلا أن هذا التوازن بدأ يختل نتيجة للصراع السياسي الذي أخذت تظهر بوادره خلال العصر العباسي الأول بين العرب والفرس، وقد أوحى هذا الاختلال الذي حدث بين عنصري الجيش والظروف السياسية التي عاشتها الدولة العباسية إلى الخليفة العباسي المعتصم. لتفكيره الخاطئ بالاعتماد على عنصر جديد يعيد التوازن في الجيش فاستخدم الأتراك، بعد عدم اطمئنانه للعرب، وإساءة الظن بهم على اعتبار أنهم أنصار الأمويين[3] ولا إلى الفرس لطموحهم ولمحاولتهم استعادة ماضيهم وفجرهم: وتعتبر هذه السياسة خطيرة بالنسبة للعرب وخروجا على سياسة المنصور التقليدية في حفظ التوازن في الجيش بين الفرق العربية والأعجمية[4]. وبسبب هذه السياسة كثر عدد الجند الأتراك في الجيش، وقويت شوكتهم، حتى بلغ عددهم سبعين ألفا ويشير إلى ذلك علي بن الجهم بقوله[5].

أمامي من له سبعون ألفا   من الأتراك مسرعة السهام

(١) خالد جاسم الجنابي: تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي ص٧١.

(٢) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص١٩٦.

(٣) محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية ص١٩.

(٤) اليوزبكي: الوزارة نشأتها وتطورها في الدولة العباسية ص١٢٠ ط (٢) ١٩٧٦.

(٥) الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٦٠، ياقوت: معجم البلدان (مادة سر من رأى).

واستعمل العباسيون نظام المرتزقة، وهم الجند الذين يقبضون رواتب معينة ثابتة، ويدربون باستمرار ليكونوا متأهلين للحرب دوما، إضافة إلى المتطوعة الذين كانوا ينظمون في صفوف الجيش رغبة في الجهاد أو طمعا في الغنيمة.

نظم القتال وأخلاقياته: اعتمد نظام القتال على عهد الرسول ﷺ فقد قام على القتال في صفوف متراصة يسند بعضها بعضا. وفي عصر الراشدين دخلت تغييرات على نظم الجيش بتقسيمه إلى خمسة أقسام وهي: القلب في الوسط وهو موضع القائد وحاشيته للإشراف على سير القتال، ثم الجناحان (الميمنة والميسرة) ويقود كل منها أحد القواد المساعدين وتتكون عادة من الخيالة والفرسان، ثم المقدمة في الإمام وهي المشاة. والمؤخرة أو الساقة في الخلف للحماية وللعناية بالجرحى وفيها المؤن والتجهيزات العسكرية وعوائل المقاتلين وقد حوفظ على الوحدات القبلية ضمن هذا التقسيم، فكان لكل قبيلة قائد هو شيخها بالإضافة إلى الذين يعينهم الخليفة لقيادة أقسام الجيش الرئيسة.

أما القيم الأخلاقية العسكرية عند المسلمين فقد قررت: ألا يقاتلوا الأعزل والمحايد (غير المقاتل) وأن يقبلوا السلم والصلح مستوحين هذه المبادئ من القيم العربية والمبادئ الإسلامية في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾ [الأنفال: ٦١]. وقد أكد الخلفاء الراشدون في وصاياهم لقوادهم بحسن معاملة أهل البلاد المفتوحة وعدم قتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان وتدمير الحرث فجاء في وصية أبي بكر لقواده (أوصيكم بعشر فاحفظوها عني ألا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (أي لا تقتلوا) طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له...)[1] ومن المبادئ السامية التي مارسها المسلمون في الحروب أنهم احترموا العهود والمواثيق مستندين بذلك إلى ما جاء به القرآن: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ...﴾ [النحل: ٩١].

وحدات الجيش وأصنافه: لم يكن نظام وحدات الجيش ثابتا طوال العصور الإسلامية، ففي عهد الرسول ﷺ استخدم نظام العرفاء في الجيش وجعل على كل عشرة

---

(١) الطبري: ج٣ ص٢١٣، ابن سعد: الطبقات ج٢ ص١٢٧، دائرة المعارف البريطانية ج١١ ص١٨٤.

جنود عريفا[1] وعلى كل عشرة عرفاء نقيبا. ولما جاء عمر اتبع نظام الرسول ﷺ فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص قبل معركة القادسية يقول: «إذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم وأمر عليهم أخيارهم وعبئهم، ومر رؤساء القوم فليشهدوا... واجعل على الرايات رجالا من أهل السابقة[2]».

وقد أجرى عمر بن الخطاب تعديلات على النظام العسكري (نظام العرافات)، فبعد أن كان العريف ينوب عن عشرة من الجنود أصبح العريف ينوب عن قبيلة، وجعل رتبة النقيب على خمسين جنديا، والقائد على مائة، وأمير الكردوس على ألف، وأمير الجيش على عشرة آلاف[3]. وفي العصر العباسي صار العريف لكل عشرة جنود، والنقيب لكل عشرة عرفاء، والقائد لكل عشرة نقباء، والأمير لكل عشرة قواد، والخليفة أميرا للجيوش.

أصناف الجيش والمقاتلة: أما أصناف الجيش فيتكون من المشاة، الرجالة، وأسلحتهم الأقواس والسهام، وهم يحملون السيوف معلقة على الأكتاف اليمنى، ويستعملون الحراب ويلبسون الدروع. وكذلك الخيالة: وأسلحتهم السيوف والرماح والفؤوس، وفي العصر العباسي أوجدوا فرقا من النشابين وهم الرماة ومنهم النفاطون لرمي المواد المحرقة. كما استخدموا المهندسين الذين كانوا يتولون عمليات الحصار وبناء الجسور وحفر الخنادق واستخدام الغلمان لخدمة الخليفة. أما أصناف المقاتلة حسب الرواتب: أ) أهل الديوان ب) الجيوش الدائمة ج) المتطوعة د) المرتزقة.

أسلحة الجيش: استخدم المسلمون في حروبهم الأولى الأسلحة المعروفة آنذاك وأشهرها السيوف، وقد برع العرب في صنعها واستعمالها واستعملوا أنواع الرماح والقوس والنشاب، كما استعملوا الدروع بأشكالها المختلفة لتغطية البدن وقد ورد ذكرها في القرآن باسم (السابغات)، كما استخدموا الترس ليقيهم ضربات العدو، الذي يصنع من الخشب ويغلف بالجلد. واستعملوا المنجنيق، وبدأ باستخدامه الرسول ﷺ في حصار يهود خيبر ورمى أهل الطائف بالحجارة على أسوارها[4]. وقد أدخلت عليه تحسينات كثيرة طيلة

---

(١) الطبري: ج٤ ص١٨٧.

(٢) المصدر السابق ج٤ ص١٨٨.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ج٣ ص٢٩٩، ابن الأثير: الكامل ج٣ ص٢٠٠.

(٤) الطبري: تاريخ ج٣ ص١٣٣.

العصور الإسلامية بحيث أصبح في العصر العباسي من أهم الأسلحة الثقيلة والمدمرة، وقذفوا به قذائف النفط المحترق واستخدموا به النار الإغريقية[١].

واستعمل المسلمون في القرن الأول للهجرة من الأسلحة (الصنبر) والذي أطلق عليه (الدبابة)، وهي على هيئة برج مربع له سقف من الخشب مغلف بالجلد تتسع لعشر جنود. وتقف بجوار الأسوار وبداخلها سلالم لصعود الرجال إلى شرفات الحصون[٢] واستعملوا كذلك العرادة أو (رأس الكبش) وهي كالدبابة على شكل برج خشبي يلتصق بالسور لإحداث الثغرات فيه، واستعملها خالد بن الوليد في تسلق أسوار دمشق[٣].

واستعمل العرب المسلمون في حروبهم وفتوحاتهم وسائل متعددة منها خاصة الخيول والجمال وهي المعول عليها في القتال والحركة السريعة، لذلك اعتنوا كثيرا بأصولها وأنسابها، وكان الفرسان هم طلائع الجيوش الإسلامية، وكانت حصة الفارس ثلاثة أسهم فجعلوا له سهما وسهمين لفرسه، كما استعملوا الجمال في نقل العدد الحربية والذخائر والمؤن العسكرية لقدرتها على السير لمسافات طويلة ولتحملها العطش والمشاق.

واستخدم خلفاء بني العباس نظام الاستخبارات من الرجال والنساء، الذين كانوا يدخلوا بلاد الأعداء متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرها، لغرض جمع الأخبار ونقلها إلى الدولة. واستخدموا كذلك الحرب النفسية وحرب الأعصاب والأسلحة الوقائية.

قيادة الجند: أسندت لمن توفرت فيه الشجاعة والنجدة، والإقدام والحزم، وحسن التدبير، والبصر بتعبئة الجيوش، والخبرة بفنون القتال، وأعمال الخدعة وانتهاز الفرصة، والتماس العزة، وإذكاء العيون وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق والتحفظ من البيات[٤] وكان الخلفاء يوصون أمراء الجيش بوصايا إنسانية الحرب في الإسلام[٥].

من وصايا الرسول ﷺ: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله تقاتلون من كفر بالله، لا

---

(١) عبد الرزاق: الفن الحربي في صدر الإسلام ص١٦٧.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص١٧٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٢ ص١٨٠.

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١/ ١٠٨.

(٥) نفس المصدر ص١٥١.

تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا» ونهى الرسول ﷺ التفريق في السبي بين الوالدة وولدها. وفي وصية الرسول ﷺ لأسامة بن زيد. وفي وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص على الجهة الشرقية ما يدلل على إنسانية الجهاد في الإسلام[1] وكذلك في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لقواد جيوشه في قتال المرتدين ما يصلح لأن يكون دستور إنسانيا للقتال.

قيادة الجيش: شهد عهد النبوة قيادته لمعظم الغزوات، ومن بعده قل قيادة الخلفاء للجيوش إلا في حالات نادرة. لذلك عهدوا بالقيادة إلى (أمير الأمراء)[2]. ثم ظهرت بعد ذلك ألقاب أخرى لقيادة الجيش منها: (إسفهلار العسكر) والقيادة بتسمية الإسفهادرية وهي (كلمة فارسية). وأمير الجيوش ورئيس الوزراء وقائد القواد[3].

(١) انظر الوصايا في: ابن القيم الجوزية: زاد المعاد ج٢/ ٩٠ طبعة صبيح، العقد الفريد ج١/ ١٥١-١٥٥، الطبري ج٢/ ٦٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص١٠٩ أول لقب أمير الأمراء أطلق على خالد بن الوليد أي قائد القواد.

(٣) انظر – القلقشندي: صبح الأعشى ج٣/ ٤٨٣، الخطط ج٢/ ٣٠٤، الكامل ج٨/ ٨٤.

الشرطة

الشرطة لغة: العلامة الظاهرة لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]. وأصل الكلمة في لسان العرب[١] الشرطة مشتقة من كلمة شرطي أو شُرطي والجمع شُرط، سموا بذلك لأنهم أعدوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات خاصة، والشرطة حسبما جاء في دائرة المعارف الإسلامية[٢] الرجال المختارون الذين يبدأون القتال أو (الحرس الخاص) ثم استخدم اللفظ بمعنى رجل الأمن وواجباته في هذه الحالة تتفق وواجبات الشرطة في عصرنا الحاضر. وقد جاء في كتاب الإمام إبراهيم بن محمد العباسي إلى أبي مسلم (دونك أمرا قد بدت أشراطه: إن السبيل وضح صراطه لم يبق إلا السيف واختراطه).

الشرطة اصطلاحا ذكر أنها جاءت من الشرط (بالفتح) وهو رذال الحال، لأنهم يتحدثون في أرذال الناس وشقاتهم ممن لا مال لهم من اللصوص ونحوهم. أو أصحاب العلامات الفارقة أو الجند الذين يعلمون مع الخليفة أو الوالي لحفظ الأمن وكل ما يتصل بسلامة الناس وأمنهم على أنفسهم وأموالهم. وذكر فيها أيضاً أنها: زي خاص (أول) أول كتيبة مقاتلة في الجيش لقول علي ﷺ (يا شرطة الموت صبرا لا يهولكم دين ابن حرب فإن الحقد قد ظهر). وفي تعريف آخر للشرطة.

فهم: نخبة السلطان ومن جنده الذين يقدمهم على غيرهم من الجند (أوس بن حجر) فأشرط فيها نفسه وهم معصم – وألقى بأسباب له وتوكلا.

نشأة الشرطة: أصلها ربما يعود للبيزنطيين عن نظام الأمن (**securitas**). وهي تنفصل عن الحرس الخاص أو الحرس الليلي ولم ينشأ نظام الشرطة في الإسلام بصلاحياته واختصاصاته مرة واحدة بالصورة التي وجدناها في العصور المتأخرة. وتعود نشأتها إلى عهد الراشدين فكان نظام العسس نواة هذا النظام فقد ذكر بعض المؤرخين[٣]: إن تأسيسه يرجع إلى أيام أبي بكر فقد عين عبد الله بن مسعود أميرا على العسس ويصطحب معه مولاه وربما استصحب معه عبد الرحمن بن عوف يطارد شاربي الخمر ولاعبي الميسر[٤] وقيل: أن وظيفة

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ج٩ ص٢٠٢-٢٠٣. أو الدون من الناس (تقابل الأراذل) الحرس والسفلة من الناس.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مادة (شرطة) المجلد الثالث عشر ص١٩٢.

(٣) أنور رفاعي: الإسلام في حضارته ونظمه الإدارية والسياسية ص١٤٨.

(٤) أحمد شبلي: السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي ص١٧٣.

الشرطة ظهرت في خلافة عثمان بن عفان[1]. وقد وجد هذا النظام أيضا في الأمصار الإسلامية يذكر الطبري: أنه أوكل إلى أربعمائة منهم حراسة بيت المال والسجن في البصرة منذ زمن أبي موسى الأشعري وأن عليا ابن أبي طالب ولى شرطة الكوفة قيس بن سعد الأنصاري. وأطلق عليه لقب صاحب الشرطة. وقيل: أن معاوية بن أبي سفيان أوجد نظام الشرطة لتقوم بحراسته وقت الصلاة واستخدمها عماله في الولايات وربما أصلها من الحرس الليلي الذي أنشأه معاوية[2]. والمرجح أنه ظهر في أواخر خلافة علي وأوائل الدولة الأموية، أول ظهور لهذا النظام أسفل عن مصر في ولاية عمرو بن العاص إلى أقاليم دولة الخلافة ويعلل بعض من المؤرخين عوامل ظهورها بازدياد عدد سكان الكوفة بهجرة اخلاط الناس من عرب وغير عرب، وتعقد المجتمع وزيادة مشاكل الناس فاحتاج الخليفة إلى من يعاونه في ضبط الأمور، ولكن ظهور صاحب الشرطة في أوائل العصر الأموي كان أكثر وضوحا لتعقيب المجرمين والقضاء على الحركات المعارضة لحكم الدولة الأموية[3]. ويذكر الطبري[4]: أن زياد بن أبيه في ولايته على البصرة جعل الشرطة أربعة آلاف، عليهم بن حصن حتى مات وولى الجعد ابن قيس التميمي أمر الفساق. وبهذا نرى أن الشرطة مرت بمرحلة أولى هي العسس، ثم الحرس الخاص بالخلفاء. ثم الشرطة التي قامت إلى جانب القضاء ثم استقلت وانفصلت عنه.

تطور الشرطة: مرت هذه الوظيفة الهامة بعدة مراحل ووظائف متعددة. فبدأت بنظام العسس. وظلت كذلك طيلة العهد الراشدي حتى عهد الخليفة علي ﷺ الذي نظمها وأطلق على رئيسها (صاحب الشرطة). ثم ازدادت أهميتها والعناية بها في عهد الخلافة الأموية، فكان صاحبها يختار من علية القوم وأهل العصبية والقوة، وأطلقوا عليه صاحب الأحداث. بدأت الشرطة من توابع القضاء في أول الأمر وغرضها تنفيذ أحكام القضاء أو فرض العقوبات الزاجرة، وإقامة التعزيز والتأديب. ومساعدة القاضي وإقامة الحدود[5] ثم انفصلت الشرطة عن القضاء وأصبحت وظيفة خاصة مستقلة في عهد الأمويين. ثم عظمت

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٤ ص٢١.

(٢) ابن الأثير الكامل ج١ ص٢٥٢.

(٣) ثابت الرواي: العراق في العصر الأموي ص٥٣.

(٤) الطبري: تاريخ ج٧ ص٧٦.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٥٦٢، ٥٧٢.

مرتبة الشرطة. في أواخر الخلافة الأموية وعهد الخلافة العباسية حيث قسمت إلى شرطة كبرى لها خاصية الحكم على أهل المراتب السلطانية وعلى أيدي أقاربهم. وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة.

صلاحيات الشرطة: لم تكن سلطة الشرطة عامة التنفيذ في طبقات الناس، وإنما كان حكمهم على الدهماء، وأهل الريب، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة[1] ويرى بعض المؤرخين[2]: أنها من توابع القضاء لأن المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة، وإقامة التقرير والتأديب، وهي تساعد القاضي في تنفيذ الحكم، ويتولى صاحب الشرطة أيضا إقامة الحدود على الزنا وشرب الخمور وغيرها من الأمور الشرعية التي يجلون مقام القاضي عنها، وتساهم الشرطة أيضا في معاونة عمال الحسبة في أخذ الناس في أمور الدين ونهيهم عن المنكرات وتأديبهم، وتنفيذ أوامر السلطان، ومساعدة عمال الخراج، كما انيطت بصاحب الشرطة إدارة السجون. ووظيفة التعزير والتأديب وإقامة الحدود وإثبات الذنوب ومساعدة عامل الخراج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان يتولى ديوان الشرطة موظف كبير يدعى بـ (صاحب الشرطة) ويقوم بتدبير الحرس السلطاني، وقد أسند إليه في العصور المتأخرة منصب الوزارة[3]. وسلطة صاحب الشرطة تنفيذية هدفها حماية الخليفة والأمن العام. وينوب عن الوالي في إقامة الصلاة وتوزيع الأعطيات.

مراتب الشرطة «صاحب الشرطة. النقيب. العريف):

أولا: صاحب الشرطة: تتفق المصادر التاريخية على أن صاحب الشرطة هو القائد لهذه القوات، وهو الذي يساعد السلطة في تطبيق الأمن وتنفيذ إجراءات القاضي وحماية الأخلاق، ويختار صاحب الشرطة من كبار رجال الدولة ومن أفرادها البارزين، وينبغي أن يكون حليما مهيبا دائم الصوت طويل الفكر بعيد الغور... وأن يكون غليظا على أهل الريب في تصاريف الحيل شديد الفطنة... وأن يكون طاهر السيرة غير عجول ويكون قليل

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ج٢ ص٧٩٥.

(٢) جرجي زيدان: تأريخ التمدن الإسلامي ج١ ص٢٥٢.

(٣) سليب حتي: تاريخ العرب مطول ص٣٩٨.

التبسم[1]. ولقب بالأمير والوالي والحاكم وصاحب المدينة والقائد لأهمية منصبه وكان يختار من ذوي القوة والعصبية لأنه يختار أفراد شرطته من أعوانه وبني عمومته ليساعدوه على مطاردة الجناة والمفسدين، وتحقيق الأمن، وحفظ النظام بالتعاون بين أولئك النفر وبين رئيسهم[2]. وقد قسمت الشرطة إلى قسمين: شرطة كبرى (خاصة) وشرطة صغرى (عامة) وقد حصرت اختصاصات صاحب الشرطة في حفظ النظام والأمن العام الداخلي.

ثانيا: النقيب: يلي مرتبة صاحب الشرطة النقيب، وهي في اللغة شاهد القوم وضمينهم وسيدهم، وسمي بذلك لأنه ينقف عن أمور الناس، وكان النقيب في الدولة العباسية على مائة رجل من الشرطة[3].

ثالثا: العريف: ويأتي في المرتبة الثانية بعد النقيب، وهو في اللغة العالم بالشيء أو القيم بأمر القوم.

أصناف الشرطة: الحرس، المعونة، الجلواز، أصحاب الماصر (خاصة بالمكوس)، السجانون.

أسلحة الشرطة: لم يرد في كتب التاريخ الأسلحة التي كان يستخدمها الشرطة خلال العصور التأريخية المختلفة، سوى إشارة إلى أنهم كانوا يحملون آلة من السلاح يطلق عليها اسم (الطبرزين) وهي عبارة عن سكينة طويلة يحملونها معلقة، ويقومون بالطواف طوال الليل إلى صلاة الفجر[4]. ولم تذكر المصادر مقادير عطاء أصحاب الشرطة ومرتباتهم. لكن يبدو أن صاحب الشرطة كان يتقاضى رواتب عالية تتناسب مع أهمية اختصاصاته.

واجبات الشرطة: تعددت وتنوعت واتسعت واجباتها حسب تطور الدولة الإسلامية ويمكن حصرها في: حراسة مؤسسات الدولة وحماية السكان من اللصوص ليلا ونهارا، تثبيت السلطة الحاكمة ومتابعة الخارجين عن الدولة، رصد الطرق على الخارجين على القانون. حراسة كبار رجال الدولة، ومعاونة الحكام (تنفيذ وحبس) وعمال الخراج والحراسة.الإشراف على السجون.

---

(١) أنور رفاعي: الإسلام في حضارته ص١٥٤.

(٢) الجومرد: هارون الرشيد ج٢ ص٣٤٨.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج١ ص١٧٤.

(٤) أنور رفاعي: الإسلامي ج١ ص١٥٣.

البحرية والأسطول

الأسطول: هو مجموعة السفن التي يسافر فيها للقتال. وقد وقع من العرب بعد العصر الأول قول علي بن محمد الأمادي بقوله: أعجب بأسطول الإمام محمد – وبحسنه وزمانه المستغرب[١].

البحرية العربية قبل الإسلام:

كان عرب اليمن والجنوب العربي وعمان والبحرين في الخليج العربي حتى عصر الفتوح الإسلامية، يعملون بالتجارة البحرية فضلا عن التجارة البرية مع الحجاز والشام ومصر، فقد كانت لهم تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل، وتجاربهم في ممارسة الملاحة والطواف بسفنهم التجارية في البحر الأحمر (القلزم)، والحبشة وترددهم على موانئ البحر العربي والخليج العربي والمحيط الهندي. كذلك أقام العرب علاقات تجارية مع بلاد الفرس والروم والهند، فقد دلت الحفريات التي جرت في السند والبنجاب على أن التجارة ربطت مدينات بلاد وادي الرافدين، بمدينات الشمال الغربي للهند في الألف الثالث قبل الميلاد[٢].

وعثر الأثاريون على أحجار نقش عليها بالخط المسند الحميري[٣] في جزر الهند الشرقية والفلبين (التي سماها العرب واق واق)[٤]. ومن الجدير بالذكر أن أهل حضر موت وعمان وسواحل الخليج العربي امتطوا ظهر البحر وأوغلوا فيه إلى ما وراء الهند، فقد ذكر (بلينيوس) أن ميناء (أكيلا) الواقع على مقربة من رأس الخيمة (بدولة الإمارات العربية المتحدة) كان مرفأ تنطلق منه السفن العربية إلى الهند[٥]. وكان الحضارمة الذين أسسوا مملكة حضر موت في الألف الثاني قبل الميلاد يعدوا الوكلاء الرئيسيين للتجارة البحرية بين مصر والهند وهم الذين جهزوا معابد مصر وقصورها، بالأحجار الكريمة والتوابل

(١) انظر شهاب الدين الخفاجي: شفاءالعليل ص٣٨.

(٢) فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية ص٩ حاشية ١.

(٣) الخط المسند الذي استخدم قديما في اليمن كتب به المعينيون والسبئيون والحميريون.

(٤) تذكر الحكايات العربية في ألف ليلة وليلة رحلات السندباد وعن بلاد واق واق ويقصد به جزر الفلبين.

(٥) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج٨ ص٧٦ بغداد ١٩٦٠.

والبخور[1].

ولقد وجدت للعرب في سواحل الهند جاليات كبيرة سماها الهنود (عربتو) ولما أرسل الأسكندر المقدوني أحد قواده (ينارفوس) لاكتشاف بحر الهند، وجد هناك آثارا تدل على توغل العرب في العديد من المدن، بل وكان الربان (البحار) الذي أرشده إلى معرفة مسالك البحور عربيا[2] وكان ازد عمان هم البحارة الماهرون الذين استعانت بهم فارس قبل الإسلام في جلب المتاجر إلى بلادها منافسة في ذلك الرومان[3] ويبدو واضحا أن العرب حذقوا الملاحة البحرية وعرفوا أسرار المسالك البحرية واتجاهات الرياح الموسمية، وكان ذلك من العوامل الرئيسية في تفوقهم البحري. وقد تهيأت للأقطار العربية المطلة على البحر العربي والخليج العربي، الظروف المواتية منذ عصر الفتوحات الإسلامية ومارست نشاطها البحري التجاري والعسكري.

فقد كان القادة البحريون الذين لامهم الخليفة عمر بن الخطاب لعبورهم الخليج العربي إلى فارس وبحر عمان وبحر الحبشة يمنيين. فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في عبور الخليج العربي إلى فارس كان يمينيا حضرميا، وعرفجة بن هرثمة الأزدي الذي أغزى قومه في البحر كان يمنيا، وعلقمة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية إلى الحبشة في سنة ٢٠هـ كان يمني من لخم[4] وقد تجلت مواهب اليمنيين والعمانيين في قيادة السفن الحربية، وظهرت براعتهم في القتال البحري في بحار الشام ومصر والمغرب والأندلس وظهرت شخصيات منهم جناده بن أبي أمية الأزدي اليمني الذي اعتمد عليه معاوية في غزو قبرص ورودس واقريطش[5] وعلى هذا كله يتبين لنا أن العرب كانوا سادة التجارة منذ عصور سحيقة في القدم، ولم يتجرأ غيرهم على الخوض في عباب هذه البحار ومواجهة أخطارها وأهوالها.

---

(١) السامر: الأصول التاريخية ص١٠.

(٢) السامر: الأصول التاريخية ص١٠.

(٣) مراجع غوستان لوبون عن زيادات العرب الجغرافية، زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى.

(٤) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ص٧ هامش ١ طبع دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١.

(٥) نفس المصدر السابق والصحيفة.

البحرية في صدر الإسلام: لقد سجلت حركة التحرير العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر تحولا فجائيا في الاستراتيجية الدفاعية للعرب في هذه المرحلة من تاريخهم، فقد أحسوا بعد أن حرروا مدنا ساحلية تمتد من أنطاكية شمالا إلى ساحل برقة غربا بأهمية الدفاع البحري عنها، لمواجهة تفوق القوة البحرية البيزنطية ومحاولاتهم المستمرة لإرجاع سيطرتهم على سواحل الشام ومصر، لهذا عمد الخليفة عمر بن الخطاب على اتباع سياسة بحرية دفاعية لمواجهة الهجمات البيزنطية، باستخدام وسائل برية كإقامة الثغور والحصون وترميم القلاع والمناور والمراقب والمسالح وشحنها بالمقاتلة والمرابطة[1]، وظل العرب طيلة خلافة عمر بن الخطاب، يتبعون هذه السياسة إلى أن تهيأ لهم الوقت المناسب لبناء القوة البحرية العربية فكان أوله أن ركب البحر للفتح العلاء بن الحضرمي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٧هـ حيث ندب أهل البحرين لفتح بلاد فارس [2].

وكان الخليفة عمر يكره على المسلمين ركوب البحر كما كان ينهي قواده عن القتال فيه، ولما بلغه أن العلاء بن الحضرمي وعرفحة بن هرثمة ركبا البحر (الخليج العربي) عنفهما وعاقبهما[3]. ولما ألح معاوية بن أبي سفيان على الخليفة عمر محاولة اقناعه بإنشاء الأسطول، لقتال الروم بحرا لقربها من بلاد الشام. كتب عمر إلى واليه على مصر عمرو بن العاص أن يصف له البحر فكتب قائلا: (ليس إلا السماء والماء إن ركد أحزن القلوب وإن شار أزاغ العقول... إن مال غرق وإن نجا برق) فرفض عمر طلب معاوية وكتب إليه (لا والذي بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا)[4] ولعل سبب كره الخليفة عمر بن الخطاب ركوب المسلمين البحر، يعود إلى عدم توفر الخبرة العالية في أمور البحر مقارنة بالقوة البحرية البيزنطية العظيمة إلى جانب حرص عمر على حياة المسلم واستقرار الإسلام أولا في البلاد التي فتتحوها.

ويعلل ابن خلدون[5] سبب امتناع العرب عن ركوب البحر قائلا: (والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أول الأمر مهرة في القتال في البحر، فلما استقر الملك للعرب

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ج١ ص١٥٢.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٣١٦ المقريزي: الخطط ج٢/ ١٨٩.

(٣) الطبري: تاريخ ج٤ ص٢١٢، ابن خلدون: المقدمة ص٢١١.

(٤) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية ص١٧٧.

(٥) ابن خلدون: المقدمة ص٢٢٠-٢٢٢.

وشمخ سلطانهم، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم، وتقرب كل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدما من النوتية في حاجاتهم البحرية أمما، وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته، استحدثوا بصراء بها (أي بالبحرية) فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشواني وهي (إحدى أنواع السفن الحربية) وشحنوا الأساطيل بالرجال وأمطوها للعساكر المقاتلة لمن وراء البحر من أمم. الكفر واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته، مثل الشام وإفريقيا والمغرب والأندلس. ولما جاء عهد الخليفة عثمان، كرر معاوية الطلب إلى الخليفة بإنشاء الأسطول والغزو في البحر فاشترط عليه بقوله (لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، وخيرهم فمن اختار الغزو طائعا، فاحمله، واعنه ففعل) (١) وبذلك حان الوقت لإنشاء الأسطول، في عهد الخليفة عثمان واشترط ألا يغزو فيه أحد مكرها فإلى الخليفة عثمان بن عفان وإلى واليه على مصر عبد الله بن سعد بن أبي سرح يعود الفضل في إنشاء الأسطول العربي الأول(٢)، وكانت قاعدته الأولى في الفسطاط، حيث أقيمت أول دار لصناعة السفن في جزيرة الروضة على النيل. ثم أنشأ الأسطول الثاني في قواعد أخرى في بلاد الشام. وأنشأ أسطول ثالث في القلزم (السويس). ويظهر أن الأسطول الثالث لم تكن الغاية منه الحرب بل كان أسطولا لنقل المواد الغذائية إلى الحجاز، حتى أننا لم نعرف بأنه قام بأي دور في الحروب البحرية مع البيزنطيين.

ومن العوامل الأخرى التي شجعت على بناء الأسطول الإسلامي توفر الأخشاب في غابات كل من لبنان وسوريا ومصر. ثم حاجة الاستعداد للحملات البرية التي تتم عادة في الربيع والصيف. أما الشتاء فيتم فيه فيه الاستعداد للحملات البحرية.

لقد أخذ الأسطول العربي بالتفوق بحريا على الأسطول البيزنطي ابتداء من سنة ٢٨هـ، وقد أخذ المبادرة من الروم، واستطاع أن يقوم بعدة هجمات على جزر البحر المتوسط، وأهم هذه الهجمات هي الحملة التي قام بها ضد قبرص سنة ٢٨هـ(٣).

لذلك كان أول ما قام به معاوية بعد أن شعر بقوة الأسطول الإسلامي هو احتلال

---

(١) الطبري: ط/ ٣١٥-٣١٦ البلاذري: فتوح البلدان ص١٥٩ الواقد تاريخه ج١/ ١٦٧ السيوطي: تاريخ الخلفاء ١٠٤.

(٢) ٢٢٠-٢٢٢.

(٣) أصل كلمة أسطول (يوناني stolos) يطلق على مجموعة السفن الحربية أو السفينة الواحدة: انظر المسعودي: التنبيه والإشراف ص١٤١ طبعة ١٨٩٤.

هذه الجزيرة، ثم أرسل معاوية حملات عسكرية أخرى لاحتلال جزيرة أرواد –وهي جزيرة صغيرة قريبة من الساحل السوري- فاستولى عليها سنة ٢٩هـ وتوالت هجمات العرب البحرية على جزر البحر المتوسط فاحتلوا رودس سنة ٣٣هـ كما هاجموا جزيرة كريت وأخذ الأسطول العربي يتجول في الأرخبيل اليوناني[١].

لقد أدرك الروم خطر القوة البحرية العربية فجمعوا أسطولا قويا بلغ عدد سفنه خمسمائة سفينة وتقدموا به مصممين على تحطيم الأسطول العربي واسترجاع السيادة لهم في البحر المتوسط. أما العرب فأرسلوا سنة ٣٤هـ أسطولا قويا من سوريا وآخر من مصر بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبي السرح واجتمع الأسطولان ولقيا الأسطول البيزنطي في شمال رودس واشتبكا معه بمعركة دامية قتل فيها من الروم على ما يقال ٢٠ ألفا ودمر معظم الأسطول البيزنطي، واحتفظ العرب بالسيادة في البحر المتوسط وبلغ عدد سفن الأسطول العربي في عهد معاوية ما يقارب ١٧٠٠ سفينة[٢] حربية واستمر الأسطول العربي في القوة والازدهار. وبلغ الذروة في عهد الوليد بن عبد الملك الذي أرسل حملة بحرية لاحتلال القسطنطينية وأودع قيادتها إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك. غير أن الوليد توفي، فقادها سليمان بن عبد الملك وكانت الحماية مؤلفة من ٢٠٠ ألف جندي و ٥ آلاف سفينة، فحاصرها مدة أكثر من ستة أشهر. لم يستطع العرب أن يحدثوا ثغرة في أسوارها وقد قاسى الجيش الضخم نقص الأغذية وانتشار الوباء مما اضطر مسلمة بن عبد الملك أن ينسحب، ومنذ ذلك الوقت أصبح الأسطول العربي أسطولا دفاعيا: وبقيت البحرية العربية محتفظة بقوتها طيلة العصر الأموي والعصر العباسي الأول حتى بدأ الضعف يدب في جسم الدولة العباسية في الشرق والغرب فأخذت القوة البحرية في الضعف[٣].

السفن الحربية أنواعها وأصنافها: لقد تقدمت البحرية الإسلامية تقدما كبيرا في الخلافة الأموية، وزاد بشكل أكبر في عهد الخلافة العباسية وتعددت الأساطيل ودور صناعة السفن في شرق دولة الخلافة وغربها وفي البحرين المتوسط والأحمر. ثم تعددت وتنوعت سفن الأسطول وأشكالها واستخدم المسلمون في معاركهم البحرية سفن ومراكب متعددة تفاوتت في حجومها وأشكالها وقوتها. والسفينة اسم عام للمراكب ورد ذكرها في الشعر

(١) حسن إبراهيم حسن: النظم ص٢١٩. عبارة سفن الأسطول الإسلامي ص٥٧ ط القاهرة/ ١٩١٣.
(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٥١٣.
(٣) المقيزي: الخطط ج٢ ص ١٩٠-١٩١.

الجاهلي وفي القرآن الكريم والبارجة وهي سفينة حربية كبيرة هندية الأصل، هذا وتطلب التوسع في البحرية الإسلامية تعدد السفن والأساطيل. والحاجة إلى دور صناعة السفن والقواعد البحرية. فقد تم إنشاء أول دارا لصناعة السفن. في جزيرة الروضة سنة ٥٤هـ وأطلق عليها والي مصر مسلمة بن مخلد دار الصناعة(١) في عهد الخليفة عبد الملك ولغرض إصلاح السفن(٢). وفيما يلي أشهر أنواع السفن.

الطراد: سفينة صغيرة سريعة السير والجري، تستعمل لحمل الفرسان والخيول وتتسع لأربعين فارساً(٣).وتستخدم لمطاردة العدو لسرعتها.

الحراقة: تحمل المنجنيقات وتلقي النيران على العدو، وكان للخليفة الأمين خمس حراقات في نهر دجلة.

العشاري: مركب نهري كثر استعماله في النيل(٤).

السميريات: من مراكب البحر والنهر معدة لحمل آلات الحرب والسلاح والمقاتلة والرماة والملاحين فيها أربعون مجدافا.

الغراب: مراكب بحرية سريعة الحركة رأسها على شكل غراب، عدد مجاذيفها ١٨٠ مجذافا، شديدة البأس(٥).

الشواني: مفردها شونة وهي: سفينة حربية ضخمة، تمتاز بالطول، وتجذف بـ١٤٠ مجدافا، ومن أهم الأسلحة التي تزود بها: الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم وتقوم بمحاصرة العدو ورميه بالنفط وتحطم السفن بقوة. أما بحارتها فيقسمون إلى مجموعة التجذيف، ومجموعة القتال ومجموعة الإشراف والشؤون العامة، وتحتوي على مخازن للقمح وصهاريج للماء العذب، مما يساعدها على البقاء فترة طويلة في عرض البحر(٦).

---

(١) المقريزي: الخطط ج٢/ ١٩٠-١٩١.

(٢) الخطط ج٢/ ١٩٠، ابن خلدون/ المقدمة/ ج٢/ ٦٢٨.

(٣) المقريزي: الخطط ج٢/ ٣٦٩، السلوك ج٢/ ٣٣ **Dozy: suppl,2,B.431**. ابن مماتي: قوانين الدواوين ص٣٣٩. العماد الأصفهاني ص٣٤٠.

(٤) انظر: الخطط ج٢/ ٣٥٢،٣٧٣ والقلقشندي: صبح الأعشى ج٣/ ٥١٧.

(٥) السلوك: ج٢/ ٣٣.

(٦) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي ص٣٨٨. طبع القاهرة ١٩٦٥. المقريزي: الخطط

الحربية: مركب صغير الحجم سريع الحركة.

المسطح: مركب بحري كبير ذو سطح واسع، يجر في وقت الحرب خلف المراكب الصغيرة لإنقاذ ركابها من الغرق وتستخدم في القتال البحري.

الشلندي (صندل): سفينة مخصصة لنقل البضائع، كبيرة الحجم وسطحها واسع، تتكون من طابقين وتستعمل لحمل السلاح والمؤن والذخائر أو كسفينة قتال.

البطسة: سفينة حربية كبيرة مخصصة لنقل المحاربين مع ذخيرتهم ومؤنهم ومجانيقهم، وتتكون من عدة طوابق[1]. وبها قلاع كبيرة (٤٠ قلعة) وتحمل الواحدة منها خمسمائة شخص.

القرقور: سفينة كبيرة تحمل مؤونةالأسطول وأمتعته وهي ثلاثة طوابق، وأشرعتها متعددة.

الحمالة: مركب بحري يحمل الصناع المنوط بهم صناعة سفن الأسطول، كما تحمل الغلال والذخيرة.

القارب: سفن صغيرة، ترافق السفن الكبيرة وتلازمها، وتستخدم لنقل حوائج الركاب، وتوكل إليها أعمال أخرى هذا إلى جانب سفن أخرى مثل.

الطيارات (السميريات والزبازب)[2].

سفن المحيطات: اختلفت أشكال وأنواع السفن حسب المناطق وطبيعة البحار ونوع مياهها، فسفن البحر المتوسط كانت ذات دفتين، وهي لا تصنع إلا في البحر، وتستعمل المسامير في تثبيت الألواح الخشبية، وهي أكبر من مراكب المحيط، وتحمل بضعة آلاف من الرجال، وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ٣٦ يوما، أما سفن البحر الأحمر فيطلق عليها اسم جلبات جمع جلبة، وكانت تصنع في عيذاب على الساحل المصري، وتحاط الأخشاب بأحبال الليف لأنهم لا يستعملون فيها المسامير، ويصنعون خلالها دسرا من عيدان النخيل ثم يطلون السفينة بالشحوم، وأما سفن المحيط الهندي والخليج العربي فهي

ج٢/ ٣٦٩.

(١) المقريزي: الخطط ج٢/ ٣٦٩.

(٢) الكامل: ج٧/ ٥٩، آدم متز تاريخ الحضارة ٢٩٢. ط٢.

دون السفن السابقة في المستوى، وكانت تطلى بدهن الحوت، وهي ذات طبقة واحدة وشراع واحد في معظم الأحيان.

أسلحة الأسطول: استخدمت في أسلحة الأسطول أنواع عديدة تتناسب مع المهمات الموكلة إليها. بين الغزو والفتح. وبين أسلحة الحصار[١] والتدمير والنار الإغريقية. ونقل الجنود والمؤن والدواب وأنواع الأسلحة المستخدمة في غزوات البر والبحر وأهمها:

١- الكلاليب (خطاطيف من حديد لشد السفن) إلى البر[٢].

٢- الباسليقات: سلاسل في رؤوسها رمانة من حديد لغرض إحداث فجوات في السفن وإغراقها.

٣- التوابيت (صناديق مفتوحة في أعلى السواري فيها رجال بمخالب لرمي الحجارة على العدو).

٤- قوارير النفط المشتعلة لإحداث نيران الإشتعال.

٥- جرار النورة: فيها مسحوق من مزيج الكلس والزرنيخ تقذف غبارا لتعمي الرجال بغبارها.

٦- قدور الحيات والعقارب وقدر الصابون.

٧- اللجام: أداة كالفأس تحمل في مقدم الركب.

٨- القسي والرماح والسيوف والتروس.

٩- الباسليقات والمنجنيق (والنار البحرية – النار الإغريقية) ولحماية السفن من النار الإغريقية يتم لفها من الخارج بالجلود واللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب لدفع أذى النفط[٣] والاحتراق عنها.

قيادة الأسطول: وتشمل أمير البحر والرئيس والمقاتلة والنواتية.

أ- القائد: (أمير البحر) الأميرال. يدبر أمر حرب الأسطول[٤].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٠/ ٤١٣ ذكر أهم أدوات الحصار (الأبراج، الدبابات، السلالم والحبال).

(٢) الكامل ج٢/ ٣٤٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعش ج١٠/ ٤١٣.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٦٢٩.

ب- الرئيس.

ج- النواتية ويعملون بأمر الرئيس.

د- والمقاتلة من الجنود والمحاربون

أهم الغزوات البحرية: تعد أول غزوة بحرية قام بها معاوية رضي الله عنه عام ٢٨هـ بقيادة معاوية(١) وأول معركة بحرية هي غزوة ذات السواري (الصواري) ٣١هـ أو ٣٤هـ في عهد الخليفة عثمان(٢) رضي الله عنه.

أما الملاحة والعلوم البحرية وأشهر المؤلفات في الملاحة فالمعلومات عنها قليلة(٣) وأشهر البحارة المسلمين الذين ذاع صيتهم هو (ابن ماجد) الذي لقب بالمعلم، وقد ترك مؤلفات بحرية قيمة دونت بالنشر والشعر، أشهرها كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد)(٤). ومن أهم أدوات الملاحة التي اخترعها أو طورها المسلمون (البوصلة) التي نقلوها عن الصين وسموها (الحك) وهي الإبرة المغناطيسية(٥). كذلك طور المسلمون وسائل اتصال متقدمة بين قيادة الأسطول وسفنه منها اعتمادهم على الحمام الزاجل لغرض البريد البحري(٦). وفي أدوات الحصار استخدموا الأبراج والدبابات والسلالم والحبال.

---

(١) البلاذري. فتوح البلدان ص١٥٩.

(٢) المقريزي: الخطط ج٢/ ١٩٠، ابن خلدون المقدمة/ ج٢/ ٦٢٩-٦٣٠.

(٣) المسعودي ومروج الذهب ج١/ ٥٣ طبعة مصر.

(٤) مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٢٢٩٢، ٢٥٥٩ عن ابن ماجد انظر الورقة (٦)، الخطط ج١/ ٣١٦.

(٥) انظر: مروج الذهب ج١/ ١٧٣، الخطط ج١/ ٣١٦. بدر الدين الصيني: العلاقات بين العرب والصين ص٢، طبع القاهرة/ ١٣٧٠هـ (١٩٥٠م).

(٦) الكامل: ج٩/ ١٩، الخطط: ج٢/ ٣٧٣.

الفصل السابع

النظام الاجتماعي

الحياة الاجتماعية. المجتمع الإسلامي

طوائف المجتمع ومركز المرأة

الموالي

أهل الذمة

الرقيق ودور الإسلام في إلغاء الرق

الحياة الاجتماعية والمجتمع:

يتمتع المجتمع الإسلامي بسمات واضحة. ومميزات قيمة أثرت أثرها العظيم في حياة المسلمين وحضارتهم. والإسلام رفع أصول العلاقات الاجتماعية وقيم الحقوق والواجبات إلى نطاق غيبي، كما عقد الصلة بين ضمير الفرد ومسؤولية المجتمع. وبين الجزاء الروحي ومصير الإنسان.

ومن أهم خصائص المجتمع الإسلامي التي يتميز بها. الوحدة الحضارية التي فرضها الإسلام، والتي ترتكز على العقيدة الروحية قبل أي اعتبار آخر. فالله جل شأنه خلق الناس جميعا من نفس واحدة. وهم في النظرة أخوة إنسانية والتفاضل بينهم بالتقوى لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾. وبهذا أصبح المجتمع الإسلامي مجتمعا مفتوحا، يستطيع أن ينتظم فيه أفراد البشر جميعا في سياقه الحضاري على أساس المساواة، وأن ينتظم أفراد البشر جميعا في سياقه الحضاري على أساس المساواة والعدالة المطلقة. لذلك كانت الوحدة الحضارية في الإسلام أسبق من المجتمعات الأوروبية الحديثة من حيث تحرير الأفراد من أنماط الطبقية والعصبية. هذه الأنماط من شأنها أن تجعل من المجتمع طبقات مغلقة، وترسم للفرد وضعه ومكانته ومصيره بالنسبة إلى مولده ومهنته وما ورث من سائر الاعتبارات.

وفي ظل الوحدة الحضارية للمجتمع الإسلامي المفتوح توفرت للفرد في ظل الحضارة الإسلامية، أسباب الحرية الفردية في نواحيها السياسية والاقتصادية والثقافية. كما كان من النتائج الواقعية، لتكون هذا المجتمع المفتوح الذي صب في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها. حيث انصهرت في هذه البوتقة وتمازجت وأنشأت مركبا عضويا فائقا. هو المجتمع الإسلامي الذي أنتج حضارة عالمية رائدة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة.

لقد انصهرت في المجتمع الإسلامي كل الأجناس والأقوام. وتجمعت فيه خصائصهم كلها، لتعمل متمازجة متعاونة في بناء مجتمع واحد وحضارة واحدة عقيدية المنشأ. ضمن رابطة الأخوة الواحدة وعلى قدم المساواة، وهذا لم يجتمع قط لأي مجتمع آخر على طول التاريخ قديمه وحديثه.

والمجتمع الإسلامي مجتمع سلمي لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي

ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾. وأول مفاهيم السلم. استسلام المؤمن لله تعالى في نفسه من خلال الطاعة الواثقة المطمئنة الراضية بأن الله تعالى يقودهم نحو الجنة والرشاد والسعادة في الدارين لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ ﴾.

هذا الاستسلام لله تعالى يقود المسلم إلى عالم كله ثقة واطمئنان ووضوح واستقرار ورضى. سلام مع النفس والضمير وسلام مع العقل والمنطق، وسلام مع الناس والأحياء ومع الوجود كله. وأول ما يفيض هذا السلام على القلب صحة تصوره لله الخالق ربه الواحد القوي العزيز القاهر. القوة الحقة والوحيدة في الوجود. الإله العادل الرحمن الرحيم. هذه الصفات تؤنس قلب المؤمن وروحه وتضمن له الاستقرار والسلام.

كذلك يفيض السلام في قلب المسلم من صحة تصور العلاقة المتوازنة بين العبد والرب. وبين الخالق والكون، وبين الكون والإنسان. والاعتقاد بالآخرة يفيض السلام على روح المؤمن وعالمه ينفي عنه القلق والسخط والقنوط. ويوجهه نحو العدالة المطلقة في الدنيا والآخرة، والاعتقاد بالآخرة حاجز دون الصراع المجنون المحموم الذي تداس فيه القيم والحرمات.

ولعل من أوضح الخصائص التي يتميز بها مفهوم المجتمع الإسلامي في الحضارة، أن الإسلام لم يفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية.. إنما يجمع بين السلطتين على نحو يضاعف فيه مسؤولية الحاكم فيجعله مسؤولا أمام الله وأمام الناس. ومفهوم المجتمع الإسلامي نحو الروحية والمادية جاء وفق توازن دقيق، بحيث لا يطغى جانب على آخر من قاعدة لا إفراط ولا تفريط. وكذلك في النظرة إلى الحياة الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾. بهذا البناء الاجتماعي الإسلامي الرشيد، رسم الإسلام للأمة نظرتها للحياة في جوانبها المختلفة. وأعدها للقيام بدورها الريادي في تحرير الناس. والقوامة على الناس والشهادة على الناس لقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾.

مواصفات المجتمع الإسلامي:

(١) مجتمع تربطه آصرة واحدة (آصرة العقيدة) حيث تذوب الأجناس والأوطان واللغات والألوان وسائر الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان لقوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة).

(٢) مجتمع له آدابه وقيمه (التحية، عدم الاستكبار، ادفع بالتي هي أحسن).

(٣) مجتمع له ضماناته. لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في عدم الطعن.

(٤) مجتمع نظيف عفيف لا تشيع فيه الفاحشة، بعيدا عن الفتنة وسعار الجنس لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾. ذلك ماثل في (حكم الزنا. حكم قذف المحصنات، غض البصر).

(٥) مجتمع متكافل يوفر الحياة الكريمة والعمل والرزق لكل أفراده (العدالة والكفاية الاجتماعية).

(٦) مجتمع يكفل حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع، بعد كفالتها بالتربية والتوجيه الرباني المطاع.

(٧) مجتمع قائم على الشورى والنصح والتعاون، والمساواة والعدالة العارمة والخضوع لشريعة واحدة. وتحرير الفرد من العبودية، وأمن الحرية الفردية وتقرير الإسلام الحرية الروحية والعملية، والبعد عن الاستحلال والاحتكار والمجتمع الإسلامي قائم على نظام الأسرة التي تعتمد على الود والرحمة.

وفي هذه الأوصاف للمجتمع الإسلامي يقارن (جوستاف لوبون)[١] بين المجتمع الإسلامي والمجتمع الأوروبي الذي فيه التضاد السلبي فيقول:

إن ما يستوقف النظر ما نراه من التضاد بين ثبات نظم الشرقيين وتسليمهم بالأمر الواقع، الذي ليس له دافع. والإخاء السائد لمختلف طبقاتهم وبين ثورات الأوروبيين الدائمة وتنازعهم الاجتماعي، ومن أظهر ما يتصف به الشرقيون أوبهم الجم، وحلمهم الكبير وتسامحهم العظيم. نحو الناس والأموال، ودعتهم ووقارهم وقناعتهم، وقد منحهم إذعانهم لمقتضيات الحياة، طمأنينة روحية من السعادة المنشودة، وقد أورثنا أمانينا واحتياجاتنا المصنوعة قلقا نفسيا بعيدا عن بلوغ تلك السعادة.

طوائف المجتمع العربي: تختلف باختلاف أحوالها وأقدارها الاجتماعية لكنها تتالف في وحدة اجتماعية واحدة وأهم طوائف المجتمع العربي:

---

(١) جوستاف لوبون. حضارة العرب ٣٨٦.

(١) كبار رجال الدولة والحكام: من العرب وأشرفهم، آل البيت والعرب القرشية ومنهم الخلفاء والأمراء والقضاة، وأصحاب الوظائف الكبرى والصغرى في الدولة[١]. ثم أفراد البيت النبوي: الهاشميون، العلويون[٢]، والأشراف[٣].

(٢) العلماء والأدباء: ولهم نفوذ أدبي عظيم عند الخلفاء والأمراء والحكام والعامة. وخاصة رجال الدين[٤] لأن دولة الإسلام تقوم على العالم والسلطان.

(٣) الجند: يتميزوا بملابسهم وزيهم ولهم ديوان خاص (ديوان الجند) أو طبقة أرباب السيوف[٥].

(٤) رجال الأعمال: كأصحاب الأملاك والتجار والصناع والحرفيون وهؤلاء كانوا يختلفون باختلاف أحوالهم وثرواتهم[٦].

(٥) العامة وسواد الأمة: أهل الفلاحة ومن معهم من أهل الذمة ثم استعربوا[٧].

(٦) أهل الذمة: اليهود والنصارى و والحق بهم الصابئة المجوس[٨].

(٧) الخدم: وغالبهم من الرقيق المستقدم من الشعوب غير العربية ومن الدهماء والغوغاء.

المجتمع والمرأة: تمتعت المرأة العربية قبل الإسلام بمركز مرموق في المجتمع العربي. فخوطبت (بربة البيت) ونوديت بكنيتها ونسب الأبناء إليها كما نسبوا لآبائهم. وكانت تقوم بأعمال كثيرة ومهمة، بدأت من إدارة البيت وإنجاب الأطفال وتربيتهم، ولها دور في الحروب والسلم وقد ساهمت في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وتمتعت

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص١٢١ وما بعدها.

(٢) القرآن الكريم/ سورة ٤٢، آية ٢٢، ابن خلدون/ المقدمة ص١٣٨، المسعودي: مروج الذهب ج٢/ ٢٥٩ طبع مصر ١٢٨٣هـ. الخطط ج٢/ ٣٩٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعش ج٣/ ٤٨٥-٤٨٦، الخطط ج٢/ ٣٩٦، الأحكام ص٨٢.

(٤) القرآن الكريم، سورة ٤٩، آية ١٣ ثم الكتاب أرباب القلم.

(٥) سفر نامة ص٦٢.

(٦) انظر: الطبري ج٣/ ١٧٤٢-١٧٨٧، معجم البلدان ج٢/ ٣٧٩ صبح الأعش ج٤/ ٤٥٨.

(٧) انظر: الخطط ج١/ ١١٦، ١٣٣، العقد الفريد ج٢/ ٩٢.

(٨) انظر: الطبري ج٣/ ١٧٤٢-١٧٨٧م، معجم البلدان ج٢/ ٣٧٩، صبح الأعش ج٤/ ٤٥٨.

كذلك بحرية اختيار زوجها، ولها صداق زواجها أو وليها ولها حق الملكية والتجارة وبعضهن اشترطن حق الطلاق بأيديهن[1]. (العصمة) وحول ذكر قضية وأد البنات فإننا نرى أنها انتشرت بين بعض قبائل العرب وليس كلها وقد اقتصرت على قبائل من الدرجة الثانية أو الثالثة ولم تكن عامة في كل قبائل العرب، كذلك فإن عملية الوأد سببها الأول هو المحافظة على الشرف وعدم الوقوع في الأسر إلى جانب الفقر. ويرى بعض المؤرخين أن مصدر هذه العادة يرجع إلى المخافة الموهومة على الشرف أولا، ثم إلى ما كان يصيب الجزيرة العربية من مجاعات كثيرة[2] ثانياً: وليس كما يرى البعض أنها نقصا في مركز المرأة ودورها. ولما جاء الإسلام رفع منزلة المرأة فأصبحن متساويات مع الرجال في التكليف. والحقوق والواجبات وفي حسن المعاملة، قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. وحض الإسلام على تربية البنات لقول رسول الله ﷺ: «من كانت له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات فعلمهن وأدبهن واتقى الله فيهن فله الجنة» وساوى الإسلام كذلك بين الذكر والأنثى في العطاء ولقول الرسول ﷺ «ساووا بين أولادكم في العطية فلو كنت مفضلا أحدا لفضلت النساء» وفي حسن المعاملة قول رسول الله ﷺ «ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم» كذلك أباح الإسلام للمرأة مشاركة الرجل في جميع أعباء الحياة العائلية والاقتصادية، وفي الجهاد وفي مصاحبة الجيوش. وبرزت المرأة في العلوم الدينية بالوعظ والفقه والحديث. كما برزت في الأدب والشعر والحكمة والسياسة. وبذلك تبوأت مكانتها الرفيعة في المجتمع العربي[3].

الموالي:

الموالي[4]: لغة تأتي بمعنى القربى والعصبة والنسبة أو بمعنى المالك أو المؤيد والناصر. وتأتي أيضا بمعنى الموالاة أو المحالفة.

---

(١) العلي: محاضرات تاريخ العرب ص١٣٦. الجوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي ص١٥٧، علي عبد الواحد. الأسرة والمجتمع ص٣٥، محمد محمود جمعة: النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ص٦.

(٢) عبد الواحد وافي: وأد البنات عند العرب في الجاهلية، مجلة الرسالة عدد ٤٠٠/ ١٩٤١.

(٣) الطبري: تاريخ ج٢/ ٣٢٨. السخاوي: المقاصد الحسنة ص٢٢٧.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة ولى، المطرزي المغرب في ترتيب العرب ص٢٦٢.

المـوالي اصطلاحا: طبقة من المجتمع العربي ينتمون إلى أصول غير عربية (المسلمون من غير العرب). وأكثر الموالي كانوا من العنصر الفارسي، ألحقوا بقبائل العرب وتساووا في عهد الخلافة الراشدة مع العرب في كل الحقوق والواجبات وبالعدل والمساواة[1] والأصل في الإسلام المساواة والعدل.

أهل الذمة:

الذمة لغة: معناها الأمان والضمان، وأهل الذمة هم المعاهدون (المعاهد الخاضع لأحكام المسلمين)[2].

والذمة في الفقه الإسلامي: تعني العهد والأمان للذين لم يدخلوا في الإسلام عند فتح بلادهم. ولا يسترقون ويؤمنون على حياتهم وحريتهم وأموالهم وعاداتهم وعباداتهم[3]. وأهل الذمة هم من اليهود والنصارى والصابئة والمجوس والسامرية وممن لهم حدود وأحكام دون كتاب[4] وقد تمتع أهل الذمة في الإسلام بالتسامح والأمان والحسنى بما حدده القرآن والسنة من قواعد وتشريعات تنظم علاقتهم بالمسلمين لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْۚ﴾.

الرق (الرقيق، العبيد):

الرق: لغة الضعف ومنه رقة القلب، والرق عند الفقهاء: ضعف معنوي وعجز حكمي، شرع في الأصل جزاء عن الكفر. والرق عند الفرنجة: حرمان الشخص حريته الطبيعية وصيرورته ملكا لغيره[5].

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ج٢/ ١٦، النجار الموالي في العصر الأموي ص٢٥، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٢/ ١١١، ٦١، ١٣٠.

(٢) الفيروز أبادي: القاموس المجيط ج٤/ ١١٥، معلوف: المنجد ص٢٣٧، السرحني الحنفي: شرح السير الكبير ج١/ ١٦٨.

(٣) انظر: الفخري: جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة مخطوط ورقة ج١٨، دائرة المعارف الإسلامية: مادة (ذمة) ج٩ ص٣٩٠-٣٩١.

(٤) الشهرستاني: الملك والنحل ج١/ ٣٧.

(٥) أحمد شفيق: الرق في الإسلام ص٧.

مصادر الرقيق وأسبابه: تعددت وتباينت بين الأمم والإسلام. منها: ما يؤخذ نهبا أو سلبا (النخاسون اليهود) وما يؤسر في حروب مشروعة أو غير مشروعة. أو بسبب الفقر والشراء أو الدين، أو الحروب التي تجعل أهل البلاد عبيدا لهم أو ما كان يقدم كهدايا للحكام.

تاريخ الرق: قديم حديث اختلفت أحواله والنظرة إليه باختلاف الأمم والعصور.

- الفلاسفة اليونان: جعلوا الرق نظاما اجتماعيا ضروريا.

- الرومان: حرموا استرقاق الروماني للروماني لكنهم لم يمنعوا الرق في غير بني جنسهم.

- اليهود: أباحوا استرقاق غير اليهودي.

- المسيحية: لم تمنع الرق ولم تعمل على إلغائه أو التقليل منه.

- العرب قبل الإسلام: أباحوا الرق لكنهم أوجدوا سبلا لتحريره[1].

دور الإسلام في إلغاء الرق[2]: قرر الإسلام عدة وسائل متنوعة لو سارت سيرها الطبيعي لقضت على الرق من أصل منابعه منذ زمن بعيد منها:

(١) منع استرقاق رجل حر من غير المسلمين داخل بلاد المسلمين.

(٢) منع استرقاق طائفة تقاتل المسلمين باسترقاق أسراها أو سبي نساءها.

(٣) منح الإسلام الأرقاء الشخصية الإنسانية وحق الحياة الكريمة: أولها رفض لفظ (عبد) أو (أمة) حيث استبدلت بفتاي وفتاتي لحديث رسول الله ﷺ (لا تقل عبدي وأمتي بل قل فتاي وفتاتي). وفرض الإسلام الإحسان للرقيق مثل ذوي القربى.

(٤) أنهى الرسول ﷺ تحقير العبد والاستهانة به وأباح زواج المولى من العربية لأن

---

(١) حسن إبراهيم: النظم الإسلامية ٣١٧، الإصحاح ١٤، تكوين ١٤ الإصحاح (٦) الإصحاح ٤٤، التكوين، الإصحاح ١٧، ٢١، ١٥، ٢٥.

(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٤٧٠، أحمد أمين: فجر الإسلام ١٠٧/ ١١٠، القرآن الكريم النساء: ٢٥، ٣٦، النور: ٣٢، ٣٣، ٢٤، البلد ٨-١٦، سورة محمد (٤): صحيح مسلم ج٧/ ٣١٠، مسند ابن حنبل ج٤/ ٤٦.

الحرية هي الأصل، والاستعباد أمر طارئ. وأوصى بهم خيراً لقول الرسول ﷺ (أخوانكم خولكم).

(٥) أباح الإسلام نكاح الإماء لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾.

(٦) صرح الإسلام بوسائل عدة. في أموال الزكاة لتحرير الرقاب والعبيد وفي كفارات الذنوب، وأوصى القرآن المسلمين بوجوب مساعدة الأرقاء في استرداد حريتهم. وفي الدية والكفارات.

(٧) في الأسار خيَّر الله المسلمين بين إطلاق الأسارى وبين الفداء بالمال أو الإبقاء على الرق. وفي الدعوة للإسلام خيَّر الله المشركين بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

(٨) تجارة الرقيق الخارجية: خيَّر الإسلام المسلمين بين حرية دخول هذه التجارة أو منعها. لكنه سمح بدخولها لغرض إبقاء باب الحرية مفتوحا للدخول في الإسلام أو لكي يتمتعوا بالرحمة الإسلامية في بلاد الإسلام وغالب الشريعة تدعو لوقف الرق. إلا من باب المعاملة بالمثل. فإذا استرق عدوالإسلام المسلمين. يجوز استرقاق المسلمين لعدوهم كطريق للفداء.

الفصل الثامن

النظام الاقتصادي

- الزراعة ونظام الأراضي
- الصناعة والمهن الحرفية
- التجارة: الطرق وأساليب التبادل

الزراعة

الزراعة: تعتمد الزراعة في ميدانها الأول على نظام الأراضي. وقد بدأ هذا النظام منذ بداية عهد الدولة الإسلامية، ثم تبعه تطور عام في نظام الأراضي وطرق استصلاحها وميادين نشاطها ومدى مساهمتها في اقتصاد الدولة الإسلامية على مدى عصور الإسلام.

اعتمد نظام الأراضي بداية على ما كان على عهد رسول الله ﷺ، حيث فرض عليها نظاما خاصا على أراضي العرب، فلم يقع عليها الخراج بل فرض عليها العشر، وفي ذلك دلالة على هدف الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي في وحدة الأمة فكل الأراضي العربية التي فتحها المسلمون في عهد الرسول ﷺ وعهد الخلافة الراشدة فُرض عليها العشر، ولم يُفرض عليها الخراج. وفي موضوع الخراج لم يتبع الرسول ﷺ قاعدة ثابتة حيث راعى ظروف المنطقة وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية[1].

كذلك قرر رسول الله ﷺ الملكية العامة للماء والكلاء والنار فقال: (الناس شركاء في ثلاث (الماء والكلاء والنار). وفي عهد الخلافة الراشدة اقتدى الخلفاء الراشدون بسياسة الرسول ﷺ وتنظيماته للأراضي. وأقر ذلك الخليفة عمر بن الخطاب بقاء الأرض لأهل البلاد المفتوحة، لأنها موردهم الأساسي من جهة، وهي كذلك مورد أساسي لبيت مال المسلمين من خلال الخراج. وبذلك أصبحت الأرض من الناحية النظرية فقط ملك عام للمسلمين مقابل ما فرض عليها من خراج وجزية[2].

نظام الأراضي في عهد الخلافة الأموية والعباسية: تنوعت الملكيات الزراعية بعد عهد الراشدين. كذلك تنوعت شروط الملكية وشروط استغلال الأرض التي اعتمدت على أشخاص أصحابها ومراكزهم. كذلك سميت هذه الأراضي في ديوان الخراج وفي الدواوين المحلية كل حسب منطقتها[3] وصنفت الملكيات الزراعية إلى أربعة أصناف

---

(١) انظر: الدوري النظم الإسلامية ص١٠٢-١٠٣، أبو عبيد: الأموال ص٥٠، أبو يوسف الخراج ص٣٣، ٣٩، ١٥، البلاذري: فتوح البلدان ص ٨٠، ٨٢، ٤٨، ٥٠.

(٢) أبو يوسف: الخراج ص١٤-١٥، البلاذري ٢١٨، ٣٦٨، أبو عبيد الأموال: ٢٩٥، ٥٨. اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة ص٧٧-٧٨، يحيى بن آدم: الخراج ص٣٨، الصابئ، الوزارة ص٣٣٨.

(٣) الصابئ: الوزراء: ص٣٣٨، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٣٧، القلقشندي: صبح الأعشى ج٤/ ١٢٤.

رئيسة هي: ضياع الخلافة، الإقطاعيات، أراضي الملاك، أراضي الوقف.

أولا: ضياع الخلافة: أصولها الأولى تعود إلى أراضي الصوافي التي اصطفاها عمر بن الخطاب ﷺ من أراضي الفرس والروم، أو أراضي مات أو هرب أهلها، فأصبحت ملكا للمسلمين وموردا لبيت المال. في العهد الأموي انتقلت ملكيتها للأمويين. وفي العهد العباسي آلت الملكية للعباسيين وقد أضافوا إليها أراضي جديدة من المصادرة وأراضي الموات، وبالشراء أو طريق الإلجاء(١).

انتشرت ضياع الخلافة في العاصمة وجوارها وفي أقاليم أخرى. وقد أنشئت لها دواوين خاصة وحققت موارد كبيرة بلغت في القرن الرابع الهجري حوالي مليون ونصف مليون سنوي(٢). هذا وقد تعرضت ضياع الخلافة للتقلص، خاصة في العصر العباسي الثاني بعد سيطرة العناصر غير العربية على خزائن الدولة والأموال وشغب الجند. وانتهت هذه الضياع في عهد البويهية ولم يبقى للخليفة إلا الإقطاعات الصغيرة التي لا تسد حاجته(٣) وتعرض بعضها للمصادرة.

ثانيا: الإقطاعات. والإقطاع هو أن يقطع السلطان رجلا أرضا فتصير لها رقبتها أو يكون مالكها(٤). وتقع أكثر الأراضي الزراعية في هذا الصنف. وفي حال استرجاعها أشرف عليه ديوان المرتجعات. وقد صنفت هذه الإقطاعيات حسب حقوق المالك في صنفين الأول: إقطاع تمليك. وهي أرض موات تم احياؤها وتدفع ضريبة العشر(٥) والثاني: إقطاع استغلال: وهي التي تعطى بالإيجار أو الضمان أو بالمزراعة. أصلها من أرض الصوافي(٦) وبهذا صنفت الإقطاعات كالتالي:

---

(١) قدامة: الخراج ص٢٤١، الجهشياري: الوزراء ص٩٠.

(٢) مسكوية: تجارب الأمم ج١/ ٦٠، قدامة ص٢٤١، ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية ص١١٠، التنوخي: الفرج بعد الشدة ج١/ ١٠٢.

(٣) مسكوية: تجارب الأمم ج١/ ٢٢٦، الدوري: تاريخ العراق ص٣٩.

(٤) الخوارزمي: مفاتيح العلوم ص٣٩.

(٥) عريب: صلة تاريخ الطبري ص١٤٥، مسكوبة: تجارب الأمم ج١/ ١٣٦ الماوردي: الأحكام السلطانية ص١٨٦.

(٦) يحيى بن آدم: الخراج ص٥٩، أبو يوسف: الخراج ص٥٨، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٤٠-٤١.

(أ) إقطاعات مدنية: تمنح لكبار رجال الدولة بدل الرواتب وفي حال عزله تمنح لمثيله في المنصب[(١)].

(ب) إقطاعات خاصة: تمنح لبعض الشخصيات المعتبرة الذين خدموا الدولة أو تقدم منحة للشعراء والمحدثين والأطباء[(٢)] أو الخاصة من جانب الخلفاء.

(جـ) إقطاعات الخليفة: ظهر هذا النوع في فترة تسلط البويهية على الخلافة[(٣)].

(د) إقطاعات عسكرية: أراضي منحت للقادة الأتراك في الجيش كامتياز[(٤)].

ثالثا: أراضي الملاك: تنوعت ملكياتها منها ملكيات خاصة، إقطاع الخلفاء وأراضي الموات، ما بيع من أراضي الصواف[(٥)].

رابعا: أراضي الوقف: أراضي خصصت لأغراض دينية أو جهادية أو لليتامى أو لفداء الأسارى وللفقراء والمحتاجين. وهي على نوعين، وقف خاص: ما يقوم به الأشخاص من الأغنياء في الأراضي والعقار. ووقف رسمي: ما يقدمه الخليفة وأهله وحاشيته لأغراض دينية ومساجد - الحرمين[(٦)].

وسائل تشجيع الزراعة: أولت الدولة الإسلامية كل اهتماماتها وإمكاناتها لتشجيع الزراعة باعتبارها المصدر الأساسي للثروة في الدولة الإسلامية. لذلك اتجهت سياستها الزراعية إلى العناية بنظام الري وحفر الأنهار والقنوات والسدود وحماية الأرض من الفيضانات[(٧)]. كذلك اتبعت سياسة رشيدة اتجاه الزراع والفلاحين لهدف استقرارهم في

---

(١) مسكوبة: تجارب الأمم: ج١/ ١٥٥، ج٢/ ٩٦، ١٨٨، الدوري: تاريخ ص٤١ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٦/ ٣٦٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعش ص١٣ وما بعدها.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج٨/ ٣٣٩.

(٤) انظر: الطبري: تاريخ ج٣/ ١٧٩٦. مسكوبة: تجارب الأمم ج١/ ٥٢ و٩٦، مسكوبة: تجارب الأمم ج٢، ٨٨، ٩٧. الماوردي: الأحكام ١٧٣، ١٨٦.

(٥) الماوردي: الأحكام: ١٧٢، الصابئ: الوزراء ٢٥٧.

(٦) الصابئ: الوزراء: ٢٨٦، الجاحظ: البخلاء ص٧٧، التنوخي: الفرج بعد الشدة ج١/ ١١٩.

(٧) الصابئ: الوزراء ٢٥٦، الدوري: تاريخ العراق ص٦٢، أبو يوسف: الخراج ص٥٠-٥١. الخوارزمي مفاتيح العلوم ٧٠-٧١ هذا وقد تعددت وسائل الري: بين حفر الأنهار والترع والسدود والجداول إلى استحداث وسائل أخرى للري آلات منها الرافعة النواعير القناطر الدواليب الشاذوف وفق تخطيط

الأرض واستثمارها[1]خير استثمار. ومن ثم طورت الدولة الإسلامية نظما جديدة اتجاه الإصلاح الزراعي، من خلال تحديد الضرائب والخراج أو تخفيضها حسب طريقة الزراعة، وطبيعة الأرض وقربها وبعدها عن الأسواق[2]. هذا إلى جانب اتخاذ الدولة الإسلامية سياسة القروض وتعويض المزارعين والفلاحين في حال تعرض الزراعة للتلف أو الفيضان أو لغرض تطوير المحاصيل الزراعية[3].

كذلك استحدثت الدولة الإسلامية نظما لطرق الزراعة، أهمها نظام المناوبة (قسم للزراعة وقسم دون زراعة ثم تتم عملية التبادل). ثم نظام الدورة الزراعية (زراعة صيفية وزراعة شتوية). إلى جانب تطوير وسائل الزراعة وأدواتها ومعالجة الأراضي المالحة بغسل التربة واستخدام السماد لتخصيب الأرض[4].

إلى جانب إتباع الدولة الإسلامية تشريعات خاصة بالري وأساليبه وطرقه واستحداث دواوين خاصة لتنمية الزراعة منها: ديوان خاص مثل (ديوان الماء). كذلك عملت الدولة على تشجيع زراعة النباتات التي تتوائم مع صلاحية التربة لتلك الزراعة وأحسنوا استغلالها. وطورت طرق تحسين الثمار بالتلقيح والتطعيم. وجلبت إلى بلاد الإسلام زراعات وأشجار كثيرة من بلاد أخرى وزرعوها في بلاد الإسلام. مثل: قصب السكر وصناعته والزهور وصناعة العطور. وأدخل المسلمون إلى أوروبا نباتات وزراعات لم تكن معروفة لهم مثل: الأرز، الزيتون، قصب السكر والمشمش وغيرها[5]. أما الحاصلات الزراعية التي اشتهرت في بلاد الإسلام منها: الحبوب على أنواعها والأرز، السمسم، الزيتون، التمر، قصب السكر، القطن والأشجار المثمرة بأنواعها وخاصة الكرمة والفواكة، التفاح، الرمان.

المهندسين المختصين واستحداث ديوان الماء للري.

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٣٢٨، ٣٤٧، ٣٦١، ٣٩٥، ٣٩٧، الطبري: تاريخ ج٨/ ٢٥٠.

(٢) ابن قدامة: الخراج ص٧٦٨، صبحي الصالح: النظم الإسلامية، ٣٨٩، ٣٩٢، ابن الطقطقي: الفخري: ٢١٦.

(٣) مسكوبة: تجارب الأمم: ج٢/ ٨، التنوخي: نشوار المحاضرة ج٨/ ١١٧.

(٤) الصابئ: الوزراء ص٢٣٨، الجاحظ: رسائل: ج١/ ٣٨٥، ٢٤٤، ١٠٥. الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٦.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢ ٣٢٩-٣٣٩.

الصناعة

الصناعة: أعلى الإسلام العمل وأحسن قيمته وعد العمل كالجهاد لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩-٤١]. وجعل الإسلام العمل درجات ورتب الأجر على قدر العمل لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]. وأشاد القرآن بالعمل اليدوي لقوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥]. وأكد الإسلام على مسؤولية الدولة في حماية العمل. وحث الإسلام على العمل والحرفة حتى عد إلى حد الفريضة لقول الرسول ﷺ: (طلب الكسب فريضة على كل مسلم) كما أوجب[١]. على الدولة إيجاد فرص العمل، وجعل التصنيع متاح للجميع[٢] حتى تتحقق الحياة الكريمة لكل أفراد الأمة ولهذا أضاف العلماء والفقهاء واجب تأمين العلم والعمل كحق من حقوق الأمة على الحكام.

لهذا تقدمت الصناعة وأحسن المسلمون الاستفادة من ثرواتهم الطبيعية والمعدنية. وأتقنوا كثيرا من الصناعات. وصحب ذلك تطور في الصناعات على مر العصور الإسلامية. لكن حظ العرب من أصحاب المهن والحرف تشكل نسبة صغيرة، وذلك لتقديم العرب فضل الجهاد على أي فضل آخر[٣]. لهذا كان غالبية أهل الحرف والمهن من العمال من غير العرب، وبخاصة من الرقيق الأسود والأبيض، الذين مارسوا المهن المختلفة، بداية من الوضيعة إلى الصناعات اليدوية والزراعة والصناعة[٤]. فكان لهم آثار على الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في بلاد الإسلام، وعندما تعرضوا لظروف قاسية، عبروا عن عدم رضاهم بطرق سلمية فكونوا الجمعيات والنقابات الفلاحية وأهل الصنائع والعبيد. وبعضهم الآخر اتجه إلى الثورة والتمرد والانضمام للحركات المناهضة لدولة الخلافة[٥].

---

(١) محمد بن الحسن الشيباني: الاكتساب في الرزق المستطاب ص١٤-١٧، طبع القاهرة ١٩٣٨.

(٢) صبحي الصالح. النظم الإسلامية ص٤٠٠.

(٣) الدوري: نشوء الأصناف والحرف الإسلامية في الإسلام. محلية كلية الآداب ص١٤١/ العدد الأول عام ١٩٥٨، جرجي زيدان: التمدن الإسلامي ج٤/ ٤٢. ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٣٩، اليعقوبي البلدان ص٢٦٠.

(٤) زيدان: التمدن الإسلامي ج٥/ ٣٩، الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص٧٧.

(٥) الأصفهاني: الأغاني ج١٢/ ٤٣، الأربلي: خلاصة الذهب المسبوك ص١٦٠ اليوزبكي: الوزارة

عوامل نمو الصناعة: اجتمعت للصناعة عوامل متعددة ساهمت في تطورها منها:

(١) التقدم الاقتصادي: صحب التقدم الحضاري والاقتصادي تقدم في الصناعة وظهور صناعات جديدة بسبب زيادة الثروة من جهة وزيادة احتكاك المسلمين بأصحاب الصناعات من الأمم الأخرى. كصناعة ضرب النقود والحلي والصناعات المعدنية والخشبية وغيرها.

(٢) الأيدي العاملة الفنية: صحب قيام الدولة الإسلامية بالمشاريع العمرانية وقطاع المرافق، نزوح الأيدي العاملة إلى عواصم دولة الخلافة فكان ذلك سبب تقدم الصناعة.

(٣) توفر المواد الأولية للصناعة: خاصة المعدنية منها الكبريت والحديد والرصاص والصخور الكلسية والأحجار. إلى جانب توفر المواد الأولية الزراعية والحيوانية الأمر الذي شجع قيام صناعات تعتمد عليها مثل (الحديد في كرمان وكابل وإفريقية وفارس) والنحاس الأصفر في أصبهان، الذهب والفضة في مشرق الدولة.

(٤) زيادة الطلب على الصناعة. صحب التطور الحضاري والتقدم الاقتصادي زيادة الطلب على الصناعة والسلع المختلفة. خاصة بعد ظهور طبقة ثرية وقوة شرائية كبيرة. وزاد الطلب كذلك على السلع والمصنوعات الكمالية فشكلت عامل دفع نشط لتقدم الصناعة وازدهارها[١].

تصنيف الصنائع والمهن: صنف إخوان الصفا الصنائع حسب فائدتها للإنسان إلى ثلاثة أصناف:

أولا: صنائع ضرورية للمجتمع (زراعة، حياكة، بنا).

ثانيا: صناعات متممة أو تابعة للصنائع الأولى وتعتمد عليها.

ثالثا: صنائع للجمال والزينة (العطور، الوشي، النقش).

وحسب موضوع الصناعة فقد صنفت في نوعين (صنائع روحانية تمثل المهن

ص١٢٠، العلي: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ص٢٧٠.

(١) انظر: اليعقوبي. البلدان ص٢٤٨، ٢٣٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج٨/ ٥٨٠، توفيق اسكندر: بحوث في التاريخ الاقتصادي ص١١٣. الاصطخري: ص٥٣، الحموي معجم البلدان ج٢/ ٢٢، ج٥/ ٤٠٢. الجاحظ: التعبر بالتجارة ص٣٢.

الفكرية) وصنائع جسمانية (الحرف اليدوية) وكذلك صنفوا الحرف اليدوية إلى صنائع موضوعها بسيط (السقائين، السباحين) وصنائع مركبة وهي على ثلاثة أنواع الصناعات المعدنية والنباتية والحيوانية. كذلك صنف إخوان الصناعة حسب استخدام العضو فيها مثل (الخطابة – اللسان). كما وصنفوا الصنائع تصنيفا يقوم على القيمة والحاجة (صنائع الزينة والترف). وكل ذلك يدل على تقدم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية(١).

الطبقة العاملة(٢) تكونت من فئات متعددة (مسلمين وغير مسلمين وموالي وأهل ذمة وعبيد) وبرز المسلمون وأهل الذمة في الصناعات والمهن المختلفة. كما زاولوا مهنة التعليم.

أشهر الصناعات: يعود سبب ازدهار الصناعة إلى وفرة الأيدي العاملة والمواد الأولية وتوفر رؤوس الأموال والخبرة الصناعية والتقدم الاقتصادي في دولة الإسلام. وأهم الصناعات:

صناعة النسيج: وهي من أقدم الصناعات وأهمها ونسبها العامة إلى النبي إدريس عليه السلام. وقد عني الناس بهذه الصناعة لأنها رئيسية وتخص الناس عامة وأهمها الحريرية والقطنية والعمائم والمناديل. وقد نسبت بعض هذه الصناعات إلى المنطقة والمدينة التي تقوم التي تقوم بصناعتها ولشهرتها مثل العتابية من خيوط (القطن والحديد). والبصرة: بصناعة الخز والبز) والموصل (الموصلي) في صناعة النسيج والحرير الموشى، وماردين (الأكسية المركزية) الكوفة، الوشي الفاخر. وواسط في الستائر(٣).

صناعة الفخار والزجاج(٤) استخدمت في الآلات والأدوات المنزلية في المساجد والقصور، وأشهر مدن صناعتها في العراق والبصرة والكوفة وسامراء،

---

(١) انظر: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، ج١/ ٢٨٠-٢٨٢-٢٨٥.

(٢) اليوزبكي: تاريخ أهل الذمة في العراق ص٤٣٨، ٤٤٦، الدوري تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٩-١٠٠.

(٣) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص٩٩، ١٠٢، ١٠٣، يوسف غنيمة، صناعات العراق في عهد العباسيين مجلة غرفة تجارة بغداد العدد (٢)١٩٤١. زيدان التمدن الإسلامي ج٥، ١٠٦، الجاحظ التبصرة بالتجارة ص٣٣، ٤٢، ٢٥.

(٤) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص١٠٩، صبحي الصالح: النظم الإسلامية ص٤٠٥ (الحديد وجد في خوزستان وطبرستان، القطن بلاد فارس والعراق وكرمان وكابل).

الصناعات المعدنية[1]: ولا سيما الحديد والرصاص القائمة على معدن الحديد والرصاص إلى جانب معادن وعناصرأخرى. ثم الصياغة[2] خاصة في المعادن النفيسة كالذهب والفضة.

وهناك أيضا صناعات أخرى أهمها صناعة السكر والعطور وأشهرها قامت في فارس والعراق ثم صناعة المربى في بلاد اليمن.

صناعة هي صناعة الورق التي نقلت عن الصين واشتهرت وتطورت في بلاد المسلمين وخاصة في بلاد ما وراء النهر واشتهرت أهم مصانعه في دمشق وطبرية وطرابلس الشام وقد ظلت سمرقند أكبر مركز لصناعته، هذا إلى جانب صناعات متفرقة منها صناعة الأدوات الرياضية في مدينة حران. وصناعة السجاد من بلاد فارس وبخارى وأرمينية[3].

التنظيمات المهنية والحرفية:

تعددت أمور تنظيم العمل بين أصحاب الصنائع وتكتل العمال في نقابات حسب المهنة أو الحرفة، وكونوا طوائف خاصة لهم في عواصم بلاد الإسلام. ويعود سبب هذا الانتظام إلى شعور أهل الصنعة بالصلة القوية بينه وبين مثله في صناعة معينة، وهذه الصلة تدعو أهل الصناعة إلى المحبة والتآزر[4]. وكذلك إلى نمو المدن وتطور الحياة المدنية وتجمع أصحاب الحرف أو المهنة في أسواق محددة ومعينة. وثم ظهور التنظيم عند أصحاب الحرف بمسميات متعددة رافقت عملية تطور المهنة منها حسب: (الأصناف، أصحاب المهن، أهل الصنائع، أصحاب الحرف، أرباب المهن والحرف) وكان لكل حرفة عرفة وسنة خاصة بها[5].

---

(١) الجاحظ: التبصرة بالتجارة ص٣٢، الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ١٠١، التنوخي: نشوار المحاضرة ج٨/ ١٦.

(٢) الوشاء: الموشي ص١٨٨، الثعالبي: لطائف المعارف ص٧٣.

(٣) انظر: آدم متز الحضارة الإسلامية ج٢/ ٣٠٥، ٣١٦.

(٤) الجاحظ: البخلاء ص٢٤، ٢٨، ٥١ رسائل الجاحظ ص١٢٦.

(٥) رسائل الجاحظ: للسندوبي ص٢٥٩، اليعقوبي: البلدان ٢٥٨-٢٦٠، ٢٩٥، الدوري: نشوء الأصناف والحرف ١٤١. الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ٩٢.

هذا وقد ارتبط التنظيم الحرفي المهني بالأسواق. كذلك استخدم لفظ الصنف للتعبير عن أهل الحرف. وأطلقت الحرفة أيضا للدلالة على العمل الصناعي[١]. والتنظيم جاء في أعلى قمته الرئيس أو شيخ الصنف، والأستاذ المتقدم في الحرفة. ثم الصناع والعمال وأدنى درجة في التنظيم هو المبتدئ[٢]. ومع تعدد المهن وتنظيماتها إلا أن الحرف والمهن والأصناف والأسواق كانت تحت إشراف ومراقبة الدولة من خلال (المحتسب) وأعوانه من العرفاء ومن رؤساء أصحاب المهن[٣] أيضا.

النقابات: وردت هذه اللفظة في كثير من المصادر، ويرجع المؤرخون نشأتها الأولى إلى أواخر القرن الثالث الهجري مع أن التصنيف الاجتماعي بدأ متقدما على تنظيم المهن.

وقد اعتمد على النسب والقربى لرسول الله ﷺ تحت مسمى الأشراف أو آل محمد وقد كونوا نقابة عرفت فيما بعد بـ (نقابة الأشراف) [٤] هذا وقد وضعت شروط يتم بموجبها اختيار النقباء، منها أن يكون خيرهم وأجلهم بيتا وأكثرهم فضلا وأجزلهم رأيا. وقد نسب بعض المؤرخين نقابة بعض الحرف والمهن بأسماء إسلامية بارزة في مجال هذه المهنة منها (نقيب المؤذنين. بلال بن رباح) (بريده الأسلمية نقيب الشهداء...)[٥].

وقد تعرض مؤرخو الغرب ومفكريهم لدراسة التنظيمات النقابية الإسلامية. فعرفها ماسينون: (أنها مؤسسة نقابية تقوم بتنظيم الحرف وحفظ أسرارها. وتثبيت أسعار عادلة لها وللحفاظ على فتوى الصناعة. كذلك عرفها ليفى بروفنسال بأنها: (عقد يحدده العرف ويسلم به الداخلون) وعرفها: كوبتن: إنها (إتحاد لأصحاب المهن لغرض المحافظة على

---

(١) الطبري: تاريخ ج٧/ ١٥٣. الجاحظ رسائل ١٢٦، ياقوت: معجم البلدان ج٥/ ٤١٠. ابن منظور: لسان العرب (مادة حرف) ج٩/ ٤٩.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص١٤٨، رسائل إخوان الصفا ج١/ ٢٥٥. الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي ص٩٣.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٤٣، الشيرزي: نهاية الرتبة ص١٢.

(٤) التنوخي: الفرج بعد الشدة ج٢/ ٢٥٠. صباح إبراهيم الشيخلي: الأصناف في العصر العباسي نشأتها وتطورها ص٦١ نشير وزارة الإعلام بغداد عام ١٩٦١. الماوردي: الأحكام السلطانية ص٩٦، وأبو يعلى: الأحكام ص٧٤. الصابئ الوزارة ص٢٥.

(٥) الشيخلي: الأصناف في العصر العباسي ص٦٨ دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٦، ناجي معروف: تاريخ الحضارة العربية ص١٣١.

مستوى الحرفة وتثقيف المنشئين لها) وعرفها: بيير: إنها نوع من الاتحاد المهني يقوم على العضوية ذات الطابع الشعبي[١].

التجارة:

التجارة في اللغة والاصطلاح: التجارة في معناها اللغوي: البيع والشراء[٢]. ولا بد من وجود وسيط لإتمام عملية البيع والشراء وهذا الوسيط يسمى التاجر[٣]. والتاجر في اللغة هو الحاذق أو المدرك فيقال: أنه تاجر بالأمور أي حاذق بها[٤].

أما التجارة في معناها الاصطلاحي العام فهي: محاولة الربح عن طريق البيع والشراء، وذلك بتشغيل المال المتوفر لدى شخص معين عن طريق شراء السلع في أوقات توفرها ورخص أسعارها، ثم بيعها بعد ذلك بسعر يفوق سعر شرائها فينتج عن ذلك الربح، وقد عبر عن ذلك بعض شيوخ التجارة في عبارتين وهما (اشتر الرخيص وبع الغالي وقد حصلت التجارة)[٥] وتعريف التجارة في المفهوم العام: هي عملية نقل البضائع والسلع والمنتجات الفائضة عن حاجة مناطق معينة إلى البلاد التي بحاجة إليها[٦].

تطور التجارة: كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالتجارة وخبرة بها ولها عندهم منزلة مرموقة. ولما جاء الإسلام احتلت التجارة مكانة رفيعة نتيجة الفتوحات الواسعة وارتقاء الزراعة والصناعة الأمر الذي نشَّط التجارة[٧]. حتى اتسع مداها فشملت معظم بلاد العالم وامتدت شرقا حتى وصلت الصين والفلبين. وغربا وصلت بلاد الفرنجة. وجنوبا وصلت إلى الحبشة وينجيريا وسواحل إفريقيا. وإلى الشمال وصلت بلاد الروس[٨].

وأصبحت مدن الإسلام ومرافئه الرئيسة مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجاري

---

(١) الدوري: العصور العباسية المتأخرة ص١٨٤. مطبعة الريان بغداد ١٩٤٥.

(٢) ابن منظور: لسان العرب/ ج٥، ص١٥٧.

(٣) الفيروز آبادي: القاموس المحيط/ ج١، ص٣٩٣.

(٤) الزبيدي: تاج العروس/ ج٣ ص٦٦.

(٥) ابن خلدون: المقدمة/ ص٥٨١.

(٦) اليوزبكي: تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي ص٥٢ مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٥.

(٧) آدم متز: الحضارة العربية الإسلامية ج٢/ ٣٦٥، ٣٧٥. الغزالي: إحياء علوم الدين ج٢/ ٦٤-٦٥، ج٣/ ٦٣.

(٨) فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية ص١٣-١٤، ط وزارة الإعلام ١٩٧٧.

العالمي (البري والبحري) ومن أهم المدن. بغداد والقاهرة والإسكندرية وسيراف وأصبهان. ومرافئ الشام كطرابلس وصيدا وبيروت. ولأهمية مدن الإسلام التجارية ودورها العالمي، فقد وصلت في وقت من الأوقات (الإسكندرية وبغداد) تقرران الأسعار العالمية للتجارة خاصة (الكمالية) منها. وقد ساعد على هذه الأهمية وانتشارها العالمي رحلات العرب البحرية ومهارتهم بركوب البحر، ومعرفتهم لأدوات الملاحة والانتفاع بها فتمكنوا من ارتياد البحار في جرأة ومهارة فائقة حتى ملكوا بأيديهم زمام التجارة بين الشرق والغرب استيرادا وتصديرا[١].

أثر التجارة: ارتبط تطور التجارة بقوة الدولة الإسلامية وامتدادها إلى بقاع العالم. وهذا الأمر أدى إلى نشاط المسلمين في ابتكار النظم المالية والتجارية. فأنشأوا النقابات لمراقبة المعاملات التجارية. وقد استعاد المسلمون فضلا عن الغنى والثروة المالية، خبرة بشؤون الحياة ومعرفة بأخلاق الناس. وأصبحت التجارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري مظهراً من مظاهر الإسلام وحضارته، بعد أن احتلت المكان الأول في التجارة العالمية، كذلك نشأ عن هذا التقدم التجاري إزدهار الجاليات الإسلامية[٢] وانتشارها في أقطار الشرق والغرب.

عوامل تطور التجارة: اجتمعت عدة عوامل أساسية ساهمت في تطور التجارة الإسلامية أهمها: الموقع الجغرافي لبلاد الإسلام بحيث جاءت وسطا بين الشرق والغرب. وإشرافها على أهم طرق المواصلات المائية والبرية إضافة لأهمية موقع بعض الموانئ العربية[٣] ثم المكانة السياسية التي تمتعت بها دولة الخلافة العباسية كدولة ذات حضارة عالية وسيادة دولية من الدرجة الأولى[٤] إلى جانب زيادة الطلب على السلع والبضائع التي جاءت نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي وتقدم الزراعة والصناعة، حتى أصبحت فيه التجارة من أهم أركان الحياة الاقتصادية. واحتلال العالم الإسلامي المكانة الأولى في التجارة العالمية، وهذا ساهم في تطور التجارة وانتشارها عالميا. وأهم عامل ساهم في ذلك هو تشجيع الدولة للتجارة والتجار. حتى سمى ابن خلدون الدولة العباسية (بالسوق الأعظم

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع العربي ص٤٧٤-٤٧٥.

(٢)آدم متز: ج٢/ ٣٦٥، ٣٦٨.

(٣) فيصل السامر: الأصول التاريخية للحضارة العربية ص١٤، الجاحظ: البخلاء ص٣٩.

(٤)رحلة ابن فضلان إلى البلغار سنة ٩٢١م. مادة بلغار.

للتجارة)[1] ثم تأمين الدولة وحمايتها لطرق التجارة البرية والبحرية[2] وتطويرها للعمليات المصرفية حتى ظهرت في بغداد (البيوتات المالية) وتطورت فيها وسائل تنشيط التجارة من خلال نظام الودائع. تحويل التجارة (السفاتج والصكوك) [3] والاتفاقات التجارية والسفارات[4] وتأمين التجار في الإقامة وعلى أرواحهم وأموالهم[5] إلى جانب الرقابة على الأسواق من خلال تنظيم المعاملات ومراقبة المكاييل والموازين ومنع الغش ومراقبة (وظيفة المحتسب) [6] وتنظيم أصحاب المهن والحرف في نقابات وبهذا جمعت الخلافة العباسية بين مظاهر الإسلام وحضارته.

طرق وأساليب التبادل التجاري: تعددت الطرق وأساليب التبادل التجاري تبعا لتطور النشاط الاقتصادي. وأهم هذه الأساليب حسب تطورها. استخدام سلع وسيطة (المقايضة) استخدام المعادن النفيسة، النقود الورقية، النقود الائتمانية. حول طريقة المبادلة فقد ظهرت في المجتمعات البدائية بشكل مقايضة (المبادلة) ضمن سلع ومعادن رخيصة[7] غير مقيمة.

طريقة التعامل المزدوج: وتتم بأخذ التجار عملة محلية لقاء بضائعهم ثم يشترون بهذه النقود بضائع من تلك البلاد[8].

طريقة النقود: ظهرت في بلاد الإسلام متأخرة عن الحضارات السابقة لدولة الإسلام. حيث لم يكن للعرب نقد خاص بل كانوا يستخدمون العملات الأجنبية (الدنانير الذهبية الرومانية. والدراهم الفضية الساسانية) [9]. واستمر تداول هذه العملات الأجنبية في عهد الخلافة الراشدة، مع إجراء بعض التعديلات عليها لغرض توافقها مع عقيدة

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٢٣٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢/ ٤٤٨.

(٣) الصابئ: الوزارة ص٩٠، ١٩٢.

(٤) السامر: الأصول التاريخية للحضارة ١٢١. بدر الدين: العلاقات بين العرب والصين ص٣٠-٣٩.

(٥) قدامة: الخراج ص٢٤٢.

(٦) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٢٤٠-٣٤١، ابن الأخوة. معالم القرية ص٢٧، ٤٦.

(٧) اليوزبكي: تاريخ مصر البحرية في العصر المماليكي ص٩٩، ١٠٧ ط جامعة الموصل/ ١٩٧٥.

(٨) الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي: ص١٥٤، المقريزي: إغاثة الأمة ص٦٨.

(٩) ابن رسنة: الأعراف النفيسة ص١٤٢، ١٤٥.

التوحيد من جهة، وبيان العملة المتداولة داخل بلاد الإسلام عن غيرها من البلاد الأخرى. واستمر هذا الحال حتى عهد الخليفة الأموي (عبد الملك بن مروان) حيث بدأ بتعريب الدراهم الفضية عام ٧٣هـ عبر مراحل انتهت بالتعريب الكامل عام ٧٧هـ وعرب الدنانير الذهبية بداية من عام ٧٤هـ عبر مراحل انتهت بالتعريب الكامل عام ٧هـ إلى جانب تعريبه وحدات النقد الأخرى كالفلوس النحاسية لغرض التجارة الداخلية والخارجية، ومن المعلوم أن الخليفة عبد الملك اعتمد لأول مرة الدينار الذهبي كاحتياطي للعملة الإسلامية[١].

السفتجة: من وسائل التبادل التجاري تستخدم لتسوية الديون والتعامل بالنقد الذهبي والفضي[٢] والصك: ويعني سند الدين أو الشك هذا إلى جانب نظام الائتمان التجاري والصيرفة وظهور الأسواق.

الأسواق التجارية: اشتهر منها في العراق أسواق بغداد، أسواق البصرة، أسواق الموصل، أسواق الكوفة، أسواق سامراء.

طرق التجارة: تعددت الطرق بين البرية والنهرية والبحرية الداخلية والخارجية. أهما:

(أ) طرق التجارة البرية- الطريق الشرقي من بغداد إلى إيران في أواسط آسيا والطريق الشمالي من بغداد – إلى آسيا الصغرى والبحر المتوسط والطريق الجنوبي – بغداد وسط البصرة والطريق الغربي – بغداد – الشام – مصر – المغرب والطريق الجنوبي الغربي- بغداد- الكوفة- الجزيرة العربية ثم طريق التجارة النهرية – نهر دجلة.

(ب) طرق التجارة الخارجية (البرية والبحرية) وأهمها البحرية التي تركزت في البحر الأحمر والمحيط الهندي وبحر الصين.

أما طرق التجارة الخارجية: البرية: أهمها من يأتي شرقا من أواسط آسيا وإيران إلى العراق. وطريق شمالي يأتي من أرمينيا وشرق أوروبا وبلاد الروم. والجنوبي مع الجزيرة

---

(١)انظر: المقريزي: شذور العقود ص٦-٧، إغاثة الأمة ص٥٢، ٥٥، ٨٩، البلاذري: فتوح البلدان ص٦٥٢. اليوزبكي: التعريب في العصرين الأموي والعباسي آداب الرافدين. الدوري: تاريخ العراق ٢٠٥، ٢١٧، مسكوية تجارب الأمم ٢٠٥/ ٣١.

(٢) الكبيسي: أسواق بغداد ص٢٦٣، السرخسي: المبسوط ج٤/ ٣٧.

العربية والغربي المتجه إلى الشام ومصر وشمال إفريقيا.

الصادرات والواردات

الصادرات: اشتملت أهمها: المنسوجات والأرز والخزف والأدوات الزجاجية والدهون والأدوية، التمور والأقمشة والبسط والقطن والموازين والرصاص والزرنيخ. أما الواردات: أهمها: الأحجار الكريمة، البهارات، الحديد، الجلود، الأقطان. والملبوسات والمطرزات والخشب والمسك والرصاص والديباج والبسط والأقمشة.

الفصل التاسع

النظام المعماري والفني

- العمارة: التطور والمظاهر
- العمارة المدنية
- النظام الفني: الزخرفة
- السكة والطراز
- الموسيقى والغناء

العمارة الإسلامية والزخرفة:

فن العمارة قبل الإسلام: عرفت بلاد العرب القديمة عمارة متقدمة سواء في بلاد العرب الشمالية والجنوبية. أما في وسط الجزيرة فكانت أقرب إلى البساطة (خاصة في مكة). وأبنيتها قليلة ومادة البناء من اللبن وقليل منها بالحجارة الماثلة في الحصون – ودورها وبيوتها من طابق واحد. أما بلاد العرب في اليمن وشمال بلاد العرب فقد شهدت نماذج معمارية غاية في الضخامة والتناسق وغلو في الفن المعماري وتطوره. منها حصن غمدان في صفاء ومعبد مأرب، إلى جانب النقوش العظيمة التي يرجع أقدمها إلى القرن العاشر قبل الميلاد والتي أظهرت فنا متقدما في النقش والنحت والتصوير والرسوم والخط المبدع(١). أما حضارة بلاد العرب الشمالية فتعود إلى ألف سنة كما هي في الشام والمناذرة في العراق والبتراء في أرض الأردن وتعود إلى ثلاثة آلاف قبل الميلاد.

العمارة في صدر الإسلام: غلب على العمارة في عهد الرسول ﷺ البساطة والخشونة ولم تخرج عن الجو الذي حدده الشرع. لقول ابن خلدون في ذلك. فكان الدين أول الأمر مانعا من المغالاة أو البنيان أو الإسراف في غير قصد. وأشهر البيوت كانت بيوت عثمان ﵁ وبيت الزبير وبيت طلحة بن عبيد الله.

العمارة في عهد الخلافة الراشدة: اتسعت في عهد الخلافة الراشد الفتوحات وأقبلت الدنيا على المسلمين. فبنيت البيوت (واختطت) المساجد، واستخدمت عناصر متعددة في البناء من الطين والكلس والحجارة والرخام. وتقدم فن العمارة على وجه العموم متأثرا بفنون وحضارات الأمم التي دخلت في الإسلام. لكن هذا الفن ظل ملتزما بحدود الشرع من عدم المبالغة أو الإسراف، وعدم التطاول في البنيان، وعدم خروج العمارة عن المقصد مع الميل إلى البساطة والخشونة.

تأثر فن العمارة الإسلامية بكل أساليب فنون العمارة القديمة والمعاصرة، لكن

---

(١) انظر: الحضارة العربية ص٩-١٠، وصف الهمذاني العمارة في بلاد اليمن بقوله: (ترى صورا من جميع الأشكال منقوشة عليها من حيوانات وحشية ومفترسة ونسور تخفق بأجنحتها، وعقبان تفترس أرانبيرية،... وقطعان من الغزل تسرع إلى شباك حتفها، وكلاب مرخية أذانها بعضها مقيد والآخر طليق، ورجل يرفع سوطه بجر الخيول).

المسلمين طبعوا هذا الفن بالطابع الإسلامي. حيث اتخذوا لأنفسهم طرزا معمارية خاصة ومتميزة ومتلائمة مع قيم الإسلام وطبيعة البيئة وأحوالهم. وظلوا يولونه التهذيب مرة والإبداع أخرى حتى بلغ أسمى درجات الرقي والروعة، حتى فاق في فترة نسبية كل الطرز الفارسية والبيزنطية من حيث السرعة في الزمن ومن حيث الروعة والإتقان والتنسيق والافتتان والإبداع[1].

وقد هدم عثمان ﷺ مسجد النبي ﷺ وأعاد بناءه بالحجارة والرخام كما بنى داره الفخمة وشيدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر[2].

عهد الخلافة الأموية: زاد تأثر الفن المعماري الإسلامي بفنون الأمم الأخرى، بسبب التوسع والمد الإسلامي الذي طال ثلاث قارات (آسيا. إفريقيا. أوروبا) وكان أكبر مؤثر في هذه الفترة هو الفن الروماني والبيزنطي بسبب وقوع هذه البلاد تحت النفوذ الروماني والبيزنطي.

عهد الخلافة العباسية: اتسع التأثير المعماري في عهد الخلافة العباسية وجاء المؤثر الأول من الجانب الفارسي. بسبب تقديم الخلفاء لهذا العنصر في أجهزة الدولة الحكومية والإدارية والمعمارية على غيره من العناصر الأخرى، فظهرت آثارهم واضحة في هذا الميدان. هذا إلى جانب الأثر البيزنطي الذي جاء أقل تأثيراً[3]. لذلك جاء الأثر الفارسي المعماري واضحا في نظام القصور واختطاط المدن وفي عمارة المساجد وما حوته من رسوم وخطوط وزخرفة. خرج بعضها عن الحد الشرعي المقصودة بين الخشونة والبساطة إلى الغلو والمبالغة والإسراف بسبب زيادة الأثر الخارجي[4]. ومع ذلك فقد اتخذ الفن المعماري الإسلامي طرازا خاصا مميزا عن باقي فنون العمارة السابقة والمعاصرة له. وظل هذا الفن مقيدا بحدود الشرع وممارسة الدين له ضمن حدود خاصة، اتسم في البعد عن النحت والتصوير والتجسيم. وفي المقابل استعاضوا عن ذلك باستخدام الخط والرسوم (النباتية والهندسية والخطية والزخرفة والنقوش).

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج٢/ ٢٠٣.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ج١/ ٤٣٤.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ج٢/ ٣٦٩.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الهجري ج٢/ ٢٠٣.

وهذا أصبح الفن الإسلامي أوسع الفنون انتشارا وأطوله عمرا باستثناء الفن الصيني. حيث بلغ الفن الإسلامي أوج ازدهاره في القرن السابع والثامن الهجري (١٣ + ١٤ ميلادي). ثم تسرب إليه الهرم والضعف مع بداية في القرن الثاني عشر الهجري (١٨م) وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر أثر الفن الإسلامي المعماري واضحا بعد انتقال مظاهره الفنية إلى أوروبا، ابتداء بعهد شرلمان. واستمر كذلك حتى بداية القرن الثاني عشر البحري (١٨م) حيث بدأ تراجع هذا الفن، بسبب غزو الفن الأوربي للفن الإسلامي وسيادته على جميع الفنون الأخرى.

مظاهر الفن المعماري الإسلامي: تميز الفن المعماري الإسلامي من حيث الطراز بمظاهر خاصة عن الفنون القديمة والحديثة، أهمها:

أولا: التزام الفن الإسلامي المعماري بالحدود الشرعية (البعد عن الغلو والإسراف وعدم الخروج عن المقصد، والبعد عن التجسيد والنحت. وعدم الخروج على المقصد) مع الميل إلى البساطة والجمال.

ثانيا: التزم الفن المعماري بالتوسع الأفقي وليس بالتوسع العمودي.

ثالثا: الفن الإسلامي فن واحد في الإطار العام. مختلف في الجزئيات أما عناصر وحدته فهي: الوحدة الدينية والروحية المتمثلة بالضوابط والحدود الشرعية المقيدة لهذا الفن، إلى جانب الخاصية الملازمة للفن الإسلامي بالميل التي تزين العمل الفني بموضوعات وأفكار ورموز مقبولة، قبولا عاما. ظهر فيه إعلاء للقيمة الذاتية ثم جودة التصميم والتناسق الدقيق ومع وحدة الزخرفة والتشكيل التي تمثلت في اللغة العربية والخط العربي باعتباره عنصرا أساسيا من عناصر تكوين هذا الفن، إلى جانب استخدامه كعنصر زخرفي حلَّ بديلا عن الصور والمنحوتات والتجعيدات. ومن ثم استخدام الأشكال الهندسية. والتوريقات النباتية. كعنصر زخرفي وعنصر جمالي لسد عملية وجود الفراغ في الزخرفة.

أما عناصر الاختلاف في الجزئيات فهي ترجع إلى تنوع البيئة واختلاف التضاريس وتنوع مواد البناء ومدى توفرها. ثم سهولة انتقال الأساليب الفنية من خلال (الحرفيين والمهنيين) عن طريق التجار وقد رافق ذلك إختلاف التطور السياسي والاجتماعي لدولة الإسلام خاصة بعد العصر العباسي الثاني بسبب المؤثرات الخارجية، وسيطرة العناصر غير العربية (فارسية تركية ومغولية) على الحكم والإدارة.

رابعا: الفن الإسلام فن منتخب في جوهره وفي مواضيعه وأسلوبه وإخراجه وهو متسق مع الشخصية الإسلامية.

خامسا: أظهر الفن الإسلامي تبادلا منسجما مع البيئة وعناصر العمارة والزخرفة. وتبادل استخدام مواد البناء بين الآجر واللبن والحجارة الملونة بشكل متوازن ودقيق.

سادسا: استحدث المسلمون أشكالا وتصاميم طبعت بالطابع الإسلامي تواءمت مع بيئتهم وأحوال معيشتهم، مثل الأعمدة، المنحنيات، المشربيات، القباب والشرفات والمآذن الملتوية[١].

سابعا: أظهرت المصادر العربية والأجنبية مسميات مختلفة للفن الإسلامي، ارتبطت غالبها بالتطورات السياسية والاجتماعية التي مرت بها الدولة الإسلامية. منها الفن المشرقي، الفن المغربي، الفن العربي، الفن المحمدي، الفن المغولي، الفن التركي، الفن المملوكي والفاطمي. والأولى في التسمية ترجيحا بالفن الإسلامي لأن الإسلام هو حلقة الاتصال بين الشعوب والأمم المختلفة حيث وحدها في بوتقة واحدة رغم انتشار الإسلام في كل قارات العالم.

ثامنا: التزم الفن المعماري الإسلامي في اختطاط المدن والمساجد والبيوت نموذجا متميزا خاصا وموحدا مبنيا على الحدود الشرعية وخاصة في المقصد والغرض[٢].

تاسعا: حددت فنون العمارة الإسلامية من حيث الموضوعات في ثلاث: أولا: العمارة الدينية: المسجد، الضريح، المشهد، الخانكا، بيت الصوفية، التكايا ثانيا: العمارة المدنية: وتشمل اختطاط المدن، المدارس، المكتبات، البيمارستان، الخان، القصور، البيوت، الأسواق، الحمامات ثالثا: العمارة العسكرية: الرباط، القلاع، أسوار المدن، الخنادق، الأبراج، الحصون.

* **العمارة المدنية** (اختطاط المدن): اقترن بظهور المدن الإسلامية جميع العوامل المطلوبة في إنشاء المدن. باستثناء عامل خاص بالعمارة الإسلامية (وهو العامل الديني) الجهادي في اختطاط المدن. إلى جانب العوامل الأخرى العامة، الجغرافية والعسكرية والاقتصادية والصحية وعوامل أخرى ثانوية. كذلك تخير المسلمون في اختطاط المدن الموقع والتخطيط المميز القريب من حياة العرب وأحوال معيشتهم. وقد استحدث المسلمون

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ العرب، والتمدن الإسلامي ص١٦٩.

(٢)

طرازا فريدا مميزا في عمارة المدن خاصة في طراز التخطيط حيث تشابهت معه كل خطط المدن الإسلامية من حيث الإطار العام. فالمسجد يقع في وسط المدينة الإسلامية، تحيط به ساحة فسيحة ومن حوله دار الإمارة، ودواوين الدولة. وقصر الخليفة ومكان إقامته. ثم يليها سكك القبائل القائمة في الغالب على أساس التوزيع القبلي. بحيث يكون لكل خطة قبيلة مسجد ومنازل وسوق ومقبرة خاصة، هذا إلى جانب أبواب وسبل وسكك والسوق العام والحمامات العامة المتفرعة بين الرجال وبين النساء، ثم الجبانة الخاصة بكل قبيلة حسب نوعية التحضر، ويحيط في المدينة الإسلامية سور أو عدة أسوار غرضها الدفاع والحماية غرضه الدفاع والحماية وغالبا ما يحاط بالمدينة خندق فارغ أو خندق مليء بالمياه أو مجموعة من الخنادق كما في بغداد.

كذلك استحدث المسلمون في عمارة المدن طرازا فريدا اختصت به العمارة الإسلامية. مثل العقود، الأقواس، الأعمدة، المشرقيات والمشربيات وبعض هذه المظاهر مستوحاة من بيئة المسلمين وحياتهم. وقد غلب الشكل المستطيل على المدينة الإسلامية هذا مع وجود أشكال أخرى محدودة بين المربع، أو الدائري في بغداد أو البيضوي في صنعاء. كذلك غلب على بناء (الدور) البيوت بناؤها داخل ساحة، ليس لها نوافذ مطلة على الشارع وطبيعة البناء كانت بيوت متلاصقة بعضها ببعض. وفيما يلي **أشهر المدن الإسلامية: في عهد الخلافة الراشدة**: أقدمها في الاختطاط مدينة البصرة، التي كان عام نزولها ١٤هـ عام اختطاطها ١٦هـ. ومدينة الكوفة، عام نزولها ١٦هـ، عام اختطاطها ١٧هـ ومدينة الفسطاط التي كان عام نزولها ٢١هـ، عام اختطاطها ٢٢هـ

المدن في عهد الخلافة الأموية:

تم في عهد هذه الخلافة استحداث مدن وطبع مدن أخرى بالطابع الإسلامي منها دمشق (طبعت بالطابع الإسلامي) ومن المدن المستحدثة في المغرب القيروان: اختطها عقبة بن نافع في إفريقية عام ٥١-٥٥هـ ومن مدن العراق واسط: اختطها الحجاج بن يوسف في العراق عام ٧٨-٨٠هـ وفي فلسطين مدينة الرملة: اختطها سليمان بن عبد الملك في فلسطين ٩٦-٩٩هـ وفي الأندلس مدينة الزهراء اختطها الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٢٥-٣٦٥هـ).

المدن في عهد الخلافة العباسية: جددوا المدن القديمة وطبعوها بالطابع الإسلامي ثم اختطوا مدنا جديدة منها اختطاط العاصمة (بغداد) عام ١٥٤هـ. ومدينة

الرصافة والرافقة. وفي مصر تم اختطاط مدينة القطائع والعسكر وفي إفريقية اختطوا مدينة العباسية وفي اختطوا مدينة المنصورة.

اختطاط المدن وتمصيرها (البصرة – الكوفة – الفسطاط – القيروان)

البصرة[(١)] ١٤-١٦هـ: اختطت في عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب. غرض اختطاطها (ديني، جهادي وحضاري)، إلى جانب استخدامها كمعسكر للجند الإسلامي وتم اختيار موقعها لتكون بعيدة عن الحياة المدنية لكي تظل جذوة الدعوة الإسلامية قوية في نفوسهم. ولتكون قاعدة انطلاق ومعسكر لراحتهم. كذلك جاء اختيارها لرغبة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في عدم اتخاذ عواصم الفرس القديمة، لأنها لا تتوافق وحياة العربي، إلى جانب عدم وجود حواجز بين هذه المدينة وعاصمة الخلافة وهي بذلك بعد بديلة عن الحيرة (بديلة عن الحيرة عاصمة الفرس القديمة). وموقع البصرة حصين يمثل نقطة التقاء دجلة والفرات الذي يمنع وصول المدد والاتصال بين جند الفرس. وأول من نزلها (سويد بن قطبة) [(٢)] وعتبة بن غزوان هو الذي اختطها[(٣)]. ازدهرت في عهد الخلافة الأموية[(٤)]. وزادت شهرتها في عهد الخلافة العباسية[(٥)].

الكوفة[(٦)] ١٧-١٨هـ: تقع غربي نهر الفرات وقريبة من مدينة الحيرة. وأصل التسمية راجع لاستدارتها، أو المدينة التي يخالطها الحصباء والطين وهي الرملة المستديرة، أو الاجتماع فيها، أو نسبة إلى جبل فيها يدعي (كوفان) وسبب اختطاطها يعود إلى عدم رغبة المسلمين اتخاذ عواصم الفرس القديمة إلى جانب عدم صلاحية مدن الفرس (المدائن أو الحيرة) الحياة العربي وخاصة من الناحية الصحية[(٧)]. وقد تم تمصيرها عام ١٨هـ[(٨)].

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ج٢/ ١٩٢، ١٩٤، ١٩٩، ١٩٦.

(٢) الطبري: ج٣/ ٩٠ ابن قتيبة: المعارف: ٢٤٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان/ ٣٥٤، ياقوت: معجم البلدان ج٢/ ١٩٦.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ج٢/ ١٩٤/ ١٩٩.

(٥) ياقوت: معجم البلدان ج٢/ ١٩٩. ابن قتيبة، المعارف ٢٤١.

(٦) انظر: ياقوت معجم البلدان، ج٦/ ٣٧٩. لسان العرب.

(٧) الطبري: ج٣/ ١٤٥-١٤٧، ياقوت: معجم البلدان ج٦/ ٣٧٩، ج٢، ٢٩٧، الخراج لأبي يوسف ص١٧ طبع الأميرين.

(٨) انظر الطبري: ج٣/ ١٤٨. ياقوت معجم البلدان ج٧/ ٢٩٧-٢٩٩، ابن قتيبة المعارف ٢٤٦. البلاذري

الفسطاط[1] ٢١-٢٢هـ: ترتبط هذه المدينة بروابط مشتركة مع المدن الإسلامية التي تم استحداثها من حيث أنها جاءت نتيجة الفتح الإسلامي وانتشار الدعوة. وقد لعب العامل الديني (الدعوة والجهاد) العامل الأول في اختطاطها. إلى جانب ميزاتها العسكرية كموقع لا يفصلها عن عاصمة الخلافة بحر أو نهر، ومرجع تسميتها بالفسطاط ربما يعود لما جاء في حديث رسول الله ﷺ عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط). ولعل سبب تسميتها اختطاطها (حمامة باضت في خيمة عمرو بن العاص. فقال: لقد تحرمت بجوارنا) ابقوا الفسطاط حتى تفقس وتطير أفراخها[2]. فتم اختطاطها في هذا المكان.

يعد موضع الفسطاط من أنسب الأماكن للمسلمين فهو مكان يسهل منه الاتصال بحاضرة الخلافة. فضلا عن كونه وسطا بين شمال البلاد وجنوبها وقربها من النيل[3]. وقد أشاد الشعراء بهذه المدينة الإسلامية ومنها قول الشاعر (الشريف) العقيلي.

تبدت عروسا والمقطم تاجها   ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

وقد ازدهرت هذه المدينة في عهد الخلافة الأموية والعباسية. وفي عهد الأيوبيين كذلك[4].

القيروان ٥٠-٥٥هـ: المعلومات عن اختطاطها قليلة ونادرة لا تتعدى أن عقبة بن نافع اختط المسجد الجامع، ثم أقطع الناس المواضع لاتخاذها مساكن لهم، فعمر هؤلاء المدينة وامتدت فترة البناء من عام ٥٠-٥٥هـ. وتعتبر المدينة نتاج حركة الفتح والجهاد وقد اختطت وفق قواعد بناء المدن الإسلامية وجاء اختطاطها وفق التنظيم القبلي للجيش المرافق للقائد عقبة بن نافع وحول التسمية فقد اختلف اللغويون حول معنى الاشتقاق. فالقيروان تعني (جمع من الخيل) أو (معظم الجيش أو الكتيبة) أو القافلة. هذا ويمكن القول أن أهم

فتوح البلدان/ ٣٥٨، المسعودي: التنبيه والإشراف ص١٠٩ وما بعدها.

(١) الفسطاط: بيت من الشعر، ومجتمع أهل الكورة (أو الخيمة) وردت منها لفظ فستاط، فستات، مسطاط، مستاط، فساط، معجم البلدان ج٦/ ٢٧٩، المسعودي: التنبيه والإشراف ٣١١.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف ص٣١١، ياقوت معجم البلدان ج٦/ ٢٧٩. المقريزي: الخطط ج١/ ٢٩٦.

(٣) المسعودي: التنبيه والأشراف ص٣١١، ياقوت معجم البلدان ج٦/ ٢٧٩. المقريزي: الخطط ج١/ ٢٩٦.

(٤) انظر: المقريزي: الخطط ج٢/ ٢٤٦، ٢٥٣-٢٥٦، ياقوت: معجم البلدان ج٦/ ٣٨١-٣٨٤. جرجي زيدان. تاريخ التمدن الإسلامي ج١، ٢١٣، حسن عبد الوهاب. تاريخ المساجد الأثرية ٢٣-٣٠.

خصائص المدن الإسلامية. إنما جاءت نتيجة لحركة الفتح والدعوة والجهاد، وإن المدن الإسلامية السبعة التي تم اختطاطها في صدر الإسلام عهد الخلافة العباسية تعد أول المدن الإسلامية في العمارة، وقد لعب العامل الجهادي الديني العامل الأول والأهم في اختطاطها حتى في وضع السكك القائم على النظام القبلي السائد في تلك الفترة.

كذلك ظلت هذه المدن تعد كعواصم رئيسية لفترة زمنية محدودة. ولحق بها طوال هذه الفترة التغير إما بالتوسعة أو التجديد أو إعادة البناء، أو تغير مواد البناء إلى الأفضل في عهد بعض الخلفاء أو الولاة. كذلك أصبحت هذه المدن إلى جانب كونها عواصم للمصر ومركزا من أهم المراكز الإسلامية في أبواب الثقافة والأدب والجهاد والإشعاع الحضاري والتجاري، وبهذا جمعت بين كونها عاصمة إلى جانب كونها مركزا حضارياً.

العمارة الدينية: المسجد في الإسلام[1]: هو أول مظهر في تخطيط المدن، وموقعه وسطها على اعتبار قاعدة الدولة الإسلامية الأولى دينية في المقام الأول. ولهذا غلب عليه الشكل المستطيل لغاية فضل طول الصف الأول باتجاه القبلة، هذا مع وجود مساجد على شكل المربع. بدأ بناء المساجد بسيطا ومن مواد الطبيعة المتوفرة. وتطور في عهد الخلافة الأموية وكثرت طرزه وتعددت أشكاله وتغيرت مواد بنائه. واشتمل تخطيطه على الرواق أو الإيوان ثم الصحن – الفساقي والمقصورة والموضأة. وأدخل الأمويون إليه فجوة المحراب. ثم المنبر الموجود منذ عهد الرسول ﷺ. كذلك استحدث معاوية رضي الله عنه المقصورة التي خصصت لصلاة الخلفاء وغرضها حماية الخليفة. وأدخلت في إنارة المساجد المصابيح والقناديل والثريات.

واستمر تطور شكل المسجد الخارجي فظهرت المئذنة أو المنارة (الصومعة). وعرفت المدينة الإسلامية مسجدا واحدا كبيرا أطلق عليه (المسجد الأعظم) (المسجد الجامع) لكن اتساع المدن الإسلامية أوجب إنشاء مسجد الجمعة (المسجد الجامع). وأطلق على باقي الأبنية الأخرى اسم (المسجد). كذلك عرف في عهد العباسيين مساجد الهواء الطلق (المصلى)، بسبب اشتداد الحرارة أو لغرض صلاة الأعياد أو الاستسقاء. وحول الإشراف غلب على الدولة الإسلامية إشرافها المباشر على صيانة المساجد وترميمها والإنفاق على

---

(١) ابن خلدون: المقدمة: ص٢٧٨، البلاذري فتوح البلدان ص٦. سفرنامة: ص٣٠، ٥٩، ٦٥، الكامل ج٢/ ٣٦٩. حسن المحاضرة: ج٢/ ص١٣٥، الطبري ج١/ ١٥٩١.

موظفيها من إمام وخطيب ومؤذن وخدم. وأوقفت لهذا العمل أموال وعقارات كثيرة. وفي الفترة المتأخرة أوقفت لهذا الواجب والإضراف أموال وعقارات تلبي حاجة الإنفاق على المساجد سجلات خاصة بها.

المساجد الأولى في الإسلام:

مساجد الجزيرة العربية: أول المساجد في الإسلام. مسجد قباء (أول مسجد في تاريخ الإسلام في عهد الرسول ﷺ)

في أول خطوة لبناء الدولة الإسلامية ثم تلى ذلك بناء المسجد النبوي في المدينة ثم بناء المسجد الحرام في مكة وهو خيرها في الإسلام.

مساجد العراق: أولى هذه المساجد اختطت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب مسجد البصرة الذي تم اختطاطه عام ١٤هـ ثم مسجد الكوفة في عام ١٥هـ ومسجد الفسطاط في مصر عام ٢١هـ. ثم تلى ذلك بناء جامع عمرو بن العاص في مصر والمسجد الجامع في سامراء. ومسجد الرقة، مسجد أبي دلف في العراق وجامع ابن طولون، والمسجد الطولوني.

مساجد الشام: أشهرها وأكثرها روعة التي تم إنشاؤها في عهد الخلافة الأموية. أولها قبة الصخرة المشرفة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ثم مسجد عمر بن الخطاب (في فلسطين) وفي عهد الخليفة الوليد تم إنشاء المسجد الأموي في دمشق وشهدت كذلك بلاد المغرب إقامة مساجد، ذات أهمية أولى منها: المسجد الجامع في القيروان (وجامع الزيتونة في تونس وجامع قرطبة في الأندلس). وقد غلب في العهد الأموي على مساجد الشام الشكل المستطيل والأفقي، وعلى مصر شكل المربع وفي بلاد المغرب شكل المستطيل الأفقي.

تخطيط المساجد الإسلامية: حدد الشارع مقاصد بناء المساجد (أو الجامع). أولها أن لا يخرج عن الهدف أو المقصد، ثانيها البعد عن الإسراف والمبالغة في الزخرفة البناء. ثالثها عدم التطاول في البنيان، لذلك لم تعرف المساجد الإسلامية القديمة الطوابق. هذا مع الاعتراف الواضح بوجود تغير وتطور في تخطيط المساجد وأشكالها خاصة المئذنة، المحراب المجوف، المنبر، المقصورة، وظهور الصحن المكشوف المحاط بأروقة. كذلك شهدت العصور المتأخرة في الخلافة العباسية إلحاق المدارس بالمساجد الأولى في الإسلام.. وظلت رسالة المسجد دينية بالدرجة الأولى، إلى جانب الوظائف الرئيسية في الدولة. لأن القاعدة الأولى في دولة الإسلام هي القاعدة الدينية.

الزخرفة الإسلامية: المتتبع لتطور الزخرفة يجد تشابها كبيرا من حيث الوحدة في هذا الفن الذي عرفته كل الفنون الإنسانية. وهي من حيث الزخرفة (النباتية، الحيوانية، الطبيعية والهندسية). وقد قام الفن الإسلامي والزخرفي متأثرا بالفن اليوناني والفارسي والبيزنطي من خلال البلاد التي دخلت في الإسلام بعد الفتح. تم طبعها الإسلام بطابع وسمة الشريعة، فجعلت منه فنا عالميا متقدما ومتفردا في خواصه عن باقي الفنون العالمية. وأبرز عناصر الزخرفة المتعددة في الفن الإسلامي الخط باعتباره أولا عنصر من عناصر الفن. ثم اعتباره ثانيا كعنصر من العناصر الجمالية، إلى جانب الرسوم النباتية أو ثمارها الطبيعية والأشكال الهندسية المنسجمة. هذا مع المحدودية في ظهور صور الحيوانات والصور الآدمية. إلى جانب زخرفة المباني (الأربسك) والفسيفساء ضمن حدود الشرع والابتعاد عن التصوير الآدمي والنحت.

إن الخصائص الفنية التي تميزت فيها الزخرفة الإسلامية. جاءت متفردة ومنضطة بحدود الشرع. على الرغم من التأثيرات البيزنطية والساسانية عليها. فالمعروف أن الفن البيزنطي تميزت زخرفته الجمالية بين وحداته النباتية الأقرب إلى الطبيعة وإلى الحياة، حيث ظهرت خاصة في صور بعض الأشجار أو ثمارها. كأشجار الصنوبر والبلوط أو كوز الصنوبر، وعناقيد العنب، أو ثمرة الرمان وورق العنب. وحول استخدامها للعناصر الآدمية والحيوانية الأقرب إلى الطبيعة فقد تميزت بالجمود والضعف والدلالة الرمزية.

كذلك تميز أثر الفن الساساني: بوحداته النباتية القريبة إلى الطبيعة والحياة ممثلة بثمار النباتات، وفي تعبير عن ثمرة الحياة مثل (ثمرة الفراولة) والورق النباتي الثلاثي. أما استخدامها لوحدات العناصر الآدمية فأسلوبها تجريدي تعبيري بحت. أي أن الفنان يخضع في الرسوم الآدمية لتقاليد دينية لا يستطيع الانفكاك عنها. منها مثلا تحريم الديانة الزردشتية التصوير وجعلوا عقوبة ذلك الإعدام. لهذا لجأ الفنانون إلى الرمز والتجريد، أما الرسوم الحيوانية فكانت أقرب إلى الطبيعة يراعى فيها النسب التشريحية وحركة الحيوان.

تطور الزخرفة الإسلامية (النباتية والخطية والهندسية) برز في عهد الخلافة الأموية تأثر الفن الإسلامي بحكم الموقع وعاصمة الخلافة بالفن البيزنطي. في حين ظهر في عهد الخلافة العباسية تأثر الفن الإسلامي أكثر بالفن الفارسي، خاصة بعد أن أصبحت بلاد فارس جزء من الدولة الإسلامية هذا من جهة. إلى جانب أثر العنصر الفارسي ودوره الرئيسي سياسة وحضارة في عهد الخلافة العباسية خاصة العصر الأول والعصر الثالث. لهذا

يمكن القول أن عام ٢٢١هـ الذي شهد بناء مدينة سامراء يعد مرحلة اكتمال ونضوج الفن والزخرفة الإسلامية، وأيضا اكتمال خصائصه. حيث استخدم المسلمون عناصر هندسية وبنائية محورة عن الطبيعة. وفي القرن السادس الهجري، تأثر الفن الإسلامي والزخرفة بالعناصر التشكيلية (السلجوقية) ومن بني زنكي في منطقة تكريت. وفي القرن الثامن الهجري غزت الفن الإسلامي أساليب وطرز من الشرق الأقصى. جاءت مصاحبة للغزو المغولي، حيث أصبحت العناصر النباتية أقرب إلى الطبيعة. وفي القرن العاشر الهجري تأثرت الزخرفة بالعهد الصفوي. كذلك تسللت إلى الفن الإسلامي مؤثرات أوروبية عن طريق الكشوف الجغرافية والمبشرين. وفي عهد الخلافة العثمانية تأثر الفن الإسلامي تأثرا مباشرا بأوربا خاصة بعد دخول الإسلام إلى شبه جزيرة البلقان.

الزخرفة الإسلامية (الكتابة والخط العربي): أضحت اللغة العربية والخط أداة الحضارة الإسلامية والعالمية في القرن الثالث الهجري، ووصل فيها الخط العربي إلى جمال إزاره الحرفي الذي لم يصل إليه خط آخر في تاريخ الإنسانية. وذلك لأن هذا الخط يتمتع بمميزات تفرد بها عن خطوط العالم ولأن حروفه أصلح من غيره لهذا الغرض. لما فيه من الاستقامة والانبساط والخطوط العمودية والأفقية في الحروف، الأمر الذي سهل صلته بالرسوم الزخرفية وصلا يتجلى فيه الجمال والاتزان خاصة بعد انصراف الفنانين الإسلاميين عن تصوير الكائنات الحية والزخارف الآدمية، حيث ظهرت في المقابل عبقرية إسلامية تمثلت في الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية. حيث فاقت كل فنون الحضارات القديمة والمعاصرة لها في هذا الميدان. الأمر الذي جعلها كذلك أول وأكبر إبداعات العالم في الزخرفة. وأصبح معها المسلمون هم المبتكرون الأوائل للزخارف الكتابية. التي لم يكن هدفها التسجيل أو التأريخ، بل قُصد بها أن تكون عنصرا زخرفيا بذاتها. ساهمت مساهمة فعالة ووافرة في مختلف الفنون الإسلامية. وقد زاد استخدام الزخارف الكتابية منذ القرن الرابع الهجري، وبلغ الذروة في القرنين الخامس والسادس الهجري. وتركزت أكثر العبارات العربية في الزخرفة الخطية، المستمدة من القرآن الكريم وخاصة نصوص البسملة والشهادتين. هذا ويعد غرض الخط الإسلامي بحد ذاته غاية مقصودا لذاته وليس وسيلة. ولهذا علت عناية المسلمين بالخط. وأصبح للخطاطين أرفع مقام الفنانين الإسلاميين مكانة، لاشتغالهم بالمصاحف وكتب الشعر وكتب الخلفاء..). وأكثر ما وصلنا عن الفنون الإسلامية هي أخبار الخط وتطور ميادينه وأنواعه، بينما أصاب وسائل الزخرفة الأخرى

الأهمال. أما أنواع الخط العربي المدونة فهي: النسخي، الثلث، الرقعة، الريحاني، الديواني والمغربي. وبرع الإيرانيون في خط (التعليق والنتعليق). والمعروف أن أكثر الخطوط استخداما هو الخط الكوفي الذي بدأ بسيطا ثم دخل إليه التوريق والتعقيد والزخرفة المتعددة الجوانب(١). منه الكوفي المورق والمشجر أو ذات الفصوص. ثم الكتابات الكوفية على أرضية الزخارف النباتية، كتابات غرضها قوة التعبير والجمال. كذلك الزخارف الكتابية الكوفية. منها المظفر ذو الحروف المترابطة ويجمع بين التوريق والأرضية النباتية، ثم الكوفي المربع.

والمعروف أن استخدام المسلمين للخط العربي بدأ منذ فجر الإسلام خاصة في مدن الإسلام الرئيسية (مكة – المدينة) ثم الأنبار ثم الحيرة ثم الكوفة. لكن الكوفة هي أكثر من عنيت بهذا النوع من الخط، من حيث التجويد والإبداع في رسم حروفه. حتى أصبح هذا النوع فنا زخرفيا جميلا ذا طابع هندسي انتشر في جميع البلاد الإسلامية واستعمل في كتابه المصاحف، وفي النقوش على النقود، وعلى العمائر، شواهد القبور، والكتابات التذكارية. وفي القرن السادس الهجري انصرف الخط الإسلامي نحو استخدام الخطوط المدورة. وظهر أثر الزخرفة النباتية والخطية والزخارف الكتابية الإسلامية (العبارات) واضحا في أوروبا(٢) المختلفة حتى تاريخنا المعاصر.

الخط: يعد ثاني رتبة من حيث الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة، إذ الكتابة من خواص الإنسان التي يميز بها عن الحيوان. وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر، وتتأدى بها الأغراض إلى البلد البعيد، فتقضى الحاجات. وقد دفعت مؤونة المباشرة لها، ويطلع بها على العلوم والمعارف وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم(٣)والخط: رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على النفس(٤).

---

(١) كان الخط الكوفي قبل الإسلام يسمى (الحيري) من حيرة العراق، والكوفة بجوارها. فنسب إليها هذا الخط والغالب أنها نسبة تجويد لا نسبة أصل، وهذا الخط لم يستخدم في الزخرفة غيره حتى القرن التاسع الميلادي. جوستاف لوبون – حضارة العرب ص٥٥٦.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ٥٥٦-٥٥٧، تراث الإسلام ج٢/ ١٨، طبع لجنة الجامعيين لنشر العلم.

(٣) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٩٤٩.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٩٤٩.

المعروف أنِ بلاد العرب وخاصة الحجاز لم يعرف أهلها الكتابة إلا عدد محدود قبل الإسلام. وقد تأثر العرب الذين رحلوا إلى العراق أو الشام قبل الإسلام بأهل هذه البلاد، واقتبسوا منهم الكتابة خاصة بالحروف (النبطي، السرياني، العبراني، حيث تولد من الأول الخط النسخي الدارج ومن الثاني الخط الكوفي)[1].

وحول نقل الخط الكوفي إلى بلاد العرب، الأشهر أن أهل الأنبار هم أول من نقل هذا الخط على يد (بشير بن عبد الملك الكندي) أخو (أكيدر صاحب الجندل)، حيث تعلم هذا الخط وعاد للحجاز وتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية (أخت أبي سفيان). فعلَّم جماعة من أهل مكة، وبذلك عرفت الكتابة به قبل الإسلام. وللدلالة على ذلك منَّة رجل من أهل دومة الجندل على قريش بقوله:

لا تجحدوا نعماء بشر عليكمـــو	فقد كــــــان ممون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم حتى حفظتمو	من المال مـــــا كان شتى مبعثرا
فأجريتم الأقلام عودا وبـــــــدأة	وفاهمتوا كتاب كسرى وقيصرا[2]

والراجح أن العرب تعلموا الخط النبطي من حوران أثناء تجارتهم إلى الشام. وغلبت الكتابة بهذا الخط في باب المراسلات والمكاتبات الاعتيادية. أما الخط الكوفي فقد تعلمه العرب من العراق وغلبت الكتابة في هذا النوع من الخط في كتابة القرآن الكريم والنصوص الدينية الأخرى[3]. وتقدمت صناعة الخط والكتابة في عهد الخلافة الأموية حيث تفرع إلى أربعة أقلام اشتقها بعضها من بعض كاتب اسمه (قطبة) كان أكتب أهل زمانه. وكان يكتب لبني أمية المصاحف، ثم اشتهر بعده الضحاك بن عجلان في أوائل الخلافة العباسية. فزاد على قطبة، ثم زاد إسحاق بن حمادة وغيره فبلغت الأقلام العربية إلى أوائل الخلافة العباسية اثنا عشر قلما[4] وفي عهد الخليفة المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط، واستحدثت أُقلام أخر وبذلك زادت الخطوط إلى عشرين شكلا وكلها تعد من الخط

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ص١٧٠. وتاريخ آداب اللغة العربية: ٢٨٠.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ١٧٠، أو تاريخ اللغة العربية ١٢٠، السيوطي: المزهر ص٢١٥، ٢١٨. د. إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية.

(٣) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ١٧٠، وتاريخ آداب اللغة العربية: ١٢٠.

(٤)مقدمة ابن خلدون ج٢/ ٩٤٩.

العربي.

أما الخط النسخي (أو النبطي) فقد شاع بين الناس لغير المخطوطات الرسمية. حتى نبغ في هذا الخط (علي بن مقلة) الوزير المتوفي عام ٣٢٨هـ. فأخل تحسينا عليه جعله مما هو عليه الآن والمشهور عند المؤرخين أن (ابن مقلة) نقل الخط من صورة القلم الكوفي إلى صورة القلم السخي[١].

الزخرفة الحيوانية: ورث الفن الزخرفي الإسلامي الكثير من خصائصه ومظاهره، عن الفن الفارسي والبيزنطي وبلاد الشرق القديم (إيران- سوريا وبلاد الحيثيين) لكن الفن الفارسي تفرد بتأثيره الأكبر في ظهور معظم رسوم الحيوان في الزخارف الإسلامية. وأقرب وأكثر الرسوم الحيوانية ظهورا هي (الأسد، الفهد، الفيل، الغزال، الأرنب، الطيور) وربما رسموها مع فرع نباتي. وغلب في رسم الحيوانات التي تستعمل للصيد أو التي تصاد. كذلك أدخل الفنانون المسلمون رسوم الحيوانات الخرافية بعيدا عن الرمزية بل رسوم زخرفية مجردة مثل (التنين – العنقاء). ورسوم فرس بوجه آدمي (البراق) وطيور صغيرة ذات وجه آدمي، ورسم الأفاعي والطيور. وبعض رسوم الحيوانات استخدمت لغرض العلم والتوضيح أو لغرض الزخرفة. بدافع كراهية الفراغ والرغبة في تغطية السطوح والمساحات بالزخارف.

الزخرفة الهندسية: تعد الرسوم الهندسية عنصرا أساسيا من عناصر الزخرفة الإسلامية وهي بذلك على عكس غرضها في الفنون الأخرى. التي ربما تكون لغرض الإطار وليس للزخرفة. وأهم الأشكال التي تناولها الفن الإسلامي هي (الدوائر – العصائب – الجدائل المزدوجة – الخطوط المتكسرة والمتشابكة. والأشكال الهندسية: المثلث، المربع، المعين، المخمس والسداسي. وأشكال نجمة متعددة الأضلاع التي اعتمدت على الهندسة العملية إلى جانب الموهبة والعبقرية الإسلامية). وسجل أكثر البلاد الإسلامية اهتماما وذيوعا للزخرفة الهندسية هي بلاد الشام ومصر. ومرجع ذلك الأصول القديمة المتجذرة في بلاد مصر والبيزنطيين. هذا ولم تنتشر الزخارف الهندسية الإسلامية بشكل كبير. ربما مرجع ذلك يعود إلى أن هذه الصنعة تقديرا من أسرار الصناعة التي تناقلها الفنان المسلم بالوراثة

---

(١)ابن خلدون: المقدمة ج٢/ ٩٤٩، جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ١٧٠، وتاريخ آداب اللغة العربية. انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون ج١/ ٦٤٦-٦٤٧.

ليس إلا.

الزخرفة النباتية: هي عنصر من عناصر الزخرفة الإسلامية الهامة، ومصدرها إلهام الطبيعة وتقليدها التقليد الصادق. وقد تم استخدام الجذع، والورق في فسحة هندسية سادها التجديد والرمز، وأكثر الزخارف النباتية شيوعا (الأرابسك): وهي: زخارف مكونة من فروع نباتية، وجذوع منثنية ومتشابكة ومتتابعة، ومنها رسوم محورة عن الطبيعة، ترمز إلى الوريقات والزهور. وقد زاد استخدام الزخرفة النباتية منذ بداية القرن الثالث الهجري، خاصة بعد ظهورالزخارف جصية، والتحف الخشبية، من حيث تم زخرفتها نباتيا من خلال المشكيات على الخزف والقاثاني. ويمثل عهد الخلافة الأموية البداية المتقدمة للزخرفة النباتية المتأثرة من الحضارات القديمة، إلى جانب اتخاذ بعض الزخارف النباتية الطابع الهندسي أحيانا لكنها لم تكن بعيدة عن الأصول النباتية.

السكة (النقود – العملة): لم تكن صناعة صك النقود معروفة عند العرب قبل الإسلام. لذلك أبقوا على العملة السائدة في التداول دون تغير. وهي العملة البيزنطية الذهبية في الدينار والعملة الفارسية في الدرهم الفضي. طيلة فترة صدر الإسلام وحتى عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. لكن المعروف أنه تم في عهد الخلافة الراشدة إجراء تعديلات طفيفة ومحدودة على النقود الأجنبية لغرض تميزها عن النقود المتداولة في دول أخرى. وقد مثلت هذه التعديلات المحاولات الأولى لمراحل التعريب في عهد الخلافة الأموية.

وقد أجمع معظم المؤرخين أن أول عملة عربية إسلامية خالصة جرى سكها، كان في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان والتي تمت ضمن مراحل ابتداء من عام ٧٣هـ في الدرهم و٧٤هـ في الدينار. واستمرت حتى عام ٧٧هـ في الدرهم و ٧٨هـ في الدينار، بظهور أول عملة إسلامية خالصة من كل التأثيرات الأجنبية في الشكل والرسوم والنقوش والعبارات والقيمة والوزن.

قدر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ضرورة وحاجة الدولة الإسلامية إلى نقد إسلامي خاص. يعيد للدولة استقلالها الاقتصادي والسياسي. مدفوعا بالعامل الديني أولا ثم العامل السياسي والاقتصادي ثانيا، وكوسيلة لإعلان سيادة الدولة الإسلامية بما هو منقوش عليها من عبارات دينية، فضلا عن أنها إعلان لشرعية حكم الخليفة بنقش اسمه

عليها، لذلك أمر الخليفة عبد الملك بن مروان بتعريب العملة كجزء من سياسة عامة غايتها لتعريب كل أجهزة الدولة الإسلامية. وقد درج تسمية العملة التي صكها العرب اسم: (السكة[١])، وهي كلمة على حسب قول ابن خلدون تدل على خاتم الحديد، الذي تطبع عليه العملة وتضرب بالمطرقة. ولذا فإن لفظة السكة أطلقت على العملة وعلى الدار التي تصنع فيها، فسميت دار السكة، وأيضا دار الضرب. هذا وقد دخلت لفظة السكة بنفس اللفظ إلى اللغات الأجنبية. وحول عدد دور الضرب الإسلامية، لم تكتفي الدولة بدار سكة واحدة مقرها العاصمة. بل سمحت بظهور دور صك أخرى في جميع أقاليمها وخاصة البعيدة منها. مع احتفاظ عاصمة الخلافة بدار صك واحدة للدينار الذهبي. نظرا لمركزها كعاصمة ونظرا لأن هذا الصك الذهبي مخصوص بالخلفاء دون غيرهم وعلى اعتبار أنه من علامات الخلافة.

وكانت السكة القديمة قبل الإسلام تتكون من نظام نقدي ثنائي، كما كانت في عهد البيزنطيين والفرس. وحدته الأولى الدينار الذهبي، وهو لاتيني الأصل: (**Denarius**) والوحدة الثانية الدرهم الفضي[٢]، ولعله أصله الدرخمة اليونانية: (**Drachmou**) أو أن أصله فارسي معرب. وإلى جانب النقد الثنائي. عرفت دول الإسلام وحدات نقدية صغيرة سمي مكسور، وهو عبارة عن أجزاء من الدينار أوالدرهم. من هذه الوحدات: الدانق – جمعها دوانيق– والمثقال. ولما أحست دولة الإسلام في القرن الرابع الهجري بأزمة في السكة الذهبية والفضية. استخدمت عملة من معادن أخرى أقل قيمة منها: نحاس أو من نحاس مخلوط بفضة، أطلق عليها فلوس – مفردها فلس – ويبدو أن أصل هذه لاتيني من (**Follia**)[٣]، لتدل على عملة نحاسية خفيفة، كما أطلق عليها أيضا: القراطيس[٤]، ربما لأنها كانت تسك ملفوفة على شكل القرطاس. أو لأن بعضها صك من البرونز. والملاحظ هنا على أسماء وحدات النقد التي استعملها المسلمون للدلالة على فئات عملتهم، يبدو أن بعضها كان معروفا قديما بنفس الاسم عند البيزنطيين والفرس، وبعضها الآخر لم يكن

---

(١)أحكام، ص١٣٨-١٤٠، المقدمة، ص٢٠٦ وما بعدها.

(٢) المعاملة بالفضة تسمى أيضا الورق. الخطط، ١ ص١٧٧، انظر. **Dozy, Suppl,2, p.797**.

(٣) مثلا: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة ١٩٤١، ٢/ ١ ص٤١٧ انظر. **Ency. (art Fals) t2, p. 50**.

(٤) نفسه، ٢/ ١ ص٢٠٥ ص١٠-١٦. وهو ستة فلوس.

متداولا في بلاد الإسلام بدلالة وجود أسماء أخرى لعمليتهما[١].

وكانت مقادير العملة يحددها الخليفة، وإن كانت العلاقة بينها تتوقف على قيمتها في التداول، ومدى ما تتعرض له من تذبذب من آن لآخر، ويجب أن نذكر أن العملة الإسلامية كانت قبل تحديد قيمتها ووزنها كانت توزن وزنا. إلا أنه لما ظهرت الفلوس، فإنها كانت تعد أو توزن[٢]. وكان لكثرة ما صك من العملة بأسماء الخلفاء. وبخاصة حينما تعددت دول الإسلام. ظهرت طائفة امتهنت الصيرفة عملا غايته تسهيل الصفقات المالية، وتحويل العملات وفئاتها. ولما كان الدين الإسلامي يمنع المسلمين من الاشتغال بالربا[٣] –أي الفائدة– فإن معظم أعمال الصيرفة كانت محصورة في أيدي النصارى واليهود. وحدث نتيجة التطور الاقتصادي والمالي ظهور مصطلحات مالية جديدة وظهرت تعابير مالية دلت على بداية فكرة نظام المصارف (البنوك) في الدولة الإسلامية، مثل[٤]: صفتاجة، وصك، ورقعة وخط وحوالة، وائتمان وغيرها وفي المجمل كلها تدل على إذن الصرف (شيك). فقد كان من الممكن أن يكتب تاجر في أسوان صكا لتاجر آخر في عيذاب[٥]. فيستطيع هذا التاجر أن يحصل على المال بمقتضاه، وعلى ذلك يمكن القول أن نواة نظام البنوك انتقل من المسلمين إلى الأوروبيين حديثا.

الطراز: (الطراز) [٦] كلمة فارسية تعني الزي أو (التطريز أو الملابس) وسميت الدار التي يتم فيها نسج القماش (دار الطراز) وهو على نوعين الحكومي والعام أما الطراز[٧]الأول فهو الطراز الحكومي في المدن والقرى. له هيئة كبيرة من العمال والموظفين ووسائل النقل (وله مواكب ودواب خاصة) والدولة تتكفل بطرز موظفيها. والثاني: طراز

---

(١)كانت عملة بيزنطة تسمى: **Phollis, Milliaressia, Byzant, Bezant**، –لعلها الفلس– انظر. أومان، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى بدر، القاهرة ١٩٥٣، ص٢١٠ أيضا انظر.

(٢) السلوك، ٢/ ١ ص٢٠٦.

(٣) صور الإسلام من يأخذ الربا بالشيطان. القرآن ٢: ٢٧٥.

(٤) الخطط، ٤ ص١٥٦، الجرجاني، كتاب التعريفات.

(٥) ناصر خسرو، سفر نامة، تحقيق يحيى الخشاب، القاهرة ١٣٦٤/ ١٩٤٥، ص٧٤.

(٦) ابن خلدون: المقدمة ٢١٠-٢١١.

(٧) المقريزي: الخطط ج٢/ ٣٥٢.

العامة. وهذه الصناعة (حكومية وأهلية)[١]. اشتهرت بأسماء المدن المصنعة لها أو بأسماء الخيوط مثل (الخيط المصري، العراقي والعالي) وقد دخلت إلى هذه الدور الزخرفة وأنواع الأصبغة[٢] المختلفة.

أنواع الأقمشة الإسلامية. غلب عليها اسم المدنية التي اشتهرت بها- النيل، البز، النسيج القطني[٣]، والحرير والديباج وهو تقليد للحرير الصيني (والديباج كلمة فارسية تعني لباس الروح) وله في مصر دار خاصة تسمى بدار الديباج. ومنه الحرير الموشح بالذهب (والوشي) والخز والدمشقي والموصلي والسندسي، والشرابي وهو (قماش شفاف)، المقصب الأبيض، والأبوقلمون، والدبيقي، والدمياطي[٤] وغلب على زي الرجال (الجلابيب) وهي جلابيب قريش [٥].

فنون التسلية: غلب على صنعتها الشعراء والأدباء والقصاصون وأصحاب المهن الأخرى من المغنين ورقص الجواري وسماع الشعر والقصص والمناظرات وسماع الغناء بأنواعه[٦].

أما الملاهي: فهي تنسب شهرة إلى عهد يزيد بن معاوية كأول من أدخلها إلى دولة الإسلام وقد ترتب[٧] على ذلك ظهور السمار والندماء والظرفاء والمتطفلين[٨] وبخاصة السميريات وهن القيان البارعات في فنون الغواية من غناء ورقص[٩]. هذا إلى جانب

---

(١) نهاية الرتبة ص٦١-٦٣، الولاة ص٥٦٢.

(٢) الخطط ص/ ٢٥٦. صبح الأعشى ج٤/ ٥٤. انظر مرزوق الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية ط/ ١٩٤٢، دليل متحف الفن الإسلامي، القاهرة ص٩٩، طبع ١٩٢٢م.

(٣) ابن سيدة. المخصص ص٧٦، الخطط ج٢/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٤) المقري: نفح الطيب ج١/ ٣١٨ طبع القاهرة ١٩٣٦، المسعودي مروج الذهب ج٥/ ٤٠٠-٤٠١، ١٤٢، ابن سيدة المخصص ج٤/ ٦٦، الخطط ج١/ ٣٦٥ الخطط ٢/ ٢٦٢، معجم البلدان ج٥/ ٧١-٧٢.

(٥) الخشني، شرح السيرة النبوية ص٣٣٣، تحقيق برونال ط١ القاهرة ١٩١١.

(٦) الخطط ج٢/ ١٠٩.

(٧) الأغاني: ج١٦/ ٧٠.

(٨) الأغاني: ج٥/ ٦٥، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٣/ ٣٣٧ وما بعدها.

(٩) الأغاني ج٣/ ١١٦-١١٧.

ألعاب أخرى أشهرها لعبة الشطرنج[١] ولعبة النرد[٢].وهي فارسية الأصل. كذلك ساهمت أنواع أخرى في باب التسلية منها: سباق الخيل[٣] وسباق الحمام ورحلات الصيد والقنص. وقد ترتب على ذلك الاهتمام بالصيد. والاهتمام الأكبر كان اهتمام علماء المسلمين بحياة الحيوان الذي خصّ حياة منها: الخيل وأنواع الطيور والحمام وغيرها فألفوا فيها كتبا كثيرة[٤] تناولت حياته وأنواعه وفوائده. كذلك ظهرت ألعاب رياضة مثل لعبة الكرة أو الأكرة (الصوالجة أو الجوكان) مثل البولوا في عصرنا والسباحة إلى جانب اللعب بالدمى والعرائس أو التماثيل.

الغناء والموسيقى: يعتبر الغناء والموسيقى من الفنون التي عرفهما العرب في حضارتهم الإسلامية، مثل بقية الشعوب. وقد تركوا أثرهم في الغناء والموسيقى، على الحضارات الأخرى بعد أن برع العرب في الألحان ودرسوها، واخترعوا الآلات اللازمة لها، وطوروا آلات أخرى من حضارات قديمة ومعاصرة. كذلك عرف العرب في جاهليتهم عرفوا أنواعا من الألحان التي توافق سذاجتهم وخشونة حياتهم. فالبدو منهم عرفوا نوعا من الحداء، الذي يستعملونه في البادية استحثاثا للإبل، وقد ساهمت نهضة الشعر عندهم على الترنم. أما الحضر منهم فقد عرفوا بعض الآلات الموسيقية التي بعض أسمائها مأخوذ من أسماء بابلية أو آشورية أو آرامية أو حميرية[٥].

ولما جاء الإسلام حدد لهذا الفن ضوابط شرعية، وإن كان العرب في أول أمرهم لم يهتموا بهما لانشغالهم بالجهاد والدعوة. ولكن مع تغير ظروف المجتمع العربي الجديد من الخشونة إلى الترف، نتيجة حركة الفتوحات الإسلامية الكبيرة وتدفق الأموال، ومجيء أسرى كثيرين من الفرس والروم إلى مكة والمدينة وغيرهما من أمهات المدن والقرى ومجامع أسواق العرب، الأمر الذي أظهر نواة نهضة غنائية موسيقية في بلاد العرب، اشتهرت بوجود أمهر المغنين فيها[٦].

---

(١) صبح الأعشى ج٢/ ١٤١-١٤٣، اليعقوبي تاريخ ج١/ ١٠١.

(٢) صبح الأعشى ج٢/ ١٤١-١٤٣.

(٣) ابن هذيل: كتاب حلية الفرسان ص٨٤، ١٤١، ١٤٣ ط دار المعارف، صبح الأعش ج١٤/ ٣٩١.

(٤) الجاحظ: كتابه الحيوان. بحقيق محمد هارون. والدميري كتابه حياة الحيوان الكبرى.

(٥) عن ذلك بتفصيل، انظر، فارس، تاريخ الموسيقى العربية، القاهرة ١٩٦٦، ترجمة نصار، ص٥ و ٢٣.

(٦) العقد، ٣ص ٢٤١.

وقد ساعد على نهضة الفن الغنائي الموسيقي بعض الخلفاء الأموية[1]الذين ذكر عنهم أنهم أول من أدخلوا الملاهي وأوجدوها[2]، وربما شجعوا عليهما، ليشغلوا الناس عنهم، فضلا عن تذوقهما، فقد بنوا العواصم الصحراوية[3]، التي كانت أشبه بأماكن للهو، واستحضروا لها المغنين من الحجاز، وأغدقوا عليهم العطاء[4]. وفي العهد العباسي انتعش الغناء والموسيقى انتعاشا كبيرا حتى أصبحا لا يقومان على أساس التقليد أو الاقتباس، بل إلى استحداث فنون خاصة بهم. جاءت تأثراً بالمغنين العرب الأوائل وبفنون الفرس والروم[5]. وعلى أساس أنها تعبر أولا عن روح العرب وروح الشعوب المفتوحة. وقد كان لظهور أنواع الشعر من القصائد والموشحات والموال والزجل عاملا مساعدا على تقدم العناء، ولا سيما ما يدور منه حول الغزل[6]. من هنا جاء قول بعض الأوربيين أن العرب هم أول من استخدموا الشعر في الغناء، بينما كانت الشعوب الأخرى تغني في الغالب من غير وزن[7]. وقد ساهم تعدد دول الإسلام وتنافس الحكام في تطور الغناء والموسيقى، وخروجه عن مقاصده الشرعية. لكن ما يميز هذا التطور أن الغناء والموسيقى أصبحا يقومان على أساس مدروس وعلمي. حيث بدأ الموسيقيون العرب يبحثون عن أغاني الشعوب القديمة مثل اليونان والفرس والهنود[8]. وحول ذلك يذكر ابن صاعد المؤرخ أن العرب اطلعت على كتاب (نافر) الهندي، الذي جمع أصول اللحون وجوامع تأليف النغم[9]. لهذا عرف العرب من الغناء أنواعا، مثل: النصب وهو غناء الركبان، والسناد وهو الثقيل، والهزج وهو الخفيف[10]. كذلك عرفوا الغناء العادي أو المصحوب بجوقة، أو

---

(1) الطبري ٢: ١٤٦، فارس، الموسيقى، ص٨١.

(2) الأغاني، ١٦ ص٧٠، ينسب ذلك إلى يزيد بن معاوية.

(3) عن ذلك بتفصيل انظر، ماجد التاريخ السياسي، ط٤، ٢ ص ٢٤١-٢٤٤.

(4) الأغاني، ٣ص ٩٨، ٦ ص ١١٥، ١٢٣.

(5) نفسه، ٣ص ٨٤.

(6) الجاحظ، رسالة في العشق والنساء (مجموعة رسائل الجاحظ)، ص١٦٣-١٦٤.

(7) الزينة، ١ ص٦٩.

(8) كشف، ١ ص٢٢، المقرى، ٢، ١٣هـ، ٢ ص١١١.

(9) طبقات، ص١٤.

(10) العقد، ٣ص ٢٤١.

بالرقص[١]، كما أصبح عندهم ما يعرف بالنغم والإيقاع. وفي باب آخر درس فلاسفة الإسلام كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان عن الموسيقى، وأضافوا إليه شروحا جديدة، حتى ظهر ما يعرف بعلم الموسيقى[٢]. ومن يمارسها يسمى الموسيقور والموسيقار، وهذه الكلمة يونانية الأصل (**Musica**). وقد اختلطت الموسيقى على أيدي المسلمين بعلم الرياضيات -كما فعل اليونان من قبل- الذي كان العرب متفوقين فيه. وقد ترتب على ذلك أن ينسب للمسلمين اختراع النوتة الموسيقية أو الميزان الموسيقي[٣]، أو ما يسمى الأصابع ومفردها إصبع لتغييرها في النغم، وذلك بإعطاء رموز للموسيقى عن طريق استخدام الأرقام والأحرف، فظهر على أيديهم ما يعرف بالتقطيع بالصوت ونصف الصوت وربع الصوت، وبالكيفيات من الهمس والجهر والرخاوة والشدة والقلقلة والضعف. الأمر الذي أوصل الموسيقى العربية إلى التنوع في السلم، حتى بلغ حد العشرين مع أنهم لم يستخدموا منه أكثر من اثني عشر، وقد سموه بأسماء مثل: بك ودوكا وسيكا -وهي أسماء فارسية- تعني الأول والثاني والثالث، وإن كان أساسها الزخرفة النغمية بابتداع النغم، وليس الهارموني، كما في موسيقانا الحالية. ولعل[٤] فا **Fa** مي **Mi** ري **Re** دو **Do** سي **Si** لا **La** صول **Sol**، التي هي السلم الموسيقي الحالي مأخوذة عن الأحرف العربية دال راء ميم فاء صاد لام سين.

ولذلك كان أثر الموسيقى العربية على أهلها كبيرا، بحيث وجدت كلمة طرب وهي التي تعني الثمالة. ولدينا أمثلة عديدة في كتب المسلمين تبين أثر الغناء والموسيقى في نشوتهم. وللأسف لم يتبق لنا قطعا من لحون أو ألحان عربية مكتوبة، غير ما تعارف عليه الموسيقيون الحاليون بالتقليد. وقد درس رجال الدين- بما فيهم الصوفية[٥]-أثر الموسيقى والغناء من حيث حلها وكرهها[٦]. وذكر بعضهم أنه يتوصل بالألحان الحسان إلى خير

---

(١) الأغاني، ٥ ص٢٤١.

(٢) عن ذلك بتفصيل، انظر. المقدمة، ص٣٣٥-٣٣٩، الخوارزمي، مفاتيح العلوم ط ١٣٤٢هـ، ص١٣٦.

(٣) الأغاني، ٢ص ١٧١، ١٦ ص ١٦، فارمر، تاريخ الموسيقى العربية ص١٢٩، ٣٣٨: انظر.

(٤) هونكة، شمس العرب، ص٤٩٤.

(٥) انظر الهجويري: كشف، الغزالي، إحياء، رسائل إخوان الصفا، أيضا: انظر **Emotional religion in Islam as affected by: Duncan, musical singing J.R.A.S, 1901-2**

(٦) العقد، ٣ص ٢٣٠-٢٣٢، فارس، تاريخ الموسيقى العربي، ٣١ وما بعدها (بتفصيل).

الدنيا والآخرة[١]. بل تكلم فيها أهل الطب، وقالوا إن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في الدم، فيصفو الدم ويرتاح القلب وتنمو النفس[٢]. ومع هذا التطور ظهرت آلات موسيقية عديدة[٣]، أصولها تعود لكل الشعوب الداخلة في الإسلام. حسن المسلمون في بعضها كذلك، واخترعوا جديدا عليها. ولدينا منها أسماء عديدة، بعضها عربي أو فارسي أو هندي أو يوناني. وقد أصبح للآلات الموسيقية سوق خاصة في مدن الشرق، مثل سوقها في القاهرة[٤]. فمن هذه الآلات ما هو للنفخ، مثل: المزمار أو المزمر، والصفارة، والناي، والقصابة، والبوق وهو من نحاس أجوف، والقيثار الذي لعله يوناني من (**Kithara**)، والطنبور وهو يشبهها، والشبابة وهي قصبة جوفاء فيها ثقوب عليها سدادة، وهي تقطع بوضع الأصابع من اليدين في وضع متعارف، والأرغن والأرغانون وهو منافخ من جلود الجاموس من آلات الروم. وبعضها للقرع، مث: الدف، والصنوج، والجلاجل، والطبل أو النقارات وهي ذات شكل أسطواني مجوف من الدخل، مشدودة بالجلد من الناحيتين[٥]، والكوسات[٦] -كوس- وهي طبل شكله نصف دائري مشدود بالجلد من ناحية واحدة. وبعضها بالأوتار التي توضع على بسائط آلات مشدودة في رأسها، وتقرع الأوتار بمعزف، ولعل أهمها: العود[٧]، الذي يسميه النويري ملك الآلات، وهو اسم عربي لآلة فنان يصنع من خشب العود ولعل أول من استخدم في عهد الخليفة هارون الرشيد، وقد تطور على أيدي المسلمين، حتى أن المؤلفين خصصوا له المؤلفات[٨]، فخففوا من وزنه، وزادوا في عدد أوتاره، واخترعوا مضرابه من قوادم النسر. وربما يكون من أنواعه المزهر أو البربط وهذا الأخير أصله فارسي عبارة عن عود محدودب صورته تشبه صور البط، أرسخ البطن له

---

(١) العقد، ٣ص ٢٢٩.

(٢) نفسه.

(٣) عنها: صبح، ٢ص ١٤٣ وما بعدها، الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ط. مصر ١٣٤٢هـ، ص١٣٦ وما بعدها، مروج (ط. أوروبا) ص٩٠، فارمر ص١٨٢ وما بعدها، انظر جرجي، التمدن، ٣ ص١٩٨.

(٤) الخطط، ٢ ص ٢٠٩، يسميه سوق المعازف.

(٥) انظر. **Suppl, 2p, 26: Dozy**

(٦) هي كلمة من أصل فارسي. انظر **Jacst, p.45**.

(٧) عنه، انظر. **Ency. (art ud) t4, p.1038-1041**

(٨) مثل كتاب ابن يونس (ت٤٠٠/ ١٠٠٩)، العقود السعود في أوصاف العود.

أربعة أوتار[١]. ومن الآلات أيضا الرباب[٢] وهو ذو وتر واحد، يعزف عن طريق البطن له أربعة أوتار[٣] –ربما اخترعه الفارابي– ولعل اسمه المعزف أو العزف أو الجنك أو الشلياق أو اللور أو الصنج، وربما هي أنواع منه. كذلك لدينا أسماء آلات أخرى غير محدودة، مثل: غربال ومصافق وكنكلة وكران وكنارة وقضيب وعرطبة وسلباق وعير وأصف، والمستق آلة للصين من أنابيب.

كذلك عرفت بلاد الإسلام أسماء طبقات عديدة من المغنين، لم تعرف الشعوب الأخرى قبلهم بمثل كثرتها، بين رجال ونساء –قيان– على السواء. ذكرهم المؤلفون في كتب خاصة، أشهرها على الإطلاق كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، الذي أمضى خمسين عاما لتأليفه[٤]، وطبقات المغنين للجاحظ[٥]. فمن العصر الإسلامي الأول حتى الأموي، نذكر من المغنين[٦]: نشيط الفارسي، وطويس وسائب (أو سلم) خائر (أو خاسر)، وابن سريج، وابن محرز، ومعبد ومالك، ومن المغنيات: جميلة وسلامة القس وعزة الميلاء وحبابة وبلبلة ولذة العيش وسعيدة والزرقاء وعقيلة وخليدة. ومن العصر العباسي، نذكر: إبراهيم بن المهدي[٧]، وهو ابن الخليفة العباسي المهدي، وكان قد بويع له بالخلافة دون المأمون وتقلب بالمبارك، وإبراهيم الموصلي، الذي قال عنه الجاحظ إنه صنع الغناء بعلم فاضل وحذق راجح[٨]، وابنه إسحاق الذي قيل إنه ألف ثلاثين كتابا حتى عن راقصات الحجاز[٩]، وبالأخص زرياب[١٠] الذي كان عبدا أسود لإبراهيم الموصلي، وترك عشرة

---

(١) العقد، ٣ ص ٢٦٦، مروج (ط. أوربا) ٨ص ٨٨، ٩٣، فارمر، ص١٨٣.

(٢) عنه، انظر: Ency. (Rabab) t3, p.19

(٣) انظر Op, Cit, p.19

(٤) انظر Op, Cit, IV, p344: Carra de Vaux

(٥) انظر رسائل الجاحظ.

(٦) انظر كتاب الأغاني: العقد ٣ص ٢٤١ وما بعدها.

(٧) الأغاني، ٥ ص٢ – ٤٩،٥٢ – ١٣١.

(٨) رسالة في طبقات المغنيين، ص١٨٧. عنه، انظر. وفيات، ١ ص ١٤-١٥.

(٩) دائرة المعارف الموسيقية، ترجمة ص١٩.

(١٠) العقد، ٣ص ٢٤٥، المقدمة، ص٣٣٩، المقري ط أزهرية ١٣٠٢هـ، ٢ص ١٠٩ وما بعدها، ابن دحية، المطرب، س١٤٧، وقبله.

آلاف لحن، واخترع للعود وترا خامسا، ومضربا من قوادم النسر كما ذكرنا.

أما طبقات علماء الموسيقى فكان أغلبهم –وأغلبهم من الفلاسفة– نذكر منهم[(١)]: الكندي (ت٢٦/ ٨٧٣) الذي له عدة كتب في الموسيقى منها: رسالة في خبر تأليف الألحان، والفارابي (ت ٣٣٦/ ٩٥٠) الذي له أيضا عدة كتب عن الموسيقى، أشهرها: كتاب الموسيقى الكبير، وربما يكون الفارابي هو الذي اخترع العود، فلدينا رسمه بيده[(٢)]، وابن سينا (ت٤٨٠/ ١٠٨٧)، الذي تعرض لهذا العلم في كتابه الفلسفي الشفاء، وصفي الدين عبد المؤمن، (ت٦٩٣/ ١٢٩٣)، الذي له كتاب الأدوار.

من هنا نرى إن الغناء والموسيقى العربيين جاء أثرهما واضح في الغناء والموسيقى العالمية، فغناء وموسيقى شعوب إسبانيا والمكسيك وأمريكا الجنوبية، وحتى شعوب إفريقيا وآسيا، نلمس فيها بوضوح أثر العرب، كما أن أسماء كثير من آلات العرب الموسيقية دخلت اللغات الأوروبية مثل القانون والطبل والنقارة والقيثارة والرباب والعود **Guitar, Naker, Timbal, Kanoon, Luth, Rebec**، وحتى كلمة التروبادور **Troubadour**[(٣)] –وتعني الشاعر المغني في أوروبا– كلمة محرفة عن كلمة طرب أو طروب العربية.

إن الثقافة الإسلامية لها حق أن تفتخر بما قدمته للحضارة من تراث خالد، شيدت عليه الحضارات التالية نهضتها العلمية وفي كل فروع العلم والفن.

---

(١) الفهرست، ص٢٥٥-٢٥٧، نقل لنا **Erlanger** مقتبسات من كتبهم بعض هذه المخطوطات توجد في المكتبات مثل: الفارابي بالمكتبة الأهلية بمدريد برقم ٦٠٢ وليدن برقم ٦٥١ ودار الكتب برقم ٣٥١ وصفي الدين بالمتحف البريطاني برقم ١٣٦ أو ٢٣٦١ وباريس برقم ٢٨٦٥ ودار الكتب برقم ٣٤٩ كذلك رسالة في خبر تأليف الألحان نشر وترجمة والحفني ١٩٣١.

(٢) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، انظر.

(٣) عن ذلك، انظر. ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة سالم وحلمي، ص٢٨٠ وما بعدها. (محاضرة ألقيت).

الفصل العاشر

العلوم الشرعية والأدبية

العلوم الشرعية (علم التفسير، الحديث، الفقه، علم الكلام)

- التصوف – المذاهب والفرق.

علوم اللغة العربية (الشعر، النشر، علم النحو)

العلوم الشرعية: وهي علوم عربية إسلامية بحتة أجلها وأسماها علوم القرآن الكريم (التفسير وعلم القراءات) ثم علم الحديث والسنة وهي من ابتكارات العرب.

علم التفسير: في اللغة يعني الإيضاح والتبيين. أي بيان كلام الله عز وجل. والمعنى في الاصطلاح: علم يبحث في أحوال القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية. (والتفسير يأتي بمعنى التأويل) أو الحكمة.

فضل علم التفسير: هو حاجة المسلمين لكسب السعادة في الدنيا والآخرة عن طريق الاسترشاد بالقرآن والأخذ بتعاليمه. لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾. وعلم التفسير عده الفقهاء من فروض الكفاية، وبعضهم رفعه إلى فرض عين[1]. وفي أهمية هذا العلم وقيمته يقول سعيد بن جبير: (من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابي).

مناهج التفسير: حددها العلماء في ثلاثة هي الأول: التفسير بالرواية (بالمأثور) (القرآن يفسر بعضه بعضا) ويضم تفسير الرسول ﷺ. والصحابة ثم التابعين وتابع التابعين والمتأخرين وتفاسير المجددين المعاصرين ويتم بذكر الآية وما نقل من تفسيرها من الصحابة والتابعين بالسند (طبقة أتباع التابعين) من أشهر رجالها شعبة بن الحجاج (ت ١٦٠هـ)، (وكيع بن الجراح الكوفي ت١٩٧هـ).

أما طبقات أتباع التابعين فهي ثلاث طبقات:

(أ) طبقة الطبري ت٣١٠هـ ابن أبي حاتم ٣٢٧هـ.

(ب) طبقة من يحذف السند (الزجاج النحوي ٣١٠هـ)

(جـ) طبقة البارعين في العلوم (تفسير القرطبي – الجامع لأحكام القرآن)

الثاني: التفسير بالدراية (التفسير بالرأي) تفسير بالاجتهاد.

الثالث: تفاسير الفرق، تفسير المعتزلة، تفسير الباطنية، تفسير الخوارج، تفسير الشيعة. وفيما يلي أشهر المفسرين على امتداد التاريخ الإسلامي. منهم:

---

(١) الزمخشري: الكشاف ج١/ ٢٣ طبع بيروت، السيوطي الإتقان ج٤/ ٤٧، ٢٠٠.

أشهر المفسرين	ت ٣١٠هـ الطبري	ت ٥١٦هـ البغوي	ت ٥٣٨هـ الزمخشري	ت ٦٠٦هـ الرازي	ت ٧٥٤هـ أبو حيان
المؤلف	جامع البيان في تفسير القرآن	معالم التنزيل	الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل	التفسير الكبير	التفسير الكبير

أما مميزات التفسير في عصر التابعين فتنحصر في أربعة هي:

١. ظل التفسير محتفظا بطابع التلقي والرواية

٢. ظهر في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي

٣. كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير أكثر مما كان في عهد الصحابة

٤. دخول الإسرائيليات والنصرانيات في كثير من التفاسير.

علم القراءات:

علم القراءات[١]: وهو من علوم الدين التي تبحث في كيفية قراءة ألفاظ القرآن. وذلك لأن تباين لهجات العرب والمسلمين من الشعوب المفتوحة، أوجد اختلافا في النطق بحروف القرآن. ثم إن القرآن يشتمل أصلا على ألفاظ القبائل العربية المختلفة بما فيها من عدنانية وقحطانية[٢]. وإن كانت ألفاظ قريش هي الغالبة، تليها هذيل وكنانة وحمير وغيرهم من قبائل الجزيرة. ولذلك اتفق بعد البحث والاستقصاء على قراءات معينة، أو ما سمي أيضا بالتجويد، وقد أُيدت بأحاديث نبوية، وروايات للصحابة والتابعين، وقصد من تنوعها التسهيل. وقد يكون أساس التنوع يعود لاختلاف القراء في قراءة القرآن من مصاحف الصحابة قبل أن يصلهم مصحف عثمان، الذي كان خاليا من النقط والشكل،

(١) عنه بصفة عامة: المقدمة، ص٣٤٦-٣٤٧.

(٢) إسماعيل بن عمرو، كتاب اللغات في القرآن، صححه صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٣٦٥/ ١٩٤٦.

حتى أن عثمان أطلق للناس القراءة على أي حرف (أي لهجة)[1]. وقد أصبحت هذه القراءات علما مدونا توضع فيه المصنفات، التي ربما صحبها اسم لأوضاع الحروف، واعتبرت المعرفة بها فرضا. كذلك تناول علماء كثيرون في جميع أرجاء البلاد الإسلامية هذه القراءات بالشرح، وإبراز قواعدها وأحكامها، إذ كانت كل بلد تأخذ من القراءات ما يلائم طبع أهلها، مثل المذاهب تماما.

وقد اختلف في عدد القراءات: فبعضها جعلها سبع قراءات، وبعضهم جعلها خمسا وعشرين قراءة، وإن رجحت سبع قراءات[2]، وأصبح يعرف أصحابها بأصحاب القراءات السبع: وهي (نافع من المدينة ٧٨٥، ٧٨٥)، و(وابن كثير من مكة ٧٣٧)، (وابن عامر من الشام ٧٣٦)، (وابن عمرو من البصرة ٧٧٥)، (وعاصم ٧٤٤)، (وحمزة ٧٧٢)، (والكسائي ٨٠٤) وهم من الكوفة، واعتبر نافع أهمهم بسبب أن مالك مؤسس المذهب المالكي كان يقرأ على نافع[3]. وهؤلاء أدوا القراءات موافقة لنص مصحف عثمان، ولكل منهم رجال نقلوا عنهم. ومع ذلك، فقد أضيف إليهم ثلاثة وأصبحوا عشرة[4]، وهم: احفص وأبو جعفر ويعقوب، أما ما عداهم فقد اعتبر شاذا[5].

أما القراءة بالألحان وهي التي تعرف بالتلاوة، و يسير عليها معظم القراء في وقتنا، فقد اختلف في وقت ظهورها، فقيل إنها بدأت في عهد النبي أو ربما ظهرت في القرن الرابع الهجري. كما اختلفت المذاهب في استجازتها، فمالك لم يجز القراءة بالتلحين، بينما أجازها الشافعي[6].

علم الحديث:

الحديث لغة: الكلام الذي صدر عن المتكلم أو المنسوب إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) ابن أبي داوود، كتاب المصاحف، تحقيق **Jeffery**، ط ١٩٣٧، ص٣٦.

(٢) أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، نشر استنبول ١٩٢٠.

(٣) انظر ابن يرى، شرح المارغني، الدرر اللوامع في أصل مقرا الإمام النافع، ١٢٣١هـ.

(٤) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، دمشق ١٣٤٥هـ.

(٥) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، تحقيق **Bergstrasser**، مصر ١٩٣٤. مثل قراءة الحسن البصري وابن مسعود وأبي بن كعب.

(٦) المقدمة، ص ٣٣٧.

اصطلاحا: علم الحديث[1]، ونقصد به ما صدر به عن النبي من قول أو فعل أو تقرير –بمعنى استحسانه شيئا– وهو ما اصطلح على تسميته أيضا بالسنة، أي طريقة سلوكه، وله حجيته مثل القرآن.

مراحل تدوين الحديث: في عهد رسول الله ﷺ كان بعض الحديث قد كتب في صحائف تعرف بصحائف الحديث، وإن حفظ أغلبه في صدور الصحابة والتابعين. وكان العرب يفضلون أن يبقى الحديث محفوظا في الصدور، وأن لا يجمع كالقرآن، خوفا من التباس الحديث بالقرآن، ونقلوا عن النبي أحاديث تنهى عن كتابة أي شيء غير القرآن منها[2]: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني فلا حرج».

عهد الخلفاء الراشدين: ظهرت محاولات عديدة لتدوين الحديث. بدأت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. لكنه رفض أن يقوم بذلك، وقال (وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء) [3] ولما كتب بعض الناس عن أبي موسى الأشعري أخذ أبو موسى ما كتبوه وغسله، وقال لهم (احفظو عنا كما حفظنا). وكان مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة. قد أراد أن يدون الحديث بالحيلة، فدعا المحدث المشهور أبا هريرة رضي الله عنه [4] (ت ٥٧ أو ٥٨/ ٦٧٦-٦٧٨)، الذي كان يجلس للنبي ويلازمه ف ليستمتع إليه بينما يذهب الناس إلى عملهم، بحيث أنه لكثرة ما استمع إليه ينسب إليه خمسمائة وثلاثة آلاف حديث صحيح، فأخفى مروان بجانبه أحد الكتاب وطلب من أبي هريرة أن يحدثه، ولكن أبا هريرة أدرك السبب، فتوقف عن سرد الحديث.

عهد التابعين: عرف التابعون كالصحابة أمر تدوين الحديث وكتابته وأشهرها قدماً

---

(١) عنه بصفة عامة مثلا: المقدمة، ص٣٤٩ وما بعدها، حاجي خليفة، ١ ص ٤٢٢، وما بعدها صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه، ط٣، بيروت ١٩٦٥. انظر

Etudcs sur.: Goldziher; Ency (art Haditb) t2, p 201. Eqq la tradition islamrqne. Extraites du tome 11 des (Mudammedanische) studien, traduties par leon pecher, Paris 1952.

(٢) صحيح مسلم، ٨س ٢٢٩، أحمد أمين فجر الإسلام، ط١، القاهرة ١٩٢٨، ص٣٥٠.

(٣) أحمد أمين: فجر ٢٦٥، روى ذلك عن الزهري.

(٤) انظر: أسد الغابة ص٣١٥. طبع مصر ١٢٨٥، أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء/ ١/ ٣٧٦، عجاج، أبو هريرة. رواية الإسلام: أعلام العرب/ ١٩٦٣ **Ency (art) Abu Hutalra f1, p.96**

الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه والأولوية في التدوين الرسمي تنسب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز لأول مرة[1]، خاصة بعد اتساع المد الإسلامي وكثرة الوضع. وكان تدوين الحديث يعتمد على نقله من صدور الحفاظ، فكان لا بد من إيجاد طريقة لضبط صحته، لذلك ظهرت مناهج جمع الحديث عبر طرق متعددة.

مناهج جمع الأحاديث: (١) جمع الأحاديث كل باب على حدة وهي كما يلي.

(٢) طريقة الأسانيد: فلجأوا إلى الإسناد أو الأسانيد جمع سند، بمعنى رفع القول إلى قائله، وهي التي أصبحت جزءا من الحديث وذلك بنقل متن الحديث من فلان عن فلان أو ما عبر عنه أيضا بالعنعنة.

(٣) طريقة المسند عن كل صحابي (مسند أبو بكر، مسند عمر) كذلك كان لا بد من الارتحال للبحث عن الحفاظ.

(٤) طريقة المدونات البعيدة عن الرواية والسند

وفوق ذلك، ظهرت عدة طرق أخرى وعلوم ساهمت في ضبط الأحاديث، منها علم التاريخ[2]، الذي أول ما ظهر كعلم مساعد يضبط تاريخ نقلة الحديث وأحوالهم ووجودهم أيام النبي والصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وأيضا علم الجرح والتعديل، الذي يبحث في أنساب الرجال والحفاظ ودرجة اتصالها أو انقطاعها وسلامتها.

كذلك ظهرت اصطلاحات عديدة دلت على مدى صحة الحديث، لكنها لم تظهر دفعة واحدة، وإنما اتفق عليها بالتدريج. فمنها بالنسبة لصحة الحديث بصفة عامة: الصحيح الذي ليس به علة إطلاقا، والحسن أي أن إسناده ليس صحيحا تماما، والضعيف الذي يمكن نقضه من داخله ومن إسناده، والغريب أو الشاذ أي في داخله غرابة وشذوذ. ومنها بالنسبة لقيمة الحديث، مثل: المدرج أي يشتبك فيه قول النبي بأحد أقوال النقلة كشرح له، ومتروك أي لا قيمة له، وموضوع أي مخترع. ومنها بالنسبة لبعد الحديث عن النبي، مثل: المرفوع الذي يصل إلى النبي مباشرة، والموقوف الذي يصل إلى الصحابة، والمقطوع الذي يصل إلى التابعين فقط. ومنها بالنسبة للإسناد في ذاته، مثل: الممتد الذي نقله كثيرون، والعالي إذا كان نقلته قلة إلى حد ما، والمرسل إذا اتصلت سلسلة إسناده، والمنقطع

---

(١) ابن سعد، ٥ص ٢٧٦.

(٢) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ، دمشق ١٣٤٩هـ، ص٩، ١٢.

وهو العكس، والمعضل وهو القليل في نقلته، إذ هم اثنان أو أكثر، والمبهم إذا نقل عن رواة مجهولين. ومنها ما هو بالنسبة لطريقة جمع الحديث، مثل: المتواتر أي جمع بصحة من مصادر وطرق متعددة، والمشهور الذي جمع من ثلاثة أشخاص على الأقل، والعزيز الذي جمع من شخصين أو من آحاد، أي من شخص واحد.

ومن أشهر جامعي الحديث ستة وصلوا القمة في جمعه، فنذكر في المقام الأول اثنين هما: الأول محمد بن إسماعيل البخاري[١] (ت٢٥٦/ ٨٧٠)، وهو مشهود له بالاجتهاد في جمع الحديث، حتى سمي إمام المحدثين، لجمعه عددا كبيرا منه، إذ جمع مائتين وتسعة آلاف حديث، منها ثلاثة آلاف حديث متكررة. والثاني وأبو مسلم ابن الحجاج القشيري النيسابوري[٢] (ت ٢٦١/ ٨٧٥)، الذي أظهر هو الآخر نشاطا كبيرا في جمع الحديث، وإن حذف منه المتكرر. أما الأربعة الآخرون أصحاب السنن فهم ابن ماجه[٣] (ت٢٧٣/ ٨٨٧)، وأبا داوود[٤] (ت٢٧٥/ ٨٨٨)، والترمذي[٥] (ت٢٧٩/ ٨٩٢-٣)، والنسائي[٦] (ت٣٠٣/ ٩١٥). ولأهمية جمع هؤلاء الستة فقد عرفت مصنفاتهم عموما بالصحاح الستة، وإن خصص اسم الجامع الصحيحين على الأولين، أما الأربعة الباقون، فإنه نظرا لاقتصارهم في جمعهم على الأحاديث التي تمتد إلى النبي وحده، فإن كتبهم عرفت بالسنن، وفي هذه المصنفات جميعا، وزعت الأحاديث على أبواب.

وبعد هؤلاء الستة الكبار، ظهرت جماعة لم تهتم بجمع الحديث، وإنما بشرحه وتلخيصه والتعليق عليه، مثل البغوي (ت٥١٠/ ١١١٦): مصابيح السنة[٧]، والنووي (ت٦٧٦/ ١٢٧٧)، شرح النووي على صحيح الإمام مسلم[٨]، والعسقلاني

---

(١) كتابه: الصحيح، في ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٧٨/ ١٨٦١: في ٨ أجزاء، ط بولاق ١٢٩٦هـ.

(٢) كتابه: الجامع الصحيح، في مجلدين، بولاق ١٢٩٠/ ١٨٧٣، أو في ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٢٩-١٣٣٢هـ.

(٣) كتابه: السنن، في مجلدين، القاهرة ١٣١٣/ ١٨٩٥.

(٤) كتابه: السنن، القاهرة، ١٢٨١/ ١٨٦٤.

(٥) كتابه: السنن، في مجلدين، بولاق ١٢٩٢/ ١٨٧٥.

(٦) كتابه: السنن، في مجلدين، القاهرة ١٣١٢/ ١٨٩٤.

(٧) ط. مصر ١٢٩٠.

(٨) في ٥ مجلدات، ١٢٨٣هـ. وعلى هامش كتاب القسطلاني. انظر بعده كان النووي ينوي كتابة شرحه في مائة مجلد، ولكنه اختصره هكذا.

(ت٨٥٢/ ١٤٤٩): فتح الباري بشرح صحيح البخاري[١]، والعيني (ت٨٥٥/ ١٤٥١): عمدة القارئ في صحيح البخاري[٢]، والسيوطي (ت٩١١/ ١٥٠٥): جمع الجوامع أو الجمع الصغير[٣]، والقسطلاني (ت٩٢٣/ ١٥١٧): إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري[٤].

وأخيرا نلاحظ أن كلمة شيعة وسنة، لا تعني أن الشيعة ليس لها أحاديث، فقد روى أهل الشيعة أحاديث كثيرة، مثل تلك التي عند السنة، وهو ما عرف عندهم بالأخبار[٥]، ردوها إلى أئمتهم زيادة في الحيطة. ومن أشهر جامعي أخبار الشيعة عن أئمتهم هم: الكليني (ت ٣٢٨/ ٩٣٩)، والنعمان بن حيون (ت٢٦٣/ ٩٧٤)، والطوسي (محمد بن الحسن) (ت٤٦٠/ ١٠٦٧)، ونجم الدين المحقق (ت٦٧٦/ ١٢٧٧).

علم الفقه: في اللغة: العلم بالشيء والفهم له.

واصطلاحا علم الفقه[٦]: هو العلم الذي يتناول القرآن والحديث بقصد الفهم واستخراج الأحكام لما يعن للمسلمين من مشاكل دينهم (عبادات) أو دنياهم (معاملات)، وهو بذلك يرادف التشريع، ومن يقوم بها يسمى فقيها وجمعها فقهاء. كذلك يسمى بعلم الفروع، لأن علماء الدين في الإسلام جروا على تشبيه التشريع بشجرة لها أصول وفروع، ويقابل هذا العلم عند اللاتين -وهم من الشعوب التي اهتمت بالتشريع- كلمة (Jurisprndentin) بمعنى العلوم الإلهية. أما شروط الفقيه: أن يكون عالما في القرآن وعالما بالسنة والإجماع والقياس والعرف والاستصلاح.

تطور علم الفقه: ظهر الفقه كعلم في أول الأمر لوجود الصحابة والتابعين، ولكن

---

(١) في ١٣ جزءا، مصر ١٣٤٨/ ١٩٢٩، بولاق ١٣٠١هـ.

(٢) في ١١ جزءا، ط. القسطنطينية ١٣٠٩-١٣١٠/ ١٨٩١-١٨٩٣.

(٣) بولاق ١٢٨٦هـ.

(٤) في ١٢ جزءا، مصر ١٣٢٦هـ، وفي ١٠ أجزاء، ط بولاق ١٣٠٤هـ.

(٥) انظر. قبله، النعمان دعائم، ١ ص٦٤ انظر بعده.

(٦) المقدمة، ص٣٥٩ وما بعدها، الشوكاني، كتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصولي، القاهرة ١٣٢٧هـ، ص٣ وما بعدها، الغزالي، كتاب المصطفى من علم الأصول، بولاق ١٣٢٢هـ، ص٤ وما بعدها، والنسفي كشف الأسرار، بولاق ١٣١٦هـ. ص٦ وما بعدها انظر. Ency (art fika) t2, p106, aqq

عندما تعددت مشاكل الإسلام، وبعد العهد بظهور الإسلام، احتيج إلى ضبط الشرع. لذلك ظهرت عدة طرق فقهية، وهي ليست فرقا، وإنما دراسات دينية: أطلق عليها مذاهب، وهي تسير في دائرة الإسلام، بحيث يمكن لأتباع إحداها أن ينتقلوا إلى أخرى. ونلاحظ أن بعض المذاهب الإسلامية لم يعمر طويلا بسبب أنها لم تجار التطور الدائم في المجتمع، أو أنها لم تترك مؤلفات تحتوي على اتجاهاتها، أو لعدم وجود تلاميذ حملوا المذهب ونقلوه أو دونوه. مثل الأوزاعية نسبة إلى عبد الرحمن الأوزاعي[١] (ت١٥٧/ ٧٧٤)، التي ظهرت في الشام والأندلس، والثورية نسبة إلى سفيان الثوري[٢] (ت١٦١/ ٩٧٨)، التي ظهرت في الشام، وبقيت إلى القرن الخامس الهجري فقط[٣]. كذلك أغلب الفقهاء أصحاب المذاهب لم يؤلفوا مذاهبهم، وإن ما ورد عن مذاهبهم كان من تسجيل تلامذتهم، وربما يكون السبب هو تحرجهم من أن فتواهم تقع في غير موقعها، فينقل عن أحدهم –وهو ابن حنبل- قوله: «لا تقلدوني ولا مالكا ولا الشافعي والثوري، وخذ من حيث أخذوا[٤]». ومع ذلك اشتهرت أربعة مذاهب سنية هامة، تركت مؤلفات، صار الفقهاء مقيدين بها، لإجماع الأمة الإسلامية عليها، والرضى بها وهذه المذاهب هي:

المذاهب الأربعة:

أولا: مذهب أبي حنيفة[٥] (٨٠-١٥٠/ ٦٩٩-٧٦٧)، الذي ولد في العراق، واعتمد على تحكيم الرأي في النص للحصول على حكم شرعي. وينسب إلى أبي حنيفة نفسه الكتاب المسمى: مسند الإمام الأعظم أو الفقه الأكبر[٦]، كما لدينا كتاب بدائع الصنائع في فقه أبي حنيفة، لعلاء الدين الكاشاني (ت٥٨٧/ ١١٩١)، وكتاب شرح فتح القدير لابن همام الحنفي[٧] (ت٦٨١/ ١٢٨٢) وكتاب كنز الدقائق في فروع الحنيفية للنسفي[٨]

---

(١) عنه: وفيات، ١ ص ٤٩٢ – ٣ انظر. Ency (art al-Awzat) t1, p533, aqq

(٢) عنه: وفيات، ١ ص ٤٩٢ – ٣ انظر. Ency (art sufyan al-Thawrt) t4, p523, aqq

(٣) النجوم، ٤ص ٢٣٨.

(٤) ابن القيم، أعلام الموقعين، ٣ ص١.

(٥) وفيات، ٣ ص ٧٤-٨٠، انظر أبو زهرة، أبو حنيفة القاهرة ١٩٤٧.

(٦) في ٤ أجزاء ط الهند.

(٧) في ٨ أجزاء، بولاق ١٣١٥هـ.

(٨) شرح معين الدين المعروف بملامكين، في ٣ أجزاء، ط. أولى، القاهرة ١٢٧٨هـ.

(ت٧١٠/ ١٣١٠).

ثانيا: مذهب مالك[١] (٩٧-١٧٩/ ٧١٥-٧٩٥)، الذي ولد في الحجاز، واعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص، فسمى أتباعه بالظاهرية، لأنهم جعلوا أحكامهم منحصرة في النصوص بالإجماع، وهو ما عرف أيضا بالمصالح المرسلة، أي كل مصلحة ضرورية للمجتمع يحصل بها نفع أو تدرأ ضررا ولا تعارض النص. ولمالك كتاب في الفقه اسمه (الموطأ)، وهو أقدم ما ألف في الفقه، وسمي[٢] هكذا لأن تصنيفه جاء بناء على أمر الخليفة العباسي المنصور، ووطأه للناس أي أنه أوضح الشرع لهم، أو لأن فقهاء المدينة واطئوه عليه أي وافقوه. وهذا المذهب المالكي تلاءم مع عقلية أهل الحجاز والمغاربة والأندلسيين، وبصفة عامة مع سكان المناطق التي لم تكن أهل جدل ونظر. وقد ظهرت كتب كثيرة تناولت مذهب مالك بالشرح، منها على الخصوص: (المدونة الكبرى)، لسحنون بن سعيد[٣] (ت ٢٤٠/ ٨٥٤)، كما ظهرت للمذهب ملخصات، مثل: (المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك[٤]) لخليل بن إسحق (القرن ٧/ ١٤).

ثالثا: مذهب الشافعي[٥] (١٥٠-٢٠٤/ ٧٦٧-٨٢٠)، وهو صاحب مالك في الحجاز، وارتحل إلى العراق، وجمع بين الطريقتين الحجازية والعراقية، أي بين ظاهر النص وطريقة الرأي، فتميز بمذهب خاص. ولقد اعتبر الشافعي بحق واضع أصول علم الفقه أي طرقه، إذ كان الفقهاء قبله يجتهدون من غير أن تكون بين أيديهم حدود مرسومة. فجاء الشافعي فوضع الحدود والرسوم، وضبط القواعد والموازين، بحيث قال الرازي الفيلسوف عنه[٦] (إن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبة أرسطو إلى علم المنطق). فظهرت عنده

---

(١) عنه: وفيات، ٢ص ٢٠٠-٢٠٢، Ency (art Malik b Anas) t3, p.218 sqq

(٢) المقدمة، ص١٤. طبع في: دلهي ١٢١٦هـ، ولاهور ١٢٨٩هـ، والقاهرة ١٢٨٠هـ (في ٤ أجزاء).

(٣) عنه: وفيات، ١ص ٥٢٢-٥٢٤، الدباغ، معالم الإيمان في طبقات فقهاء القيروان، تونس ١٣٢٠- ٥، ٢ ص٤٩ وما بعدها.

عن المدونة نفسها، انظر طبعتها في ١٦ جزءا، مصر ١٣٢٣-١٣٢٤.

(٤) طبع باريس في ١٢٧٢/ ١٨٥٥، وترجمة إلى الفرنسية والطليانية.

(٥) عنه: وفيات، ٢ص ٢١٤-٢١٨ أبو زهرة، الشافعي، القاهرة ١٩٤٨.

Ency (art al-shafif) t4,p 261-263

(٦) أبو زهرة في كتابه: الشافعي، ص١٧٨: الريس، النظريات السياسية الإسلامية، ط٢، ص٨٦.

وعند أتباعه صنوف في علم الفقه[1]، منها: الاجتهاد في البحث بقصد الحصول على حكم شرعي، بالاستنباط من النص، والقياس وهو النقد، والاستحسان لوجهة نظر قوية، والتقليد لما حدث، والنظر أو النقد بالتعمق، وخاصة الإجماع أي اتفاق أي جملة من المجتهدين، فكان الإجماع (Consensus) –في رأي المستشرقين-[2] أشبه بصوت شعبي أو رأي حر. ولدينا من الشافعي عدة كتب، منها: كتاب (الأم) جمع البلقيني[3] (ت٨٠٥/ ١٤٠٣)، ورسالة[4] نظمت فيها مسألة الرأي، وكتاب (الفقه الأكبر في التوحيد[5]). كما لدينا شروح مثل: الوجيز للغزالي[6] (ت٥٠٥/ ١١١٢)، والأشباه والنظائر في الفروع للسيوطي[7] (ت٩١١/ ١٥٠٥).

رابعا، مذهب ابن حنبل[8] (١٦٤-٢٤١/ ٧٨٠-٨٥٥)، الذي ولد في بلاد المشرق، ووجد في المذاهب السابقة ليونة، رأى أن يكون الفقه على حسب (ظاهر) النص، وكره الجدل والنقاش. وقد تلاءم مذهبه مع البيئات الحديثة في الإسلام، فانتشر بين الأتراك، ودخل في مصر مع المماليك، وفي آسيا الصغرى مع العثمانيين. ولدينا من أحمد بن حنبل نفسه كتاب: (المسند[9])، جمع فيه من الأحاديث أربعين ألف حديث، مرتبة بحسب الرواة، بحيث اعتبر أول من استن الرحلة في سبيل جمعها. كما لدينا عن مذهبه شروح، مثل: خصائص المغني في فقه الحنابلة للموفق (ت٦٢٠/ ١٢٢٣)، وشرحه الكبير لابن قدامة المقدسي (ت٦٨٢/ ١٢٨٣[10]). والبعض يضيف إلى المذاهب الأربعة: مذهبين آخرين هما.

---

(١) الجرجاني، كتاب التعريفات، انظر.

(٢) انظر. Gardet. La Cite Masulmane Vie Socials et Politique. Paris, 1954, p122-4 عن الإجماع خاصة. انظر مقالة.

Ency (art Idjma) t2, p 475-6

(٣) في ٧ أجزاء، القاهرة من ١٣٢١-١٣٢٥/ ١٩٠٣-٧.

(٤) تحقيق القباني، ط٢، مصر ١٣١٢هـ.

(٥) طبعة الأزبكية، على نفقه أحمد محمد.

(٦) في جزءين، مصر ١٣١٧هـ.

(٧) مكة ١٣٣١هـ.

(٨) عنه: وفيات، ١ ص ٢٨-٢٩، انظر. أبو زهرة، ابن حنبل، القاهرة ١٩٤٧.

(٩) في ١٠ أجزاء، تحقيق محمد شاكر، ط. دار المعارف ١٩٤٦-١٩٥١.

(١٠) في ١٠ أجزاء، ١٣٤٢هـ وما بعدها.

مذهب (جعفر الصادق -٨٣-١٤٨) ومذهب زيد بن علي بن زين العابدين ٨٠-١٢٢هـ. إضافة إلى مذهب الشيعة، التي بلغ عددها حوالي ثلثمائة فرقة[١]، اشتهرت منها: الإمامية – الإثنا عشرية أو الجعفرية- والإسماعيلية. ويرى معظمها أن الفقه من اختصاص الإمام وحده[٢]، ولقبوه بالمجتهد المطلق بسبب ما غذاه الله من العلم اللدني أو ما عرف أيضا بالتأويل، أما غيره من الفقهاء فهو مجتهد مقيد[٣]. ومعنى هذا عند البعض أن المذاهب الشيعية في مجموعها لا تختلف عن المذاهب السنية التي تقول بالاجتهاد، وإن جعلت النصيب الأكبر منه للإمام. وقد انتشرت المذاهب الشيعية في المناطق التي كان لها تراث سابق في الأخذ بمبدأ الحق الإلهي المقدس مثل إيران، حيث اعتنق غالبها –ولا يزال- مذهب الاثنا عشرية، كما أن المذهب الإسماعيلي دخل مصر والشام والمغرب مع الفاطميين. ومن كتبهم المحفوظة كتاب الفقه الإسماعيلي المشهور: دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام، عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام، للفقيه النعمان بن حيون[٤] (ت٣٦٣/ ٩٧٤)، الذي اشترك في تأليفه الإمام المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥/ ٩٥٢-٩٧٥).

ومن كتبهم أيضا الفقه الإمامي كتاب الكافي للكليني[٥] (ت٣٢٨/ ٩٣٩)، وكتاب النهاية في الفقه للطوسي (محمد بن الحسن ت٤٦٠/ ١٠٦٧)، وكتاب شريعة الإسلام في مسائل الحلال والحرام لنجم الدين المحقق[٦] (ت٦٧٦/ ١٢٧٧)، وغيرها.

علم الكلام:

علم الكلام[٧]، وهو يتناول العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. ولم يظهر هذا العلم

---

(١) الخطط، ٤ ص ١٧٣ ص١٣ . يقول إن المشهور منها عشرون فرقة.

(٢) تاج العقائد، ص٤٧، انظر. نظم الفاطميين، ١ ص ١٣٨-١٣٩.

(٣) انظر Le Califat, p. 63: Sanhoury

(٤) انظر. تحقيق فيظى، ط. القاهرة.

(٥) ط. طهران، ١٢٨١هـ.

(٦) عن هؤلاء: انظر، Querry

Droit musulman, Recueil de lois concernant les Musulmans وهو ترجمة فرنسية لشرائع الفرق الإمامية Schyites 2 Vols. Paris

(٧) المقدمة، ص٣٦٣ وما بعدها، الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، ط. حيدر آباد ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣،

بظهور الإسلام، ولكنه ظهر بانتشار الإسلام بين الشعوب المتحضرة. ولم يكن في العهد الإسلامي الأول من يجسر من العرب المسلمين على الكلام في العقائد، ولكن الشعوب المتحضرة التي أسلمت، عملت على التكلم فيها، لأنها رأت أن العقل فوق النفس، وآمنت بالتحرر من القيود بحكم تحضرها. كذلك قد يكون ظهور هذا العلم بسبب الهجوم على الإسلام، حيث كثر النقاش حوله بين معتنقي الأديان الأخرى[1]، فظهر الدفاع عن الإسلام، والرد على الأديان الأخرى. وهو بذلك قد سبق الأوروبيين، الذين استباحوا لأنفسهم في العصر الحديث فقط الكلام في العقائد. يضاف إلى ذلك، أن علم الكلام سبق علم الفلسفة في الإسلام[2]، الذي اشتق من فلسفة اليونان، بل كان له أثره في أن الفلسفة دارت هي الأخرى في فلك عقائد الإسلام. فظهور علم الكلام الإسلامي، يعد هو أكبر انقلاب فكري في تاريخ العقيدة بصفة عامة.

ولعل هذا العلم سمي علم الكلام ؛ لأن أهم مسألة وقع فيها الخلاف هي مسألة كلام الله –أي القرآن– أو أنها صفة لله أو لذاته، أو لأن المتكلمين تكلموا حيث كان السلف يسكت عما تكلموا فيه، أو لأنه أشبه بالمنطق في طرق استدلاله. فكان هذا العلم يتناول مسائل عقيدية دقيقة، مثل: التوحيد والآخرة وحقائق الصفات الإلهية والقدر والخير والشر وحقيقة النبوة وخلق القرآن.

وقد تكلمت فرق دينية كثيرة في هذه المواضيع، ويكفي أن نرجع إلى كتب العقائد لنعرف أسماء هذه الفرق العديدة، مثل: فرق الشيعة للنوبختي[3] (٣هـ/ ٩م)، والفرق بين الفرق للبغدادي[4] (ت٤٢٩/ ١٠٣٧)، والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم[5]

ص٢٣ وما بعدها، لسان، ١٥ ص٤٢٧ وما بعدها،

Die philosophischen: Horten: Ency (art Kalam) t2, p. 712-717 System der Spekulativen Theologen im isiam Bonn 1912.

(١) انظر **IsIamstndien. Leipzig, 1924, I, p 432-449: Beeker**

(٢) انظر **Essal sur Ies Motazelities. Paris, S.d.p 20: Galland**

(٣) صححه محمد صادق، النجف ١٣٥٥/ ١٩٣٦.

(٤) مصر ١٣٢٨/ ١٩١٠.

(٥) في ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

(ت٤٥٦هـ/ ١٠٦٤)، والملل والنحل للشهرستاني[١] (ت٥٤٨/ ١١٥٣)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازي[٢] (ت٦٠٦/ ١٢٠٩).

فمن أشهر الفرق المتكلمة: فرق الشيعة ولا سيما الفاطمية، التي تكلمت في طبيعة الله ووصفوه بالعقل الأول، وفي الوحي، وفي الرجعة، وغير ذلك، وسموا مثل هذا الكلام علم الحقائق[٣] لغوصه وراء المعرفة الدينية، والمعتزلة التي نفت صفات الله وأيدت خلق القرآن، والمرجئة الذين تكلموا عن العذاب وهونوا منه، والقدرية التي تقول بحرية الإرادة، والجهمية التي تقول بالجبر. وغير هذه الفرق فرق وطوائف دينية كثيرة تكلمت في هذه المواضيع وغيرها، مثل: أخوان الصفا والصوفية والحنابلة.

أما أشهر المتكلمين من السنة، ومؤلفاتهم فهم: التستري (ت٢٨٣/ ٨٩٦): المعارضات والرد على أهل الفرق[٤]، والبقلاني (حوالي ٤٠٣/ ١٠١٣): إعجاز القرآن[٥]، والرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والمعتزلة[٦]، والأشعري (ت٣٢٤/ ٩٣٥)-إمام المتكلمين[٧]- الإبانة عن أصول الديانة[٨]، ورسالة في استحسان الخوض في الكلام[٩]، ومقالات الإسلاميين[١٠]، والغزالي (ت ٥٠٥/ ١١١٢): فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة[١١]،

---

(١) تحقيق **Cureton**، ط. **London** ١٨٤٦.

(٢) تحقيق النشار، القاهرة ١٣٥٦/ ١٩٣٨.

(٣) هو مخطوط باستنبول، انظر

Ency (art Sahl al-Tustari) t4, p65

(٤) ط. القاهرة ١٣١٥هـ عن الباقلاني، انظر. وفيات، ٢ص ٢٧٨-٢٧٩

Ency (art Sahl al-Bakiljani) t1, p616

(٥) مخطوط في باريس، برقم ٦٠٦٠.

(٦) عنه: وفيات، ١ ص ٥٨٦-٥٨٧، انظر

Ency (art Sahl al-Ashari) t4, p65

(٧) ط. حيدر آباد ١٣٢١/ ١٩٠٣.

(٨) ط. حيدر آباد ١٣٢٣هـ.

(٩) تحقيق **Ritter**، استنبول ١٩٣٠م.

(١٠) القاهرة ١٣١٩/ ١٩٠١.

(١١) دمشق ١٣٤٣/ ١٩٣٤.

والمنقذ من الضلال[1]، ومشكاة الأنوار[2]، والنسفي (أبو المعين ت٥٠٨/ ١١١٤)،: بحر الكلام[3]، والتفتازاني(ت٧٩١/ ١٣٨٩): شرح عقائد النسفي (نجم الدين ت٥٣٧/ ١١٤٢-٣).

أما أشهر المتكلمين من الشيعة ومؤلفاتهم، فهم: السجستاني (ت٢٣١/ ٨٤٥): إثبات النبوة[4]، وأبو حاتم الرازي (ت٣٢٣/ ٩٣٥): أعلام النبوة[5]، والقاضي النعمان بن حيون (ت٣٦٣/ ٩٧٤). المجالس والمسايـرات[6]، وحيد الدين الكرماني (ت٤١١/ ١٠٢٠) -شيخ علماء الشيعة-: راحة العقل[7]، وناصر خسرو (حوالي ٤٤٤/ ١٠٥٢): خوان الإخوان[8]، والمؤيد في الدين (ت٤٧٠/ ١٠٨٧): المجالس المؤيدية[9].

التصوف:

علم التصوف[10]: ويعني العكوف على العبادة، والزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الدنيا، وليس بمعنى الرهبنة، والإنقطاع عن الدنيا. وهي كلمة غير معروفة الأصل، فهي إما مأخوذة من لباس الصوف الذي يتزين به من يعكف على العبادة -لمخالفة من لبسوا

---

(١) القاهرة ١٣٢٢هـ.

(٢) ط. مصر ١٣٢٩/ ١٩١١ عنه انظر.

Ency (art Sahl al-Nasafi) t4, p65

(٣) الكتاب نفسه، أما كتاب التفتازاني ط القاهرة ١٣٢١هـ، عن التفتازاني انظر **Ency (art Sahl al-Tustari) t4, p634**

(٤) معظم كتبه توجد في مكاتب الشيعة الخاصة، انظر. حسين الهمداني

(٥) نشر أجزاء منه على يد **Kranus**.

(٦) ثلاثة مجلدات، مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠.

(٧) تحقيق محمد كامل حسين ومصطفى حلمي، القاهرة ١٩٥٢.

(٨) حققه يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٠ (ط، المعهد الفرنسي بالقاهرة).

(٩) في ٨ أجزاء توجد في مكاتب الشيعة الخاصة، الصليحيون، ص٢٦١ وما بعدها.

(١٠) المقدمة ص٣٧٠ وما بعدها، وكتب التصوف انظر. بعده: الكاشي، اصطلاحات الصوفية، الخططط ٤ ص ١٧١ وما بعدها.

Ency, (art Tassweff) t, p717, (art Madjhub) t3, p99

الثياب الفاخرة- أو من الصفاء وهو صفاء النفس، أو من الصف الأول من المؤمنين، أو من صفة مسجد النبي لأنه حوى الفقراء. وربما يكون أصلها هنديا، حيث أن الأفكار البوذية في اليوجا -وهي السيطرة على النفس- قد دخلت الإسلام. ويقابل الصوفي لفظة فقير، أو إخوان، أو صاحب طريقة وله بالله، أو ربما تعني بالفارسية درويش أي فقير، كما وجد اللفظ المغربي مرابط، أي أن يعيش عيشة العكوف والزهد في الرباط.

والتصوف بهذا المعنى كان معروفا عند أتقياء المسلمين من الصحابة والتابعين، وقد حض القرآن عليه لما فيه من تقرب لله واطمئنان للنفس[(١)].

ولكن إقبال الناس على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده، جعل جماعة تحل مكان الصحابة والتابعين، وأصبحت لها طرق خاصة في أخذها الحياة، أطلق عليها التصوف، ويقال لواحدهم متصوف أو صوفي. كذلك ما لبثت هذه الطرق أن تطورت إلى علم مدون، عمل أناس كثيرون على الكتابة فيه.

وقد كان أساس التصوف البعد عن العالم الدنيوي بما فيه من منكوحات ومطعومات، والتحكم في النفس، حتى تصل إلى حد موت القوى الحسية. لأن الوجود في رأيهم خيالا وسرابا، والهدف من الحياة هو تطهير النفس ومحاولة السمو بها شيئا فشيئا، حتى تتشبه بالعالم الإلهي. فمنهم من لا يأكل إلا ما يمسك عليه رمقه، ومنهم من لا يتزوجون أو أن يتزوج في الظاهر وهو ما عرف بالزواج الصوفي بأن يطلق قبل الدخول، وبعضهم يأتي بأفعال غريبة مثل حلق رأسه ولحيته وحاجبيه ورموش عينيه، حتى ينفر منه الناس، ويتهيأ له الابتعاد التام عن الماديات. وكان معظمهم يتبعون نظام المحاسبة على أعمالهم، والغزالي يسمح باستخدام الجريدة، بقصد المحاسبة وكتابة أعماله اليومية من حسنات وسيئات. كذلك كانوا عموما يلبسون الخرقة المعروفة بخرقة التصوف لأنها من الصوف، دلالة الزهد، كما يضعون على رؤوسهم فوطة (عمامة).

وقد كان سبيلهم إلى ذلك فيما عبروا عنه (بالارتياض) أو (الرياضة) أو (المجاهدة) — أي أخذ النفس بشدة. ويكون ذلك على عدة مراحل (مقامات)، أساسها صفات عالية من توبة وصبر وتوكل ورضاء، وتزكية للنفس. كما أن بعضهم يرى أن الجنون بمعنى الحماس

---

(١) القرآن ٣: ١٤

Essai sur Ies origins du, Massignon

الفياض، أو طغيان الشعور على العقل وأقصى ما يصل إليه الصوفي الوله بالله. فكان ذلك بقصد الاتحاد بالله أو الحضرة الإلهية[1]، أو أيضا (الفناء) في الله، أو البقاء بالله، بحيث لا يصبح هناك تمييز بين النفس والله، وهو ما عبروا عنه بالوصول إلى الحقيقة[2]. وهي صفات الله، أو الحق[3] وهو ذاته. وقد يؤدي بهم الوصول إلى هذه الدرجة إلى ما يعرف بالتجلي أو الكشف أو كشف المحجوب –أي تجلي الذات على نفسه- مما قد يؤدي بالتالي إلى الكرامات والخوارق. وقد نعى المعتزلة على المتصوفة اتحاد المخلوق مع خالقه -الحلول- مما يوجد للخالق صفة (تشبيح) تشبيه.

وفي فترة متأخرة ظهرت لكل جماعة متصوفة طريقة في إيجاد الهيام الصوفي، منها: طائفة كان يصحبها التفكير في حجرة مظلمة، وطائفة ترى التصوف بالتعذيب بأن لا ينام أفرادها إلا نادراً، وطائفة تقوم بإنشاد الأوراد والأحزاب وهي أدعية دينية، تتخلل أغلبها عبارات ذكر الجلالة، مثل: يا لطيف أو الله، بالقلب أو باللسان، وهو ما عرف بالذكر [4]. وقد يصحبها التغني بحب الله أو الموسيقى أو حركات للجسم مما يفضي بهم إلى نوع من الرياضة الأقرب إلى الرقص، وهو ما عرف عندهم بالسماع. وبذلك دخلت الموسيقى إلى هذه العبادة الإسلامية ؛ كما هو الحال بالنسبة للمسيحية ؛ أما الرقص فكان عند قدماء المصريين، أو حتى عند البدائيين. ولا ندري متى أدخل الصوفية الرقص المقدس ؛ وإن سمعنا عنه في مصر زمن الفاطميين ؛ فقد كانوا يرقصون والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة. وقد كان العوام من كثرة رقص الصوفية يظنون أن مذهب الصوفية يقتصر على الرقص، ويعيبون عليهم ذلك ؛ حتى أنه صدر في أيام المماليك قرار يعارض رقصهم [5]. كذلك كانت الصوفية سبحة أو سبيحة [6]، وقد انتشرت بينهم قبل

---

(١) انظر Ency. (art Hadra) t2,p. 220

(٢) انظر Ibid (art Hakika) t2, p.237-8:2 ed, t3, p.77-8

(٣)انظر Ibid (art Hakk) t1, p.240:2 ed, t3, p.84-85

(٤) القرآن ٣٣: ٢١ ؛ الخطط، ٤ ص ٤٣٣٣ انظر،

Ency. (art Dhikr) tI , p. 983-4

(٥) السخاوي، التبر المسبوك، بولاق ١٨٩٦، ص ٢٢٠، وذلك في سنة ٨٥٢/ ١٤٤٨.

(٦) انظر. الترمذي، دعوات، باب ١١٣ ؛ Le roaaire dans: Gold

Ency. (art Subba) t4 , p. 515 , I'Islam R.H.R Vol XXI , 295 suiv.

انتشارها بين عامة الناس ؛ بقصد التسبيح أو الدعوات.

كذلك كان للتصوف الإسلامي شعر أشهره ما ورد في شعر المتصوفة الإيرانيين، فقد كانت الغزليات والخمريات أحب المنظومات لشعراء الصوفية، وهي تتناول أحلام الصوفية من حب وخمر. فقد كان في رأيهم أن عشق الله هو العشق الحقيقي ؛ بينما أن أي شيء آخر هو عشق المجاز. فكانوا يعبرون عن ذلك بمختلف المعاني ؛ حتى عرفوا بأهل المعاني. وهذا تطور للعلاقة بين الله والإنسان ؛ فلم تعد الخشية هي حبه لله، وإنما حبه لذات الله ؛ بقصد الوصول إلى الإنسان الكامل [(١)]، الذي يجمع في نفسه الله والكون. وبسبب هذه الغزليات والخمريات أتهم الصوفية بأنهم قوم متهالكون على الشهوات الحسية واللذات العملية [(٢)]. والبدع الضالة لكن هذه التهم التي ألقيت على رجال التقوى من الصوفية هي تهم غير حقيقية. من وجهة نظرهم لأن الألفاظ الغزلية والخمرية ما هي إلا رموز للحب الإلهي ؛ إذ كلامهم بالله ولله ومع الله. كذلك جاء الهجوم عليهم من المتزمتين مثل الحنابلة، الذين كانوا ينعون عليهم التأمل أكثر من العبادة.

وقد وجد للمتصوفة أماكن للعزلة وطمأنينة البال تشبه الأديرة ؛ عرفت بأسماء أشهرها: المصاطب في عهد الفاطميين، والتكايا والخوانق – أو الخوانك – في عهد الأيوبيين والمماليك – وهما كلمتان فارسيتان بمعنى مكان العكوف – أو حتى باسم الرباط والزوايا والصوامع. والفرق في أصل هذه التسميات هي على حسب المكان الذي توجد فيه ؛ فمثلاً في المغرب غلمب عليها اسم الرباط، ولا يوجد بها اسم خانقاه.وقد انتشرت أماكن الصوفية في كل مكان ابتداءً من القرن الخامس الهجري ؛ حتى أنه كان في المغرب منها حوالي سبعمائة [(٣)]. وقد أصبح لمثل هذه الأماكن نظام معماري خاص [(٤)]، فهي تشتمل على الخلوات مفردها خلوة، ويوجد بها الجامع، والمطبخ، والحمام، ومكان برسم ضيافة

---

(١) ابن العربي، فصوص، فصل (١) ؛ انظر

Ency. (art al – lusan al – kamil) t2 , p. 542 – 3.

(٢) عبد الله الحسيني، النزاع بين الصوفية والفقهاء، رسالة ماجستير بالقاهرة ١٩٤١.

(٣) المقدسي، أحسن التفاسيم (B.G.A , 1877)، ص ٢٣٨ س ١٥.

(٤) مثلاً: الخطط، ٤ ص ٢٨٥ ؛ السلوك، ٢ ص ٢٦١ س ٩-١١ ؛ انظر. فراي، في الثقافة الإسلامية، جمع خلف الله، ص ٣٥٦ وما بعدها.

الواردين. وربما كان في بعض الخوانق فساد ؛ إذ لدينا ذكر وجود حمام للنساء فيها [1]. كذلك أصبح لهذه الأماكن نظام متدرج خاص عل حسب تقواهم، على رأسهم شيخ يسمى: قطب أو شيخ الشيوخ أو شيخ السجادة دليل تقواه، يأتي بعده المريدون والأخوان وغيرهم ؛ كما يوجد أيضاً الخدم والقراء والجند. وقد كانت الدولتان الأيوبية والمملوكية تهتمان بهذا النظام وتغدقان عليه؛ فتصرف للمتصوفة في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وحلوى وكسوة وأردية؛ وفي رمضان تبيض لهم القدور.

ومن الطرق الصوفية المشهورة [2]، نذكر: القادرية أو الجيلانية أو الكيلانية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني [3]، (ت ٥٦٠/ ١١٦٦)، والكيزانية نسبة إلى ابن ثابت المصري[4] (ت ٥٦٢/ ١١٦٧)، الذي كان يعمل الكوز، وقد انتشرت فرقته في مصر، والرفاعية نسبة إلى أحمد الرفاعي [5] (ت ٥٧٨/ ١١٨٣)، والشاذلية نسبة إلى عليّ الشاذلي التونسي [6] (ت ٦٥١/ ١٢٥٣)، والمولوية أو الجلالية أسسها الشاعر جلال الدين الرومي[7] (ت ٦٧٢/ ١٢٧٣)، ويسميهم الأوروبيون المتجولين أو الراقصين أو الدائرين، والأحمدية نسبة إلى أحمد البدوي [8] (ت ٦٧٥/ ١٢٧٦)، والنقشبندية الذين ينتسبون إلى

---

(١) الخطط، ٤ ص ٢٨٦ س ٣. كذلك كان لبعض الصوفية نساء. ابن قغرى بردى، مورد اللطافة، ص٧٦.

(٢) انظر **Ency. (art Tarika) t4 p. 700-705**

(٣) الشطانوفي، بهجة الأسرار، القاهرة ١٣٠٤هـ ؛ انظر

Ency. (art Kadiriy) t2 p. 647 aqq

(٤) النجوم، ٥ ص ٣٦٧-٨ (يقول سنة ٥٦٠ هـ) ؛ وفيات، ٢ ص ٣٩١ ؛ انظر. كامل حسين، بين التشيع وأدب الصوفية بمصر، فصلة من مجلة كلية الآداب، الجزء الثاني، المجلد ١٦، ديسمبر ١٩٥٤، ص ٥٣ وما بعدها.

(٥) أبو الهدى الرفاعي، تنوير الأبصار، القاهرة ١٣٠٦ هـ ؛ انظر

Ency. (art al-Rifai) t3 , p 1236-7.

(٦) عنه، انظر **Ency. (al-Shadhili) t4 , p. 256 , (art Shadhillya) t4 , p. 256-9**

(٧) جلال الدين الرومي، مناقب العارفين، ترجمة **Huart**، بعنوان:

Les Saints Des Derviches Tourneurs , Paris. 1918-22.

Ency. (art Maulawly) t3 , p. 476-481 , (art Galil al-Dia) tI , P, 1033-4.

(٨) الخفاجي، النفحات الأحمدية والجواهر الصمدانية، القاهرة ١٣٢١ هـ ؛ انظر

Ency. (art Ahmed Al-Badawi) t1. p. 196-9

بهاء الدين نقشبند[١] (ت ٧٩١/ ١٣٨٩)، أو لأنهم كانوا يضعون النقش في جسمهم، أو من النقش الأبدي ؛ وغير هؤلاء كثيرون.

ولدينا أعداد كبيرة من أسماء المتصوفة، حتى أن أحد المؤلفين المتقدمين جمع أسماءهم في عشر مجلدات[٢]، وفيما يلي ذكر أشهرهم من أصحاب الأسماء اللامعة، مثل: الحسن البصري[٣] (ت ١١٠/ ٧٢٨)، ورابعة العدوية[٤] (ت ١٨٥/ ٨٠١)، وأبو يزيد البسطامي[٥] (ت ٢٦١/ ٨٧٤)، والحلاج[٦] (ت ٣٠٩/ ٩٢٢)، وابن الفارض المصري[٧] (ت ٦٣٢/ ١٢٣٥)، وابن العربي[٨] (ت٦٣٨/ ١٢٤٠)، وجلال الدين الرومي[٩] (ت٦٧٢/ ١٢٧٣)، وغيرهم.

كذلك عمل عدد من الكتاب على التأليف في علم التصوف، وأخذ بيده شخصيات إسلامية كبرى، ليس فقط من بين المتصوفة، وإنما أيضا علماء من كل لون ولا سيما من علماء الكلام والفلاسفة، الذين كانوا يرون أن التصوف مذهب عقلي[١٠]. فنذكر منهم الحلاج

---

(١) عبد الماجد الخاني، الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، القاهرة ١٣٠٦هـ ؛ انظر

Ency. (art Nakshband) t p. 899-900.

(٢) أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠/١٠٣٨)، كتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، تحقيق مصر ١٣٥١/ ١٩٣٢ وما بعدها.

(٣) وفيات، ١ ص ٢٢٧ – ٢٢٩ ؛

Ency. (art al-Hasan) t2 , p 290

(٤) نفسه، ١ ص ٣٢٣-٣٢٥ ؛ انظر

Ibid (art Rabl'a) t3 , p. 1165-7

(٥) الرسالة القشيرية، ط. مصر ١٣١٥، ص ١٤٠.

(٦) نفسه، ١ ص ٢٦١-٢٧١ ؛ انظر

Ibid (art al0Halladj) , t2 , p. 254-255.

(٧) له ديوان، ط، مصر ١٢٨٩ هـ عنه، انظر. وفيات، ٢ ص ٩٩-١٠٠ ؛

Ency. (art Omar B , Ali) t3 p. 1047-8.

(٨) له ديوان باسم: ترجمان الأشواق، تحقيق وترجمة **Nicholson**، ط.**London**، ١٩١١، وله طبعة بولاق ١٢٧١هـ، وبومباي ١٨٩٠. عن ابن العربي، انظر. **Ency. (art ibn al-Arabi) t4, p 383-4**

(٩) انظر، قبله.

(١٠) مثلا، انظر. عبد الحليم، التصوف عند ابن سينا، القاهرة. انظر تاريخ الشعراني ذيل لواقح الأنوار

(ت٣٠٩/ ٩٢٢): كتاب الطواسين[١]، والطوسي (ت٣٧٨/ ٩٨٨): اللمع في التصوف[٢]، والهجويري (ت٤٦٥/ ١٠٧٢): كشف المحجوب[٣]، والقشيري (ت ٤٦٥/ ١٠٧٦٣٨٢): الرسالة القشيرية في علم التصوف[٤]، والغزالي (ت٥٠٥/ ١١١٢)، المنقذ من الضلال[٥]، والسهروردي (ت٦٣٢/ ١٢٣٤-٥): عوارف المعارف[٦]، وابن عربي (ت٦٣٨/ ١٢٤٠): فصوص الحكم[٧]، وغيرهم.

الفرق الإسلامية:

نشأة الفرق: ظلت الخلافة هي المسألة الأولى التي اشتد حولها الخلاف بين المسلمين، وتشبعت فيها آراؤهم[٨]، وكان من أثر هذا الاختلاف أن نشأت أهم الفرق الإسلامية في العصر الأول، وهي:

الشيعة: وهم الذين يرون أن عليا كرم الله وجهه أحق بالخلافة بعد رسول الله ﷺ.

الخوارج: وهم يقولون: إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين.

المرجئة: وهم الذين كرهوا هذا الخلاف واجتنبوا الفريقين، وأرجئوا الحكم فيها لله

القدسية في طبقات العلماء الصوفية، مخطوطة بدار الكتب برقم ٤٩٣ (تاريخ).

(١) تحقيق **Massignon**، ط. باريس ١٩١٣.

(٢) تحقيق وترجمة **Nicholson**، ط. **Leiden**، ١٩١٤، وحققه عبد الحليم وطه عبد الباقي، القاهرة.

(٣) هو نص فارسي، تحقيق، ١٩٢٦، وترجمة **Nicholson** ١٩١١.

(٤) ط. القاهرة ١٣١٥هـ.

انظر

Al-Kuschairi Daratelling: Hartmann

Dea Sufimtus Bedin, 1914.

(٥) تحقيق عبد الحليم محمود، القاهرة ١٩٥٢.

(٦) هو نص فارسي، ترجمة إنجليزية، ط لندن ١٨٩١. عن السهروردي، انظر. وفيات، ١ ص ٥٣٥، ويوجد مطبوعا على هامش إحياء للغزالي، القاهرة ١٣٠٦.

(٧) نشره وعلق عليه أبو العلا عفيفي، القاهرة ١٣٦٥/ ١٩٤٦. ولأهمية هذا النص له شرح من عبد الغني النابلسي بعنوان: شرح جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص، مطبعة الزمان ١٣٠٤هـ.

(٨) يقول الشهرستاني في الملل والنحل: (ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان) ص٣٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران.

تعالى وحين كثرت الفتوح، وانتشر الإسلام، ودخل فيه كثير من أهل الملل والنحل الأخرى، ظهرت أفكار جديدة من أهل هذه الديانات والنحل، صيغت في ثوب دينهم الجديد. ولما كان العراق مجمع كثير من الديانات والحضارات، وملتقى عديد من الأمم والجماعات، ظهر في كثير من الملل والنحل، فقامت جماعة تقول بحرية الإرادة، وعلى رأسهم معبد الجهني، وتكونت منهم فرقة القدرية، كما وجدت فرقة الجبرية الذين يسلبون الإنسان إرادته، وعلى رأسهم جهم بن صفوان كل هذه التباينات ولدت مرحلة اضطراب وحراك فكري خاصة بعد أن تبلبلت أفكار كثير من الناس واضطربت، فكان لا بد من رد فعل لهذا الاضطراب الفكري. فقامت جماعة من الأعلام الذين شرح الله صدورهم للدفاع عن دينه، يبينون للناس العقيدة الصحيحة، ومن أشهر هؤلاء الحسن البصري (ت ١١٠هـ) إمام أهل السنة في زمانه، فقد كافح وأبلى في ذلك بلاء حسنا، وكان من تلاميذه واصل بن عطاء (ت ١٨١هـ)، الذي اختلف معه واعتزله، وكان من أثر هذا الاختلاف أن تكونت فرقة المعتزلة التي كان لها الفضل الكبير في الدفاع عن العقيدة، أوائل القرن الثاني الهجري.

وفي أواخر القرن الثالث ظهر الإمام أبو منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ) وكان من المبرزين في الرد على أهل العقائد الباطلة، وعرف أتباعه بالماتريدية كذلك ظهر الإمام أبو الحسن الأشعري (ت ٣٣١هـ) الذي انفصل عن المعتزلة، وأعلن آراءه التي صادفت قبولا من جلة العلماء، ومن هنا وجدت فرقة الأشاعرة. ومن الماتريدية والأشاعرة تكونت جماعة أهل السنة.

الشيعة[١]:

الشيعة هم أصحاب الرأي القائل بأولوية آل بيت النبي ﷺ بالخلافة، وأحق آل البيت هو علي كرم الله وجهه[٢]، وهم أقدم الفرق الإسلامية، فقد بدا القول بأحقية علي بالخلافة عقب وفاة النبي ﷺ.

---

(١) الشيعة: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره –القاموس، والشيعة تطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم- مقدمة ابن خلدون ج٢ ص٥٢٧.

(٢) كان أقرب آل بيت النبي ﷺ إليه بعد موته من أعمامه العباس، ومن بني عمه علي وعقيل ابنا أبي طابي، ويمتاز على من بينهم يسبقه إلى الإسلام، وشهوده مشاهد النبي ﷺ، وبلائه في ذلك، وتزوجه بابنته فاطمة، ويمتاز العباس بأنه العاصب الوحيد للنبي ﷺ إن كان هناك إرث.

وقد خمد هذا الرأي مدة خلافة الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفي آخر عهد عثمان ﷺ ظهر أصحاب هذا الرأي بمذهبهم، ثم نما وترعرع في زمن علي كرم الله وجهه. ولما له ﷺ من منزلة ممتازة في الإسلام، أخذ أتباعه وأشياعه ينشرون مذهبهم بين الناس ولما جاء عصر بني أمية، ووقعت المظالم بآل علي، وحل بهم من القتل والتمثيل ما أدمى القلوب، وأبكى العيون، كان ذلك مما زاد النار تأججا، والقلوب تأثرا فانتشر المذهب الشيعي وكثر أتباعه.

مبادئ الشيعة: الشيعة جميعا يعتقدون أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم. بل هي من أركان الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفالها، ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن عليا ﷺ هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها، ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، التي لا يقرها جهابذة أهل السنة، ولا نقلة الشريعة، بل اعتبروا أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة[1] وحول قول الرسول ﷺ من كنت مولاه فعلي مولاه ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولقب علي ﷺ بالوصي يريدون أن النبي ﷺ، فمن عاداه أو حاربه فهو عدو الله إلا إذا ثبتت توبته، ومات على حبه.

دوافع انتشار التشيع:

١ . حب آل البيت حبا خالط شغاف القلوب واعتمادهم على التأويل في مذهبهم.

٢ . تأخر وصول الإسلام إلى مناطق شرق دولة الخلافة الإسلامية. ولجوء بعض أئمة الشيعة إلى هذه البلاد.

٣. تأثر أصحاب هذا المذهب بالفلسفة اليونانية تأثراً واضحاً انعكس على مذهبهم.

٤ . الحب الكامن في نفوسهم لبلادهم، و أوطانهم الأولى، ورغبتهم في استقلالها، وخروجها عن الدولة الإسلامية من خلال تغليب الجانب القومي على الديني.

---

(١) الشهرستاني ص١٣١ تخريج الأستاذ بدران القسم الأول، مقدمة ابن خلدون ج٢ ص٥٢٧ فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص٣١٣.

٥. أثر الجذور القديمة للديانات السابقة للإسلام. كونت مدخلاً خصباً لظهور بعض الآراء الزائفة. كالقول بالرجعة، والحلول، والتناسخ، والتجسم، والتشبه. وقد افترقت الشيعة إلى طوائف عدة: منها من باد وانقرض بمرور الأيام، ومنها من اندمج في غيره، ومنها من ذاب في الفرق الأخرى، ومنها ما لا يزال باقيا إلى يومنا هذا.

وكان الباعث على الافتراق مبادئ هامة منها:

اختلاف وجهات النظر في المبدأ الشيعي، فقد كان منهم المسرف في تشيعه إلى حد تقديس الأئمة، بل قد غلا بعضهم في ذلك إلى حد التأليه، ومنهم المعتدل الذي اقتصر على تفضيل علي على بقية الصحابة، واعترف بصحة إمامة المفضول مع وجود الفاضل، وأن الخطأ في ذلك لا يصل إلى حد الكفر أو الفسق كذلك تباينت آرائهم فيمن يكون إماما من أولاد على وبنيهم، أفرع الحسن أم فرع الحسين، أم فرع محمد بن الحنيفة إلى غير ذلك مما رأوا.

آثار التشيع: كان لظهور الشيعة وانتشار مذهبهم آثار سياسية، واجتماعية، ودينية بعيدة المدى، منها:

(١) المغالاة في حب علي وآل بيته رضي الله عنهم حتى قالوا فيه ما لم يرده، وما لم يأذن به الله، وغالوا في ذلك حتى ألهوه، وقد حرق علي رضي الله عنه بالدار من ذهب فيه في ذلك القول، وسخط محمد بن الحنيفة على المختار ابن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه، فصرح بلعنته والبراءة منه، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله عنه بلغه بمن بلغه مثل هذا عنه[١].

(٢) اعتمادهم على نظرية النص أو الوصية في الخلافة الأمر الذي جعل الأمويين في نظرهم مغتصبين للخلافة، ولم يقروا لهم بها، وقاوموهم وثاروا عليهم ؛ لأنهم يرون أن كل من خلف عليا من الخلفاء من غير أسرته مغتصب للخلافة.

(٣) اعتبروا العباسيين مغتصبين للخلافة حسب نظريتهم ومخادعين لهم دونهم، لولا اتحادهم معهم ضد الأمويين لما مهد الطريق امامهم للخلافة.

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٣٢.

(٤) حدد الشيعة هدفهم الوصول إلى الخلافة وزعامة العالم الإسلامي، الأمر الذي أوقعهم في عداء مستمر مع دولة الخلافة.

(٥) استطاعوا إقامة دول شيعية في المغرب. منها دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله، كذلك أقاموا دويلات أخرى في المشرق انفصلت عن الدولة العباسية واستقلت عنها مما كان من أسباب ضعفها.

(٦) أقاموا في المشرق الدولة الفاطمية الشيعية، وأسسوا القاهرة التي نافست بغداد السنية. وأنشأوا الجامع الأزهر ليكون مقرا لنشر مذهبهم الشيعي.

طوائف الشيعة: افترقت الشيعة إلى طوائف عدة أهمها:

الرافضة: سموا بذلك لأن زيد بن علي بن الحسين رفض لعن أبي بكر، وعمر، وعثمان، ورفض أي رأي من يقول بذمهم[1].

الكيسانية: الذين ينتسبون –على الأرجح- إلى كيسان رئيس جند المختار بن أبي عبيد الثقفي.

الزيدية: نسبة إلى زيد بن علي (زين العابدين) بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

الإمامية: وهم يقولون: بإمامة علي ﷺ عن النبي ﷺ نصا ظاهرا وتعيينا صادقا، ثم تنتقل منه بعد وفاته هكذا إلى بعده من ذريته.

الفرق الباقية للشيعة (الزيدية والإمامية)

الزيدية: ينتسبون إلى زيد بن علي، ومذهبهم أعدل مذاهب الشيعة إطلاقا، وهم أقرب طوائف الشيعة إلى مذهب جماعة المسلمين، وأهل السنة لأنهم لم يغلوا في دينهم ولم يكفر الأكثرون منهم أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ ولم يرفعوا الأئمة إلى مرتبة الألوهية، ولا إلى مرتبة النبوة.

نشأتهم:

في خلافة هشام بن عبد الملك في بدء القرن الثاني للهجرة عرف عن زيد نفور من

---

(١) راجع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي.

ظلم الأمويين وتطلعه للخلافة، وعرف هشام منه ذلك، وقد روى أنه دخل يوما عليه فسخر منه، وقال له. لقد بلغني أنك يا زيد تتمنى الخلافة لنفسك، ولست لها أهلا فأنت ابن أمة. فأجابه زيد: يا أمير المؤمنون لقد كان إسحاق ابن حرة، وإسماعيل ابن أمة، فاختص الله إسماعيل بجعل العرب من سلالته، وجعل من سلالة العرب محمدا ﷺ، وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يحب زيدا ويميل إليه، وروى أنه كان نفتي بنصرته والخروج معه وفي سنة ١٢١هـ اعتزم زيد الخروج على هشام، فحاول خاصة أهله ونصحاؤه أن يثنوا عزمه عن هذه المخاطرة، وبينوا له غدار أهل الكوفة بجده الحسين من قبله لكنه أبى، وأصم أذنيه، وخرج والتحم بجيش هشام فقتل سنة ١٢٢هـ.

مذهبهم: (أ) الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالاسم، وأوصاف الإمام أن يكون فاطميا، عالما زاهدا، مجتهدا، جوادا، شجاعا، ويخرج داعيا إلى إمامته[١].

(ب) لا يقولون بالتقية، ولا بعصمة الأئمة، ولا باختفائهم.

(جـ) يجوزون إمامة للفضول مع وجود الفاضل، لأن هذه الصفات للإمام الأمثل فهو بها أولى من غيره، فإن اختار أهل الحل والعقد إماما لم يستوف الشروط وبايعوه صحت بيعته، وبنوا على ذلك صحة بيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وعدم تكفير من بايعهما من الصحابة، وقد كان هذا الأصل الذي نادى به زيد سببا في خذلان كثير من الشيعة له.

(د) مرتكب الكبيرة عندهم مخلد في النار ما لم يتب توبة نصوحا، وهذا القول أثر من آثار تلمذة إمامهم لواصل بن عطاء، كما أن القول به كان من أسباب خروج كثير من الشيعة عليه[٢]، ولا يزال مذهب الزيدية في اليمن إلى الآن.

الإمامية: هم القائلون بإمامة علي ﷺ بعد النبي عليه السلام نصا ظاهرا، وتعيينا صادقا من غير تعريف بالوصف بل إشارة إليه بالعين[٣].

وسموا إمامية نسبة إلى مقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه، في الإيمان، وهي

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٣١، الشهرستاني ص١٣٧ تخريج الأستاذ بدران.

(٢) راجع الشهرستاني تخريج الأستاذ بدران القسم الأول.

(٣) الشهرستاني ص١٤٤، من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران.

(أصل عندهم) [1] بل الأصل الذي لا يقبل إيمان بدونه، ومذهبهم منتشر في العراق، وإيران، والهند.

مذهبهم: أولا: النص على الإمام وتعينه بالذات، ولهذا نص النبي ﷺ على إمامة علي ﷺ، لأنه ليس في الدين والإسلام أمر أهم من تعيين الإمام حتى تكون مفارقته الدنيا على فراغ قلب من أمر الأمة، فإنه إنما بعث لرفع الخلاف، وتقرير الوفاق، فلا يجاوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملا، يرى كل واحد منهم رأيا، ويسلك كل واحد منهم طريقا لا يوافقه في ذلك غيره، بل يجب عليه أن يعين شخصا هو المرجوع إليه، وينص على واحد هو الموثوق به، والمعمول عليه، وقد عين عليا ﷺ في مواضع تعريضا، وفي مواضع تصريحا[2].

تخطوا عن هذه الدرجة إلى الوقيعة في كبار الصحابة: طعنا وتكفيرا، وأقله ظلما وعدوانا[3].

ثانيا: جعلوا سلسلة الخلافة بعد علي في أولاد فاطمة، فاتفقوا على إمامة الحسن والحسين وعلى زين العابدين[4]، واختلفوا بعد ذلك في تسلسل الإئمة إلى فرق متعددة أشهرها: الإسماعيلية، والإثنا عشرية: هم أكثر طوائف الإمامية عددا، وأظهرها أثرا في تاريخ الإسلام وسموا بهذا الاسم، لأنهم يسلسلون أئمتهم إلى اثني عشر إماما هم:

(١) علي، (٢) الحسن، (٣) الحسين، (٤) علي زين العابدين، (٥) محمد الباقر، (٦) جعفر الصادق، (٧) موسى الكاظم، (٨) علي الرضا، (٩) محمد الجواد، (١٠) علي الهادي، (١١) الحسن العسكري، (١٢) محمد بن الحسن العسكري، ويلقبونه المهدي المنتظر، ويزعمون أنه دخل في سرداب بسامرا وتغيب سنة ٢٦٠هـ، وسيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا[5]، ولا يزال كثير من الشيعة يحجون إلى هذا المكان إلى الآن.

مذهبهم: تدور بحوثهم، وتتركز حول مسألة الإمام، ويعنون به الذي يجب أن يتولى أمور المسلمين دينا ودنيا، ومحور الخلاف بينهم وبين أهل السنة لا يعدو هذه المسألة، وما

---

(١) راجع في ذلك المرجع السابق ص١٤٥، مقدمة ابن خلدون ص٢٣١.

(٢) راجع في ذلك الشهرستاني ص١٤٤، مقدمة ابن خلدون ص٢٣١.

(٣) الشهرستاني ص١٤٥.

(٤) المصدر السابق ص١٤٦.

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٣، الشهرستاني ص١٥٠ من القسم الأول تخريج الأستاذ بدران.

تفرع عنها من اختلاف وجهة النظر في تفسير القرآن والحديث، ويوضح رأيهم في الإمام وقداسته ما ورد في كتاب الكافي للكليني وهو الكتاب المعتبر عندهم كالبخاري عندنا، ومما جاء فيه: (الفرق بين الرسول، والنبي، والإمام، أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل، فيراه ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع، والإمام هو الذي يسمع الكلام، ولا يرى الشخص).

(القول بالتقية، ومعناها أن يحافظ المرء على نفسه وماله، وكل ما يتصل بعقيدته أو يمت لها بسبب من قريب أو بعيد، فإن لم يكن صاحب صولة ومنعة دارى الأقوياء وأظهر متابعتهم، ومع هذا يعمل في الخفاء كل ما يراه محققا ما يرمي إليه من أهداف، فهو يظهر خلاف ما يبطن) وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة إيران[1].

الخوارج: لما رأى معاوية أن الدائرة ستدور عليه في موقعة صفين عمد إلى السياسة فأمر جنده برفع المصاحف، ونادى بأن يحتكم الفريقان إلى كتاب الله تعالى، ولم يطمئن علي إلى دعوة معاوية، وتردد في قبولها. ثم قبلها أملا في حقن الدماء، وإعادة الوئام بين المسلمين، ولكن فريقا ممن معه –وأكثرهم من قبيلة تميم- لم يرض بهذا التحكيم، وقالوا كلمتهم المشهورة: (لا حكم إلا لله)، ولا نحكم أحدا في كتاب الله تعالى، وانشقوا على علي ﷺ، وخرجوا عليه، فسموا (الخوارج) وذهبوا إلى حروراء (وهي قرية بظاهر الكوفة)، وسموا بالحرورية كذلك، وأمروا عليهم رجلا منهم اسمه (عبد الله بن وهب الراسبي)[2]، وقد حاربهم علي ﷺ، وهزمهم في موقعة النهروان وأفنى منهم نحو ثلاثة آلاف، ولكن لم يقض عليهم، فظلوا في حروب دامية مع الأمويين، ثم هان أمرهم في زمن العباسيين.

مبادئهم: مبادئهم وخطرهم:

١- أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين.

٢- إذا اختير الإمام، فلا يصح أن يتنازل أو يحكم.

٣- ليس من الضروري أن يكون الخليفة من قريش، فالخلافة حق بين جميع المسلمين على السواء حتى الأرقاء، وبذلك خالفوا الشيعة، كما خالفوا جماعة المسلمين في هذا الموقف.

---

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين.

(٢) الراسبي نسبة إلى راسب بطن من الأزد.

٤- على الخليفة أن يخضع لما أمر الله، وإلا كان الخروج عليه حقا واجبا، ثم تطورت آراؤهم، ومزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث دينية.

٥- الإيمان عندهم ليس اعتقادا فقط، ولكنه اعتقاد وعمل، ومرتكب الكبيرة كافر، وبذلك يمكن القول بأن الخلافة، وتكفير مرتكب الكبيرة هما المسألتان الرئيسيتان في مذهب الخوارج(١) هذا وكان كان لظهور هذه الفرقة آثار سياسية واجتماعية أخطرها:

أنهم مثلوا خطرا مستمرا هدد المسلمين، وأقلق الخلافة، وكانوا سببا في كثير من الحروب الدامية لاعتمادهم الأسلوب الدموي وسيلة لتحقيق أهدافهم. وتدخلهم في العقائد، وتكفيرهم مخالفيهم.

فرق الخوارج: افترق الخوارج إلى فرق كثيرة بلغت نحو العشرين فرقة، نذكر أهمها:

* **الأزارقة** وهم أتباع نافع بن الأزرق، وهو من أكبر فقهائهم، وفرقته أكثر فرق الخوارج تعصباً، وأشدهم شوكة، وكانوا يرون تكفير كل المخالفين لهم، ويجيزون قتلهم، ويستحلون قتل أطفالهم ونسائهم، ولا يجيزون التقية لا في قول ولا في عمل، لأن الله يقول: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

* **الصفرية**- أتباع زياد بن الأصفر، ويوافقون الأزارقة إلا أنهم لا يستحلون قتل النساء والأطفال، ويجيزون التقية في القول دون العمل.

* **الأباضية** نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمي، ونزعتهم أميل إلى المسالمة والاعتدال، لأن تكوينهم كان في أخريات الدولة الأموية بعد أن صهرتهم الحرب، وأفادوا من تجارب أسلافهم، فلم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالأزارقة، وقالوا: لا يحل قتال غير الخوارج، وسبيهم في السر غيلة ولا يجوز قتالهم إلا بعد الدعوة، وإقامة الحجة، وإعلان القتال إلخ(٢). وما زالت لهم بقية في شمال إفريقية وفي (نزوى-عمان) ولهم فيها إمام يزعم لنفسه أنه إمام المسلمين(٣).

---

(١) كان ذلك في أيام عبد الملك بن مروان، وأكبر من كان له أثر في ذلك الأزارقة فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص٣٠٤.

(٢) راجع اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازي، والشهرستاني القسم الأول.

(٣) راجع كتاب الوحي المحمدي للمرحوم السيد محمد رشيد رضا، وإمامهم الآن غالب بن علي الهنائي،

ويرى نيكلسون[1] أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ، رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ، واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم، وقد لانت قناتهم قليلا، وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب إلى نفوسهم، ويسود أفكارهم حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كان ينتهي بإبادتهم، واستئصال شأفتهم، كما يرى فلم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم هذه، كما لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة، وأمويين، وزبيريين[2].

* **المرجئة:** لما رضي علي كرم الله وجهه بالتحكيم، وانقسم أتباعه إلى شيعة وخوارج، والخوارج كانوا يكفرون عليا وعثمان، والقائلين بالتحكيم، والشيعة كان منهم من يكفر أبا بكر، وعمر، وعثمان ومن ناصرهم، وكلاهما يكفر الأمويين ويلعنهم، فكان ذلك سببا في أن جماعة من الصحابة كرهوا هذا النزاع، وقالوا بإيمان الجميع وإن كان بعضهم مصيبا وبعضهم مخطئا، وما دمنا لا نستطيع تعيين المخطئ والمصيب، فلنرجئ أمرهم إلى الله تعالى، فسميت هذه الجماعة بالمرجئة.

ثم تدرج بحثهم في أمور دينية، فعرفوا الإيمان بأنه معرفة الله ورسوله، ثم تغالوا، وقالوا: إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، والعمل لا أثر له مطلقا، حتى قالوا عبارتهم المشهورة: (لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة[3]) وقد تلاشت هذه الفرقة في العصر الأموي.

* **المعتزلة:** يعود ظهورها إلى واصل بن عطاء الذي صار رأس المعتزلة فيما بعد أن كان أحد تلامذه تلامذة الحسن البصري رحمه الله، لكنه اختلف معه في حكم مرتكب الكبيرة واعتزل مجلسه[4].

وهو يقيم في إحدى حدود عمان بلاده المسلوبة، سلبها سلطان مسقط بمعاونة الإنجليز في سنة ١٩٥٥م، وقد زار أخيرا المرحوم الإمام الشيخ شلتوت شيخ الأزهر واقترح عليه أن تكون الأباضية ضمن ما يدرس في الجامعة الأزهرية.

(١) تاريخ العرب لنيكلسون ص٢١١، نقلا عن كتاب تاريخ الإسلام السياسي للدكتور حسن إبراهيم.

(٢) راجع الدوس الأموية بالمشرق للمؤلف ص٢٤٧-٢٦٠.

(٣)راجع الشهرستاني-اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للإمام الرازي

(٤) في تسميتهم معتزلة آراء منها: قول الحسن البصري: اعتزل عنا واصل، ومنها أنهم اعتزلوا ما كان

مبادئهم: قالوا بنفي صفات الله تعالى القديمة كالعلم، والقدرة، حذرا من تعدد القديم، وقالوا في المنزلة بين المنزلتين، فمرتكب الكبيرة الذي مات، ولم يتب ليس مؤمنا ولا كافرا، وهو مخلد في النار، والعبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه وقالوا زعما باطلا بخلق القرآن، وعدم رؤية الله تعالى في الآخرة، والعقل يدرك حسن الأشياء وقبحها[1].

طوائفهم: كان لهم في العصر العباسي شعبتان: شعبة البصرة التي أسسها واصل بن عطاء. وشعبة الكوفة التي أسسها بشر بن المعتمر (ت ٢١٠هـ). وتفرعت من هاتين الشعبتين فروع كثيرة تختلف في بعض التفاصيل والجزيئات، والمعتزلة كانوا أكثر الفرق اتصالا بالفلسفة اليونانية. وأسرعهم للإفادة منها، وقد اضطرهم إلى ذلك ما انتدبوا أنفسهم له من الحجاج عن الدين وعقائده، والرد على المخالفين من أصحاب الملل والنحل الأخرى، ومن رجالهم الأعلام من يشار إليهم مثل: أبي الهزيل العلاف، والنظام، والجاحظ وغيرهم[2].

أهل السنة: أهل السنة هم أتباع أبي الحسن الأشعري، وأبي منصور الماتريدي، ساروا على طريقة السلف الصالح في فهم العقائد، وجعلوا القرآن الكريم هو المصدر الذي يأخذون منهم عقائدهم، وما اشتبه عليهم من آياته حاولوا فهمها بما توجيه أساليب اللغة، ولا تنكره العقول، ولا يتجافى مع ما عرف من أصول العقائد، فإن تعذر عليهم ذلك توقفوا وفوضوا.

وليس بين الأشاعرة والماتريدية خلاف إلا في بعض المسائل اليسيرة كمفهوم الإيمان والإسلام، ومعنى القضاء والقدر، وغير ذلك مما يكون عادة بين أهل المذهب الواحد ولا يقتضي تخالفا في المذهب.

علم الأدب: النظم والنثر

علم الأدب هو أيضا من العلوم النقلية، لأن العرب عرفوه قبل الإسلام، واعتبر من

معروفا حين ذاك من الآراء في مرتكب الكبيرة، ومنها غير ذلك.

(١) راجع المصدرين السابقين.

(٢) من مقال للمرحوم الدكتور محمد يوسف موسى في دائرة المعارف الإسلامية العدد ١٤ من المجلد الخامس.

العلوم المباحة لاستيحائه من القرآن. ولا نستطيع أن نتتبع بداية الأدب العربي، حيث أنه أقدم من النصوص التي وصلتنا، بينما من الممكن تتبع بداية آداب أخرى كاللاتينية والفارسية. ومع أن المسلمين أخذوا من اليونان علوما كثيرة، إلا أنهم لم يأخذوا شيئا هاما من أدبهم، على الرغم من روعة الأدب اليوناني، كما أن الأدب العربي لم يتأثر بالطابع اليوناني، وإن اطلعوا على بعض الكتب الأدبية اليونانية، مثل كتاب الشعر لأرسطو وسموه بوطيقا[١]، وأن الألياذة والأذيسة –ملحمتي اليونان المعروفتين– قد ترجمتا إلى العربية منذ وقت مبكر[٢]، وعلى العكس فإن الأدب العربي كان له أثره في الآداب الأوروبية، التي تفرعت من الأدبين اليوناني واللاتيني. ولا ريب، فإن الأدب يعبر عن روح الأمة، وكذلك فإن الأدب العربي هو من صميم الروح العربية الإسلامية.

وأصل كلمة أدب مجهولة، فضلا عن تطوره خلال العصر الإسلامي، بسبب أن العرب غيرت حياتها باتصالها بالبلاد المفتوحة، التي كانت لها آداب سابقة، وبانتشار الإسلام بين أهالي هذه البلاد. فكان لكلمة أدب في أول عهد الإسلام معنى ديني يدل على السنة، ثم أصبح يدل على الأسلوب في أي عمل، ثم على الثقافة العامة والأخذ من كل علم بطرف، وإن كان في آخر الأمر اقتصر –بصفة عامة– على الإجادة في فني النظم والنثر[٣].

تطور الشعر العربي (الشعر–والنثر)[٤]

تطور الشعر: شهد الشعر العربي بداية العهد الإسلامي مرحلة هدوء مؤقت عما كان عليه الشعر في الجاهلية لارتباطه بالعصبية والقبيلة، والإسلام أهل رابطة الدين يدل رابطة العصبية. والقرآن الكريم اتهم الشعراء غير الصادقين. بقوله «الشعراء يتبعهم الغاوون» وكذلك قول الرسول ﷺ (لست بشاعر) ومع ذلك لم يمنعه، بل وجه غرضه

---

(١) ترجمة أبو بشر متى (ت٣٢٨/ ٩٤٠)، حققه **Margoliouth**. بل لدينا عنه شروحا من كبار المسلمين، مثل شرح ابن رشد. انظر.

Ii comment medio di Averroe alla Poetica di Aristotele, 1872: Lasimio

انظر أيضا: المقدمة، ص٤٨٢. يذكر شعراء اليونان بما فيهم هوميروس.

(٢) ترجمتا في عهد المهدي العباسي، انظر **Islamic Culture, p.11, Fyzee**

(٣) المقدمة، ص٤٥٩–٤٦٠.

(٤) ابن خلدون، المقدمة ٤٥٩–٤٦٠، ٤٨٢.

للحق وللدين لقول الرسول ﷺ (إن من الشعر لحكمة). وفي النصف الأول وجه من (القرن الأول الهجري) حدث تطور، أرجع للشعر دولته في مكة والمدينة – بسبب اغتنائهما بعد الفتوح وكثرة الزوار والحجاج. والعلوم التي لم تكن معروفة في ذلك العهد. فظهرت بشكل جديد يلائم المجتمع الجديد. في الغرض والموضوع. وعليه ظهر (الغزل العذري) أو الغزل العفيف. والعشق. فأشهر شعراء هذا العصر عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وكثير عزة وجميل بثينة وقيس بن الملوح[1].

كذلك حدثت نهضة جديدة للشعر بعد انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق. فظهر الشعر السياسي. بسبب انتقال الحجازيين إلى الشام بسبب حركة الفتوح. وتشجيع الخليفة معاوية للشعراء بقوله (اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم)[2]. ولهذا عادت مقاصد للشعر العربي مقاصده القديمة واشتهر عدد من الشعراء في العهد الأموي منهم الأخطل، جرير، الفرزدق، ذو الرمة، ابن قيس الرقيات.

الشعر في عهد الخلافة العباسية. تغير طابع الشعر في هذا العهد خاصة بعد اعتماد الخلفاء العباسية على عناصر غير عربية (فارسية وتركية). وترتب على ذلك تطور الشعر وكثرت المؤلفات حول بحوره وأغراضه، فألف الخليل في المقاصد والمواضع. خاصة بعد حركة النقل والترجمة. وانتقل الناس إلى دراسة الشعر. فوضع الخليل بن أحمد (ت ١٧هـ) قواعد للشعر (بحور الشعر خمسة عشر بحرا) وزاد عليها (الأخفش الأوسط) بحرا واحدا ثم ظهر (علم العروض) الذي حدد الخليل والأخفش أصوله. وقواعده تعددت في هذه الفترة مواضيع الشعر فذكر الخمر محل الأنس، الزندقة، التصوف. ومن أشهر شعراء العباسية في العصر الأول، بشار، أبو العتاهية، أبو نواس، البحتري، المتنبي، المغربي.

وفي العصر العباسي الثاني وبعد نمو القوميات ظهر شعر اتخذ طابعا قوميا ومحليا منه مثلاً: في بلاد فارس ظهر الشعر (باللغة الفارسية) وكتب تاريخ خاصة بهم. وفي الغزل والتصوف اصطنعوا بحورا شعرية جديدة مثل: (المجتث، المضارع، المقتضب، المثنوي). وظهر أيضاً شعر القصص والملاحم المطولة والشعر الصوفي. وأشهر شعراء المثنوية: الفردوسي ت٤١١هـ، عمر الخيام ت٥٢٧هـ، العطار ٦٢٧هـ. الرومي ٦٧٢هـ وفي

---

(١) أحمد بن السراج: كتاب مصارع العشاق ص٩٧- القاهرة/ ١٩٥٦، الأغاني ج١/ ص١٦٧.

(٢) جرجي زيدان: التمدن ج٣/ ١٠٣.

الأندلس اتخذ الشعر شكلا خاصا (منها الموشح) والزجل أو الشعر الزجلي الذي وافق طبيعة المرحلة وتطورها.

النثر:

النثر الفني: لم يظهر هذا الفن إلا بعد تعريب الدواوين في عهد الأمويين. حيث ارتبط ارتباطا شديدا بديوان الإنشاء وكتابة الرسائل. مع أن الكتابة بدأت منذ عهد الرسول ﷺ[1]. لكن نهضة النثر تحددت بظهور كاتب ديوان الإنشاء (عبد الحميد الكاتب) (١٣٢هـ) [2] الذي وضع أسس الكتابة الفنية. وقد بلغت الكتابة الديوانية أوجها في القرن الرابع الهجري الذي يمثله العصر الذهبي للكتابة الديوانية، على يد ابن العميد وقيل أيضا أن الكتابة ختمت بابن العميد. ت٣٦٠هـ[3].

وكذلك ظهر الاهتمام بالكتابة الديوانية من قبل مؤلفين مثل (أدب الكاتب لابن قتيبة) و(أدب الكاتب للصولي) وكتاب الكتاب لابن درستويه، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي وتبع ذلك ظهور نشاط واضح في موضوع النثر وفنونه وأشكاله نتيجة تحول الشعوب المفتوحة إلى الإسلام وإتقانها اللغة العربية. وازدهار حركة الترجمة التي ظهر أثرها في ترجمة الآثار الأديبية الهامة (كليلة ودمنة- وألف ليلة وليلة) [4]. وقد ظهر أثر هذه النهضة في النثر وفنونه في شكل حكايات أو قصص العامة والخاصة أو مقامات أو أمثال، وإن لم تصل إلى حد الرواية فهي ليست تراجيديا أو كوميديا[5]. ومن ناحية أخرى تطورت أساليب النثر العربي فظهر (السجع) وأنواع من النثر الوثني أو لغة الكهنة. ويعد رائد النثر العربي الجديد في الأسلوب الجاحظ.

علم النحو:

النحو لغة: يعني القصد والطريق[6].

---

(١) حميد الله الجردي آبادي. مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة ط القاهرة ١٩٤١.

(٢) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج١/ ٥٥٠-٥٥٢ ابن خلدون المقدمة ص١٩٦، الجهشياري ص٧٢.

(٣) وفيات الأعيان ـج٢-٤٦٣-٤٧٠.

(٤) ابن صاعد ص١٤، حوليات الآداب سنة ١٩٥٩ ص١ وما بعدها.

(٥) الفهرست: ص٣١٣، لسان العرب ج٨/ ٣٤١، الخطط ج٤/ ١٧.

(٦) ابن منظور: لسان العرب ج١٥/ ٣١٠ (مادة نحا).

والنحو اصطلاحا: هو علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمات العربية من حيث الإعراب والبناء. وهو يعد قانون اللغة العربية وميزان تقويمها[1]. وفي ذلك قال أبو سعيد البصري

النحو يبسط من لسان الألكن	والمـــرء تكرمه إذا لم يلحن
وإذا طلبت من العلوم أجلهـا	فأجلها عندي مقيم الألسن

نشأة علم النحو[2]:

تعددت الروايات حول نشأة هذا العلم منها.

قول: إن عليا ﷺ هو الذي وضع أسس علم النحو عند سمع إعرابيا يقرأ قوله تعالى: (لا يأكله إلا الخطائين) والصحيح الخاطئون.

قول آخر: أن عليا ﷺ هو أول من وضع مصدرا لمقاييس هذا العلم واصطلاحاته. ويشترك معه في هذا الجهد (أبو الأسود الدؤلي) الذي دخل على علي ﷺ وبيده رقعة مكتوب فيها: الكلام كله اسم وفعل وحرف.. ورواية أخرى: تنسب هذا العلم إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عندما أصلح أعرابيا قرأ (الله بريء من المشركين ورسوله).

رواية رابعة: أن زياد بن أبيه والي البصرة بعث إلى أبي الأسود الدؤلي طالبا إليه وضع قواعد النحو بعد اختلاط العرب والعجم وكثر اللحن واللكنة. وفي رواية أخرى أن أبو الأسود هو الذي ألح على زياد بن أبيه أن يأذن له بوضع نحو يعرب به كلام العرب.

والراجح أن أبو الأسود الدؤلي هو الذي وضع علم النحو ووضع بعض مصطلحاته.

أسباب نشأة علم النحو: تعددت الأسباب بين العوامل الدينية والاجتماعية

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١/ ١٦٩/ القاهرة ١٩٦٣، ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد: ج٢/ ٤٧٩-٤٨٠.

(٢) انظر: نزهة الألبا ص٤-١٣ ط١٢٩٤هـ. الزمخشري: الكشاف ج٢/ ١٩١. ابن النديم: الفهرست ص٦١ القاهرة ١٣٤٨هـ. فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة علم النحو ص٨٧: ٩٠-٩٢.

وبين العامل القومي والسياسي. لكن أهمها على الإطلاق العامل الديني:

العامل الديني: غرض هذا العلم قراءة القرآن الكريم بصورة مضبوطة بعيدة عن اللحن[1].

العامل الاجتماعي: جاء نتيجة زيادة المد الإسلامي واختلاط العرب بالعجم. وإقبال العجم على تعلم اللغة العربية[2].

العامل القومي: ويكمن في اعتزاز العرب بلغتهم لذلك وضعوا هذا العلم حفاظاً على اللغة من الفساد أو الفناء أو الذوبان في لغات أخرى.

العامل السياسي: مثله عصر معاوية ﷺ الذي تم فيه تشكيل القرآن. ورغبة الأموية في الحفاظ على العربية من اختلاطها بلغات أخرى[3].

مصادر علم النحو[4] الأولية هي: ١. القرآن الكريم ٢. كلام العرب ٣. الحديث الشريف (يُتحفظ عليه لوجود بعض الأحاديث الموضوعة) ٤. القياس

مظاهر الحركة النحوية: هدف هذه الحركة هو صيانة الأسلوب العربي من كل لحن أو تحريف، لذلك جاء الاهتمام بهذا العلم بداية من شعر العرب القديم. وتعدد حلقات النحو واللغة في المساجد لصيانة الألسنة وحفاظا على القرآن الكريم. ثم تلى ذلك العناية بالتراث الجاهلي والإسلامي، من خلال الاهتمام بتعليل الظواهر اللغوية بعد ضبطها وسلامة تراكيبها. ثم ما جد من اختلاط الدراسات النحوية باللغوية وكذلك الاختلافات النحوية في الدراسات القرآنية.

مدارس النحو[5]: اشتهرت في هذا العلم مدرستين هما مدرسة البصرة. وأبرز

---

(١) انظر: فتحي الدجني: أبو الأسود ص٤٢. ابن جني: الخصائص ج٢/ ٨. الجاحظ: البيان والتبيين ج١/ ٧٢، ج٢/ ٢٠٤.

(٢) فتحي الدجني: أبو الأسود ص٤٨، ٥١. ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٢/ ٤٧٨.

(٣) شوقي ضيف: المدارس النحوية ص١٧، ١١، ١٢.

(٤) عبد الحميد حسن: القواعد النحوية ص١٩١-طبع القاهرة.

(٥) انظر: شوقي ضيف: المدارس النحوية ص١٩، ٢٠ مهدي الخوارزمي- مدرسة الكوفة ص٧٤. أحمد كمال زكي: الأصمعي سلسلة أعلام العرب رقم ١٨/ ٢٤٢، الرافعي: تاريخ آداب العرب ج٣/ ٣٣٢.

روادها عبـد الله بن أبي إسحاق (ت١١٧) وتلميذيه عيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ) وأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤هـ). وعماد هذه المدرسة الاستوثاق من المصادر بواسطة الرحلات العلمية. وخاصة إلى الجزيرة العربية. وأشهر علماء هذه المدرسة الأصمعي، الأخفش الأوسط، المبرد، الزجاج.

مدرسة الكوفة: وهي المدرسة الثانية ظهرت بعد البصرة بحوالي مئة عام. ومن أقطابها الرؤاسي وشيخيها (الخليل ويونس) ثم الكسائي. بدأت منهجها مثل مدرسة البصرة. لكنها لم تعتمد على القياس إلا في القليل النادر. واعتمدت على لهجات عرب الأرياف التي رفضتها مدرسة البصرة.

وضمن موازنة بين المدرستين نرى أن: مدرسة البصرة اعتمدت على الرحلة العلمية إلى جزيرة العرب، ورفضت الاعتماد على لهجة عرب الأرياف وساندت الخلافة العباسية لأنها ممثلة للعنصر العربي – واعتمدت مدرسة البصرة على القياس بصورة كبيرة عكس الكوفة التي اعتمدت على القياس في القليل النادر.

ومع هذا فقد تعددت المدارس النحوية إلى جانب المدرستين الرئيستين مثل: مدرسة بغداد، التي غلب عليها منهج مدرسة الكوفة ثم مدرسة الأندلس النحوية. التي بدأت مثل مدرسة الكوفة ثم نهجت منهج مدرسة بغداد.

والمعروف أن علماء العربية قصروا جل اهتمامهم على علم النحو بالدرجة الأولى. ثم مالوا للاهتمام بعلم البلاغة والبيان (البديع) لأن النحو يهتم باللغة من حيث صحتها، والبلاغة هي العلم الذي يعتني باللغة من حيث الحسن والجمال وأشهر علمائها – (معمر وعبد القاهر الجرجاني) كذلك اهتم العرب بعلم العروض: على يد العالم الخليل بن أحمد الفراهيدي. الذي جمع الشعر في (خمسة عشر وزنا) سماها بحور الشعر. ثم أضاف إليها الأخفش (البحر المتدارك) فأصبحت ستة عشر بحرا[1].

---

(١) أنور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة ص٤٣٤-٤٣٨-٤٤٠. مصطفى الشكعة مناهج التأليف ص٦٧-٧٤، ٨٧-٩٠.

الفصل الحادي عشر

العلوم الاجتماعية والفلسفة

العلوم الاجتماعية (علم التاريخ – الجغرافيا– الخرائط)

الفلسفة: خصائصها وفضل المسلمين على الفلسفة

علم التاريخ

لغة: هو سجل الماضي. واصطلاحا. هو معرفة النبلاء والعادات والآثار الماضية والحاضرة. وعرفه الكافيجي: بأنه العلم الذي يبحث عن الزمان وأطواله وعن أحوال كل ما يتعلق به من حيث ذلك وتوقيته.

وعرفه السخاوي: عرفه بأنه فن يبحث عن وقائع الزمان من حيث التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم. وعرفه المؤرخون الغربيون: دراسة تعاقب أحداث الماضي الكبرى. أما المؤرخون في العصر الحديث: عرفوه بأنه معادلة مواردها المتفاعلة (الإنسان+ الزمان- المكان)

تطور علم التاريخ: من العلوم النقلية ارتبط بداية بعلم الحديث. وارتبط أيضا تدوين الحديث بتدوين التاريخ. خاصة في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري. لأسباب منها. ضعف ملكة الحفظ، وابتعاد العرب عن بيئتهم، وتفرقهم في الأرض للفتح والغزو، حاجة العرب الملحة إلى ضبط ونقل أحاديث النبي والسير والأحوال. دخول غير العرب في الإسلام وحاجتهم لتعلم اللغة العربية الأمر الذي زاد في عملية تدوين التاريخ، وكان أوائل المؤرخين في الإسلام من (المستعربين من العجم) لأن العرب من أول الأمر كانت تلحقهم أنفة من انتحال العلم، لكونه من جملة الصنائع[1].

تدوين التاريخ: أول تدوين في التاريخ اعتمد على الحفظ والذاكرة والسماع والمشاهدة. بعد فترة التدوين عن أخبار الجاهلية والعصر الإسلامي الأول. ثم لجأ المؤرخون الأوائل إلى تدوين ما استوعبته الذاكرة بالنقل من فلان عن فلان وهو ما عرف بالأسانيد (رفع القول إلى قائله)[2]. وفي ذلك دلالة واضحة على أخذ التاريخ طريق الحديث في التدوين خاصة في أوائل التأليف[3]. ثم تحول طريق التدوين من السرد والمجرد إلى البحث عن الخبر لذاته على يد العالم ابن خلدون الذي هاجم المؤرخين الأوائل في طريقة

---

(١) كشف الظنون: ج١، ٢٥-٢٦، ٣٢. ابن خلدون، المقدمة ص٢٤، ٤٥١-٤٥٣.

(٢) المقدمة: ص٤٥٢.

(٣) كشف الظنون ج١ ٣٩٠-٣٩١، ٤٢٢.

تدوينهم[١].

لذلك يعد ابن خلدون أول من اتجه في التاريخ إلى نقد الحقائق والبحث عن أسبابها. وأول كاتب في العالم عالج موضوع فلسفة التاريخ[٢] ومن ثم استتبع التحول من جمع الخبر إلى الخبر بذاته وفق أسلوب مرسل يخلو من الشعر.

اشتغل بالتاريخ عدد كبير من المسلمين لأنهم اعتبروه من أحسن العلوم وأشهاها. لذلك ألف فيه الفحول آلاف الكتب التي جاءت بقصد المنفعة والعبرة والحصول على ملكة التجارب. ضمن عناوين مختلفة شكلت فروع علم التاريخ. تضمنت أخبار وسير، مغازي، تاريخ، فتوح ومعظمها مرتب على نظام الحوليات والموضوعات[٣]: ثم ظهرت طريقة جديدة في التدوين بعيدة عن التطويل إلى التقصير، والتصرف من (التقديم والتأخير أو الزيادة والنقصان). وتقليل عدد الأسانيد المطولة. ثم العدول عن الإطلاق في الأخبار والنظرة الشاملة إلى التقييد والاقتصار على جزء معين من التاريخ. وفي الاختصار ظهرت عناوين (مختصر، ذيل، شرح، حاشية لتدل على اعتمادها على مصدر سابق).

ومما زاد في فضل هذا العلم والمشتغلين فيه. قول النبي ﷺ: «من ورخ مؤمنا، فكأنما أحياه». ثم سخا الخلفاء والحكام على المؤرخين الذين ألفوا في عناوين جديدة مثل (الأنساب، التراجم، الطبقات، الوفيات، المعاجم) ومعظمها ينصب على المواليد والوفيات. ثم دعوة القرآن الكريم إلى الاهتمام بدراسة أحوال الماضين، لأن للمسلمين رسالة سامية، ودور ريادي للبشرية وقد زاد في أهميته هذا العلم وربط المسلمين التاريخ بكل العلوم. مثل الأدب، السياسة، الاجتماع، الفقه، الجغرافيا، الرحلات فكان بحق علم العلوم.

فظهرت عناوين مثل (غرائب) (تحفة) (عقود) (در) (نزهة) حديقة. حقائق وخطط وغيرها[٤]. ولما زاد ارتباط التاريخ بالعلوم الأخرى تعرض هذا العلم للعداء، وطالبوا تحديده في القصص والأخبار والأحاديث والأسماء[٥]. فرد عليهم السخاوي بكتابه

---

(١) المقدمة: ص٣، ٧، الطبري، المسعودي، ابن عبد ربه، الثعالبي، البكري.

(٢) المقدمة: ص٢، ٢٢، عنان. ابن خلدون ص١٦٨.

(٣) السخاوي ص٢٩، السيوطي. كتاب التاريخ في علم التاريخ ط ليدن ١٨٩٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان ج١/ ١١، القاهرة ١٩٦٠. انظر السخاوي ص١٧، ٢٨، ٥٠.

(٥) السخاوي: ص٥٠.

(الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ).

تطور التاريخ الإسلامي: لم يعرف العرب بداية رسالة التاريخ بالمعنى الذي ظهر في القرن الرابع الهجري. بل عرفوا فنونا سبقته منها:

١. القصص التاريخية (معلوماتها مشبعة بالأساطير)

٢. التراجم: بدأت بالسيرة ثم انتقلت إلى تصنيف للأشخاص (خلفاء، مفسرين، قراء). ثم اعتمدت بعد ذلك على أساس جغرافي أو طبقي أو على صنف معين من الشعراء أو على أساس هجائي ثم أدب التراجم.

٣. المغازي والسير

٤. الاهتمام بالمآثر والأنساب القبلية

٥. الأخبار والحوليات

٦. التاريخ العام والتاريخ الخاص

٧. طبقات المؤرخين

طبقات المؤرخين: عرفت طبقات عديدة من المؤرخين[1]، ظهرت طول فترة حضارة الإسلام، مع أنه في العالم القديم، كان المؤرخون يعدون على الأصابع. منها الطبقة الأولى ظهرت على الخصوص أيام التدوين التاريخي في القرن الثاني الهجري ولم يصلنا معظم ما دونته، وإن اعتمدت الطبقات التالية على ما كتبوه، وهي في السيرة النبوية والمغازي والفتوح، وهي موضوعات استهوت مؤرخي الإسلام الأوائل، الذين نذكر أشهرهم[2]: عروة بن الزبير (ت ٩٤/ ٧١٢)، ألف في السيرة، ووهب بن منبه (ت١١٠/ ٧٢٨)، ألف عن ملوك حمير، وابن شهاب الزهري (ت١٢٤/ ٧٤٢)، تكلم في المغازي وابن إسحاق (ت١٥٠ أو١٥١/ ٧٦٧-٨)، الذي استحق لجدارته في كتابة السيرة النبوية على حسب

---

(١) لن نذكر مؤلفاتهم لكثرتها، ويمكن الرجوع لكتاب الفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة.

(٢) انظر:

A study on the Beginnings of History: Buri Writing in Islam. Bull. Of the Sch. Of Or. And African Studies Vol XIX. Part I, 1957, p, I sqq.

تسمية ابن خلدون لقب الأستاذ[1]، وابن أبي مخنف (ت١٥٧/ ٧٧٤)، وهذا الأخير وصلتنا نتف من كتبه.

الطبقة الثانية: ظهرت في القرن الثالث الهجري، أغلبهم تناول نفس المواضيع السابقة وزادوا فيها، واعتمدوا على الأوائل كل الاعتماد، ووصلتنا منهم كتب كثيرة مثل: الواقدي (ت ٢٠٦ أو ٢٠٧/ ٨٢١ أو ٨٢٣)، وابن الكلبي (٢٠٤/ ٨١٩ أو ٢٠٦/ ٨٢٢)، وابن هشام (٢١٣/ ٨٢٨ أو ٢١٨/ ٨٢٤)، وابن سعد (ت ٣٢٠/ ٨٤٥)، وابن عبد الحكم (ت٢٥٧/ ٨٧١)، وابن قتيبة (٢٧٦/ ٨٨٩)، والنوبختي (الثالث/ التاسع).

الطبقة الثالثة: ظهرت في (القرن الرابع الهجري) شديدة الخصب، نذكر منهم: ابن جرير الطبري، (ت ٣١٠/ ٩٢٣)، وابن البطريق(ت٣١١/ ٩٢٣)، وابن عبد ربه (ت ٣٢٧/ ٩٣٩)، والصولى (ت٣٣٥ أو ٣٣٦/ ٩٤٦)، وقدامة (حوالى ٣٣٧/ ٩٤٨)،والمسعودي (ت ٣٤٦/ ٩٥٦)، والكندى – أبو عمر- (ت٣٥٠/ ٩٦١)، والأصفهاني (ت٣٥٦/ ٩٦٧)، وابن القوطية (ت٣٦٧/ ٩٧٧)، وابن النديم (ت٣٨٣/ ٩٩٣)، وابن زولاق (ت٣٨٧/ ٩٩٧).

الطبقة الرابعة: ظهرت في (القرن الخامس الهجري) وهي لا تقل في إنتاجها عن السابقة، نذكر منهم: ابن حزم (حوالى٤١٨/ ١٠٢٧)، والمسبحي (ت٤٢٠/ ١٠٢٩)، وابن مسكويه أو مسكويه (ت٤٢١/ ١٠٣٠)، والعقبي (ت ٤٢٨/ ١٠٣٦)، والبغدادي (ت٤٢٩/ ١٠٣٧) ، والثعالبي، (ت٤٢٩/ ١٠٣٨) ، والصماني (ت ٤٤٨/ ١٠٥٦) ، والماوردي (ت٤٥٠/ ١٠٥٨)، والقضاعي (٤٥٥/ ١٠٦٢) ،ويحيى بن سعيد (ت ٤٥٨/ ١٠٦٦)،وابن صاعد – صاعد- (ت٤٦٢/ ١٠٦٩)، والخطيب البغدادي (ت٤٦٣/ ١٠٧١) ، وابن حيان (ت٤٦٩/ ١٠٧٦) ، والبيهقى –أبو الفضل- (ت٤٧٠/ ١٠٧٧) ، ونظام الملك (ت ٤٨٥/ ١٠٩٢) ، والروذراورى (ت ٤٨٨/ ١٠٩٥).

الطبقة الخامسة ظهرت في (القرن السادس الهجري) منهم: أسامة بن منقذ (ت٥١٢/ ١١١٨)، وابن منجب- الصيرفى- (ت٥٤٣/ ١١٤٧) ، والشهرستاني (ت٥٤٨/ ١١٥٣)، وابن القلانسي (ت٥٥٥/ ١١٦٠) ، وأبو صالح (حوالى ٥٦٨/ ١١٧٢)، وابن عساكر –علي – (ت٥٧٢/ ١١٧٦)، وابن بشكوال

(١) المقدمة، ص٧٥ س٩، س١١.

(ت٥٧٨/ ١١٨٣)، وابن الجوزى – فرج - (ت ٥٩٧/ ١٢٠٠)، وعماد الدين (ت ٥٩٨/ ١٢٠١).

الطبقة الخامسة في (القرن السابع الهجري) منهم: ابن الأثير (٢٦٠/ ١٢٣٣)، وابن الجوزي – سبط – (ت٦٤٤/ ١٢٤٦)، والقفطي (ت٦٤٦/ ١٢٤٨) ومن علماء التاريخ الإسلامي: وأبو شامة (ت٦٠٥/ ١٢٦٧)، والمكين –ابن العميد- (ت٦٧٢/ ١٢٧٣)، وابن أبي أصيبعة (ت٦٦٧/ ١٢٧٠)، وابن ميسر (ت٦٧٧/ ١٢٧٨)، والجويني (ت٦٨١/ ١٢٨٣)، وابن خلكان (ت٦٨١/ ١٢٨٢)، والقزويني (ت٦٨٢/ ١٢٨٣) وابن سعيد المغربي (ت٦٨٥/ ١٢٨٦)، وابن العبري (ت٦٨٥/ ١٢٨٦)، وابن واصل (ت٦٩٧/ ١٢٩٨)، وابن الطقطقي (ت٧/ ١٣)،وابن عذارى (ت٧/ ١٣).

الطبقة السابعة: طبقة ظهرت في القرن الثامن الهجري، منهم: رشيد الدين (ت٧١٨/ ١٣١٨)، وأبو الفدا (ت٧٣٢/ ١٣٣١)، والنويري (ت٧٣٢/ ١٣٣٢)، وابن الوردي القرشي (ت٧٤٤/ ١٣٤٣)، والصفدي (ت٧٦٤/ ١٣٦٣)، وابن أيبك (ت٧٦٣/ ١٣٦٣)، والصفدي (ت٧٦٤/ ١٣٦٣)، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦/ ١٣٧٤)، وابن حبيب –بدر-(ت٧٧٩/ ١٣٧٧).

الطبقة الثامنة طبقة ظهرت في القرن التاسع الهجري، منهم: ابن الفرات (ت٨٠٧/ ١٤٠٥)، وابن خلدون (ت٨٠٨/ ١٤٠٦)، وابن دقماق (٨٠٩/ ١٤٠٧)، والقلقشندي (ت٨٢١/ ١٤١٨)، والمقريزي (ت٨٤٥/ ١٤٤٢)، وابن حجر العسقلاني (ت٨٥٣/ ١٤٤٩)، وابن عربشاه (ت٨٥٤/ ١٤٥٠)، والعيني (٨٥٥/ ١٤٥١)، وأبو المحاسن –ابن تغري بردي- (ت٨٧٤/ ١٤٦٩)، وابن إياس (ت٩/ ١٥).

علم الجغرافيا: علم عرف عند اليونان والمصريين القدماء. وقد اتخذ الطريق العلمي على يد اليونان وجغرافيا: كلمة يونانية تعني وصف الأرض بما فيها من تضاريس وأجواء. والأصول لعلم الجغرافيا العربي يونانية المصدر وذلك عن طريق الترجمة والنقل. حيث اطلع علماء الإسلام على مؤلفات بطليموس (الجغرافيا). لكن هذا العلم تطور وتقدم على يد المسلمين لعوامل أساسية منها:

(١) ارتباط علم الجغرافيا بالعلوم الشرعية المواقيت- صيام رمضان- مسالك وطرق الحج- اتجاه القبلة... ووجود إشارات جغرافية وأكثر من آيات القرآن الكريم.

(٢) اتساع وامتداد أراضي العالم الإسلامي الأمر الذي تطلب معرفة أحوال هذه البلاد لأغراض الإدارة والاتصال وطرق التجارة. والحاجة لإقامة محطات بالبريد.

(٣) توسع النشاط التجاري الإسلامي وإشرافه على أهم طرق التجارة العالمية البرية والبحرية.

(٤) ظهور الرحلة في طلب العلم ومعرفة أحوال البلاد الإسلامية ووصفها.

(٥) حفظ المسلمين لتراث الحضارات والأمم السابقة في علم الجغرافيا. ثم ما قدمته حركة الترجمة لعلوم الأولين وما طالها من الدراسة والتصويب وبها انتقل المسلمون إلى مرحلة الإبداع والابتكار في هذا العلم التي أصلَّت مرحلة التأليف التاريخي الإسلامي.

أقسام وفروع علم الجغرافيا: إن تقسيم علم الجغرافيا لم يظهر إلا حديثا لأن القدماء تكلموا عن الجغرافيا بصفة عامة هنا، مع وجود بعض الإشارات إلى بعض التخصصات منها:

(١) الجغرافيا الوصفية: تتناول وصف البلاد والسكان والأنهار والجبال.

(٢) كتب المسالك والممالك أو تقويم البلدان. من أقدم المؤلفات في الجغرافيا العربية.

(٣) الجغرافيا الطبوغرافية، تتناول المدن وخططها

(٤) الجغرافيا الرياضية (البدايات الأولى لهذا العلم) خطوط الطول والعرض/ الأقاليم النباتية والمناخية.

(٥) الجغرافيا الجيولوجية: طبقات الأرض، الحفريات (العصور الجيولوجية)

(٦) الجغرافيا الجوية: تناولت المناخ، الجو، الرياح، الأمطار.

(٧) الجغرافيا البحرية والرحلات[(١)]: رحلة سليمان السيرافي ٢٣٧هـ وسلام الترجمان ورحلة ابن فضلان[(٢)] ٣٠٨هـ التي ذاع صيتها لمعرفته عدة لغات حيث زار بلاد القوقاز والبلغار.

(٨) الجغرافيا الاقتصادية والبشرية.

---

(١) نقولا زيادة: الرحالة العرب القاهرة ١٩٥٦هـ، زكي حسن الرحالة المسلمون في العصور الوسطى.

(٢) رحلة ابن فضلان: حققها سامي الدهان. دمشق

(٩) المعاجم الجغرافية.

التدوين الجغرافي: اهتم المسلمون في صدر الإسلام بالأمور الدينية أولا ثم علوم اللغة العربية، ثم تلتها العلوم الثقافية. فكانت طلائعها مؤلفات جغرافية تماهت مع المدرسة اللغوية. وأول المؤلفين (السدوسي ت١٩٥هـ) وفي نهاية القرن الثاني الهجري بدأت مصنفات جغرافية مرتبطة بالناحية الإدارية، ثم المغازي والفتوح، ثم ظهرت مجموعة من الجغرافيين الذين ألفوا في القرن الثالث الهجري، متأثرين إلى درجة كبيرة بالمؤلفات القديمة اليونانية والرومانية (ابن جرذابة). وفي القرن الرابع الهجري تم النضج في الجغرافية الإسلامية واستمر هذا التطور إلى ما بعد القرن الثامن الهجري. واهتم في مواضيع خاصة في العالم الإسلامي من جهة الاهتمام بالأقطار أو التخصص بقطر واحد. ثم تلى ذلك وضع المعاجم الجغرافية الذي بدأ في القرن الخامس الهجري ومن رواده (البكري في مؤلفه معجم واستعجم) وغيره أيضا. ثم تلى ذلك ظهور الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري، معتمدة في تأليفها على أسس علمية ابتداء من المشاهدة الشخصية، العناية بالمسالك والطرف، واستخدام الخارطة مع المتن للتوضيح، إلى جانب عدم الاهتمام بالإحصاءات الجغرافية وخلط العلم الجغرافي بالخرافة.. هذا وقد فقد العلم الجغرافي قيمته بسبب بداية تفكك دولة الإسلام مع بداية القرن السادس الهجري حيث بدأ طور الاقتباس وهي المرحلة التي انتهى فيها عهد التجديد والابتكار، فأخذ الخلف ينقل عن السلف. لكن الجغرافي الكبير أبو الفداء في مؤلفه (تقويم البلدان) استطاع أن ينقل هذا العلم إلى المرحلة التاريخية الانتقادية للكتابة الجغرافية، واستمر في حتى القرن الثامن الهجري.

طبقات الجغرافيين: الطبقة الأولى: ذكر أن أول كتب الجغرافيا العربية كانت للكلبي عام ٢٠٤هـ، وهو مؤلف لعدة كتب لم يعثر عليها بعد، ثم الكندي (ت٢٠٤) وهو فيلسوف ترك مؤلفات في الجغرافيا بنصها اللاتيني المترجم.

طبقة الجغرافيين الثانية: وهي طبقة هامة منها: الخوارزمي: في عهد الخليفة المأمون. له كتاب صورة الأرض وهو كتاب مترجم لكتاب بطليموس القلوذي. وابن خرذابة حوالي عام ٢٣٢هـ له كتاب: المسالك والممالك[1]، واليعقوبي (ت٢٨٤/ ٨٩٧)، وله كتاب:

(١) تحقيق وترجمة de Goeje، ومعه كتاب الخراج لقدامة في مجموعة B.G.A ٦، ط.Leyden، ١٨٨٩.

البلدان[1]، والجيهاني (أواخر٣/ ٩)، وكتابه لم يصلنا إلا على يد ابن الفقيه (حوالي ٢٩٠/ ٩٠٣) الذي له كتاب: مختصر كتاب البلدان[2]، وابن رستة (حوالي ٢٩٠/ ٩٠٣)، له كتاب: الأعلاق النفسية[3].

الطبقة الثالثة مثلها: قدامة بن جعفر (ت٣١٠/ ٩٢٢)، له كتاب: الخراج وصفة الأرض[4]، والبلخي (ت٣٢٢/ ٩٣٤)، له كتاب: صور الأقاليم[5]، وهو من رسامي الخرائط صفة جزيرة العرب[6]، والأصطخري (حوالي ٣٤٠/ ٩٥١-٢)، له كتاب: مسالك الممالك[7]، والمسعودي (ت٣٤٥/ ٩٥٦)، الذي بسبب رحلاته العديدة ودقة وصفه قورن بالرحالة اليوناني بلنيوس، وله عدة كتب منها: التنبيه والإشراف[8]، وابن حوقل (حوالي ٣٦٦/ ٩٧٧)، له كتاب: المسالك والممالك[9]، والمقدسي (حوالي ٣٧٨/ ٩٨٨)، له كتاب: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[10].

الطبقة الرابعة منها البيروني (ت٤٠٧/ ١٠٤٨)، له عدة كتب مثل: الآثار الباقية عن القرون الخالية[11]، وكتاب الهند، وناصر خسرو (ت٤٥٣/ ١٠٦١)، له كتاب:سفر نامه[12]، والبكري (ت٤٧٨/ ١٠٩٤)، له كتاب معجم ما استعجم[13]، والمسالك

---

(١) ومعه كتاب ابن رستة: الأعلاق النفيسة، في مجموعة B.G.A ٦، ط.Leyden،١٨٩١-١٨٩٢

(٢)تحقيق de Goeje،في مجموعة B.G.A، ١٨٨٥

(٣) انظر هامش (٢)

(٤) انظر هامش (١)

(٥) أورد حاجي خليفة اسم هذا الكتاب. عنه، انظر

Ency (art al-Balkhi) t1, p.638

(٦) تحقيق Muller، ط Leyden ١٨٩١.

(٧) تحقيق de Goeje، في B.G.A ط Leyden ١٨٧٠-١٨٩٣.

(٨) تحقيق de Goeje، في B.G.A ط Leyden ١٨٩٤، وله ترجمة فرنسية من Carra de Vanx، بعنوان:

Le Livre de Pavertiissement et de la, revision, Paris, 1897

(٩) في B.G.A ١٨٧٠-١٨٩٣.

(١٠)تحقيق de Goeje، في مجموعة B.G.A ط Leyden ١٨٧٠-١٨٩٣، وله ترجمة إنجليزية وفرنسية.

(١١) ط.Leipzig، ١٨٨٧، ترجمة Sachau، ط. London، ١٨٩٧. عن كتاب الهند، انظر. قبله.

(١٢) تحقيق يحيى الخشاب إلى العربية، القاهرة ١٩٤٥، وترجمة Schefer، إلى الفرنسية، ط. باريس، ١٨٨١.

(١٣) تحقيق مصطفى السقا، القاهرة ١٩٤٠.

والممالك[١].

الطبقة الخامسة منها: الإدريسي (ت٥٦٢/ ١١٦٦)، له كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق[٢]، ويعرف أيضا باسم كتاب رجار، يمتاز عما سبقه بما كتبه عن أوربا، بحيث أطلق عليه أسترابون العرب، وأبو حامد الغرناطي (ت٥٦٥/ ١١٦٩)، له عدة كتب مثل: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب[٣]، وابن منقذ (ت٥٨٤/ ١١٨٨)، له كتاب: الاعتبار[٤]، والهروي (٦١١/ ١٢١٤)، له كتاب: الإشارات إلى معرفة الزيارات[٥].

الطبقة السادسة منها: ابن جبير (ت٦١٤/ ١٢١٧)، له كتاب: رحلة[٦]، وياقوت (ت٦٢٦/ ١٢٢٩)، وقد اعتمد على كتب عديدة لم تصلنا، له كتاب معجم البلدان[٧]، والمشترك وضعا والمفترق صقعا[٨]، والبغدادي (ت٦٢٩/ ١٢٣١)، له كتاب: الإفادة والاعتبار، والتحفة السنية في أسماء البلاد المصرية[٩]، والقزويني (ت٦٨٢/ ١٢٨٣)، له كتاب: صفة الأرض[١٠]، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وابن سعيد (٦٨٥/ ١٢٨٦): المشرق في حلي المشرق والمغرب في حلي المغرب[١١]، والعبدري (حوالي

---

(١) لدينا جزء منه قد نشر، هو: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق **de slane**، ط. باريس، ١٩١١، ط. الجزائر، ١٨٥٧، وطبعة حديثة ١٩١١-١٩١٣.

(٢) ط. **Roma**، ١٩٥٢

(٣) (في **B.G.A**)، ط. **Leyden**، ١٨٨٥.

(٤) نشره فيليب حتى، **Pribston**، ١٩٣٠.

(٥) ط. سنة ١٩٥٣، نشر **Sourdel**

(٦) مثلا تحقيق تصار، مصر ١٩٥٥.

(٧) تحقيق الشقنيطي، ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٢٣/ ١٩٠٦، تحقيق **Wuat**، ط.**Leipzig**، ١٨٦٦. له ترجمات إنجليزية.

(٨) تحقيق **Wust**، ط **Gottingen**، ١٨٤٦.

(٩) تحقيق **Moritz**، القاهرة ١٨٩٨، وترجمة وتعليق **De Sacy**، بعنوان: **Reliation de I'Egypte. Par, Abd al-Latff. Paris, 1810.**

(١٠) تحقيق **Wust**، في مجلدين، ط. **Goltingen**، ١٨٤٨-١٨٤٩.

(١١) أجزاء منه نشرها **Leide, Tallquist, Vollers**، ١٨٩٩ له أيضا كتاب مختصر جغرافية، مخطوط بباريس برقم ١٩٠٥.

٦٨٨/ ١٢٨٦)- وهو يشبه ابن بطوطة- كتب عن الرحلة المغربية[١].

الطبقة السابعة منها: الدمشقي (ت٧٢٧/ ١٣٢٧): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر[٢]، وأبو الفدا (ت٧٣٢/ ١٣٣١): تقويم البلدان[٣]، وابن فضل الله العمري (ت٧٤٨/ ١٣٤٧): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار[٤]، وابن بطوطة (ت٧٧٩/ ١٣٧٧): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار[٥]، وابن الوردي – سراج الدين (ت٨٦٢/ ١٤٥٧): خريدة العجائب وفريدة الغرائب[٦].

علم الخرائط: وأول من قام برسم الخرائط المصريون القدماء، وعلى الرغم من قلة معلوماتنا عن خرائطهم، فإن النصوص التاريخية وبعض النقوش على جدران المعابد، تدل على أن المصريين القدماء رسموا خرائط لأرض مصر وما جاورها، تظهر فيها الأودية بما فيها من الجبال والحجارة[٧]. وقد أخذ اليونان خرائط المصريين القدماء –بملاحظة جغرافي المسلمين[٨]- وتوسعوا فيها وأضافوا إليها هم والرومان من بعدهم فنا جديدا، وساعدهم على ذلك اتساع معارفهم، بسبب تكوين امبراطوريات شاسعة الأرجاء في عهد الإسكندر الأكبر والبطالسة والرومان. فقد رسموا خرائط على أساس تقسيمها إلى مناطق حرارية، موزعة بين خطوط وهمية متساوية في الطول مختلفة في العرض، حتى يتمكنوا من ضبط مواقع البلاد.

وقد ورد في كتب المسلمين أسماء أشهر رسامي خرائط اليونان والرومان، نذكر

---

(١) هي مخطوطة بجامعة الجزائر، برقم ٢٠١٧. عنه، انظر

Ency (art al-Abdatti) t2, p.69-70

(٢) ط، **peterabourg**، ١٨٦٦، وترجمت على يد **Mehren**، ط. **Copenhagne**، ١٨٧٤.

(٣) تحقيق **Schier**، ط. **Drsidn**، ١٨٤٠، وله ترجمة لاتينية قديمة من **Reiske**، ١٧٧٠-١٧٧١.

(٤) تحقيق زكي باشا، الجزء الأول، ط. دار الكتب ١٩٢٤، وله ترجمة لبعض أجزائه من **Demombynes**، ط.**Paris**، ١٩٢٧. يوجد بقيته مخطوطا بدار الكتب برقم ٢٥٦٨.

(٥) مثلا، القاهرة ١٩٣٨، في جزءين، ترجمة إلى الفرنسية **Sanguimetti , Defremeny**.

(٦) نشر وترجمة لاتينية من **Hylander**، ١٨٢٣، ونص وترجمة لا تينية أخرى من **Tornberg**، ١٣٥. وله طبعات مصرية.

(٧) مثلا بردية نورينو المعروفة ببردية الذهب، انظر.

(٨) التنبيه، ص٣١.

منهم: هبارقة، (١٥٠ ق.م) وبليني (٢٣-٧٩م)، ومارينوس الصوري (٧٠-١٣٠)[١]، إلا أن أشهر من رسم الخرائط في العصر القديم، هو ولا ريب بطليموس القلوذي، (٩٠-١٦٨م)، الذي يعتبر آخر جغرافي قديم، قدم إلينا خرائط يعتد بها، وقد بقيت خرائط بطليموس هذه، أصلا يرجعون إليها في رسم خرائطهم، وهو معروف عندهم بمؤلفاته التي أهمها: (الجغرافيا)، و(المجسطي)، و(الهيئة)، و(تسطيح الكرة). ويبدو أنهم اعتمدوا على هذا الكتاب الأخير، في ظهور علم تسطيح الكرة[٢]، ويقصدون به رسم الكرة الأرضية على الورق، بحيث جعلوه فرعا من علم الهندسة. ولم تصلنا النسخ الأصلية لخرائط بطليموس بسبب تطاول الزمن، وإنما وصلتنا في خرائط المسلمين، أو في خرائط لاتينية عن طريق بيزنطة في وقت متأخر في القرن الخامس عشر الميلادي[٣].

تطور علم الخرائط: حقا إن خرائط اليونان والرومان، اعتبرت أساسا لرسم الخرائط عند المسلمين في العصور الوسطى، إلا أن المسلمين لم يقلدوها تقليدا أعمى. فقد أضافوا إليها وأصلحوا فيها كثيرا، وساعدهم على ذلك اتساع رقعة أملاكهم شرقا حتى حدود الصين وشمالا قرب باريس، مما جعل لخرائطهم طابعا يختلف عن خرائط القدامى، بحيث أنه بمضي الوقت وجدنا للمسلمين خرائط ذات طابع إسلامي محض، بعيدة عن التأثر بخرائط اليونان والرومان. فلا يستطيع العلم أن ينكر فضل المسلمين على تطور رسم الخرائط، فقد بدأت تظهر في خرائطهم -لأول مرة- العلامات الأرضية، وهي عناصر تعتبر متممة للخريطة. فكان الجغرافيون المسلمون يرسمونها كما يراها الناظر في الطبيعة، أو كما يراها من جانب واحد، وذلك على عكس ما اتفق عليه في الوقت الحاضر، برسمها في خطوط على سطح أفقي، برسم الجبال مثلا بما يعرف بالخطوط الكنتورية، وكذلك أصلحوا جداول بطليموس للمدن، وأضافوا إليها أسماء كثيرة، وكانوا يدلون عليها برسمها في

---

(١) نفسه، ص٢٥.

(٢) كشف الظنون، ١ص٢٨٣.

(٣) انظر.

La Mer Rouge Mem de Ia Soc. Roy: Kamnere

De Geog. D'Eg. Txv Le Caire. 1929, p 36

لدينا في مكتبة جامعة القاهرة ترجمة من اللاتينية لكتاب الجغرافيا وخرائطه لبطليموس باللغة العربية، ولا نعرف -لسوء الحظ- اسم المترجم ولا تاريخ الترجمة، التي تظهر في غاية الركاكة والغموض.

شكل دوائر. وكذلك أظهروا اتصال أجزاء من العالم لم تكن معروفة في العهدين اليوناني والروماني، مثل اتصال الهند بالصين. وكانت خرائطهم ترسم بصفة خاصة على أساس تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم، شمال خط وسط الأرض، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. ومن الطريف أن نذكر ملاحظة المسعودي الخاصة بخرائط المصريين القدماء، فهم الذين جعلوا الأقاليم في الجنوب سبعة كما في الشمال[1]. كذلك نذكر هنا، أن خرائط المسلمين تجعل الشمال في الجنوب، والجنوب في الشمال، والغرب في الشرق، والشرق في الغرب، وهي طريقة خاصة بهم لرسم الخريطة.

هذا التفوق في رسم الخرائط عند المسلمين، لم يظهر إلا بعد أن توطدت أقدام المسلمين في البلاد التي كانت تتمتع بحضارات سابقة، وذلك في العصر العباسي الأول، حيث ترجمت كتب اليونان وغيرها كما ذكرنا. بل إن الخليفة العباسي المأمون (١٩٩-٢١٨/ ٨١٤-٨٣٣)، أمر برسم صورة يظهر فيها العالم بأجوائه ونجومه وقاراته وبحاره ومواطن سكناه وصحاريه ومدنه، بحيث أن الخريطة التي عرفت باسم الصورة المأمونية[2]، اجتمع على صنعتها عدة من جغرافي عصره، فاقت كل الخرائط التي رسمها مارينوس وبطليموس وغيرهما من القدامى، وكانت مصورة بأنواع الأصباغ.

فكانت أول طبقة من الجغرافيين العرب متأثرة -بطبيعة الحال- إلى حد كبير بخرائط بطليموس على الخصوص، وذلك كما يظهر من الخرائط، التي استخرجها محمد بن موسى الخوارزمي (حوالي ٢٠٦/ ٨٢١)-العالم الرياضي والفلكي المشهور- من كتاب الجغرافيا، الذي ألفه بطليموس[3]، ولكن بعد ذلك ظهرت للجغرافيين المسلمين، خرائط تتميز بما أضيف إليها من معلومات جديدة عن بلاد المسلمين وما يحيطها، تعتبر مرحلة في تطور رسم الخرائط. ويكفي أن نلقي نظرة على خرائط أبي إسحق الأصطخري (حوالي ٣٢٣ أو ٣٤٠/ ٩٣٤ أو ٩٥٢)، وابن حوقل (حوالي ٣٦٦/ ٩٧٧)، لنقرر وجود خرائط إسلامية محضة، لا أثر فيها لخرائط بطليموس وغيره. وقد كان أغلب الجغرافيين المسلمين يخصصون

---

(١) التنبيه والإشراف، ص٣١.

(٢) نفسه، ص٢٧، ٣٣.

(٣) انظر تحقيق **Hana**، ط. **Leipzig**، ١٩٢٦، بعنوان: صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار، استخرجه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي من كتاب جغرافيا، الذي ألفه بطليموس القلوذي.

لكل إقليم فصلا، ولكل فصل خريطة، قد تكون ملونة، وإن لم يخرجوا بخرائطهم عن العدد واحد وعشرين[١]: ابتدءوها ببلاد الإسلام، ثم ديار العرب، ثم بحر فارس، ثم المغرب، ثم مصر، ثم الشام، ثم بحر الروم، ثم الجزيرة، ثم العراق، ثم خوزستان، ثم فارس، ثم كرمان، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلا السند والهند، ثم آذربيجان، ثم كور الجبال في المنطقة الشمالية في فارس، ثم الديلم، ثم بحر الخزر، ثم المفازة التي بين فارس وخراسان، ثم سجستان، ثم خراسان، ثم ما وراء النهر.

والواقع إن رسم الخرائط في العصور الوسطى أصبح من الأمور الشائعة في الدول الإسلامية. وقد اهتم ملوك المسلمين أنفسهم –حينما تعددت دولهم- بهذا الفن، وأولوه العناية الفائقة. فنسمع أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥/ ٩٥٢-٩٧٥)، قد أمر برسم خريطة ملونة من الحجم الكبير، أنفق عليها اثنين وعشرين ألف درهم. ويصف المقريزي هذه الخريطة في كتابه الخطط، فهي عبارة عن: مقطع من الحرير الأزرق، غريب الصنعة، منسوج بالذهب، وسائر ألوان الحرير، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومسالكها، وفيه صورة مكة والمدينة مبينة للناظر، وقد كتبت على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، كما كتب عليها: (ما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله، وإشهارا لمعالم رسول الله، في سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة). كذلك وجد في خزائن خلفاء الفاطميين بقصورهم بالقاهرة المعزية مئات من ستور الحرير المنسوجة بالذهب، فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على صور كل واحد اسمه ومدة أيامه، وشرح حاله[٢].

وقد شهد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حدوث تطور جديد في رسم الخرائط عند المسلمين، لم يعرف له مثيل من قبل، وذلك على يد أشهر جغرافي معروف، هو العلوي الإدريسي الحمودي (ت٥٦٢/ ١١٦٦). فهذا الجغرافي الكبير، الذي ولد في سبتة في عام ٤٩٣/ ١١٠٠، وينتمي إلى الأسرة الإدريسية العلوية في مراكش، كان قد اضطر للهروب إلى صقلية عند الملك المسيحي النورماني روجر الثاني، وهو الذي يسميه العرب

---

(١) الأصطخري، مالك الممالك، تحقيق **(B.G.A) de Goeje**، ٧، ط **Leyden**، ١٨٧٠، ص٤٣. هذه الخرائط مصورة في أطلس **Miller**:

Islam Atlas. Stuuugart, 1926 t3, cf.

(٢) الخطط، ٢ ص ٢٦٧-٢٦٨.

رجار بن رجار، وقد استضافه هذا الملك في بالرمو (بالرم)، وقربه منه وجعله يرسم له خرائط العالم. وقد رسم الإدريسي اثنتين وثمانين خريطة تعتبر من أدق ما وصلنا من خرائط، رجع في رسمها إلى المصادر الإسلامية وغيرها، وإلى ما وصل إليه الغربيون في أوربا، فلم يقتصر في رسم خرائطه على البلاد الإسلامية، وإنما رسم بلاد العالم وعلى الأخص أوربا. ونظرا لاهتمام روجر الثاني بالجغرافيا، فإن الإدريسي أهدى إليه كتابه المعروف: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وسماه بالكتاب الروجاري. وقد بقيت خرائط الإدريسي عدة قرون، الأساس الذي بقي عليه رسم الخرائط في عصر النهضة الأوروبي. كما أن طبقة الجغرافيين المسلمين -الذين أتوا بعد الإدريسي- لم يضيفوا خرائط جديدة، يمكن أن نستدل بها على تطور جديد لرسم الخرائط.

علم الفلسفة: الفلسفة لفظة يونانية الأصل وهي تعني الحكمة، والفيلسوف (محب الحكمة) و دراسات الحكمة وحدها يقصد بها المعرفة بعلوم بالرياضيات والطب والفلك والموسيقى[1].. إلخ وهذا العلم لم يعرفه العرب إلا في عصر متأخر من عصور الإسلام، تحديداً في العصر العباسي الأول، وليس قبل ذلك، فهو لم يظهر إلا بقيام حركة الترجمة وقد مهد ذلك وجود كتب فلاسفة اليونان منتشرة في مناطق البحر الأبيض وفي مدن ومدارس الثقافات الأجنبية، بين الإسكندرية وأنطاكية وحران، فضلا عن أن المأمون راسل ملوك الروم[2] -خاصة البيزنطيون- حيث أتحفهم بالهدايا وأوقف الجهاد ضدهم، واستبدل الجزية المادية مقابل حصوله على الكتب والمخطوطات، لا سيما كتب الفلسفة، إذ كانت القسطنطينية -عاصمة الروم- تعرف بمدينة الحكمة[3]. فبعث إليه الروم بكتب الفلاسفة وغيرها، كما استجاب للمأمون مهرة التراجمة، بعد أن أكرمهم وسخى عليهم، حيث جعل مقابل كل كتاب مترجم مثل وزنه ذهبا، فقاموا بتعريبها أو نقلها بنصوصها عن طريق الترجمات السريانية، إذ أن السريان قبل مجيء العرب كانوا قد ترجموا كتبا كثيرة في الفلسفة اليونانية، ويكفينا أن نذكر أشهر مترجميهم مثل: سرجيوس وسفرونيوس وسويرس.

ولكن العرب أضافوا إلى ما ترجم شروحا وافية[4]. كذلك حاولوا أدخال الفلسفة

---

(١) مثلا: حاجي خليفة، ٢ ص ٢٠٣، المقدمرة ف ص٣٧٩-٣٨١، وبعده.

(٢) المقدمة، ص٣٨١، ابن ساعد، ص٤٨، وقبله.

(٣) معجم البلدان، ٧ ص ٨٧.

(٤) عن ذلك، انظر المقالة القيمة:

اليونانية في شرح الدين الإسلامي وجعلوها سندا للعقيدة، إذ وجدوا ضرورة اتفاق العقيدة مع العقل، ولذا كان يطلق على الفيلسوف الإسلامي: إمام. فقد كان الإسلام يترك الحرية في دراسة الفلسفة، على خلاف أديان أخرى مثل المسيحية، التي كانت تعتبر التكلم في الفلسفة اليونانية رجوعا إلى الوثنية الإغريقية. فإلى العرب وحدهم يرجع الفضل في ازدهار فلسفة اليونان، فهم الذين أذاعوها في العالم، فضلا عن أنهم مثلوا في الفلسفة عصرا جديدا في الفكر. وقد لاحظ مؤرخو الإسلام أن الفلسفة عند الروم كانت قد تلاشت، بينما هي في أوربا لم تنتش إلا في القرن ٨هـ/ ١٥م، وذلك بعد ازدهارها في الشرق[١].

ومن الطريف أن نذكر أن هم الفلسفة الإسلامية هو معرفة فلسفة أرسطوطاليس – وهو أرسطو- (٣٨٤-٣٢٢ق.م)، فهم اهتموا به أكثر من اهتمامهم بأي فيلسوف آخر[٢]، وإن جاء بعده في المرتبة الثانية أفلاطون[٣] (٤٢٧-٣٤٧ق.م)، واعتبروهما من مدرسة واحدة، وإن كانوا عرفوا معظم فلاسفة اليونان الآخرين بما فيهم سقراط وحتى مذاهبهم الفلسفية المختلفة[٤]. فإلى أرسطو نسبوا فنونا كثيرة، وعرفوا عديدا من كتبه التي نقلوها إلى العربية. ويبدو أن ميزته لهم أتت من المنطق السليم الذي استخدمه، وكان له عدة كتب فيه ترجموا بعضها[٥]، بحيث كان ينظر إليه على أن المعلم الأول. فسار الفلاسفة المسلمون على منواله واستخدموا المنطق وطوروه على أيديهم، حتى أصبح علما يقصد به استخلاص الحقائق كذلك استخدموه في جميع علومهم[٦] ومع ذلك فلم يخلف المسلمون مذاهب أو

Ency. (art Falsafa) t2, p 51-55

The History of philosophy in Islam: de Boer

(١) المقدمة، ص٣٨١.

(٢) ابن صاعد، ص٢٤-٢٧ (أنظر أسماء كتبة)، عبد الرحمن بدوي، أرسطو عند العرب، القاهرة ٤ انظر.

Ency. (art Arisfutalts) t1, p 438-440

(٣) ابن صاعد، ص٢٣، انظر

Ency. (art Aflatun) t1, p 177-9

(٤) ابن صاعد، ص٢٣، ٣٢. مثل الكلبيين والمشائين... إلخ.

(٥) ترجمة إسحق بن حنين، نص وتقديم، ط ١٩١٣، كذلك يذكر أن ابن المقفع قد ترجم كتبه المنطقية. ابن صاعد، ص٤٩.

(٦) المقدمة، ص٣٨٧ وما بعدها: انظر.

حافظ طوقان، النزعة العلمية في التراث العربي، في مجلة المعهد المصري بمدريد، العدد ٣، المجلد ١، سنة

مدارس خاصة لفلاسفة الإسلام ولم تُعرف الفروق بينهم[١]، لأننا لا نعرف كل مؤلفاتهم، بسبب ضاع أغلبها، ووجود عدد منها مجهولا في المكتبات. يضاف إلى ذلك صعوبة فهم أسلوبهم الفلسفي. إلا أن الثقة تبدو واضحة في مؤلفاتهم، لأنهم جميعا كانوا يعرفون لغة اليونان، التي ساعدتهم على فهم الفلسفة اليونانية. لذلك تعرضوا لمسائل دقيقة مثل: خلق العالم والزمن والعقل والنفس والخير والشر، فهم بذلك وسعوا في التفكير الإسلامي والعالمي.

طبقات الفلاسفة المسلمين: وأول من اعتنى بعلم الفلسفة عبد الله بن المقفع الفارسي (ت١٤٠/ ٧٥٧) [٢]، الذي كان كاتب الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي. ومترجم كتب أرسطو الفلسفية ربما عن الفارسية. ومع ذلك لم يظهر لابن المقفع آراء فلسفية، كما أن ترجماته لم تعرف بعد.

والعالم الثاني بعد ذلك، هو أبو يوسف يعقوب الكندي (حوالي ٢٦٠/ ٨٧٣) [٣]، الذي كان أجداده من ملوك كندة في جنوب الجزيرة العربية، وأبوه تولى الإمارة على الكوفة للخليفة للمهدي والرشيد، ولأصوله العربية سماه المسلمون: بفيلسوف العرب. وكانت له آراء فلسفية عن فلسفة أرسطو وأفلاطون، أي الفلسفة اليونانية الكلاسيكية. وألف الكندي –الذي كان على علم باليونانية والسريانية– خمسين تأليفا في أكثر العلوم، بعضها في الفلسفة –حيث ذكرها المؤرخون– ونعرفها فقط بالاسم، مثل: كتاب التوحيد المعروف بفم الذهب، وكتاب إثبات النبوة. وأما ما تبقى من كتبه الفلسفية المعروفة فهي قليلة. بعضها لا يزال مخطوطا[٤]، ولم ينشر منه بالعربية إلا القليل[٥]، كما توجد له آراء فلسفية

١٣٧٤/ ١٩٥٥، ص٧٧ وما بعدها.

(١) انظر **Les pencure de I islam. IV, p2: Carra de Vaux**

(٢) ابن صاعد، ٤٩، ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص٢٢٠.

(٣) نفسه، ص٢٧، ٥١-٥٢، نفسه، ص٣٦٦-٣٧٠: انظر، فؤاد الأهواني، الكندي، فيلسوف العرب، أعلام العرب ٢٦، فبراير ١٩٦٤.

(٤) انظر **G.A. Litt l. Leiden, 1943, p.230-231: Brock**

مثلا: رسالة في القول في النفس، المختصر من كتب أرسطا طاليس وأفلاطون وسائر الفلاسفة، المتحف البريطان برقم ٨٠٦٩.

(٥) انظر مثلا: رسالة في كمية كتب أرسطوطاليس وما يحتاج إليه في الفلسفة، تحقيق **Guidi** وغيره، ١٩٣٨.

واضحة ظهرت في ترجمات لاتينية[1]، وقد اشتهر الكندي بين الأوروبيين كفيلسوف، وعرف لهم باسم:**Alkendius** وبعد ذلك ظهرت طبقة من الفلاسفة قائمة بذاتها تتمثل في الفارابي وابن سينا، وكلاهما له تآليف نفيسة في الفلسفة، ونبغا نبوغا كبيرا، بحيث قيل إن الحكماء أربعة اثنان قبل الإسلام هما سقراط وأبقراط، واثنان بعد الإسلام هما الفارابي وابن سينا.

الفارابي[2] (٢٥٩-٣٣٩/ ٨٧٢-٩٥٠)، هو أبو نصر محمد من أصل تركي ولد بفاراب على نهر جيجون، وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، ورحل إلى مصر والشام واتصل بسيف الدولة بن حمدان، وتوفي بدمشق. وكان الفارابي زاهدا إلا في العلم، لا يحفل بأمر مسكنه أو ملبسه، ومن حساسيته وشاعريته أنه لم يكن يوجد إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض، وقد قيل إن الفارابي كان يعرف سبعين لغة، وتصانيفه في الفلسفة على نسق كتب أرسطو، ولذلك أطلق عليه المعلم الثاني، حيث أن المعلم الأول هو أرسطو، وعلى يد الفارابي وصلت الفلسفة الأرسطوطاليسية إلى أقصى ما تصل إليه من ازدهار، وإن كان قد اهتم أيضا بفلسفة أفلاطون، واشتهر بين الأوروبيين باسم: (**Alfarabius**). فبفضل شروحه وأفكاره وأسلوبه تمكن من تقريب الفلسفة اليونانية إلى الفكر الإسلامي، مما لم يعرف قبلا على يد الكندي، حتى سماه ابن صاعد فيلسوف المسلمين بالحقيقة. وأهم مصنفاته كتاب في مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة[3]، التي تحتاج إلى ناموس نبوي -أي من قبل الوحي- حيث تأثر فيها بآراء أرسطو وأفلاطون، لا سيما هذا الأخير الذي كان له رأي في المدينة الفاضلة. فبين فيها تكوين المجتمعات من الأسرة والعشيرة والقبيلة وما يسودها من تضامن، كما أسهب في الكلام عن غرائز الصراع. كذلك له رسالة فصوص الحكم[4]، تعرض فيها لموضوعات فلسفية عديدة مثل: الإحساس والقصور والسعادة والمادة

---

(١) عنها، انظر.

Di philosophischem Abbandlangen dea: Nagy

Ja qub ben Ishaq al-kinidi, zum ersien male herausgegebern; Beitrage zur Gesch der phil des Mitt Muuster, 1897 Op. Cit IV,p. 3-6: Carra de Vaux

(٢) عنه: ابن صاعد، ص٥٣-٥٤، ابن القفطي، ص٢٧٧.

(٣) تحقيق **Dioterici**، ط. **Leyden**، ١٨٩٥. حاجي خليفة كشف الظنون ج١/ ١٤٤.

(٤) حققها مع غيرها **Dioterici**، ط. **Leycen**، ١٨٩٥.

والإنسان. كذلك لدينا منه تصانيف أخرى في الفلسفة وشروحا بنصوصها العربية والعبرية واللاتينية[١].

أما ابن سينا[٢] (٣٧٠-٤٢٨/ ٩٨٠-١٠٣٧)، فهو أبو علي عبد الله من أصل تركي أيضا، حيث يتمسك الترك بأصله هذا. ولا تقل شهرة ابن سينا الطبيب عن شهرته كفيلسوف، حتى أنه لقب بالشيخ الرئيس، وعرف بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي. ولابن سينا كتب كثيرة في فلسفة أرسطو وأفلاطون والأفلاطونية الحديثة –نسبة إلى أفلوطين– تشهد له بالبراعة في صناعة الفلسفة وتطورها على يديه، حيث ترجم بعضها إلى اللغات الأوروبية، ولذا اشتهر عند الأوروبيين باسم(Avicenua). وأهم مصنفاته الفلسفية: الشفاء[٣] الذي استوعب فيه علوم الفلسفة، يليه النجاة الذي هو مختصر للشفاء[٤]، والإشارات[٥]، إضافة إلى تسع رسائل في الحكمة[٦]، وغير ذلك[٧].

فلاسفة المغرب: ومن ناحية أخرى ظهر في أقصى المغرب الإسلامي والأندلس فلاسفة عظام مثل فلاسفة الشرق، منهم: ابن ماجه (ت٥٣٣/ ١١٣٨)، من سرقسطة، وهو الآخر من شراح فلسفة أرسطو، وعرف للأوروبيين باسم: (Avempace)، وكتابه: تدبير

---

(١) انظر. G.d.ar. Litt. I, 232-230: Brock. طبقات الأمم: صاعد الأندلسي ص٨٤.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ٢ص ٢ وما بعدها، الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق cureton، ص٣٤٨-٤٢٩، انظر. العقاد، الشيخ الرئيس، مجموعة إقرأ رقم ٤٦، سبتمبر ١٩٤٦، Ency. (art Ibn Sina) t2,p.444.6

Op, Cit. IV,p. 18, sqq: Carra de vaux

القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٢٨٣-٢٨٤.

(٣) تحقيق القاهرة ١٩١٣. وله شرح كما له ترجمة ألمانية من Horten بعنوان: Avicenna das Buch der Genesung der seele. Leipzig, 1907-1909

(٤) نشر روما ١٥٩٣م، تحقيق القاهرة ١٩٣٨. له ترجمات جزئية. انظر. سبيلي ص٢٠٠-٢٠٨. طبقات الأمم ص٨٦. القفطي ص١٨٣-٢٢٨، ٢٧٠-٢٧١.

(٥) تحقيق وترجمة Forget، بعنوان: Ibn Sina. Le livre des Theorenes et des Avertissements. Leyde, 1892

(٦) ط. القسطنطينية، ١٢٩٨هـ.

(٧) انظر. G.d. Ar Litt I,p 452: Brock

المتوحد لم يصلنا، وإن وصلتنا منه شروح فلسفية بالعبرية[١]. وابن جابيرول (ت٥٥٣/ ١١٥٨)، الذي لقب بأفلاطون اليهود، وله كتاب اسمه: ينبوع الحياة[٢]. وابن طفيل (ت٥٨١/ ١١٨٥)، ويعرف للأوروبيين باسم أبا باسر (Abu Bacer)، وهو تحريف لأبي بكر، له كتاب حي بن يقظان[٣] –وهو كل ما تبقى من مؤلفاته- من أحسن ما تفخر به الفلسفة العربية، وإن كان فلاسفة آخرون من المشرق قد تناولوا (حي) هذا، إلا ابن طفيل جعل منه أثرا من أعظم ما أوجدته فلسفة العصور الوسطى، بحيث يعتبر ما ورد عنه الأفلاطونية الجديدة الإسلامية. فهو يرسم حياة طفل وجد في جزيرة نائية، التقطته ظبية وحنت عليه، فلما شب استطاع بتأمله أن يصل إلى معرفة الله وحقائق الوجود، فهو تحسس عقلي من الظلام إلى معرفة العالم، أو مناظرة بين قوى الإنسان وعقله. وابن رشد[٤] (ت٥٩٥/ ١١٩٨)، الذي يعتبر من أعظم شراح فلسفة أرسطو، حتى أنه عرف باسم: الشارح، فهو الذي ميز بين تعاليم أرسطو وأفلاطون، كما تميز بالتمحيص الكبير حتى أنه لم يرتض كثيرا من آراء أرسطو، التي لا تتفق مع الدين، على عكس سابقيه الذين كانوا ينظرون لأرسطو نظرة تقديس. وقد بلغت شهرة ابن رشد كل أنحاء العالم المتنور، وعرف للأوروبيين باسم: (Averroes).ومن تآليفه الهامة: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال[٥]، وكتاب الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها

---

(١) وصلنا شرح له بالعبرية عمله أبو بكر بن الصائغ نشره Herzog في Die Abbandlugen des Abu Bekr Ibn al-Saig, Berlin, 1896 تملك برلين ٢٤ رسالة من ابن باجه في الفلسفة والطب درسها Asin بعنوان: El filosofo Zaragozano Avempace. Rivistaer de Argon, aout, 1990

(٢) نشره Baunker، ١٨٩٥، انظر أيضا Munk: ميبلي، ص٣٥٨. ياقوت: معجم البلدان ج٢، ٨٦، ج٣/ ٤٢٤.

(٣) ط١٢٩٩هـ. انظر أحمد أمين، حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي، دار المعارف، كذلك نشر وترجم في أوربا باللاتينية عام ١٦٧١ ثم نقل إلى معظم لغات أوروبا مثل الهولندية عام ١٦٧٢، والفرنسية عام ١٩٠٠، والروسية ١٩٢٠، والإسبانية ١٩٣٤. عن ابن طفيل انظر.
Ency (art Ibn Tafail) t2, p. 450, (art Hayy b. Yakzaa) 2ed Op. Cit, IV, p. 56 SQQ: Carra de vaux; t3,p 341-345.

(٤) محمود قاسم. الفيلسوف المفتري عليه ابن رشد، عنه، انظر. عدة مقالات مثل Renila Averroes et Paveroisme. J R A S. July, 1934

(٥) نشر في القاهرة بعنوان: كتاب فلسفة ابن رشد، ١٩١٣م و١٣٢٨هـ.

بحسب التأويل من الشبه المزيفة والعقائد المضلة وكتاب التحصيل، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، منهاج الأدلة، كتاب الكليات وجوامع كتب أرسطو طاليس في الطبيعيات، كما توجد له شروح فلسفية ظهرت في ترجمات لاتينية وعبرية[١].

وأخيرا موسى بن ميمون الإسرائيلي[٢] (ت٦٠١/ ١٢٠٤)، الذي اشتهر للأوروبيين باسم (Maimonide)، وله مؤلفات في الفلسفة أشهرها: دلالة الحائرين[٣]، الذي ترجم إلى اللاتينية باسم (Doctor Perplexorum)، يتناول فيه بالنقد الوحي والنفس.

وعندما تناولت الفلسفة الإسلامية بعض الموضوعات الداخلة في خصوصية العقيدة. واتجهت الفرق الإسلامية إلى الأخذ من الفلسفة اليونانية ما يؤيد فكرها ومبادئها. فقد أثار توجه إدخال الفلسفة في الدين عداوة بعض رجال الدين مثل الغزالي (ت٥٠٥/ ١١١٢) الذي عاداها وألف ضدها: (تهافت الفلاسفة[٤]) –أي سقوطهم- و(مقاصد الفلاسفة[٥]). وربما تكون سبب عداوة الغزالي للفلسفة هو أنه كان ضد الشيعة، التي استخدمت الفلسفة في عهده على نطاق واسع، إذ أن الغزالي يعتبر واضع أسس السنة. ولكن الفلاسفة انبروا للدفاع عن أنفسهم، وعن ربط الفلسفة أشد الربط بالدين، ولا سيما ابن رشد، الذي ألف كتاب: (تهافت التهافت[٦])، وشبه الغزالي بالجاهل الشرير.

خصائص الفلسفة الإسلامية: تميزت فلسفة الإسلام بخصائص تفردت بها عن غيرها من فلسفات الأمم الأخرى هي:

---

(١) عن ذلك، انظر . Bouyges:

Inventaire des texes arabes d'Averroes. Melange de I'Univ. de Beyrouth, 1922

(٢) عنه، انظر ولفنسن، موسى بن ميمون، حياته ومصنفاته، القاهرة ١٩٣٦،

Ency (art Ibn Maimun) t2,p 424-5

: The Jawish Ency. Vol IX, p 73-86

Die philosophie des Judentums Muuchen, 1933: Julina Gultmann

(٣) وهو نشر على يد Munk بعنوان:

Guide des Egares. 3 vois. Paris, 1856-1866

(٤) ط. مصر ١٣٢١هـ، و١٣٠٣هـ، مع تهافت ابن رشد.

(٥) تحقيق سليمان دنيا، القاهرة ١٩٦٢.

(٦) انظر قبله، بيروت ١٩٢٧، كما نشره مولير مع ترجمة ألمانية، ١٨٧٥، وله ترجمة إيطالية ١٨٧٥-١٨٧٨.

(١) اعتمدت فلسفة الإسلام في أصولها الأولى على ثالوث عباقرة الفلسفة اليونانية (أرسطو- أفلاطون- سقراط).

(٢) الفلسفة الإسلامية توفيقية حاولت التوفيق بين الدين والعلم.

(٣) الفلسفة الإسلامية روحية تطويعية عملت على تطويع كل العلوم لخدمة العلوم الدينية.

(٤) الفلسفة الإسلامية موضوعية بحثت في كل الأمور حتى في قضايا الاعتقاد.

(٥) اعتمدت الفلسفة الإسلامية على العلم باعتباره أداة الحضارة ووسيلتها الأولى.

(٦) الفلسفة الإسلامية مفتوحة وغير منغلقة، رفعت من شأن العلم وقيمة العلماء على مختلف تفكيرهم.

(٧) لم تترك الفلسفة الإسلامية مدارس أو مذاهب فلسفية وهذا يعود إلى أسباب منها:

(أ) صعوبة فهم الأسلوب الفلسفي لغير المتخصص.

(ب) محاربة بعض الخلفاء والعلماء لهذا العلم تحت زعمهم أنه يشكك في العقيدة أو يهدد الإسلام.

(ج) ضياع معظم الفلسفات الإسلامية التي لم يعثر عليها حتى الآن.

فضل العرب في الفلسفة: قدم المسلمون للعالم فضائل جمة في كافة العلوم وعلى الأخص منها في علم الفلسفة نذكر منها:

أولا- أضافوا شروحا وافية. وحاولوا إدخال الفلسفة اليونانية في الدين وجعلها سندا للعقيدة (واتفاق العقيدة مع العقل). لذلك أطلق على فلاسفة الإسلام لقب (الإمام) لربطهم الدين بالعلم.

ثانيا- ترك الإسلام الحرية في دراسة الفلسفة عكس الديانات الأخرى التي ترى أن الفلسفة رجوع إلى الوثنية. لذلك جاء فضل الإسلام كبيرا لأنهم أذاعوا هذا العلم عالميا. وفتحوا بذلك عصرا جديدا في الفكر.

ثالثا- ركز فلاسفة الإسلام دراستهم على (أرسطو) وأفلاطون واعتبروهما من مدرسة واحدة لتميزهم بالمنطق السليم.

رابعا- طوَّر المسلمون علم المنطق واستخدموه في جميع علومهم.

خامسا- لم يترك فلاسفة الإسلام. مذاهب أو مدارس خاصة بالفلسفة أو معرفة للفروق بين مبادئهم وذلك بسبب صعوبة فهم أسلوبهم الفلسفي، وضياع معظم المؤلفات وتعرض بعض علمائها لأسوء النهايات خاصة بعد اعتقاد عدد من الخلفاء والعلماء أن الفلاسفة يريدون تشكيك الناس في عقائدهم فاضطهدوهم.

سادسا- ظهور كثير من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا روادا للفلسفة الحديثة وأثروا كذلك في الفكر الأوروبي.

سابعا- يعد علماء الفلسفة الإسلامية أول مؤسسي علم النفس وأصول التربية وعلم الاجتماع.

المصادر والمراجع – النظم الإسلامية

١- المخطوطات

ابن المقفع: أبو عبد الله محمد (التبر المسبوك فيما يحتاج إليه الملوك) مكتبة السليماني برقم ١١٣ اسطنبول.

الأبوصيري: علي بن علي (آداب الوزارة)، مكتبة آيا صوفيا اسطنبول برقم ٢٨٤٥.

الجيلي: أحمد محمود (منهاج الوزراء في النصيحة) مكتبة أيا صوفيا اسطنبول برقم ٢٩٠٧.

السلماني ابن الخطيب. الإشارة إلى آداب السياسية في الوزارة، خزانة الكتب والوثائق المغربية الرباط برقم ٢٤١١.

الغزي: كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحنفي. جلاء الظلمة عن حقوق أهل الذمة، بدار الكتب المصرية/ المكتبة التيمورية برقم ٣٢٤ عقائد ألفه سنة ١٣١٥ باسم السلطان عبد الحميد.

الفناري: محمد بن علي (رسالة في الوزارة واشتقاقها)، مكتبة الأوقاف بغداد.

٢- المصادر الأولية

ابن الأثير: - أبو الحسن علي بن الكرم الجزري الملقب بعز الدين (ت ٦٣٠هـ-١٢٣٢م). (الكامل في التاريخ)، مطبعة البابي الحلبي ١٣١٠هـ.

ابن الأخوة: محمد بن أحمد القرشي (ت ٧٢٩هـ) (معالم القربة في أحكام الحسبة) باعتناء روبين ليوي كمبرج ١٩٣٧.

ابن آدم: يحيى القرشي (ت٢٠٣هـ/ ٨١٨م). (الخراج)، المطبعة السلفية/ القاهرة ١٣٤٧هـ.

ابن أنس: الإمام مالك. (المدونة الكبرى) برواية سحنون، مطبعة السعادة مصر

١٣٢٣هـ.

ابن بطريق: البطريق فيتشيوع المكنى بسعيد بن بطريق (ت ٣٢٨هـ - ١٩٣٩م) (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق) مطبعة الآباء اليوعيين، بيروت ١٩٠٩م.

ابن بطوطة: أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتي (ت ٧٧٩هـ). (رحلة ابن بطوطة)، بيروت ١٩٦٤.

ابن تيمية: - تقي الدين الحراني. (الحسبة في الإسلام)، القاهرة ١٣١٨هـ.

ابن الجوزي: - سبط. (المنتظم في التاريخ) حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ.

ابن الجوزي: سبط. المنتظم في التاريخ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ.

ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تميز الصحابة. ١٩٢٣م.

ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل القاهرة ١٣١٧هـ.

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن علي البغداد الموصلي (ت ٣٦٧هـ). (صورة الأرض). نشر مكتبة الحياة، بيروت.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن جابر (٨٠٨هـ-١٤٠٥م).(العبر وديوان المبتدأ والخبر)، بيروت ١٩٦١م. (المقدمة) بيروت ١٩٠٠م.

ابن خرداذبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبيد الله (ت ٣٠٠هـ).(المسالك والممالك) طبعة يريل ١٨٨٩م.

ابن خلكان: شمس الدين أبي العباس أحمد (ت ٦٨١هـ=١٢٨٢م).(وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان)، المطبعة اليمنية، القاهرة ١٣١٠هـ.

ابن سعد: محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) (الطبقات الكبرى)، ليدن ١٩٢٨م.

الفصل الثاني عشر

العلوم العقلية

العلوم الطبية – الطب، الصيدلة، المستشفيات

العلوم الرياضية– الحساب، الجبر، الهندسة

العلوم العقلية: تعد دراسة التراث الحضاري العربي من الدراسات التي تلقي الضوء على التطور التاريخي للفكر العربي والعلوم النقلية والعقلية إلى جانب المعارف والفنون. كذلك تبين أصالة التراث العربي العلمي الإنساني الذي استقى منه التراث العالمي فترة طويلة من الزمن.

إن الحياة المعاصرة هي حصيلة تظافر جهود حضارية متعددة على مدى عصور متلاحقة طويلة. ومن جملة هذه الجهود، الدور الذي اضطلع به العرب في خدمة الحضارة الإنسانية، من خلال حفظهم للتراث القديم أولا ثم دراستهم العلمية والمنهجية له. ثانيا ثم ابتكاراتهم وإبداعاتهم ثالثا حتى أصبحت الحضارة الإسلامية هي الحضارة العالمية الأولى. وفق نظر علمي وأساليب بحث تجريبي فضلا عن المواقف النظرية في حقول المعرفة عامة. الأمر الذي ساعد في دفع عجلة التطور العلمي نحو التقدم والازدهار.

ومن أبرز ما سجله العرب في هذا المجال اهتمامهم بتدوين دورهم في مجال العلوم العلمية والعقلية، بحيث لم يكونوا عالة على غيرهم في أي حقل من الحقلين. بل كانوا منفتحين ومبدعين ومانحين من ذواتهم وقدراتهم الكثير، الذي لا ينكر فيه فضلهم. وقد اشتهرت آثارهم في حقل الدراسات الإنسانية. في حين ظل معظم تراثهم العلمي خزين المخطوطات لم يحقق منه إلا اليسير.

ومن أبرز ما قدمه العرب صياغتهم العلمية والمنهجية للعلوم البحتة على أسس تجريبية، وفق منهج عقلي دقيق، اعتمد البحث الجاد والبرهان كما ينبغي أن يكون.أسوة بالقرآن الكريم الذي أظهر منهجا علميا وفلسفيا وإنسانيا واضحا. من خلال بناء قاعدة التعامل بين الإنسان والكون والطبيعة. وكذلك منهجه المنطقي الذي دعا البشر عموما للحركة والفكر والعلم الدائب، لفحص ما يحيط بهم من نواميس وظواهر وأشياء. للكشف عنها والإفادة منها في إدراك عميق نظم الكون والعالم والإنسان وصولا إلى الخالق المبدع. حتى أصبح القول بالسببية حقلا من حقول الفلسفة الإسلامية التي تنظر إلى الخط الفكري الذي وضع القرآن علاماته الأولى. إضافة إلى تأكيده على الأسلوب الذي يعتمد البرهان والحجة والجدل العلمي، لغاية الوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والموازنة والتشخيص، والتجريب في البحث العلمي عند العرب جاء استجابة لمتطلبات أولية في بنيتهم الفكرية التي صاغها القرآن صياغة محكمة.

أما المنهج لهذه الدراسة فهو يعتمد على إبراز مراحل تطور النظم والعلوم عند العرب. ومن ثم عرض مآثرهم ومبتكراتهم في مجال هذه العلوم كافة. ربطا بين أصول هذه العلوم وفضل العرب عليها، إلى جانب تتبع التطور التاريخي لكل علم من العلوم، وذلك لغرض تكوين صورة متكاملة عن الحركة والديناميكية للتطور التاريخي والحضاري لهذه النظم والعلوم، وللتأكيد على تراكمية واستمرار التيار الفكري والعلمي الذي لا ينقطع من تاريخ البشرية.

أما العلوم العقلية[١]، فظهورها لم يبدأ بظهور الإسلام وحده. ولا هي نقلا عن العرب. وإنما هي نتاج علوم الأولين من المصريين والهنود والفرس واليونان وغيرهم. وفق تراكمية بشرية لا تنقطع ولهذا أطلق عليها علوم العجم أو العلوم القديمة أو علوم الأوائل[٢]. وقد قامت نهضة العلوم العربية العقلية اعتماداً على علوم اليونان في الخصوص، كما أن نهضة العلوم في أوربا جاءت معتمدة على علوم اليونان. ولعل السبب في هذا أن غالبية المصريين القدماء وغيرهم كانت عملية في أغلبها، بينما علوم اليونان غلبت عليها الصبغة النظرية لذلك قدموا العلم خطوات إلى الأمام[٣]. بوضعهم مناهج العلوم التي ظهرت بخاصة في مدرسة الإسكندرية منذ زمن البطالمة. أو ربما السبب يعود إلى جهلنا بعلوم المصريين على الخصوص، لقلة ما وصلنا عنها، وإن كان من المتفق عليه أن أعاظم علماء اليونان مثل طاليس وفيثاغورس وأفلاطون هبطوا مصر، فضلا عن قيام مدرسة الإسكندرية اليونانية في مصر، التي ظل تأثيرها حتى العهد الإسلامي[٤]. لهذا يعد فضل العرب كبيرا على هذه العلوم، لأنهم حافظوا على تراث الحضارات القديمة وبخاصة اليونانية منها. ثم ترجموه ودرسوه ونسقوه وصوبوه، وكتبوا شروحا حوله، ثم أضافوا إليه إبداعاتهم وابتكاراتهم. وحاولوا كذلك التوفيق بين هذه العلوم وبين الشريعة. الأمر الذي ساهم في تقدم العلوم خاصة والحضارة البشرية عامة.

---

(١) مثلا: المقدمة، ص ٣٧٩ وما بعدها.

(٢) ابن أبي أصيبعة، ١ ص ١١٣.

(٣) انظر، ميبلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، نقله إلى العربية التجار ويوسف موسى، ص٣٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة، ١ س ١١٦، حاجي خليفة، ١ ص ٢٤ ص ٢٣.

علم الطب: عرف ابن خلدون[1] علم الطب بقوله ((تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها، وما لكل مرض من الأدوية مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه وقبوله الدواء أولا في أنسجته والعضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فإنها المدبرة في حالتي الصحة والمرض، وإنما الطبيب يحاذيهم ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفضل والسن، ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب)).

الطب في الحضارات القديمة: عرفت بلاد الحضارات القديمة (المصرية وبلاد ما بين النهرين، الصينية، الهندية، واليونانية، والرومانية والفارسية) هذا العلم مبكرا لارتباطه بوجود الإنسان وحياته. وقد تطور ابتداء من الشعوذة والتعاويذ إلى طب الاختصاص وغلب على ممارس هذه المهنة الطابع الإنساني، وفيما يلي لمحة عن تطور هذا العلم في الحضارات القديمة.

الحضارة المصرية: عرفت أرض مصر القديمة الطب مبكرا، واعتبر (أمحوثب) أول طبيب ذكرته المصادر التاريخية. ومارس المصريون الطب بشكل يشبه الاختصاص واكتسبت هذه المهنة طابعا إنسانيا عاما، شمل كل فئات الشعب. كذلك أظهرت البرديات قدرة المصريين على معرفة الأمراض وطرق علاجها. إلى جانب شهرتهم بالتحنيط ومعرفة أمراض العين. والجراحة والحجامة والمقيئات والحقن وغيرها[2].

حضارة بلاد ما بين النهرين: عاصرت هذه الحضارة حضارة مصر القديمة. واعتبر الطب من أهم مظاهرها، لشموله عموم فئات الشعب، ووجود دستور مقيد لمهنة الطب. ومعرفتهم لأمراض كثيرة أخصها القلب والكبد[3].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٩٣.

(٢) حسن كمال: الطب المصري القديم ج١/ ١٠٩-١١٠، الماحي: مقدمة في تاريخ الطب في مصر القدمية ص٨، ١٠، ١٢.

(٣) شوكت الشطي: موجز تاريخ الطب ص٣، الماحي: ١٥، ١٧ فروخ مقدمة في تاريخ العلم العربي ص٨٤-٨٥.

الصينيون: عرفوا الكثير من الأمراض وأسبابها وطرق علاجها. واعتمدوا على الأدوية النباتية والوسائل الطبيعية في العلاج[١].

الهنود: اعتمدوا على طرق العلاج الطبيعية والنباتية، والقليل من الجراحة إلى جانب اهتمامهم بالطب الروحاني[٢].

اليونان: تميزت هذه الحضارة بتقدم واسع في باب العلوم الطبية من حيث معرفتهم بكثير من الأمراض وأسبابها وطرق علاجها. وتعدد أطبائها المشهورين ابتداء من المعلم الأول (اسقليبوسن) وأبقراط المعلم السابع لمهنة الطب (وقسم أبقراط) الذي أكد على إنسانية صاحب هذه المهنة وجالينوس الطبيب العالم الأول في التشريح[٣].

الرومان: لم تكن مهنة الطب عندهم بداية محترمة لأن محترفوها كانوا من العبيد. إلى أن تطورت وتقدمت وأصبحت مهنة إنسانية اعتمد محترفوها في العلاج على الوسائل الطبيعية[٤].

الفرس: كان الطب عندهم هجينا بين الطب اليوناني والمصري وأطباء من الهند، وأشهر مدارس الطب عندهم (مدرسة جنديسابور)[٥].

تطور الطب العربي الإسلامي: تمتعت بلاد العرب بحكم موقعها الجغرافي بعلاقات واتصالات سياسية واقتصادية وتجارية وثقافية. خاصة مع بلاد الحبشة في مرحلة الدين المسيحي خاصة وأن عيسى عليه السلام كانت معجزته في الطب والعلاج. وكذلك مع بلاد الفرس والروم والهند[٦]. إلا أن تاريخ الطب في الجاهلية غالبا كان يعتمد على التجارب المتوارثة في العلاج. وفي ممارسة هذه المهنة على العرافين الكهان والمشعوذين

---

(١) الشطي: موجز تاريخ الطب ص٣، ٢٩-٣١.

(٢) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص٨٥.

(٣) شوكت الشطي: موجز تاريخ الطب ٩١، ٩٢، ابن أصيبعة عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٩، ٣٣، ٣٩، ٤٣-٤٦.

(٤) الشطي: ٩٢-٩٣.

(٥) الشطي: ٩٤، الماحي: مقدمة في تاريخ الطب العربي، ٣٤.

(٦) أحمد حسنين القرني: قصة الطب عند العرب ص٥، ٦.

والسحرة والعيافين. وقد عرفوا العديد من الأمراض وكيفية طرق علاجها[١]. وخصصوا معازل للمجذومين وعرفوا علاج الأسنان وشدوها بالذهب، هذا إلى جانب العناية بالطب الفني التجميلي. وقد برز العديد من الأطباء المشهورين منهم زهير بن جناب الحميري، وابن جذيم، والطبيبة زينب طبيبة بني أود[٢]. وأشهرهم الحارث بن كلدة وابنة النظر الذي توفي في (٢هـ)، من هنا يمكن القول أن الطب العربي قبل الإسلام بني على التجارب الشخصية المتوارثة، ولم يكن قائما على قانون طبيعي علمي. وكان اعتقاد أهل الجاهلية أن سبب الأمراض هي الأرواح الشريرة. هذا وقد برع الجاهليون في علاج الحيوانات بسبب اعتمادهم عليها في حياتهم وخاصة الإبل والخيل.

أطباء الجاهلية الذين عاصروا الإسلام:

* **الحارث بن كلدة الثقفي** (ت ١٣هـ/ ٦٣٤م) من أهل الطائف ارتحل كثيرا طلبا للعلم. وتعلم الطب في بلاد فارس وربما كان في (مدرسة جنديسابور)[٣]. عاصر عهد الرسول ﷺ، وأيام الخلفاء الراشدين، حتى عهد معاوية بن أبي سفيان واستحدثت علاجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب قد اعتادت عليه، وما تحتاج إليه من المداواة، وقد اشتهر بمناظرته مع كسرى انوشروان في بعض القضايا الاجتماعية والطبية، حيث ((أحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به))[٤].

من أقواله: سأل معاوية، ما الطب يا حارث؟ فقال: الأزم، يعني الجوع. من سره البقاء ولا بقاء، فليباكر الغداء وليعجل العشاء، وليخفف الرداء وليقل الجماع. دافع بالدواء ولا تشربه إلا من ضرورة فإنه لا يصلح شيئا الا أفسد مثله[٥] بهذا نجد الحارث وكأنه يحدثنا بمنطق الطب الحديث الذي يؤكد على عدم تناول الأدوية إلا عند الضرورة القصوى. وقد اكتسب شهرة واسعة في عالم الطب، وكان يدعى طبيب العرب في وقته[٦].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٤٩٣، أحمد الشطي: العرب والطب ص٣٤.

(٢) الشطي: موجز تاريخ الطب العربي، ١٢٥-١٤٩.

(٣) ذكر ابن جلجل في كتابه طبقات الأطباء والحكماء، ص٥٤، أنه ((تعلم الطب بناحية فارس واليمن)).

(٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص١٦٢-١٦٥.

(٥) نفس المصدر، ص١٦١، ٦٥-١٦٦.

(٦) بولص بهنام، مجلة بين النهرين، عدد خاص، ٤/ ١٩٧٦، العدد ١٤-١٥، ص٩٨.

وله من الكتب: كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان[1].

* **النضر بن الحارث بن كلدة** (قتل سنة ٢هـ/ ٦٢٣م) يرجع في نسبه أنه ابن خالة النبي ﷺ، سافر كأبيه الحارث إلى بلاد كثيرة طلبا للعلم. وكان يجتمع بالعلماء ويعاشر الأحبار والكهنة. ودرس العلوم القديمة واطلع على علوم الفلسفة والحكمة، وتعلم من أبيه الطب، وكان كثير الأذى للنبي ﷺ، ثم انضم إلى أبي سفيان وقتل بعد معركة بدر[2].

الطب في صدر الإسلام: عاش الأطباء الحارث بن كلدة وابنه النضر ورفيدة وأم عطية الأنصارية إلى أيام الرسول ﷺ، ولم يشهد الطب أي تقدم ملموس في صدر الإسلام بل ظل كما هو عليه في الجاهلية[3]. أما الطب النبوي المنقول عن النبي ﷺ، فهو مجموعة من الأحاديث النبوية يبلغ عددها ثلاثمائة حديث، جمعت بعد وفاته. وتحتوي على قواعد عامة لحفظ الصحة ومواضيع في أبواب الطهارة والشرب والأكل والزواج وغيرها. وقد أخذت بعض هذه الأحاديث صيغة الحكمَّ فقيل: من الأحاديث الأخرى المتعلقة بهذا المجال، مما يدل على أن النبي ﷺ كان يوصي بالاعتدال في المعيشة، وخاصة في الأكل والشرب وكذلك بالامتناع عن المشروبات. ومن المبادئ الأخرى التي جاء بها، أن النظافة من الإيمان، وكل هذه المبادئ لم تخرج عن باب الحفاظ على الصحة العامة[4]، وباب النصح والإرشاد إلى جانب بعض الأصول والمعلومات الطبية.

الطب في عهد الخلافة الأموية: أخذ التطبيب يتأثر بالاتجاه اليوناني منذ مطلع العصر الأموي، وكان لمعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ/ ٦٨٠م) طبيبان مسيحيان من أهل دمشق، أحدهما اسمه ابن أثال، والآخر الحكم بن ابن الحكم الدمشقي[5]. أما ابن آثال فكان من الأطباء المتميزين في دمشق، عاصر معاوية بن أبي سفيان، حيث إصفاه لنفسه

---

(١) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص١٦٧.

(٢) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص١٦٧-١٧٠.

(٣) فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٧٤.

(٤) عبد الإله عبد الموجود، الوقاية في الطب العربي، محاضرات ألقية على طلبة الصف الرابع -كلية الطب- جامعة الموصل، سنة ١٩٧٥-١٩٧٦. وقد وضع ابن القيم الجوزية كتابا جامعا في هذا الباب بعنوان: (الطب النبوي) ذكر فيه أنه فصول نافعة من هدية النبي ﷺ في الطب الذي تطبب به ووصفه لغيرة، انظر (الطب النبوي) ص٢.

(٥) فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٧٤-٢٧٥.

وأحسن إليه. وكان خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة وقواها، وخاصة السموم وقد استخدمه للتخلص من أعدائه ومات مقتولا.

الحكم الدمشقي: كان عالما بأنواع العلاج والأدوية وكان يستطبه معاوية ويعتمد عليه في تطبيب أفراد عائلته. أرسله مرة إلى مكة طبيبا لابنه يزيد حين أقام هذا الأخير أميرا على الحج[1]. وأرسله كذلك مرة ثانية إلى مكة مع أمير الحج.

خالد بن يزيد بن معاوية يعد عالما بالطب والكيمياء وهو أول من نقل طب اليونان إلى العربية[2]، على النطاق الشخصي وذلك بعد أن فشل بالوصول إلى الخلافة، أما على نطاق دولة الخلافة فإن أول من اهتم بالطب في الإسلام الخليفة الأموي الرابع مروان بن الحكم (٦٤، ٦٤هـ/ ٦٨٣م).

الطب في عهد الخلافة العباسية: ارتفع مستوى الطب ومدارسه في عهد الخلافة العباسية ارتفاعا ملحوظا، وعني خلفائهم بهذا العلم عناية كبيرة. فقد استقدم أبو جعفر المنصور (باني مدينة بغداد عام ١٤٥هـ/ ٧٦٥م) أطباء عدة منهم ابن بختيوشع النسطوري (ت ١٥٢هـ). ثم تلاه ابنه جبريل في خدمة الخلفاء العباسية [3]. وكذلك الطبيب حنين بن إسحاق ويوحنا بن ماساوية وثابت بن قرة. كان للطب نظام لا يسمح للمتطبب بممارسة الطب إلا بعد اجتيازه امتحاناً فيه ينظمه رئيس الأطباء. ومن أشهر هؤلاء الرؤساء سنان بن ثابت (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) في بغداد، ومهذب الدين الدخوار في مصر، كما كان الطب يخضع إلى ما يشبه نظام الاختصاص على أيامنا، ففيهم الطبيب العام، والجراح، والفاصد، والكحال (طبيب العيون) والأسناني (طبيب الأسنان) وطبيب النساء، وطبيب المجانين[4].

كذلك نشأت مدارس الطب وتطور التدريس فيها على منهجين: منهج نظري يطبق في المدارس الطبية ويشمل دراسة الأمراض وكيفية علاجها، ومنهج علمي، يشمل التدريب والتمرين على كيفية التطبيب والمعالجة، يجتمع بموجبه الطلاب حول رئيس الأطباء ليشاهدوا طرق الفحص ووصف العلاج، وإذا مضوا مدة الإجازة تقدموا للامتحان، ثم

---

(١) ابن أصبعة: طبقات الأطباء. ١٧١-١٧٤، ١٧٥-١٧٦.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٥١١، الطبري: تاريخ الأمم والملوك جـ ٥ / ٢٢٤.

(٣) ابن جلجل، ص ٦٤.

(٤) ابن جلجل، ص ٦٨-٧٦، ١٨٦.

أقسموا اليمين، ونالوا الشهادة. وبعدها يحق لهم ممارسة هذه المهنة تحت رقابة الدولة [١].
هذا وقد استمر اعتماد هؤلاء الأطباء على تصانيف اليونان الطبية القديمة بعيداً عن التجربة والتأليف. حتى ظهرت البوادر الأولى في منتصف القرن الرابع الهجري للتأليف الطبي الإسلامي. بتأليف علي بن سهل بن ربن الطبري كتاب فردوس الحكمة. واعتبر الطبري هو أستاذ أبي بكر الرازي [٢].

أشهر علماء الطب في الإسلام:

* محمد بن زكريا الرازي (أبو بكر): المتوفى سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م.

ولد ونشأ في الري [٣] وسافر إلى بغداد، وبقي فيها ردحاً من الزمن وكان ميالاً إلى العلوم العقلية والأدب منذ صغره، إلا أنه تعلم الطب وبرع فيه [٤] ويذكر ابن أبي أصيبعة[٥]، إن سبب دراسة الرازي للطب ؛ أنه عندما دخل إلى البيمارستان ليشاهده التقى بصيدلاني البيمارستان، فسأله عن الأدوية ومن كان المظهر لها في البدء، فأجابه بأن أول ما عرف منها كان حي العالم[٦]. أقبل الرازي على دراسة كتب الطب وأخذ يقرأها عميقة حتى سبر أغوارها وتمكن منها، ومارس مهنة الطب بكل ذكاء وقابلية وإتقان وبلغ من النجاح أوجه، حتى صار إمام وقته في علم الطب [٧]. أما ابن أبي أصيبعة فقد أطلق عليه (جاليونس العرب). وقد انتخب رئيساً لبيمارستان الري [٨] وجعل أكثر اعتماده في الطب على التجربة والقياس والاستدلال والملاحظات السريرية، ورغب العرب العلاج بالأغذية دون الأدوية. يعد الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة المسمى (بالقصاب)، وهو أول من عمل في مراهم

---

(١) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٦٧

(٢) الماجي: مقدمة في تاريخ الطب العربي ص ٧١. هذا وقد وصلت قمة التأليف للعهد الجديد في عهد الشيخ الرئيس ابن سينا ، ادوارد براون الطب العربي ص ٤٢-٤٣.

(٣) وهي مدينة قديمة في (مادي) جنوب طهران، فتحها العرب في زمن الخليفة عمر بن الخطاب سنة (١٨هـ / ٦٣٩م) وفيها ولد الخليفة العباسي هارون الرشيد. انظر أبي أصيبعة طبقات الأطباء ص٤١٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٤١٤.

(٥) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء ص ٤١٥.

(٦) حي العالم: نبتة صغيرة تزرع لزهرة من فصيلة المخلبيات وهو بالفرنسية **Joubarle**

(٧) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٢٤٤.

(٨) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٤١٥.

الزئبق، وكذلك أول من أنشأ مقالات خاصة في أمراض الأطفال، وأول من عرف الإصابة بالعرق المديني [١]، واستخدم الأفيون في حالات السعال الشديدة والجافة [٢]، وفي حالات الإسهال الحاد [٣]، وكذلك استخدمه منوماً [٤]. وعالج مرض السل بالحليب والسكر، وعالج التهاب الصدر بالخمرة [٥]، وأدخل طريقة التبخير في العلاج، وعالج الاستسقاء بالإسهال وإدرار البول [٦]، واستعمل طرق عديدة مبتكرة في علاج شتى أنواع الأمراض الأخرى.

مؤلفاته: يعد الرازي كاتباً مؤلفاً خصباً كثير الإنتاج وخاصة فيما يتعلق بمهنة الطب، وقد بلغ ما ألف في الطب حوالي ستة وخمسين كتاباً، منها ما وضعه على شكل رسائل، وقد وقع بعضها في مجلدات كثيرة [٧] ومن أهم مؤلفاته:

١- كتاب الحاوي، وهو من أهم كتبه وأعظمها في مجال الطب، وذلك أنه جمع فيه كل ما وجه متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية لمن سبقه من الأطباء والمؤلفين في الطب إلى زمانه، ونسب كل شيء نقله إلى قائله. ويعد هذا الكتاب أكبر وأهم الكتب العربية في الطب [٨].

٢- كتاب المنصوري، أُلف نسبة للأمير منصور بن اسحق صاحب خراسان (٢٩٠-٢٩٦هـ / ٩٠٢-٩٠٨م) وقد تحرى فيه الاختصار والإيجاز، وجمع فيه بعض الجوامع والنكت والعيون من صناعة الطب علمها وعملها، وهو عشر مقالات. يتحدث فيها عن شكل الأعضاء وخلقها، ومزاج الأبدان وهيئتها، والأخلاط الغالبة عليها، وقوى الأغذية والأدوية وحفظ الصحة، والزينة وتدبير المسافرين وصناعة الجبر والجراحات والقروح

---

(١) التجاني الماجي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، ص ١٨.

(٢) الرازي، من لا يحضره طبيب، ص ٤٣.

(٣) الرازي، الحاوي، ج ٦، ص ١٧٠.

(٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٠٦.

(٥) **MD: Vol. No. IV , P. 115** (فرات فائق، أبو بكر الرازي، ص ٥٢).

(٦) الرازي، من لا يحضره طبيب، ص ٥٢.

(٧) فرات فائق، أبو بكر الرازي، ص ٦٨ – ٦٩.

(٨) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٤٢١.

والسموم والحميات وما يتبع ذلك مما يحتاج إلى معرفته في تحديد علاجها [١].

٣- رسالته المشهورة في الجدري والحصبة: وهي من أهم مؤلفاته أيضاً وقد ظهرت باللاتينية في مدينة فينيسيا عام ١٥٦٥، ونشر النص العربي مصحوباً بترجمتها اللاتينية عام ١٧٦٦، كما قام بترجمتها إلى الإنجليزية وليام الكسندر كرينهل.

٤- كتاب الحصى في الكلى والمثانة [٢].

٥- كتاب دفع مضار الأغذية [٣]، وهو مقالتان، يذكر في الأول منهما مما يدفع به ضرر الأطعمة في كل وقت ومزاج وحال، وفي الثانية قولان: استعمال الأغذية ودفع التضخم ومضارها.

٦- كتاب إلى من لا يحضره طبيب [٤]: ويعرف أيضاً بطب الفقراء، وكتاب الفقراء والمساكين.

٧- كتاب برء ساعة [٥]: ذكر فيه جميع الأمراض التي يمكن شفاؤها في ساعة واحدة. مع بيان دواء كل مرض من هذه الأمراض، مثل الصداع والزكام، والرمد، ووجع القلب، وعرق النسا، ووجع الأسنان، وغيرها من الأمراض الأخرى التي يمكن شفاؤها في ساعة واحدة [٦].

٨- كتاب المرشد [٧]: ويعتبر هذا الكتاب من مؤلفات الرازي في الطب النظري.

٩- كتاب الفاخر في الطب: ذكر فيه الأمراض ومداواتها واختار معالجتها على أتم ما يكون وأفضله.

---

(١) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٤٢٣، فرات فائق: أبو بكر الرازي ٧١-٧٢.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ١١٨، ٤٣٢.

(٣) مخطوط موجود في مكتبة الأوقاف العامة بالموصل (أقدم مخطوط عراقي). ابن النديم: الفهرست / ٤٣٣.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص ٤٣٢.

(٥) ذكره الدكتور الحمارنة في فهرس مخلوطات دار الكتب الظاهرية باسم (سر الساعة) وليس برء الساعة ص ١٠١.

(٦) فرات فائق، أبو بكر الرازي ص ١٢١.

(٧) الرازي: كتاب المرشد أو الفصول، تحقيق أبير اسكندر ص ١٧.

١٠- كتاب الطب الملوكي [١]: في العلل وعلاج الأمراض كلها بالأغذية ودس الأدوية في الأغذية حيث لا بد منها. وما لا يكرهه العليل [٢].

* **علي بن عباس المجوسي** (كان حياً قبل سنة ٣٨٤هـ / ٩٤٤م): ألف للأمير عضد الدولة فا خسرو بن بويه (٣٢٥-٣٧٣هـ/ ٩٣٦-٩٨٣م) كتابه المسمى بالملكي، والمعروف بكامل الصناعة، وهو كتاب جليل في علم الطب وكان حسن التبويب، لزم الناس درسه إلى أن ظهر كتاب (القانون) لابن سينا[٣].

* **الزهراوي**: المتوفى سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥): عد أبو الجراحة وهو طبيب معروف خبير بالأدوية المفردة والمركبة له تصانيف في الطب[٤]. شرح الزهراوي العمليات الجراحية وآلاتها بالرسوم، وهو أول من ربط الشرايين، وبهذا يكون قد سبق إمبراز بارية. بما يقرب من ستمائة سنة وأول من عمل عملية استئصال حصى المثانة في النساء عن طريق المهبل، وأول من وصف النزيف واستعدادات بعض الأجسام له، ونجح أيضا في عملية شق القصبة الهوائية، كما أجرى أيضا عملية تفتيت الحصاة في المثانة[٥]. له عدة مؤلفات أشهرها كتابة الكبير المعروف (بالزهراوي) وكتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف).

* **ابن سينا**: هو أبو علي بن عبد الله بن سينا، ويطلقون عليه في المغرب: Avicenna من أبرز العلماء العرب، لقب بالشيخ وعرف بالرئيس وأطلق عليه لقب المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي، من أعظم أطباء عصره لا بل أعظم أطباء الحضارة الإنسانية في القرون الوسطى، كان والده من أهل بلخ[٦] وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور (٣٦٩-٣٨٧هـ/ ٩٧٦-٩٩٧م) ولد ابن سينا في قرية يقال لها (أفشنة) وبعد أن ولد أخوه انتقل إلى بخارى، وفيها تلقى العلم وحفظ القرآن وتفقه في الدين ودرس الرياضيات

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٣٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص ٤٢٢ – ٤٢٣.

(٣) المجوسي: كامل الصناعة ج١/ ٣-٦، ٩، محمود ذياب: الطب والأطباء ٣٣٢، ٣٣٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ص٥٠١. أحمد عيسى: آلات الطب والجراحة ص٥. المجوسي: كامل الصناعة ج١/ ٣-٦.

(٥) قطايا، مخطوطات الطب والصيدلة ص٤٣.

(٦) الماحي: مقدمة من تاريخ الطب العربي ص٨٣، ١١٧-١١٨. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء هامش ٤٣٧-٤٣٨.

والمنطق والفلك، حيث ظهرت عليه علامات النبوغ والعبقرية، وسعى إلى المزيد من العلم والمعرفة فرغب بدراسة الطب وصار من أهم الأطباء[١]. كانت عبقريته من نوع غريب لا تستقر على حال، وحياته تشوبها الغرابة والشذوذ، يقضي الليالي ساهرا منكبا على القراءة والكتابة ويتناول أحيانا الشراب ليجعله مستيقظا وواعيا[٢].

أما مؤلفات ابن سينا فهي كثيرة وهي تحتوي على مجموعة علوم منها الفلسفة والمنطق والرياضيات والعلوم الطبيعية والطب وغيرها، فقد كان ابن سينا عالما عبقريا موسوعيا وكان لهذه المؤلفات تأثير كبير على الحركة العلمية في الشرق والغرب. أهمها كتابه الكبير القانون في الطب يوجد محفوظا في باريس. وهو أكبر موسوعة طبية عالمية[٣]. هذا وقد برع عدد كبير من أطباء العرب منهم سنان بن ثابت ابن قرة، علي بن عباس المجوسي وعمار الوصلي، علي بن عيسى الكحال وأبي العلاء صاعد وابن أصيبعة.

- **مآثر العرب الطبية وابتكاراتهم**: لم يكتف العرب بما أخذوه من علم الأوائل في الطب وبما كان لديهم، وإنما قاموا بالدراسة والتجارب والتأليف، فتركوا مآثر وإنجازات مهمة في هذا العقل نذكر منها:

علم التشريح: بالرغم من أن مساهمة العرب في تطور علم التشريح لم تكن بصورة مباشرة، ولا بنفس المستوى الذي ساهموا فيه بتطور بقية فروع الطب، لأسباب دينية أو إنسانية أو اجتماعية. إلا أنه مما لا شك فيه فإنهم ساهموا في تطوير هذا العلم بطريق غير مباشر، وهو طريق مهم وإيجابي ونافع. حيث صنفوا وجمعوا مؤلفات جالينوس الطبية، ورتبوها ودرسوها وهمشوا عليها واختصروا وشرحوا قسما منها، حتى أصبحت سهلة الفهم كثيرة الوضوح، وجمع ابن سينا في كتابه القانون كل ما كتبه جالينوس عن التشريح في مؤلفات عديدة ومتفرقة، وجعل قراءتها سهلة وفهمها واضحا، ودرس ابن النفيس كتاب ابن سينا وعلق عليه، فألف كتابا سماه (شرح تشريح القانون)، وبهذا يكون العرب قد أنقذوا مؤلفات جالينوس من التلف والضياع بترجمتها إلى العربية وشرحها، خاصة بعد أن فقدت النسخ اليونانية الأصلية جميعها ولم يبقى منها غير النسخ العربية. وتضم كتاب

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات ص٤٣٨-٤٣٩.

(٢) ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص٤٢٦. أمين أسعد خير الله. الطب العربي ص ١٤٨.

(٣) سالم عبد الرزاق أحمد، فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، ج٢، ص١٩١.

تشريح الأموات، كتاب تشريح الأحياء (الحيوانات)، كتاب علم أبقراط في التشريح، كتاب آراء أراسطراطس في التشريح، وكتاب تشريح الرحم[١]. ولهذا نرى أن معظم معلوماتهم في التشريح كانت معتمدة على مؤلفات الأطباء اليونانيين، كجالينوس وأبقراط وغيرها، أو من تشريح عملي تجريبي للحيوانات، أو مشاهدة الهياكل العظمية في المقابر[٢]. ولهذا يجد الدارس لكتب الطب العربية أن الأطباء العرب قد وصفوا بعض أجزاء الجسم كالقلب والعين والكبد وعضلات الأمعاء وصفا دقيقا وصحيحا، مما يؤيد قول البعض من أنهم مارسوا عمليات التشريح البشري بصورة سرية، ويؤكد ذلك أيضا مخالفتهم لآراء الكثير من الأطباء اليونانيين[٣]. أما ابتكارات علماء الإسلام ومآثرهم في هذا المجال فيمكن إجمالها بما يلي[٤]:

١- اعتمدوا التأليف الخاص في التشريح، وحافظوا على مؤلفات جالينوس، لكن لم يتبعوا سابقيهم في الكتابات حول التشريح اتباعا تقليديا، بل درسوها بدقة وبوعي علمي صحيح وأضافوا وصوبوا بعضها وخالفوهم في بعضها.

٢- عرفوا مواطن الضعف لوصف جالينوس للهيكل العظمي، فبين موفق عبد اللطيف البغدادي (ت ٦١٩هـ) بأن الفك الأسفل قطعة واحدة. وليس قطعتين بعد أن فحص أكثر من ألفي جمجمة بشرية. كذلك اهتم البغدادي بالتشريح المقارن[٥].

٣- اكتشفوا الدورة الدموية الصغرى (الدورة الدموية الرئوية)، وكذلك الدورة الشريانية من قبل ابن النفيس[٦].

٤- أشار ابن النفيس إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها، مما يؤكد أن ابن النفيس كان قد مارس التشريح، الأمر الذي جعل منه أول واصف للشريان الإكليلي

(١) أمين أسعد خير الله، الطب العربي، ص١٦٢ محمود حاج قاسم: الموجز لما أضافه العرب في الطب ص٢١، ٢٤-٢٩.

(٢) محمود حاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، ص٢١ أمين أسعد خير الله: الطب العربي ص١٦٢.

(٣) نفس المصدر، ص٢١.

(٤) نفس المصدر، ص٢٤-٢٩.

(٥) قطاية، مخطوطات الطب والصيدلة، ص٢٣.

(٦) روم لاندو: الإسلام والعرب ص٢٦٤.

وفروعه[١]، كذلك خالف ابن سينا في ذكر عدد تجاويف القلب التي حددها في ثلاثة بطون، بينما أكد ابن النفيس وجود بطينين في القلب فقط.

٥- سبق علي بن عباس المجوسي العالم هارفي في وصف الدورة الدموية في الأوعية الشعرية، أثناء كلامه على وظيفتي الانقباض والإنبساط من وظائف الجسم الحيوية، حتى عد وصفه أقرب وصف من الحقيقة[٢].

٦- اكتشف ابن القف عدد الأغشية القلبية ووظيفتها واتجاه فتحاتها لمرور الدم[٣].

٧- اقترب ابن النفيس من علم التشريح المرضي (الباثولوجيا)، عندما لاحظ أن (تشريح العروق الصغار في الجلد يعسر في الأحياء لتألمهم، وفي الموتى الذين ماتوا بسبب أمراض تقلل الدم كالإسهال، والدق، والنزف وأنه يسهل فيمن مات بالخنق..)[٤].

٨- برع العرب في تشريح العيون وجراحتها[٥]. حيث وصف ابن سينا عضلات العين في كتابه القانون، وبين أن العضلات المحركة للمقل هي ست عضلات، أربع منها في جوانبها (الأربع فوق وأسفل والمأقين)[٦]. أما ابن النفيس فقد عرف العين بأنها آلة البصر وليست باصرة، ومنفعة هذه الآلة تتم بروح مدرك يأتي من المخ[٧].

٩- اعتمد الطب الإسلامي على التجربة والملاحظة والمشاهدة وعليه أدركوا الكثير من الفروق بين الأمراض المتشابهة. وعلى هذا البناء ظهر متخصصون في نواحي الطب وفروعه المختلفة هذا إلى جانب دخول أسماء وألفاظ باللغة العربية إلى اللغات الأوروبية.

---

(١) بول غليونجي، ابن النفيس، ص١٢٨.

(٢) أمين أسعد خير الله، الطب العربي، ص١٦٨.

(٣) ابن القف: هو أمين الدولة أبو فرج بن يعقوب بن القف (ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، شرح في دمشق كتاب كليات القانون لابن سينا في ستة مجالات. وهو أول طبيب عربي يؤلف كتابا كاملا في عشرين مقالة، والمخصصة كليا لموضوع العمل باليد، بعنوان العمدة في صناعة الجراحة انظر سامي الحمارنة، الجراحة عند العرب وفضلهم في تطورها في أوربا، مجلة الجامعة العدد الثالث، تشرين الثاني، ١٩٧٢م، ص١٩.

(٤) بول غليونجي، ابن النفيس، ص١١٦.

(٥) سلمان قطايا، مخطوطات الطب والصيدلة في المكتبات العامة بحلب، ص٢٥.

(٦) ابن سينا القانون، ج١، ص٤٠.

(٧) محمد نزار شموط، أسبوع العلم الثامن. الكتاب الأول ص٣٠٨-٣٠٩.

علم الجراحة: لم يتقدم علم الجراحة عند العرب تقدما ملحوظا، بسبب بطئ سير علم التشريح. وبقاء علم الجراحة لفترة من الزمن ضمن اختصاص غير أصحاب العلم من الحلاقين والحجامين، مع أنهم كانوا يقومون بالعمليات الجراحية البسيطة كالكي والفصد والبتر، تحت إشراف وإرشاد الأطباء الذين كانوا يأخذون معلوماتهم الجراحية من كتب أبقراط وجالينوس وبولص الإيجانطي وغيرهم[١]. ولم يبتدئ العرب بالاشتغال بالجراحة والاهتمام به كعلم مستقل إلا في عصر متأخر، وكان أبو بكر الرازي أول المهتمين به، إلا أنه لم يقم بإجراء العمليات الجراحية بنفسه، بل كان يذكرها فقط. كذلك تناول علاج (الأينوريزم) (تمدد الأوعية الدموية) أيضا شرح العالم المسلم ابن سينا العديد من العمليات الجراحية. هذا وقد ازدهر هذا العلم في عهد كل من أبي بكر محمد بن مروان بن زهر (ت٤٣٢). إلا أن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي تصدر جميع الأطباء وأصبح بلا منافس رائدا في علم الجراحة[٢]. والدليل على ذلك ممارسة الأطباء المسلمين للعديد من العمليات الجراحية في جميع أجزاء الجسم. في البطن والمجاري البولية وكسور العظام وخلعها، وعمليات في الأنف والأذن والحنجرة والقصبة الهوائية، وحتى جراحة الأوعية الدموية الدقيقة ونزيف الدم. وكذلك أدخلوا تجديدات كثيرة في علم الجراحة وأدواته وآلاته وفي كيفية خياطة الجروح وخيط الجروح[٣].

كذلك استعمل الأطباء العرب أنواعا مختلفة من وسائل التخدير، فاستعملوا المخدر، كالأفيون، والحشيش والسكران وغيرهم. وكذلك استعملوا في التخدير الثلج والماء البارد[٤]. أما أهم أنواع التخدير عندهم فكانت استعمال الاستنشاق بواسطة ما يسمى (الإسفنج المنوم) الذي كان يغمر بمواد عطرية ومنومة، ويحفظ ويبلل قبل استعماله للتخدير ثم يوضع فوق الفم والأنف[٥]. هذا ويعد فن استعمال الإسفنجة المخدرة، هو

---

(١) محمود الحاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، ص٣٣.

(٢) أحمد عيسى: آلات الطب ص٤ الماحي: مقدمة في تاريخ الطب ص٤١.

(٣) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب ص٢٧٨.

(٤) محمود الحاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به، ص٤١.

(٥) الماحي، مقدمة في تاريخ الطب العربي، ص١٤٠.

أصلا فن عربي لم يعرف من قبلهم[١].

طب الأطفال: بالرغم من أن قسما من أطباء العرب قد تخصص في فروع الطب كالجراحة والكحالة والتجبير وأمراض النساء والأمراض العقلية وغيرها، إلا أنه لا يوجد من تخصص بطب الأطفال فقط، ولكن الأطباء العرب كانوا على معرفة كبيرة في هذا النوع من الطب، بالإضافة إلى معارفهم الطبية الأخرى، وظهر أطباء عديدون اشتغلوا وألفوا في هذا المجال، فمنهم من بحث في علم الأجنة، والأمراض الناتجة عن الوراثة، ومنهم من ألف كتابا عن المولودين لسبعة أشهر وأصول تربيتهم، ومنهم من بحث في شروط المرضعة وأصناف الحليب، ومنهم من بحث في علل الأطفال ومعالجتهم. وإذا كانت أوربا تفخر بأن أول مؤلف في طب الأطفال كان من قبل جامعة (بادوا) بعد اختراع الطباعة سنة (١٤٧٢م)، فإن معظم محتويات هذا المؤلف الصغير مقتبس من الأطباء العرب، كما اعترف بذلك سنجر بكتابه (مختصر تاريخ الطب)[٢]. إلا أن أول من ألف في طب الأطفال كان أبا بكر الرازي، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغات العبرية واللاتينية والإيطالية، وقام الدكتور رادبل[٣] مؤخرا بترجمته من اللغة الإيطالية إلى الانجليزية. ونشرها في مجلة الأطفال الأمريكية[٤]. ومما يؤسف له أن النسخة العربية لهذا الكتاب مفقودة حتى هذه الساعة.

أما أقدم المخطوطات باللغة العربية في طب الأطفال، فهي لأبي الحسن أحمد بن محمد الطبري الذي عاش بين سنة (٣٢٠-٣٦٦هـ/ ٩٣٢-٩٧٦م)[٥]. كذلك اهتم الأطباء العرب بأدوار حياة الطفل منذ ولادته، وقسموا حياته تقسيما لا يختلف كثيرا عما يقسمه علماء الطب المحدثون، مما يؤكد أنهم كانوا يعرفون المراحل الذي يمر فيها الطفل، معرفة

---

(١) هونكة، شمس العرب، ص٢٨٠.

(٢) محمود الحاج قاسم، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ص٤٩.

(٣) محمود الحاج قاسم، أقدم مخطوط باللغة العربية في طب الأطفال، بحث ألقي في مؤتمر طب الأطفال لحوض البحر الأبيض والشرق الأوسط الذي انعقد في بغداد سنة ١٩٧٥.

(٤) **Radbill, S.X, The First Treatise on Pediatrics, American Journald, Diseases of Children, Vol. 122. No.5. Nov. 1971 p.372-367**

(٥) المصدر السابق (بحث).

تستند إلى أصول علمية صحيحة وطبية. كذلك اهتموا بالأطفال حديثي الولادة وكيفية تربيتهم والعناية بهم، ومكان ترقيدهم وتغذيتهم بالاعتماد على حليب الأم لمدة سنتين. أيضا اهتموا بأمراض الأطفال وطرق علاجها. وهذا يدل على تطور المسلمين الحضاري في هذا المجال من خلال رفع المستوى الصحي لينشأ الجديد[١].

البيمارستانات (المستشفيات): يعرف البيمارستان بالمارستان أيضا[٢]، وهو لفظ فارسي، يتكون من (البيمار) وتعني (المرضى)، و (ستان) وتعني (الموضع)، ومعناها (موضع المرضى) [٣]. وأن أول من أوجد بيمارستان هو أبقراط، حيث خصص في بستان له موضعا للمرضى، وجعل يخدمهم ويقوم بمداواتهم، وسمي ذلك المكان (أخسندوكن)، أي مجمع المرضى[٤] عند اليونان. أما معرفة العرب للمستشفيات قبل الإسلام فكانت تتم في بيوت المرضى أو بيوت المطببين. والراجح في ظهور أول مستشفى في الإسلام كان على عهد الخليفة الأموي (الوليد بن عبد الملك ٨٨هـ). الذي وفر الأطباء وأجرى لهم الأرزاق وجعل الطبابة مجانا. وتطورت المستشفيات في عهد الخلفاء الذين تبعوه. في كل المجالات من حيث التخصص والعزل بين النساء والرجال. وأصحاب الأمراض المعدية، وزاد عدد المستشفيات في جميع عواصم البلاد الإسلامية، وتوفر فيها كل الخدمات والمرافق والأدوية والأغذية اللازمة، والأطباء المختصين والصيادلة والممرضين بشكل منظم، مع وجود رئيس للمستشفى ورئيس لأطباء الاختصاص. ورئيس أو شيخ للصيادلة. إلى جانب اعتبار المسلمين هم أول من أشار إلى الطب التعليمي عندما أوجدوا إلى جانب المستشفى قاعات دراسية للطب والصيدلة والأدوية والتمريض[٥] كذلك عرف المسلمون نوعين من المستشفيات هما: أولا: البيمارستان الثابت، والبيمارستان المحمول (المتنقل).

---

(١) محمود الحاج قاسم: الموجز ص٥٤-٥٥، ٥٧، ٦٠، ٦٣.

(٢) بطرس البستاني، قطر المحيط، ج١، ص١٦٢.

(٣) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص٤٧.

(٤) نفس المصدر، ص٤٧.

(٥) انظر: أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ١٨-٢٠، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٨، مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص١٤٤-١٤٥.

أنواع المستشفيات: أولا: البيمارستانات الثابتة: وهي ما كان بناؤها ثابتا لا يتنقل أو يتغير مكانه، وهذا النوع من البيمارستانات كان منتشرا في كثير من البلدان الإسلامية كالقاهرة وبغداد ودمشق، ولا يزال بعض آثارها باقيا كالبيمارستان المنصوري، والبيمارستان المؤيدي بالقاهرة، والبيمارستان النوري الكبير بدمشق وغيرها.

ثانيا: البيمارستانات المحمولة (المتنقلة): وهي المستشفى الذي ينقل من مكان إلى آخر، حسب الحاجة بالنسبة إلى مقتضيات العمل منها عند انتشار الأمراض والأوبئة، أو بسبب الحروب، أو في السجون وهو ما نسميه اليوم (**Ambulance**)[١]. والبيمارستان المحمول عادة ما يكون مجهزا بكل لوازم المرض من الأطباء والأدوية والآلات الطبية. وحركة هذا المستشفى غير الثابت مرتبط بحركة الخلفاء وكبار رجال الدولة، أو بظهور أمراض معدية وفي حالات الحرب والحالات الطارئة[٢].وكان الرسول ﷺ أول من أمر بإنشاء مستشفى حربي ميداني متنقل أثناء معركة الخندق (٥هـ/ ٦٢٧)، وقد أصيب سعد بن معاذ في المعركة فجعله الرسول ﷺ في الخيمة التي أنشأها في المسجد، واعدت للمصابين من أثر الحرب، وكانت أول ممرضة في الإسلام (رفيدة) التي كانت تداوي الجرحى وتسهر على المصابين[٣].

نجد مما تقدم أن علم الطب عند العرب لم يقتصر على النقل والترجمة من الأمم الأخرى فقط، وإنما تقدم على يدهم تقدما هائلا نتيجة للمنهج العلمي الذي ساروا عليه من خلال اعتمادهم على التجربة والمشاهدة فقط، وإنما تقدم على يدهم تقدما هائلا نتيجة للمنهج العلمي الذي ساروا عليه من خلال اعتمادهم على التجربة والملاحظة والمتابعة السريرية، وما أضافوا إليه من ابتكارات علمية في علم التشريح والجراحة وطب العيون وطب الأطفال والصحة العامة وغيرها. كذلك يعد العرب هم أول من استخدم البنج في الطب لغرض التخدير بعد أن استخرجوه من الزيوان أو الشليم، وكذلك هم أول من استخدم الكاويات في الجراحة، وأول من وجه الفكر في التشخيص الطبي إلى شكل الأظافر في مرضى السل، ووصفوا علاج اليرقان، والهواء الأصفر، واستعملوا الأفيون في معالجة

---

(١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ص١١.

(٢) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص٢٩٣.

(٣) أحمد عيسى: تاريخ ١١.

حالات الجنون[1]، وغيرها من الأمراض الأخرى. وبذلك يكون علماء الإسلام هم الذين أعطوا حياة جديدة لدراسة العلوم الطبية في أوربا أولا عن طريق حفظهم لتراث اليونان والحضارات الأخرى. وكذلك عن طريق مؤلفاتهم وابتكاراتهم وإبداعاتهم في العلوم الطبية والعلوم الطبيعية[2].

(١) أنور الرفاعي، قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير منذ التاريخ حتى العصور الحديثة، ص٤٩٤.

(٢) انظر: أنور الرفاعي، قصة الحضارة في الوطن العربي الكبير منذ التاريخ حتى العصور الحديثة، ص٤٩٤.

علم الصيدلة

تعريف الصيدلة[1]: عرف طاش كبرى زادة علم الصيدلة بأنه (علم باحث عن التمييز بين النباتات المشتبهة في الشكل ومعرفة منابتها، بأنها صينية أو هندية أو رومية ومعرفة زمانها: بأنها صيفية أو خريفية، ومعرفة جيدها من رديئها ومعرفة خواصها إلى غير ذلك). والفرق بين الصيدلة وعلم النبات أن: الأول باحث عن تمييز أحوالها أصالة والثاني باحث عن خواصها أصالة. والأول بالعمل أشبه، والثاني بالعلم أشبه وكل منهما مشترك في الآخر[2].

الصيدلة في الحضارات القديمة:

حافظ المسلمون على تراث الحضارات القديمة بمجملها، لكنهم أخذوا هذا العلم خاصة حضارة بلاد الهند واليونان. وأبرز العلماء اليونان الذين أخذ عنهم المسلمون علم الصيدلة (جالينوس، ديسقوريدس، جالت). وأبرز المؤلفات الهندية في هذا المجال كتاب (سرسدذنوان)، حيث قام المسلمون بدراسة هذه العلوم، ومن ثم وضع الشروح عليها وتصويب ما فيها من أخطاء ثم انتقل المسلمون في هذا العلم إلى مرحلة الابتكار والإبداع، ومن ثم التأليف ضمن جهدا قيم، أثرى هذا العلم، حتى اعتبر هذا العلم علما عربيا في أصوله ومنهجه.

تطور الصيدلة في الإسلام: نشأت الصيدلة منذ زمن قديم، وتاريخها يقترن بتاريخ الدواء، ومنذ احتاج الإنسان إلى الدواء احتاج إلى الصيدلة، لأنها متصلة اتصالا وثيقا بالطب، إذا كان الطبيب هو الذي يشخص الداء ويعد ويركب الدواء الذي يحتاجه المريض[3]. وظل هذا الارتباط وحتى عام ٣٠٠ ميلادية، إذ كان كل طبيب صيدلانيا في الوقت نفسه، وكان له مساعدون يساعدونه في جمع النباتات الشافية، ولما كثرت العقاقير وتشبعت طرق تركيبها، أصبح من الضروري التفرغ لها وتكريس الوقت والجهد الكافيين لغرض التمكن من تهيئتها للمريض، فانقسمت مسؤولية (الطبيب الصيدلي) و(الصيدلي

---

(١) ويسمى أيضا بعلم المفردات، أو العقاقير، انظر عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٢٤٩.

(٢) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج١/ ص٣٤٨.

(٣) أحمد حسين القرني، قصة الطب عند العرب، ص١٠٤.

الطبيب) إلى قسمين، وأصبحت هذه المسؤولية الواحدة مسؤوليتين ترتبطان بمهنتين قائمتين بذاتهما، هما مهنة الطبيب، ومهنة الصيدلي[1]. والمسلمون هم أول من فصل بين المهنتين حيث أصبح الصيدلي هو الذي يجمع الأدوية، ويختار الأجود من أنواعها على أحسن التراكيب التي وضع أسسها أفضل الأطباء والعشابين. هذا وقد اكتشف العرب أدوية جديدة منها الكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية واستخدم الزئبق والمراهم والشراب الحلو وبرع العرب في صناعة الضمادات والمساحيق والمراهم.

ومن أهم مآثر العرب في علم الصيدلة إدخالهم (نظام الحسبة ومراقبة الأدوية)، إذ أن بعض الصيادلة لم يكونوا أمينين ومخلصين في أعمالهم، فكان قسم منهم لا يكتفي بالتدليس والغش، بل كانوا من الاستهتار بدرجة أنهم يدعون بأن لديهم جميع أصناف الأدوية ويعطون لمن طلب منهم أي دواء آخر، نظرا إلى أن المشتري لا يعلم بمعرفة هذه المهنة[2]. فأمر المأمون (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣م) بامتحان أمانة الصيدلة، ثم أمر المعتصم سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٥م) أن يمنع الصيدلي الذي ثبتت أمانته شهادة تجيز له العمل، ثم أدخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة[3]. وقد انتقل نظام الحسبة[4] إلى أوروبا، ولا تزال كلمة (محتسب) تستعمل في اللغة الإسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الحاضر[5]. ويرجع الفضل إلى علماء الإسلام الذين تركوا مؤلفات ثرية في علم (الاقراباذين)، نشرت وترجمت فيما بعد إلى جميع اللغات. والحق أن علماء الإسلام يرجع لهم الفضل في تأسيس علم الصيدلة، وهم أول من كتب وألف في العقاقير لذلك دخلت عديد من الكلمات العربية إلى كافة اللغات الأجنبية في مجال هذا العلم، كذلك يرجع الفضل إلى المسلمين في تطور هذا العلم، خاصة في مجال معرفة وسائل التخدير من بعض النباتات مثل (الأفيون، الحشيش، ست الحسن، السكران، الشيلم والزيوان) وأطلقوا على المخدر (الخلال). أيضا يعد المسلمون أول من وضع أسس الحجر الصحي والطب النفسي ومعالجة الميكروبات، ولهم الفضل كذلك في باب الوصفة الطبية التي جاءت أسماؤها في العربية (الوصفة، الدستور، الراجتة أو

---

(١) حميد موراني وعبد الحميد منتصر، قراءات في تاريخ العلوم عند العرب، ص٦٨.

(٢) إبراهيم الكردي: ص٤٢، أمين أسعد خير الله ص١٨٨.

(٣) قنواتي: تاريخ الصيدلة والعقاقير ص١٨٣.

(٤) شحاتة قنواتي، تاريخ الصيدلة والعقاقير، ص١٨٣.

(٥) فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص٢٩٥.

الرويشتة) أيضا يرجع للمسلمين فضل فن تركيب الأدوية (النسب- المقادير- الحفظ والصيانة) وطرق مراقبة الأدوية. إلى جانب أنهم تركوا تراثا قيما في هذا العلم أثرى به الحضارة الأوروبية الحديثة.

أشهر علماء الصيدلة. الإسلامية:

- ماسوية المارديني (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) الذي اشتهر ماسوية في بغداد، وعاش بالقاهرة، وسمى في أوروبا (ماسوية الصغير)، ومن أهم مؤلفاته: كتاب في العقاقير، يقع في إثني عشر جزء، اشتهر في أوروبا وبقي قرونا عديدة، الكتاب المدرسي الأول في الصيدلة عندهم[١]. ثم ابن وافد ومؤلفه الأدوية المفردة وكتاب الوسد في الطب، ومجريات في الطب وكتاب المغيش ودستور الأعيان في أعمال وتركيب الأدوية النافعة للأبدان[٢].

---

(١) الحسبة: وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما فرض على من ولي أمور المسلمين، فكان يجب عليه أن يعلم لذلك محتسبا يراه أهلا للقيام بهذه الوظيفة، وعلى المحتسب أن يتخذ الأعوان لمراقبة ما يجري من المنكرات وتغرير الناس وتأديبهم، وحملهم على التمسك بضوابط الشريعة وتجنب كل ما من شأنه أن يضر بمصلحة الجمهور. انظر شحاتة قنواتي، تاريخ الصيدلة والعقاقير ص١٧٧.

(٢) جلال مظهر، أثر الحضارة العربية على أوروبا ص٢٧٢.

الفصل الثالث عشر

- العلوم الرياضية
- الحساب
- الجبر
- الهندسة
- حساب المثلثات

علم الحساب

علم الحساب: عرفه ابن خلدون بأنه (صناعة عملية في حساب الأعداد بالضم والتفريق، فالضم يكون في الأعداد بالأفراد وهو الجمع، وبالتضعيف، تضاعف عددا بآحاد عدد آخر، هذا هو الضرب، والتفريق أيضا، يكون في الأعداد، أما بالأفراد مثل إزالة عدد فيه عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح، أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية تكون عدتها محصلة وهو القسمة، سواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد أو الكسر) [١].

وعرفت دائرة المعارف الإسلامية علم الحساب: بأنه الاسم الذي أطلقه العرب على جميع موضوع هذا العلم، ويقال لمن يمارسه الحساب أو الحسّاب، والحساب أحد العلوم الرياضية أو التعليمية الأربعة وهي تشمل –كما كان الحال قديما– الحساب والهندسة والفلك والموسيقى [٢]. هذا وقد ارتبط هذا العلم بالأرقام، حيث كان لشعوب البحر المتوسط أرقام مختلفة بين العمودية والمسمارية، واستخدام الحروف تعبيرا عن الأرقام باستثناء الهند والمايا اللذان توصلا إلى تقييم الأرقام تبعا لمركزها في الخانات [٣].

كيفية انتقال الأرقام الهندية إلى العرب: كان اتصال العرب بالهند والأخذ منهم قبل اتصالهم اتصالا وثيقا باليونان [٤] وكان من حسن حظ العرب أن قدم إلى بلاط الخليفة المنصور [٥] عام (١٥٤/ ٧٧٠م) [٦] الفلكي الهندي كانكا [٧] وأحضر معه كتاب

---

(١) ابن خلدون، المثدمة، ص٤٨٣.

(٢) سوتر: دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السابع، ص٣٧١.

(٣) انظر: هونكة شمس العرب تسطع على الغرب ص٦٩-٧٣.

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص٢٥٤.

(٥) المنصور: هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، المكنى بأبي جعفر، ولقب في خلافته بالمنصور، وهو ثاني الخلفاء العباسيين، (ت١٥٨هـ/ ٧٧٥م). انظر عبد الجبار الجومرد، أبو جعفر المنصور، ص٦٠، ٤٠٩، وكذلك الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٧، ص٤٧١، ٦١٤.

(٦) البيروني أبو الريحان، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ص٢٠، بينما يذكر أن القفطي في تاريخ الحكماء عند ترجمة (محمد بن إبراهيم القزازي) أنه أتم ذلك في سنة ١٥٦هـ.

(٧) كانكا، فلكي هندي، كان مقدما في علوم النجوم عند جميع العلماء من الهند، ومن تصانيفه النمو دار في الإعمار، كتاب أسرار المواليد، كتاب القرانات الكبير وكتاب القرانات الصغير (انظر ابن القفطي، تاريخ الحكماء) ص٢٦٧،٢٦٥.

(سندهانتا) لمؤلفه (براهما جوبثا) وعرف باللغة العربية بعد ترجمته بالسند هند[1]. وهي رسائل هندية في علم الفلك يرجع تاريخها إلى عام ٤٢٥ق.م[2]. وقد أمر الخليفة المنصور بترجمته إلى اللغة العربية وأن يؤلف كتابا على نهجه يبين سير الكواكب وحركتها، فعهد بهذا العمل إلى أبي إسحاق إبراهيم حبيب الفزاري، فألف كتابا عرف باسم (السند هند الكبير) وأخذ بهذا الكتاب وعمل به حتى عصر الخليفة المأمون[3]. وبهذا فقد أطلع العرب على حساب الهنود، وأخذوا عنهم نظام الترقيم، وأدركوا معنى الخانات وقيمتها والصفر والدور الذي يمثله. وعرف العرب نظامان حسابيان هما (حساب الستين) وحساب اليد، كذلك هذب العرب بعض الأرقام الهندية وكونوا سلسلتين عرفت إحداهما بالأرقام الهندية، والثانية الأرقام الغبارية. والأهم في ذلك معرفة علماء الإسلام إيجاد طريقة الإحصاء العشري واستعمال الصفر. حيث انتقلت اللفظة الهندية (سوينا) إلى العربية بالصفر ومن العربية انتقلت إلى اللغات الأوروبية بلفظ **cipher** ثم اختصرت إلى **zero**[4].

فروع علم الحساب عند العرب:

قسم صاحب مفتاح السعادة الحساب إلى فروع متعددة[5]:

١- علم حساب التخت والميل: وهو علم يبين كيفية مزاولة الأعمال الحسابية بأرقام تدل على الآحاد، وتغني عما عداها بالمراتب، وتنسب هذه الأرقام إلى الهند.

٢- علم حساب الخطأين: هو علم يتعرف منه استخراج المجهولات العددية إذا أمكن صيرورتها في أربعة أعداد متناسبة.

٣- علم حساب الدور والوصايا: وهو علم يتعرف منه مقدار ما يوصى به إذا تعلق

---

(١) اوليري، الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ص٩٦.

(٢) توفيق الطويل، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي، ص٦٠.

(٣) مصطفى الشكعة، معالم الحضارة الإسلامية، ص١٣٠.

(٤) انظر: طوقان: تراث العرب العلمي ص٤٨-٥١ يرى بعض العلماء أن السلسلة الغبارية جاءت الأرقام فيها مرتبة حسب عدد الزوايا.

(٥) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج١، ص٣٩٠-٣٩٧، وكذلك انظر حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٦٦٣-٦٦٥.

بدور في بادئ النظر، وبهذا العلم يتعين مقدار الجائز بالهبة[١].

٤- علم حساب الدرهم والدينار: وهو علم يتعرف منه لاستخراج المجهولات العددية التي تزيد عدتها على المعادلات الجبرية، ولهذه الزيادة لقبوا تلك المجهولات بالدرهم والدينار والفلس[٢] وغير ذلك.

٥- علم حساب الفرائض: وهو علم يتعرف منه قوانين تتعلق بحساب الفرائض المتعلقة بقسم التركة والإرث.

٦- علم حساب الهواء: وهو علم يتعرف منه كيفية حساب الأموال بواسطة الذهن دون اللجوء إلى الكتابة، وهذا العلم عظيم النفع للتجار في أسفارهم، ومن أهم منافعه إجراء العمليات الحسابية من قبل أهل السوق الذين يجهلون الكتابة عامة، أولا، وللخاصة عند عدم توفر وسائل الكتابة.

٧- علم حساب العقود (عقود الأصابع): وقد وضعوا كلاً منها بإزاء أعداد مخصوصة، ثم رتبوا الأوضاع بالأصابع، آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً، حتى وضعوا قواعد يمكن بها معرفة عشرة آلاف بيد واحدة، وهذا الحساب ينفع التجار كثيراً، وعلى الأخص عند اختلاف لغاتهم، أو عند عدم توفر وسائل الكتابة، بالإضافة إلى أن احتمالات الخطأ في هذا العلم أقل منها في حساب الهواء.

٨- علم حساب النجوم: وهو علم يتعرف بواسطته على قوانين حساب الدرج والدقائق والثواني والثوابت بالضرب والقسمة والتجذير والتفريق ومراتبها في الصعود والنزول [٣].

---

(١) مثال ذلك: رجل وهب لمعتقه في مرض موته مائة درهم، لا مال له غيرها، فقبضها ومات قبل سيده، وخلف بنتا والسيد المذكور، ثم مات السيد. فظاهر المسألة أن الهبة تمضي من المائة في ثلثها. فإذا مات المعتق ورجع إلى السيد نصف الجائز بالهبة فيزداد ماله فيزداد مال المعتق فيزداد مال السيد من أثره، وهلم جرا (انظر طاش كبرى زادة، نفس المصدر، ج١ ص ٣٩٢.)

(٢) الفلس وجمعها فلوس: قطعة مضروبة من النحاس يتعامل بها، وهي من المسكوكات القديمة. (انظر بطرس البستاني، قطر المحيط، ج٢، ص١٦٣١) والفلس، كلمة يونانية معربة، مأخوذة أصلا من اللفظ اللاتيني(**Follis**). انظر توفيق اليوزبي، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، هامش ص١٠١.

(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٦٦٥.

وقد قسم العرب علم الحساب إلى أبواب هي أولاً: ما يتعلق بحساب الأرقام الصحيحة، وثانياً ما يتعلق بحساب الكسور ضمن العمليات الأربعة والتجذير واستخدام الجذور. وبحثوا كذلك في النسبة وأقسامها (العددية، الهندسية والنسبة التأليفية)، وأوضحوا طريقة استخراج المجهول بطريقة التناسب. واستخدموا مبادئ الحساب وقوانينه في حل المسائل الطبيعية والمثلثات والفلك. لذلك عدّ علم الحساب من أهم العلوم التي اعتمدت عليها الحضارة العربية في مجال إبداعاتها الفكرية والعلمية. وأيضا توصل العرب إلى طرق مختلفة في حل المسائل الحسابية المتعلقة بالكسور، وهذه الطرق لا تختلف عن الطرق الحسابية الحديثة، كذلك بحثوا في استخراج المجهولات الأربعة المتناسبة، واستخراجها بحساب الخطأين، وبطريقة العمل بالعكس (والتحليل والتعاكس وبطريقة الجبر والمقبلة) [١].

---

(١) استخراج المجهولات بالأربعة المتناسبة: (هي نسبة أولها إلى ثانيها كنسبة ثالثها إلى رابعها، ويلزمها مساواة مسطح الطرفين (حاصل ضرب) لمسطح (يعني المسطح هنا مساحة المستطيل الذي بعداه الطرفان) الوسطين، كما برهن عليه، فإذا جهل أحد الطرفين، فأقسم مسطح الوسطين الطرف المعلوم، أو أحد الوسطين، فأقسم مسطح الطرفين على الوسط المعلوم، فالخارج هو المطلوب). انظر، بهاء الدين العاملي، خلاصة الحساب، الباب الثالث، مخطوط موجود في مكتبة الأوقاف العامة بالموصل، خزائن الأحمدية ٣٨/ ٣ أ.

استخراج المجهولات بحساب الخطأين: (تفرض المجهول ما شئت وتسميه المفروض الأول وتتصرف فيه بحسب السؤال، فإن طابق فهو المطلوب، وإن أخطأ بزيادة أو نقصان فهو الخطأ الأول ثم نفرض آخر وهو المفروض الثاني، فإذا أخطأ حصل الخطأ الثاني ثم اضرب المفروض الأول في الخطأ الثاني، وتسمية المحفوظ الأول، والمفروض الثاني بالخطأ الأول وهو المحفوظ الثاني، فإذا كان الخطآن زائدين أو ناقصين، فأقسم الفضل (الفضل) بين المحفوظين على الفضل بين الخطأين، وإن اختلفا فمجموع المحفوظين على مجموع الخطأين، ليخرج المجهول) انظر، بهاء الدين العاملي، نفس المصدر، الباب الرابع.

ولتوضيح فكرة الخطأين، نورد المثال التالي:

اشترى رجل حصاناً بـ ١٢٠ دينار، وكان ربحه ١/ ٣ شرائه، فبكم كان شراؤه؟ نفرض ثمن الشراء ٣٠ ديناراً ويكون ربحه ١٠ دنانير وبيعه ٤٠ ديناراً والخطأ الأول ١٢٠-٤٠=٨٠ ونفرض ثمن شرائه ٣٦ ديناراً فيكون ربحه ١/ ٣×٣٦=١٢.

وبيعه ٤٨ ديناراً والخطأ الثاني ١٢٠-٤٨=٧٢.

أما الكسور العشرية فقد كان الرأي السائد فيها أنها أول ما ظهرت في أوروبا. لكن العالم الألماني (بول لوكي) نسب اختراع الكسور العشرية إلى العرب، وإلى العالم المسلم غياث الدين الكاشي، كذلك امتازت المؤلفات العربية بكثرة الأمثلة والتمارين، وخاصة الأمثلة العملية، التي كان يقتضيها واقع العصر آنذاك في المعاملات التجارية من بيع وشراء ومقايضة وإرث، وكذلك إجراء الغنائم عند الحرب وتوزيع الرواتب على الجيوش، والبريد وما لحق بها وغيرها من الأمور التي تتطلب أعمالاً حسابية [1]. وبهذا يعد العرب هم الذين وظفوا هذا العلم من أجل الخدمات والمصالح العملية، بالإضافة لتطوره من الناحية النظرية البحتة إلى الناحية العملية.

مشاهير العلماء العرب في علم الحساب ومنجزاتهم العلمية:

* أبو كامل شجاع الحاسب: هو شجاع بن أسلم بن محمد بن شجاع الحاسب، من

المحفوظ الأول = المفروض الأول × الخطأ الأول = ٣٠ × ٧٢ = ٢١٦٠.

المحفوظ الثاني = المفروض الثاني × الخطأ الأول = ٣٦ × ٨٠ = ٢٨٨٠.

الفرق بين المحفوظين / الفرق بين الخطأين = (٢٨٨٠-٢١٦٠) / (٨٠-٧٢) = ٨/٧٢٠ = ٩٠ دينار ثمن شراء الحصان.

استخراج المجهول بالعمل بالعكس: بالتحليل والتعاكس، وهو العمل بعكس ما أعطاه السائل فإن ضعف فنصف، أو زاد فأنقص، أو ضرب فأقسم، أو عكس فأعكس مبتدأ من آخر السؤال فيخرج الجواب. انظر بهاء الدين العاملي، نفس المصدر، الباب الخامس.

ولتوضيح فكرة التحليل والتعاكس نورد المثال التالي:

لدى رجل مبلغ من المال اشترى بنصفه قماشاً وبربع الباقي خبزاً وبنصف الباقي لحماً، وقد وجد ما كان لديه ١٢ درهماً، فكم كان عنده في الأصل ؟

نبدأ في الحل من آخر المسألة، ونقول أن ١٢ درهماً هي ما تبقى لديه بعد شراء اللحم فقبل شراءه كان عنده ٢٤ درهماً.

فقبل شراء الخبز كان عنده (٢٤ / ٣٠) × ٤ = ٣٢ درهماً الباقي بعد شراء القماش وبعادل النصف الباقي،

فيكون ما عنده في الأصل ٣٢ × ٢ = ٦٤.

أما طريقة الجبر والمقابلة، فهي طريقة شائعة ومدونة مع طريقة استخراج المجهولات بأربعة المتناسبة في كتب الحساب والجبر الحديثة انظر طوقان، تراث العرب العلمي، هامش ص ٥٦.

(١) طوقان، تراث العرب العلمي، ص ٥٦-٥٨.

علماء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، من أهل مصر، كان فاضلاً وحاسباً وعالماً، له من المؤلفات في علم الحساب، كتاب الجمع والتفريق وكتاب الخطأين [١].

* سنان بن الفتح الحراني: عالم نبغ في أوائل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، اشتغل في العلوم الرياضية ولا سيما في الحساب والأعداد، وبرع فيها وألف في ذلك كتباً مشهورة [٢] منها: التخت في الحساب الهندي، وكتاب الجمع والتفريق [٣] وكتاب آخر هو شرح الجمع والتفريق. وكتاب حساب الوصايا [٤].

* الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي، (ت سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م)، عالم فاضل، يعد أوحد زمانه في معرفة العلوم القديمة. سمي بفيلسوف العرب، له مؤلفات كثيرة في شتى الميادين العلمية. ومن مؤلفاته في الحساب: رسالة في المدخل الأرثماطيقي، وكتاب رسالته في استعمال الحساب الهندي، وهو مقسم إلى أربعة مقالات [٥] وغيرها.

* أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داود، توفي سنة (٢٩٠هـ / ٩٠٢م) تتلمذ على علماء البصرة والكوفة، وأخذ كثيراً عن ابن السكيت وابنه، فكان متمكناً من علوم كثيرة، له من المؤلفات في الحساب: كتاب البحث في حساب الهند وكتاب الجمع والتفريق [٦].

* ابن الهيثم، (أبو علي) الحسن بن الحسن المتوفى سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٩م). اشتهر بنبوغه الرياضي في علم الهندسة والعلوم الطبيعية والرياضيات. من مصنفاته في علم الحساب: كتاب في حساب المعاملات، علل في الحساب الهندي، وكتاب حساب الخطأين، ومقالة قسمة المقدارين التحليل والتركيب، وكتاب حل شك من إقليدس [٧]، وكتاب الجامع في أصول الحساب، استخرج أصول الجمع الحساب من أوضاع إقليدس، وجعل السلوك في استخراج المسائل الحسابية بجهتي التحليل الهندي والتقدير العددي [٨].

---

(١) ابن النديم، الفهرست، ص ٤٠٦.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٠.

(٣) صالح زكي، آثار باقية، ج٢، ص ٢٦١.

(٤) طوقان: تراث العرب العلمي ص ١٧٨.

(٥) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٧١-٣٧٣.

(٦) نفس المصدر، ص ١٢٢.

(٧) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٨.

(٨) طوقان، تراث العرب العلمي، ص ٣٠٣.

* البيروني، (أبو الريحان) محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، المتوفى سنة (٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) مؤلفاته كثيرة في علوم مختلفة. منها في الحساب: كتاب ترجمة ما في براهين سد هانة من طرق الحساب، وكتاب كيفية رسوم الهند في تعلم الحساب [1].

وعلماء آخرين منهم الكلوزاني البغدادي، المجريطي، البوزجاني ـ الكرجي النسوي أحمد بن محمد الحاسب، العايلي، ابن حمزة المغربي، القلصاوي، ابن الهيثم، الخازن، الطيبي، الكاشي، القلصاوي، الكرابيي، الرازي، ابن الهاشم والعاملي. كذلك هناك علماء لا مجال لذكرهم وكانت لهم ابتكارات مهمة في مجال هذا العلم ساهموا في تطوير علم الحساب حتى ظهر بالشكل الحالي.

---

(١) الزركلي، الأعلام، ج٦، ص ٢١٠ وكذلك بروكلمن **G.A.L.S,I,870**.

علم الجبر

علم الجبر: عرفه ابن خلدون بالجبر والمقابلة وبأنها (صناعة يستخرج بها العدد المجهول من قبل العلوم المفروض إذا كان بينهما نسبة تقتضي ذلك، فاصطلحوا فيها على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق التضعيف بالضرب، أولها العدد، لأنه به يتعين المطلوب المجهول باستخراجه من نسبة المجهول إليه وثانيها الشيء، لأن كل مجهول فهو من جهة إبهامه، شيء وهو أيضا جبر لما يلزم تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال، وهو أمر مبهم، وما بعد ذلك فعلا نسبة الأسس في المضروبين...)(١). وعرفه ابن بدر (الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد) بأنه يدور على ثلاثة أشياء وهي أموال وعدد وجذور(٢).

علم الجبر عند العرب: اشتغلت الشعوب القديمة بشيء من هذا الفن، ووجدت أصوله في مؤلفات ديوفنطس اليوناني(٣)، إلا أن هذا الفن لم يصبح علما متقنا إلا على يد العرب، وأصبح جزء من مآثرهم على الحضارة الإنسانية، ويكفي الدلالة على فضلهم فيه، أنهم مهروه بلفظ من لغتهم، فانتقلت كلمة (الجبر) العربية إلى جميع اللغات الحديثة، الأنجليزية، والألمانية، والإيطالية والروسية وبالفرنسية(٤).

ارتقى العرب بهذا العلم الذي ساعد على حل الكثير من المعضلات الرياضية(٥)، واتسع بحثهم فيه حتى حولوه تحويلا تاما، إلى أن عدوا بحق مكتشفيه(٦)، كما أجادوا فيه إجادة عظيمة، وقاموا بابتكارات قيمة أثارت إعجاب علماء الغرب. منها حل المعادلات التكعيبية والمعادلات من الدرجة الرابعة. استعانوا بالجبر على الهندسة، وحل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية ونظرية (ذات الحدين) واعتمدوا الجذور الصماء. كذلك تركوا تراثا ضخما في هذا العلم وأصوله حتى اعتبر العرب هم أول من ألفوا في علم الجبر بصورة علمية

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٤٨٣-٤٨٤.

(٢) ابن بدر: اختصار الجبر والمقابلة.

(٣) ديوفنطس: اليوناني الإسكندري، له من الكتب، كتاب صناعة الجبر، انظر ابن النديم، الفهرست، ص٣٩٤ أن كلمة الجبراول ما ظهرت في زمن محمد بن موسى الخوارزمي وانتشرت في الغرب بهذا الاسم لذا فإنه من غير الممكن أن يسمى كتاب ديوفنطس بهذا الاسم.

(٤) مرحبا، الموجز في تأريخ العلوم عند العرب، ص١٢٨، ١٢٩.

(٥) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج٢، م٤، ص١٨١.

(٦) غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٤٥٥.

منظمة وأول مؤلفيهم (الخوارزمي): هو محمد بن موسى الخوارزمي في زمن الخليفة المأمون[١]. ومن اسمه اشتق الغرب لفظة **Algorithm** الإفرنجية[٢]. كذلك توصل علماء الإسلام إلى أساس نظرية مكعبين لا يكون عددا مكعبا، وأيضا استعانوا بالهندسة كوسيلة لحل مسائل الجبر، وبذلك يعد العرب من أوائل مؤسسي (الهندسة التحليلية) والأوائل على الغرب في استعمال الرموز في العلوم الرياضية وربط المجهول بالمعلوم. والأوائل أيضا في التأليف لعلم الجبر بصورة علمية منظمة. وأول من ألف فيه هو العالم محمد بن موسى الخوارزمي. الذي من اسمه اشتق الغرب لفظة (**Algorithm**) الإفرنجية[٣] وبهذا يعتبر هذا العلم علما عربيا في منهاجه وأشهر علماء الإسلام في الجبر منهم:

* محمد بن موسى الخوارزمي: هو أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي، رياضي، فلكي ومؤرخ، من أهل خوارزم، ينعت بالأستاذ، ولاه المأمون العباسي منصب بيت الحكمة، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وأمره باختصار كتاب المجسطي فاختصره وسماه السند هند، أي الدهر الداهر[٤]. اشتهر في عدة علوم. علم الهيئة وعلم الجغرافيا، لكن الخوارزمي نبغ وبرز في العلوم الرياضية، وخاصة علم الجبر، توفي بعد سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)[٥] يعتبر الخوارزمي أول علماء العرب في الرياضيات وألمعهم، كما أن أعماله قد أخذت مكانا بارزا في تاريخ الرياضيات[٦].

مؤلفاته: للخوارزمي مؤلفات عدة أهمها: كتاب الزيج الأول[٧]، كتاب الزيج الثاني، كتاب الرخامة[٨]،كتاب التاريخ، كتاب العمل بالاصطرلاب[٩]، كتاب صورة

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٨٤.

(٢) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، ص١٨٩.

(٣) انظر. جلال مظهر. أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ٢٨١. طوقان العلوم عند العرب ص٥٣-٥٤ وتراث العرب العلمي، ٧٣، ٧٩، ٨٢.

(٤) ابن النديم، الفهرست، ص٣٩٧.

(٥) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص٣٣٣.

(٦) **Ball, R., A short Account of The History of Mathematics, P. 155, 156**

(٧) الزيج: وجمعها أزياج، وهي جداول تستعمل في الأعمال الفلكية للنجوم وحركاتها، وهو اصطلاح فارسي.

(٨) الرخامة، قطعة من الرخام مخططة تساعد على معرفة الوقت عن طريق الشمس.

(٩) ابن النديم، الفهرست، ص٣٩٧، لم يذكره ابن القفطي في تاريخ الحكماء، انظر ص٢٨٦، وكذلك لم

الأرض[1]، كتاب رسم الربع المعمور، كتاب تقويم البلدان (شرح فيه آراء بطليموس في الجغرافية)، كتاب الجمع والتفريق[2]، ولقد ذكر له (جورج سارتون) كتابا آخر جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى، ووصفه بأنه يشتمل على خلاصة تعليماته، لا على أعماله الأصلية[3]. أما أشهر كتبه وأهمها، فهو: كتاب (الجبر والمقابلة)، فقد كان مصدرا أساسيا اعتمد عليه العلماء العرب في المجالات الرياضية، خاصة في علم الجبر وله شروح من قبل علماء العرب في عصور مختلفة. كذلك تم ترجمته ووقعت عليه شروح باللغات اللاتينية والأوروبية[4]. من الدرجة الثانية أما شخصية الخوارزمي: فهي غاية في الخلق والأدب، وطلبه للعلم غاية ابتغاء انتفاع الناس والأجر من الله تعالى فقط. يعد مؤسس علم الجبر، لأن هذا العلم ظل ما يقرب من ثلاثة قرون لم يتقدم أي خطوة بعيدا عن كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي. وهو بحق أعظم رياضي عالمي في ميدان علم الجبر على المستوى العربي والعالمي على السواء. لأن الخوارزمي وضع علم الجبر في شكل مستقل منطقي، وله الفضل الأول بتعريف الناس بالأرقام الهندية. والخوارزمي أول علماء العرب الذين بحثوا في علم الجبر وحلَّ كثير من المعادلات. وعد أيضا مؤسس علم الحساب وبهذا يعتبر كتابه نتاجا عربيا يختلف اختلافا جوهريا عما كان موجود في الحضارات القديمة[5].

* أبي كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصري: ألف كتاب (الكامل في الجبر والمقابلة) وله مؤلف آخر هو كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة وكتاب الجبر والمقابلة[6]، وكتاب (الشامل) [7].

يذكره جورج سارتون في كتابه.

(١) حنا الفاخوري، تأريخ الأدب العربي، ص٧٧٨.

(٢) عمر فروخ، تأريخ العلوم عند العرب، ص٣٣٠، ٣٣١.

(٣) Sarton, Introduct on The History of Science Vol. I, P. 563

(٤) روم لاندو: الإسلام والعرب ص٢٥١-٢٥٢.

(٥) انظر: جاسم محمود الحسون وآخرون: الرياضيات الحديثة ص٦١، ٦٣ بغداد ١٩٧٦. طوقان تراث العرب العلمي ص١٥٩، وكتاب الخالدون العرب ص٣٥.

(٦)حاجي خليفة، كشف الظنون، ج٢، ص١٣٨١.

(٧) ابن النديم، الفهرست ص٤٠٦.

* عمر الخيام النيسابوري (ت ٥١٥هـ) [١] يعد مؤلفه (الجبر والمقابلة) أرقى ما وصل إليه العرب في علم الجبر، بل أرقى ما وصل إليه علماء الرياضة في حل المعادلات حتى الوقت الحاضر، لأنه حل المعادلات بطرق هندسية ثم تنبأ بحلها عن طريق الجذور.

* ابن الياسمين ت٦٠٠هـ له أرجوزة في الجبر والمقابلة.

* نصير الدين الطوسي ت ٦٧٢هـ. له مؤلفات كثيرة خلدته وجعلته أحد أعظم علماء العرب، أشهرها كتاب في الجبر والمقابلة و(كتاب الظفر).

* ابن بدر: الشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد (ابن بدر) مؤلفه اختصار الجبر والمقابلة[٢].

* الأزدي: المعروف بابن البناء المراكشي. مؤلفه (الأصول والمقدمات) وكتاب الجبر والمقابلة[٣].

هذا ويمكن إجمال أهم الملاحظات على مؤلفات علماء العرب التي صنفت في مجالات علم الجبر بالقول: إن علماء الرياضة العرب قد استعملوا تعاريف خاصة في هذا العلم، مثل المجهول والشيء والمال، ومراتبها، جزء الشيء والمال والكعب ومراتبها أيضا وهي قريبة لما يقابلها في العصر الحديث[٤]. كذلك أدخل علماء العرب الرموز والمصطلحات العربية إلى اللغات الأوروبية بنفس ألفاظها العربية وفي ذلك دلالة واضحة على عظيم أثر علم وعلماء الجبر العرب على الحضارة الحديثة.

اللوغاريتمات:

اللوغريتمات: لها أهمية كبيرة في تبسيط الحسابات المعقدة في العلوم الطبيعية

---

(١) عمر الخيام هو عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري (أبو الفتح)، شاعر وفيلسوف فارسي، مستعرب، من أهل نيسابور مولدا ووفاة، كان عالما بالرياضيات والفلك واللغة والفقه والتأريخ، له شعر عربي وتصانيف عربية. قال القفطي في نعته: (أمام خراسان، وعلامة الزمان، يعلم علم اليونان، ويحث على طلب الواحد الديان بتطهير الحركات البدنية، لتنزيه النفس الإنسانية، وأورد أبياتا من شعره العربي..) انظر ()الزركلي، الأعلام، ج٥، ص١٩٤، ١٩٥، وكذلك ابن القفطي أخبار الحكماء، ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ج١١ ص٩.

(٣) الزركلي: الأعلام. ج١ ص ٢١٣.

(٤) انظر: جلال شوقي: رياضيات بهاء الدين العاملي ص١٠١.

والهندسية والرياضية العملية، كالحسابات التجارية في حساب الربح المركب والدفعات السنوية. ولا يخفى أن اللفظ (لو) هو اختصار لكلمة (لوغاريتم)، كما أن الأساس يكتب في أسفل الرمز (لو)، ويستنتج من ذلك أن لوغاريتم يعني أي عدد موجب لأساس موجب (عدا الأساس واحد)، هو الأساس الذي لو رفع إليه الأساس لكان الناتج مساويا للعدد[١].

اللوغاريتمات عند العرب: يرجع صنع جداول اللوغاريتمات إلى عاملين أساسيين هما: أولا استخدام عمليتي الجمع والطرح بدلا من عمليتي الضرب والقسمة في حل المسائل الرياضية، التي تتكون من أعداد كبيرة. وثانيا معرفة الصلة بين حدود المتواليات الهندسية، وحدود المتواليات العددية[٢]. والفضل الأول في هذا الاتجاه يعود إلى العالم العربي (سنان بن الفتح الحراني الحاسب) في مؤلفه الجمع والتفريق وكان ابن يونس[٣] (الصدفي المصري)، المتوفى بالقاهرة سنة (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) من أعظم علماء الفلك بعد البتاني والبوزجاني، وقد توصل إلى القانون الآتي في حساب المثلثات الكروية، وهو:

جتاأجتاب= {جتا(أ+ب) + جتا(أ-ب)}[٤]وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات عند علماء الفلك، إذ يمكن بواسطته تحويل عمليات الضرب إلى عمليات جمع، وفي هذا بعض التسهيل لحل المسائل الطويلة المعقدة[٥]. وألف (أبو الحسن علي بن أحمد النسوي) كتابا في اللوغاريتمات، باللغة الفارسية سنة (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م)، وقام بترجمته إلى العربية بعنوان (المقنع في الحساب الهندي)، كما ألف كتبا أخرى بالعربية[٦].

ثم جاء ابن حمزة المغربي (علي بن ولي) من علماء القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فأورد العلاقة بين المتواليات الحسابية والمتواليات الهندسية وبحث فيهما، وأصبحت بحوثه الأساس الذي بنيت عليه اللوغاريتمات. من مؤلفاته: تحفة العدد لذوي

---

(١) محيي الدين يوسف وآخرون، الجبر الثانوي، ص٥٩، وانظر أيضا: **George B. Thomas Jr, Calculus And Analytic Geometry P 240.**

(٢) فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ص١٣٩ ابن النديم: الفهرست ص٤٠٦.

(٣)محيي الدين يوسف وآخرون، نفس المصدر، ص٥٩.

(٤) سوتر، دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص٣٠٥.

(٥) سارتون، مقدمة في تاريخ العلم، ج١، ص٧١٧.

(٦) الدوميلي، العلم عند العرب، ص٢١٤.

الرشد والسدد. وكتاب (تحفة الأعداد في الحساب) الذي رتبه على مقدمة وأربع مقالات وخاتمة[1]. وبهذا يمكن القول أن ما جاء به (ابن حمزة المغربي) في هذا المجال يعد الخطوة الأولى لوضع أصول (اللوغاريتمات)[2]. خاصة في مجال المتوالية الحسابية والمتوالية العددية وحدودها. والمتوالية الهندسية. هكذا نجد أن هذا العالم قد أوضح تمام العلاقة بين المتواليتين الحسابية والهندسية، تلك العلاقة التي استندت عليها اللوغاريتمات، واعتمادا على ما تقدم يمكن القول أن العرب وضعوا الأسس الأولى لحساب اللوغاريتمات، ومهدوا النواة الأولى لهذا العلم من الفروع الرياضية لإكمال قوانينه وتأسيس الجداول قبل الغرب[3].

---

(١) بيروكلمان G.A.L s.11

(٢) حاجي خليفة كشف الظنون ج١/ ٣٦٢

(٣) طوقان: ص٨٥-٨٦، الزركلي: الأعلام ج١/ ٢١٧.

علم الهندسة

علم الهندسة[1]: عرفه ابن خلدون بأنه: (النظر في المقادير، أما المتصلة كالخط والسطح والجسم، وأما المنفصلة كالأعداد، وفيما يعرض لها من العوارض الذاتية، مثل إن كان مثلث من زواياه مثل قائمتين ومثل إن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية، ومثل إن كل خطيت متقاطعين فالزاويتين المتقابلتان منهما متساويان، ومثل أن الأربعة مقادير المتناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأمثال ذلك...) [٢].

علم الهندسة في الحضارات القديمة: عرفت بلاد الحضارات القديمة علم الهندسة وما يتصل بها من نظريات. وعرفوا كذلك الأشكال بين المثلث والمربع والمستطيل والدائرة والمساحة وغيرها. خاصة وأن هذا العلم يتصل مباشرة بالحياة العامة. على أن أهم الأمم التي اهتمت بهذا العلم هم الإغريق إلى جانب البابليين والمصريين. أما حضارة العراق القديمة (الأشورية والبابلية) فقد عرفوا الأشكال الهندسية. المربع الإسطوانة وشبه المنحرف والمثلثات بأنواعها (قائم الزاوية). ووظفوا هذا العلم في المساحة والزراعة. وقد اقتربوا إلى بعض النظريات [٣]. كذلك عرف المصريون نظرية فيثاغورس والمثلث القائم الزاوية في شكل الأهرام كما عرفوا المثلث وشبه المنحرف والهرم. والمساحة السطحية [٤]. لكن الهندسة عند الإغريق كانت متقدمة أكثر، مع أنهم أخذوا أصولها عن الشعوب التي سبقتهم. وأشهر مؤسسي هذا العلم عندهم (إقليدس) في كتابه (كتاب إقليدس) الذي يعد أهم وأول المؤلفات التي وضعت في هذا العلم [٥].

فروع علم الهندسة عند العرب: قسَّم ابن خلدون الهندسة إلى أربعة فروع رئيسية

---

(١) عرفه حاجي خليفة بأنه (علم بقوانين تعرف منه الأحوال العارضة للكم من حيث هو كم ومن فروعه، علم اتخاذ الآلات والأدوات، وعلم الوزن والموازين، وعلم المناظر، وعلم المرايا، وعلم الحيل، وعلم جر الأثقال وعلم نقل المياه). انظر كشف الظنون، ج ٢ ص ٢٠٤٦، ابن خلدون، المقدمة ص ٤٨٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ٤٨٥.

(٣) طوقان: تراث العرب ص ٣٧-٣٨.

(٤) سوراني ومنتصر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب ص ١٩-٢٠.

(٥) ابن النديم: الفهرست ص ٣٧١ - ٣٧٢، ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص ٦٢-٦٣. بنيامين فارتن: العلم الإغريقي. ترجمة أحمد شكري جـ١ / ص ١١.

هي[1]:

١- الهندسة المخصوصة بالأشكال القروية والمخروطات. وفيها كتابان أحدهما لثاودوسيوس والآخر لميلاوش اليونانين.

٢- المخروطات: هي نوع من فروع الهندسة أيضاً، وهو علم ينظر فيما يقع في الأجسام المخروطة من الأشكال والقطوع. وتظهر فوائدها في المهن كالنجارة والبناء وصنع التماثيل الغريبة والهياكل النادرة وكذلك جر الأثقال ونقل الهياكل.

٣- المساحة: وهو فن ضروري في مسح الأرض وقياسها، وعن طريقه يستخرج مقدار الأرض المعلومة نسبة وذراع أو غيرهما. كما يستعمل في استخراج نسبة أرض من أرض أخرى إذا قيست بمثل ذلك. كما يستعمل في توظيف الخراج على المزارع والفدن وبساتين الغراسة وفي قسمة الحوائط والأرضاي بين الشركاء والورثة.

٤- المناظرة: وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الإدراك البصري، ومعرفة كيفية وقوعه وبيان البراهين الهندسية لذلك، ألف في هذا الفن الكثير من اليونانيين، وأما أبرز من ألف فيه من العرب فهو ابن الهيثم. وقد عرف اليونان هذا العلم بأنه علم يبحث فيه عن أحوال المقادير من حيث التقدير على ما في شرح أشكال التأسيس.

علم الهندسة عند العرب: المعروف أن ابتكار العلماء العرب في الهندسة كان أقل أهمية مما كان لهم في علم الجبر، وسبب ذلك أن علم الهندسة كان قد وصل إلى قمته عند اليونان، ولم يتركوا لخلفائهم مجالا واسعا للبحث والتأليف في هذا المضمار، إلا أنه عندما نهضت العرب نهضتها العلمية، أخذوا كتاب إقليدس في الهندسة وترجموه إلى اللغة العربية وبالإضافة إلى ذلك فقد قاموا بدراسته شاملة وافية فاختصره بعضهم، وقام بعضهم الآخر بالشرح والتعليق عليه، كما زادوا على نظرياته وابتكروا مسائل هندسية جديدة وتفننوا في كيفيها حلها كذلك ألفوا على نسقه، إلا أنهم أدخلوا في مؤلفاتهم قضايا جديدة لم يعرفها القدماء[2]. وتعتبر هذه الأعمال أبحاثا قيمة في هذا المضمار، وقد ساهم العرب في بنائها نظرية (الخطوط المتوازية) التي أدت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر إلى الهندسات اللاإقليدية. والواقع أن الأوروبيين أخذوا علم الهندسة اليونانية عن العرب دون اليونان،

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٤٨٦-٤٨٧.

(٢) جلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ٢٨٣.

ثم نقلوها من العربية إلى اللاتينية مباشرة، وظلوا يتدارسونها كما عرفوها من العرب إلى أواخر القرن السادس عشر حينما عثر الباحثون عام (٩٩١هـ/ ١٠٨٣م) على مخطوط من كتاب إقليدس باللغة اليونانية.

عَرف العرب علم تسطيح الكرة(١) ولهم فيه مستنبطات كثيرة وقد نقلوا الخرائط من سطح الكرة إلى السطح المستوي، ومن السطح المستوي إلى السطح الكروي. أما اهتمامهم بالهندسة من الناحية العملية فقد كان أكثر من تركيزهم على الناحية النظرية، وتشهد بذلك القصور الرائعة والمباني العظيمة التي نهضت في المشرق والمغرب الإسلامي، بالإضافة إلى المباني والقصور التي خلفوها في أوروبا(٢). كذلك اشتغل العرب بالمربعات السحرية التي هي أصلا فن صيني(٣). ومن منجزات علماء الإسلام في علم الهندسة أنهم طبقوا هذا العلم على المنطق(٤). خاصة العالم (الحسن بن الهيثم) وتوصل كذلك إلى قطع المخروط المكافئ والزائد والناقص. وابتدع طريقة فلكية بواسطتها يتم تعيين ارتفاع القطب عند أي مكان وخط العرض. وأعطى مساحات صحيحة لمساحات الكرة والهرم والأسطوانة والمائلة والقطاع والقطعة الدائرية(٥). كذلك سخر العرب الهندسة المستوية والهندسة المجسمة في أبحاث الضوء وانعكاسه(٦). أيضا طبق العرب المعارف والنظريات الهندسية على فن البناء والعمارة، والزخارف والنقوش وأعمال الري وهندسة الري والسدود وتوزيع المياه وضبطها. كما اهتم العرب بالزخارف الهندسية والنقوش والزينة، وتقسيم الأشكال

---

(١) علم تسطيح الكرة: هو علم يتعرف منه كيفية نقل الكرة إلى السطح مع حفظ الخطوط والدوائر المرسومة على الكرة وكيفية نقل تلك الدوائر عن الدائرة إلى الخط، وتصور هذا العلم عسير جدا يكاد يقرب من خرق العادة لكن عملها باليد كثيرا ما يتولاه الناس، ولا عسر فيه مثل عسر التصور. ومن الكتب المصنفة فيه، كتاب تسطيح الكرة لبطليموس، والكامل للفرغاني، والاستيعاب للبيروني، ودستور الترجيح في قواعد التسطيح لتقي الدين. انظر (حاجي خليفة، كشف الظنون ج١، ص٤٠٣).

(٢) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص١٤٧.

(٣) طوقان: تراث العرب العلمي، ص٩٩. إخوان الصفا الرسائل ج١/ ١٠٩.

(٤) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج٢/ ٩٣.

(٥) طوقان: العلوم عند العرب ص٥٧.

(٦) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم ج٢/ ٤٨٧-٤٨٨. ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج٢/ ٩٣.

الهندسية وتركيبها بصورة فنية دقيقة وجميلة[1].

أشهر علماء المسلمين في علم الهندسة: نبغ في هذا العلم عددا من العلماء أشهرهم:

* أبو كامل شجاع الحاسب المصري. مؤلفاته كتاب (المساحة والهندسة) كذلك له مؤلفات أخرى كثيرة منها رسالة في المضلع ذي الزوايا الخمس، وذي الزوايا العشر.

* يعقوب بن إسحاق الكندي. مؤلفاته أغراض كتاب إقليدس. كتاب إقليدس، كتاب إصلاح إقليدس، اختلاف المناظر، صنعة الاسطرلاب ومؤلفات أخرى.

* أولاد موسى بن شاكر. (محمد في الهندسة)- أحمد (كتاب الشكل الهندسي) الحسن: كتاب الشكل المدور والمستطيل).

* ثابت بن قرة: كتاب في استخراج المسائل الهندسية.

* ابن برزة الفضل: كتاب المساحة.

* الجوهري (العباس بن سعيد الجوهري): كتاب تفسير كتاب إقليدس.

* البوزجاني: كتاب في الأعمال الهندسية.

* أبي جعفر محمد بن الحسن الخازن: شرح الجزء العاشر من كتاب الأصول لإقليدس.

* ابن سينا: كتاب مختصر إقليدس.

* ابن البناء المراكشي: كتاب مدخل إلى إقليدس.

---

(١) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم ج٢/ ٤٩٠.

حساب المثلثات

حساب المثلثات قبل العرب: إن اهتمام اليونانيين بعلم المثلثات لم يكن اهتماما مستندا على كونه علما مستقلا قائما بذاته، كما هو عليه الحال في الوقت الحاضر، بل لأنه كان مرتبطا بعلم الفلك يساعدهم في أعمالهم الفلكية[١]. وعليه فإن مؤلفاتهم في هذا العلم محدودة وجزئية وعلى الأخص منها الكتاب المنسوب إلى العالم (أبرخس) الذي ابتدع هذا العلم، أو بطليموس صاحب كتاب (المجسطي في الفلك). لأن أعمالهم في هذا المجال لم تتعدى اكتشاف بعض النسب والمثلثات المنتظمة. أما الهنود فقد سبقوا اليونانيين في هذا المضمار، وقطعوا أشواطا أطول مما قطعه اليونانيون، وعلى الأخص فيما يتعلق بقياس الجيب (قياس الزاوية المفروضة بالضلع المقابل لها مقسوما على الوتر في المثلث القائم الزاوية)[٢]. وكذلك قياس جيب التمام.

علم المثلثات عند العرب: عرف هذا العلم عند العرب (بعلم الأنساب)، وذلك لاستناده على الأوجه المختلفة الناشئة من النسبة بين أضلاع المثلث وإليهم يعود الفضل في جعله علما منظما، له قوانينه الخاصة، منفصلا عن الفلك، ومستقلا عن العلوم الرياضية الأساسية الأخرى، فأصبحوا بحق المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات لأنهم خلقوا ميدانا واسعا في مجال العلوم كافة وهذا العلم خاصة. بحيث لم تكن تعرفه الأمم التي سبقتهم. وبفضلهم أعتبر هذا العلم عربيا[٣]. لأن العرب هم أول من استعمل مبدأ الجيب والمماس والقواطع وجيب التمام وظل التمام (والظل والمماس) والجداول، كما استعملوا أيضا ظل التمام، وفي نهاية القرن الثالث وبداية الرابع توصل علماء الإسلام إلى استخراج القواعد المتعلقة بالمثلثات الكروية القائمة الزاوية ومساحة المثلثات الكروية[٤].

أشهر العلماء:

* البتاني: أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان، المتوفى سنة (٣١٧هـ/ ٩٢٩م): من

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣٩٠.

(٢) عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص١٥٨. ابن النديم: الفهرست ص٣٩٠.

(٣) عبد الحليم منتصر، التراث العلمي العربي في الميزان، مجلة الهلال، العدد الرابع، السنة ٧٣، ١ نيسان ١٩٦٥، عمر فروخ عبقرية العرب في العلم والفلسفة ص٨٠٥.

(٤) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ١٥٨ طوقان: تراث العرب العلمي ص١٠٥-١٠٦.

العلماء الذين ساعدوا على أن يصبح علم المثلثات علماء مستقلا وكان له تأثير في حساب المثلثات الكروية في أوروبا، والبتاني هو الذي أدخل الجيب واستعمله بدلا من كلمة (الوتر) التي كان يستعملها بطليموس[١]، كما أدخل الظل وظل التمام، وذلك عن طريق قياسه طول ظل عصا متوازية على جدار عمودي، وطول ظل عصا عمودية على سطح مستوى متوازي[٢]. كما أنه أول من ابتكر الجداول الرياضية لنظير المماس. ومن المحتمل أنه عرف قانون تناسب الجيوب ويعتبر أحد مؤسسي المثلثات الحديثة واكتشافه غالبية النسب المثلثية.

* أبو الوفاء البوزجاني (ت٣٨٨هـ/ ٩٩٨م)، يعتبر من أوائل العلماء العرب الذين اشتغلوا في العلوم الرياضية، وقد اقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات لأنه ابتكر طريقة لإنشاء جداول الجيوب في المثلثات المستوية ووضع جدولا لنسبة الظل واستعمل القاطع وقاطع التمام[٣].

كذلك وممن اشتغل في علم المثلثات العلماء الحراني الصابئ. ابن يونس المصري، الخوارزمي جابر ابن أفلح، نصير الطوسي[٤].

* أبو علي حسن بن علي بن عمر المراكشي: مؤلف كتاب جامع المبادئ والغايات في علم المستعان.

---

(١) فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص١٥٩.

(٢) قيس الوهابي، مجلة المجتمع العلمي العراقي، مج٥، سنة ١٩٧٤، ص١٠٥.

(٣) الدوميلي: العلم عند العرب ص٢١١، أحمد سليم سعيدان. تاريخ علم الحساب العربي ص٥٩.

(٤) الزركلي: الإعلام ج٨/ ٢٤٠. كحالة: معجم المؤلفين ج٣/ ١٧. انظر طوقان: العلوم ص٢١٠-٢١١، حاجي خليفة: كشف الظنون ج١/ ص٥٧٢.

الفصل الرابع عشر

العلوم التطبيقية

الفلك

الكيمياء

الحيل والميكانيك

العلوم الطبيعية

علم الهيئة (الفلك) (علم النجوم)

علم الفلك: عرف أخوان الصفا [١] علم الهيئة بأنه (معرفة تركيب الأفلاك وكمية الكواكب وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن). وعرفه ابن خلدون[٢] بأنه «علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمتحركة والمتحيرة ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها هذه الحركات المحسوسة بطريقة هندسية...».

وعرف هذا العلم (قاضي زادة [٣] – بأنه يبحث عن أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية وأشكالها وأوضاعها ومقاديرها وأبعادها).

الفلك في الحضارات القديمة: عرفت بلاد الحضارات القديمة هذا العلم مبكراً وذلك لارتباطه بحاجات الناس وأحوالهم. خاصة في معرفة الزمن والفصول والنجوم والكواكب، وخاصية الأرض وسطحها والشمس والقمر والفيضان والخسوف والكسوف والظواهر الطبيعية المختلفة بأنواعها.

اشتغل المصريون: بالفلك مبكراً وذلك لمحاولتهم السيطرة على فيضان النيل من خلال معرفة زمن الفيضان. وقد عرفوا عدد أيام السنة (٣٦٥ يوم) [٤] كذلك اهتم البابليون بعلم الفلك لارتباطه أولاً بعبادة بعض الأجرام السماوية. لذلك أبدعوا في علم الرياضيات والمتواليات الحسابية والهندسية في علم الفلك لتفسير دورة القمر. ثانيا كذلك قاسوا محيط الأرض ومحيط الفلك. وعرفوا اليوم والساعة والأسبوع والشهر وأسماء الشهور والأبراج، وقد استخدموا الآلات في أعمالهم الفلكية مثل "الساعة الشمسية والمائية والكروية". ورصد الكواكب والنجوم ورسموا خريطة للأرض. وحركات الأرض والشمس والخسوف والكسوف والجداول الفلكية [٥].

أيضاً طبق اليونان القوانين الهندسية وحساب المثلثات السطحية والفلكية في رصد

---

(١) إخوان الصفا – الرسائل الثالثة القسم الرياضي جـ ١ / ٣٧٢.

(٢) ابن خلدون – المقدمة ص ٤٨٨.

(٣) قاضي زادة: مخطوط مكتبة الأوقاف العامة / الموصل الزيواني رقم ٩/ ١٢.

(٤) فروخ: تاريخ العلوم ص ٤١.

(٥) الدوميلي: العلم عند العرب ص ٣٧، فروخ: ٤١-٤٤

الكواكب، بواسطة الآلات وعرفوا نظرية الأفلاك المشتركة. هذا ويعد العالم اليوناني (بطليموس) في مؤلفه (المجسطي) المرجع الأول والأخير للنظام الفلكي القديم. ومع ذلك يعد علم الفلك اليوناني علم نظري في غالبه ويستند على العقل بعيداً عن التجربة وعلى هذا الأساس وضعوا فكرة نظام الكون البديع، وقدموا أعمالاً جليلة ظهرت في تفسير حركة الأجرام، وأطوال الفصول وحركات الشمس والقمر والكواكب والنجوم وأبعاد الشمس والقمر [(١)].

علم الفلك في الجاهلية: عني عرب الجاهلية بعلم النجوم لارتباطه بأحوال حياتهم وطرق تجارتهم لهذا كانت لهم ملاحظات فلكية كثيرة، فذكروا كثيراً أسماء النجوم والكواكب. وعرفوا منازل القمر حيث قسموه إلى ثمانية وعشرين قسماً (خلاف قسمة الهنود له بسبعة وعشرين قسماً). وكان هدف العرب هو معرفة أحوال الرياح وحوادث الجو في فصول السنة. واشتهر في هذا المجال (النجوم) جماعة منهم (بنو مارية بن كلب) و(بنو مرة بن همام الشيباني). وأخذ عرب الجاهلية تكبس السنين. الذي حرمه الإسلام. على ما تقدم يمكن القول أن عرب الجاهلية لم تكن لديهم دراسات عملية منتظمة، ولا إرصادات صحيحة في علم الفلك. وإن معلوماتهم لم تتجاوز الضرورات البدائية المعتمدة على تجربة المشاهدة ومتابعة حركة الأجرام السماوية بصورة بسيطة وعامة، حيث تولدت عندهم خبرة التقويمين (القمري والشمسي) وتحديد المواسم والأعياد ومواعيد رحلاتهم التجارية وشئون حياتهم [(٢)].

تطور علم الفلك الإسلامي: حدد الخلفاء الراشدون أولويات أعمالهم في أكبر أفضلية من خلال توطيد دعائم الإسلام ونشر مبادئه، لذلك اشتغل المسلمون بالسياسة والحروب والأمور الدينية والشعر، فكسدت أبواب الحرف والمهن وبعض العلوم واستمرت الحال كذلك حتى بعد ابتداء الدولة الأموية في الشام، إذ لم يبرز فيها إلا خالد بن يزيد بن معاوية [(٣)] الملقب (بحكيم آل مروان) وكان أول كتاب في الفلك ترجم من اليونانية

---

(١) عبد الرحمن مرحبا: الموجز في تاريخ العلوم ص ١٣٥-١٣٦، الدوميلي ص ٤٥، حاجي خليفة: كشف الظنون جـ ٢ / ١٥٩٤-١٥٩٥، ابن النديم: الفهرست ص ٣٨٨.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ الشمون الإسلامي جـ ٣ / ١٢.

(٣) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، حفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الأموية كان خطيباً وشاعراً فصيحاً، وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء، فعل أكثر شغله في الصنعة وله في

إلى العربية هو كتاب (عرض مفتاح النجوم المنسوب إلى هرمس الحكيم)[١] والموضوع على تحاويل سني العالم وما فيها من الأحكام النجومية، وقد كان ذلك قبل انقراض الدولة الأموية في دمشق بسبع سنين [٢]. ولما انتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد بقيام الدولة العباسية أصبح العراق داراً للخلافة رمزاً للإشعاع الفكري والنهضة العلمية، ومما ساعد على هذه النهضة شغف الخلفاء ورغبتهم في العلوم، وتشجيعهم لحركة النقل والترجمة، وإكرام أهل العلم ورفع مقامهم ودفعهم للتزود بكل العلوم والمعارف. وقد شمل ذلك علم الفلك كغيره من العلوم. فكان الخليفة العباسي الثاني أبو جعفر المنصور يقرب المنجمين ويستشيرهم في أموره وكان (نوبخت الفارسي) المنجم يصحب المنصور دائماً، ولما ضعف عن خدمة الخليفة، أمره المنصور بإحضار ابنه أبي سهل بن نوبخت [٣] ليقوم مقامه[٤].

وعندما ابتدأ الخليفة المنصور بناء بغداد (١٤٥هـ/ ٧٦٢م)، وضع أساسها في وقت اختاره نوبخت المنجم وما شاء الله اليهودي، وقام مهندسوا المدينة بهندستها بحضور المنجمين نوبخت وإبراهيم بن محمد الفزاري والطبري [٥]. وقال البيروني (إن المنصور ابتدأ ببناء مدينة السلام، في سنة ألف وأربع وسبعين للاسكندر، وأصحاب أحكام النجوم يحتاجون إلى معرفة أمثال هذا الوقت والتاريخ، بمعرفة التحاويل والانتهاءات والأدوار والتسييرات حتى يستنبطوا الحكم لأهلها. وفي فترة خلافة أبي جعفر المنصور قام أبو يحيى

ذلك عدة كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى، ومن كتبه: كتاب الحرارات، كتاب الصحيفة الكبير، كتاب الصحيفة الصغير، كتاب وصية إلى ابنه في الصنعة.

(١) هرمس الحكيم: اختلف المؤرخون بشأن هرمس وذكروا ثلاثة هرامسة، أما هرمس الأول، فقد زعمت جماعة من العلماء، أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول.

(٢) نللينو، علم الفلك، ص ١٤٣.

(٣) أبو سهل بن نوبخت: منجم فارسي، خبير بالكواكب وحوادثها. وكان أبوه نوبخت منجماً أيضاً، انظر (ابن القفطي أخبار الحكماء، ص ٤٠٩).

(٤) نللينو، علم الفلك، ص ١٤٣، ١٤٤.

(٥) نفس المصدر، ص ١٤٤، ١٤٥، وانظر كذلك **Delacy O leary , D.D., How Greek Science. Passed to the Arabs , P. 149**.

البطريق ينقل كتاب (الأربع مقالات لبطليموس) في صناعة النجوم [1]. وفي سنة (١٥٤هـ / ٧٧٠م) قدم على المنصور الفلكي الهندي(كانكا)، وأحضر معه كتاب (سدهانتا) وعرف بالعربية بالسند هند فأمر الخليفة المنصور بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلف منه كتاب يتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب. فقام بالترجمة إبراهيم الفزاري وعمل منه ابنه محمد كتاباً على غراره سمي (السند هند الكبير) وقام باختصاره الخوارزمي. وحذا الخلفاء العباسيون الذين جاءوا بعد المنصور حذوه في تشجيع العلم والعلماء، فترجمت الكتب التي خلفتها الأمم التي سبقتهم، وصححوا الكثير من الأخطاء التي وقع فيها الكثير من علماء هذه الأمم، ففي زمن المهدي والرشيد، برز الكثير من علماء الفلك الذين اشتهروا بالأرصاد واختراع آلات مثل الاسطرلاب ودوائره النحاسية. وألفوا في الزيج الفلكي.

وفي عهد المأمون ألف يحيى بن أبي منصور زيجاً فلكياً مع سند بن علي، والأخير عمل أرصاداً مع علي بن عيسى وعلي بن البحتري، وفي هذه الفترة أصلحت أخطاء المجسطي لبطيموس، وألف موسى بن شاكر أزياجه المشهورة، وبناء على طلب الخليفة المأمون اشتغل أولاد موسى بن شاكر بحساب طول درجة من خط نصف النهار، وقام أحمد بن عبد الله بن حبش بعمل ثلاثة أزياج في حركات الكواكب، وظهر الكثير من العلماء الذين كان لديهم فضل كبير في تقدم علم الفلك منهم،ثابت بن قرة، المهاني البلخي، العبادي،البتاني، السمرقندي والجوهري، ابن حبش، الكندي، البوزاني، الكوهي، المجريطي، ابن الهيثم، الطوسي البوزجاني، الخازن والفرغاني [2].

أسباب الاهتمام بعلم الفلك: إن معرفة العرب بالفلك قبل العصر العباسي، كانت مقتصرة على رصد بعض الكواكب وحركاتها وعلاقتها بالكسوف والخسوف، وكذلك بالطالع والمستقبل، وبعض الأمور الأخرى التي كانت مرتبطة بحياة الفرد، وكذلك علاقتها بالحرب والسلم والظواهر الطبيعية، وكانوا يسمون هذا العلم، (بعلم التنجيم). وأول من عُني بالتنجيم أيام الدولة العباسية أبو جعفر المنصور، ثم تلاه خلفاء آخرون، وأصبح له شأن كبير عندهم، بالرغم من أن الدين الإسلامي نهى عنه وبين فساد الاعتقاد فيه [3]، وفي الأثر (كذب المنجمون ولو صدقوا) وكان المنجمون جزء من موظفي

---

(١) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ٢٤٢.

(٢) المقتطف: جـ ٣ / ١٤٧ فبراير عام ١٩١١.

(٣) سورة يونس: الآية / ٢٠ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ وانظر كذلك، سورة هود: الآية: ١٢٣، سورة النحـر:

الدولة لهم رواتبهم وأرزاقهم، أسوة بغيرهم من موظفي الدولة الآخرين كالأطباء والكتاب والحساب. وكان الخلفاء يستشيرونهم في كثير من الأمور الإدارية والسياسية، بالإضافة إلى ذلك كانوا يعالجون المرضى على مقتضى حال الفلك، وكان اعتقادهم به كبيراً لدرجة أنهم كانوا يراقبون النجوم ويعملون بأحكامها قبل القيام بأي عمل، حتى فيما يتعلق بطعامهم وشرابهم وزياراتهم وغيره [1]، بل صاروا يتخوفون من الكوكب الغربي ذي الذنب، المعروف بمذنب هالي [2].

جاء اهتمام المسلمين بعلم الفلك نتيجة عوامل دينية في الأساس إلى جانب عوامل إدارية واقتصادية وحياتية، ولما كان ارتباط بعض أحكام الدين الإسلامي بالظواهر الفلكية، جعل العرب يهتمون بأمور علم الفلك اهتماماً كبيراً. فاقتضى الأمر معرفة المواقع الجغرافية للبلدان، وحركة الشمس في البروج، وأحوال الشفق الأساسية، وذلك لاختلاف أوقات الصلاة من بلد إلى آخر ومن يوم إلى يوم. وكذلك اقتضى معرفة سمت القبلة، إذ أن التوجه إلى القبلة من مستلزمات الصلاة، وهذا يتطلب حل مسألة من مسائل علم الهيئة الكروي مبنية على حساب المثلثات، من الضروري معرفة حساب حركات النيرين واستعمال الأزياج المتقنة، لغرض معرفة صلاة الكسوف أو الخسوف [3]. وبما أن أحكام الصوم والفطر تستند على رؤية الهلال، وأن أول الصوم اليومي يحسب من الفجر الثاني، فقد حمل ذلك الفلكيين على حل المسائل المعقدة المتصلة بشروط رؤية الهلال وأحوال الشفق، فوضعوا حسابات

الآية / ٤١، وسورة النجم: الآية ٣٥، وسورة الجن الآية / ٢٦، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ سورة الأعراف: الآية ١٨٨. وفي الحديث الشريف، قال ﷺ، من أتى عرافاً وكاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد، انظر جلا الدين عبد الرحمن السيوطي، فيض القدر شرح جامع الصغير، شرح محمد المعو بعيد الرؤوف المناوي، جـ٦، ص ٢٣، وفي حديث آخر، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد. انظر محيي الدين يحيى بن شرف النووي، شرح رياض الصالحين، تحقيق الحسيني عبد المجيد هاشم، جـ٢، ص ٨٦٩.

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، جـ٣، ص ٢١٠.

(٢) عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق، وعلاقته بالأقطار الإسلامية والعربية، ص ٦.

(٣) نللينو، علم الفلك وتاريخه عند العرب، ص ٢٢٩، ٢٣٠.

وطرقاً جديدة لم يتطرق إليها أحد قبلهم من اليونايين والهنود والفرس [١]. كما أن العديد من النصوص القرآنية دفعت المسلمين إلى التدبر والتعلم في منفعة الأجرام السماوية وحركاتها. كما أن اهتمام الناس بالتنجيم ساعد في الاهتمام بعلم الفلك وممارسته، والعمل فيه وتطويره من خلال دراسة تراث الأمم والحضارات القديمة، وخاصة اليونان والكلدان والهنود والفرس والسريان. ثم تصويبهم لأخطاء الأقدمين. ومن ثم بدأ علماء الإسلام بمرحلة الإبداع والابتكار والاختراع ثم مرحلة التأليف. وبذلك ساهموا في تطور هذا العلم حتى وصل إلى الحد الذي عليه الآن.

منجزات المسلمين في علم الفلك: قدم علماء الإسلام في مجال هذا العلم إبداعات وابتكارات هامة، إلى جانب حفظهم للتراث القديم. فقد طوروا هذا العلم وأصلوه بالدراسات النظرية والعلمية. ومن مساهمات العالم ابن الهيثم نظريته القائلة أن أن ارتفاع القطب يساوي عرض المكان. وفي إحدى رسائله (رسالة ارتفاع القطب)، بيّن أن تأثير الانعطاف على أرصاد الكواكب عند قربها من سمت الرأس يكاد يكون معدوماً. فالأخطاء التي تنشأ عند تعيين الارتفاع بواسطة الأجهزة تخلو من تأثير الانعطاف، كما تخلو أيضاً من عامل زاوية اختلاف النظر، إذ أن المسافة بين الكواكب والأرض بالنسبة إلى نصف قطر الأرض كبيرة جداً، ولا زالت هذه الطريقة تستعمل إلى الوقت الحاضر، على الرغم من الاختلاف التام بين الأجهزة القديمة والحديثة[٢]. ومن الظواهر التي ما زال العلم يستند عليها في الوقت الحاضر، ظاهر رؤية الكواكب عند الأفق أو بالقرب أكبر منها وهي عند السمت أو قريباً من وسط السماء [٣]. وقد وصف ابن الهيثم هذه الظاهرة بقوله (... إن كل كوكب إذا كان على سمت الرأس فإن البصر يدرك مقداره أصغر من مقداره الذي يدركه به من جميع نواحي السماء التي يتحرك عليها ذلك الكوكب. وكلما كان أبعد عن سمة الرأس كان ما يدركه البصر من مقداره أعظم من مقداره الذي يدركه وهو أقرب إلى سمت الرأس إن أعظم ما يدرك البصر من مقدار الكواكب هو إذا كان الكوكب على الأفق وكذلك أبعاد ما بين الكواكب...) [٤]، ومما يدل على شدة عناية العرب بعلم الفلك ومهارتهم في

(١) نللينو، علم الفلك، ص ٢٣١.

(٢) طوفان، تراث العرب، ص ١١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ١١٧.

(٤) مستوى نظريف، الحسن بن الهيثم، بحوثه وكشوفه البصرية، ج ١ ص ٣٣٥.

الأرصاد، قيامهم بقياس قوس من دائرة نصف النهار بطريقة علمية في زمن الخليفة المأمون[1]، الذي لم يتفق للعلماء إلا بعد مرور ألف سنة [2]. كذلك مقياس محيط الأرض،

ومن القضايا الفلكية الأخرى التي حققها العرب، ما قام به البتاني، من حساب ميل فلك البروج على فلك معدل النهار، فوجده ٢٣ و٣٥ دقيقة. وكان أبرخس قد حسبه ٢٣ و٣٤ دقيقة، فأصاب في الرصد والحساب إلى حد دقيقة واحدة. كما قام أيضاً باحتساب طول السنة الشمسية وبين أنها ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٦ دقيقة و٢٤ ثانية فقط، وأخطأ بدقيقتين و٢٢ ثانية وكان سبب خطأه هو عدم اعتماده على أرصاده، وإنما اعتمد على رصد بطليموس. كذلك قام البتاني بتدقيق فلك الشمس، وحقق مواقع عدد كبير من النجوم. وقام ابن يونس الصدفي بقياس دائرة البروج. وعرف علماء الإسلام أصول الرسم على الكرة الأرضية، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها وضبطوا حركة الشمس وتداخل أفلاكها. ووضع الصوفي رسوم ملونة للأبراج وصورها بشكل حيوان وأناسي. وتوصل علماء الإسلام إلى وحدة الأنظمة الكونية (نظرية ابن طفيل). وقال علماء الإسلام بكروية الأرض وحركتها حول الشمس (الإدريسي).

وللعرب فضل كبير على علم الفلك، فقد جعلوه علماً رياضياً مستنداً على أعمال الأرصاد، وعلى الأصول الحسابية والهندسية لتعليل الظواهر الفلكية والكونية، وكان هدفهم من ذلك امتحان الإرصادات القديمة، التي قام بها من سبقوهم من الأمم الأخرى كالهنود والفرس واليونانيين، ومقارنتها بنتائج إرصاداتهم الجديدة التي قاموا بها بأنفسهم، فأدى مفهوم (الامتحان) المنهجي للعلماء العرب، إلى التوصل إلى نتائج جديدة تختلف عن النتائج التي توصل إليها ما سبقوهم [3]. وبهذا نجد أن العلماء العرب قد خالفوا اليونانيين بعدم وقوفهم عند حد النظريات، بل قاموا بالأرصاد وصنعوا آلاته [4]، كما طهروه من أدران التنجيم والخرافات [5]. وقد اقتبس الغرب الكثير من هذا العلم، ويرجع الفضل في

---

(١) نللينو، علم الفلك، ص ٢٨١.

(٢) كوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ٤٥٦.

(٣) عبد الحميد صبرة، دراسة تريخ العلوم عند العرب أهدافها ومشكلاتها، بحث ألقي في الندوة العلمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، جامعة حلب، ٥-١٢ نيسان ١٩٧٦.

(٤) ناجي معروف، المراصد الفلكية ببغداد في العصر العباسي، ص ٥.

(٥) طوقان تراث العرب العلمي، ص ١٣١.

ذلك إلى الفونسو الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ – ١٢٨٤ م). فجداوله المعروفة بالجداول الألفونسية التي تيسر بمقتضاها تقدير حركات النجوم حسب خط الزوال في طليطلة، تكاد تكون مبنية بأكملها على الأرصادات العربية [١].

وعلى الرغم من أن الخليفة المنصور يعد هو أول من عني بعلم الفلك، إلا أن المأمون هو أول من أنشأ أول دارٍ للرصد في الشماسية، وجعلها منشأة علمية حيث وهب لها المال الكثير، وهيأ لها مجموعة من علماء الفلك والطبيعيات، الذين ألفوا بالفطرة البحث الفلكي، وشكلت دراساتهم وأرصاداتهم التي قاموا بها، سلسلة مستمرة طيلة مدة قرنين [٢] وبنى في دمشق مرصداً آخر سنة (٢١٤ هـ / ٨٢٩م)، واعتبره بعض الدارسين أول مرصد في الإسلام. وبإنشائه بدأ العصر الفلكي الإسلامي الإيجابي، والخليفة المأمون يعد أول من أشار إلى فلكييه باستعمال آلات الرصد [٣] [٤]. ومن أشهر فلكيي هذه الدار، سند بن علي، والعباس بن سعيد الجوهري ويحيى بن أبي منصور، واحد بن محمد بن كثير الفرغاني، وعلي بن إسماعيل الحسن الجوهري، ثابت بن قرة وعلم الدين البغدادي. وأكثرهم شهرة أبناء موسى بن شاكر الذين بنو مرصدا بباب الطاق، واستخرجوا فيه حساب العرض الأكبر من عروض القمر. ومن المراصد الأخرى (مرصد بني الأعلم) ومرصد سامراء الذي بنوه أولاد موسى بن شاكر. وقد اعتمد على حركة الآلات التي تديرها قوة مائية. هذا وتتابع إنشاء المراصد في عهد البويهين والفاطميين والسلاجقة.

آلات الرصد: ذكر صاحب كشف الظنون، أن علم الآلات الرصدية (هو من فروع علم الهيئة، وهو علم يتعرف منه كيفية تحصيل الآلات الرصدية قبل الشروع بالرصد، فإن الرصد لا يتم إلا بآلات كثيرة)، وقد وضع الخازن كتاب يشتمل على الكثير من هذه الآلات، سماه (كتاب الآلات العجيبة) [٥]، كما ألف غياث الدين جمشيد الكاشي رسالة باللغة الفرنسية، وصف فيها آلات الرصد سوى ما اخترعه تقي الدين الراصد [٦]. أما أهم

---

(١)جون هامرتن، تاريخ العالم، ج ٥، ص ٧٥٩.

(٢)ريسلر، الحضارة العربية، ص ١٧٦ .

(٣) ناجي معروف، المراصد الفلكية ببغداد، ص ٨.

(٤) طوقان، تراث العرب العلمي، ص ١٣٢ .

(٥) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ١٤٥٦.

(٦) نفس المصدر، ج ١، ص ١٤٦ .

الآلات التي أنشأها العلامة تقي الدين الراصد [1] فهي: اللبنة وهي جسم مربع مستو يستعلم به الميل الكلي، وأبعاد الكواكب ذات الأوتاب: وهي أربع اسطوانات مربعات تغني عن الحلقة الاعتدالية، على أنها يعلم بها تحويل الليل أيضاً. وذات الحلق: وهي أعظم الآلات هيئة ومدلولاً، وتتركب من خمس دوائر نحاسية. وذات السمت والارتفاع: وهي نصف حلقة قطرها سطح من سطوح اسطوانة متوازية السطوح يعلم بها السمت وارتفاعها، وهذه الآلة من مخترعات الرصاد المسلمين. وذات الشعبتين: وهي ثلاثة مساطر على كرسي يعلم بها الارتفاع.وذات الجيب: وهي مسطرتان منتظمتان انتظام الشعبتين ، والربع المسطري، وذات النقبتين والنبكام الرصدي والمشتبهة بالناطق. وأهم آلات الرصد. الاسطرلاب (معناه مقياس النجوم) [2] واستعمالات الاسطرلاب في استخراج البروج، وقياس ارتفاع الشمس والكواكب، معرفة أوقات الصلاة والشروق وبداية الأشهر والليل والنهار، والطول والعرض ، وقد تعددت أنواع الاسطرلاب وأشكاله فمنه الهلالي، الكروي، الصدفي، الزورقي، الصوفي المسطح والمسرطن ، ومن الآلات (الربع المجيب) والمزاول الثابتة والمزاوية المتنقلة [3].

علم الأزياج: وهو من فروع علم الفلك، وقد عرفه (ابن خلدون) بأنه (صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته، وما ادى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك، يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها لأي وقت فرض من قبل حسبان حركاتها على تلك القوانين المستخرجة من كتب الهيئة، ولهذه الصناعة قوانين، كالمقدمات والأصول لها، في معرفة الشهور والأيام والتواريخ الماضية وأصول متقررة من معرفة الأوج والحضيض، والميول وأصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض، يضعونها في جداول مرتبة تسهيلاً على المتعلمين، وتسمى الأزياج، ويسمى استخراج مواضع الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعديلاً

---

(١) تقي الدين الراصد: هو الشيخ تقي الدين ابن الشيخ محمد بن زين الدين معروف الراصد، لقب (بالراصد) لشدة عنايته ومعرفته بالرصد، ولد بالقاهرة (سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١م) وتوفي (سنة ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م). انظر (عباس العزاوي، تاريخ علم الفلك في العراق، ص ٣١٥، ٣١٦).

(٢) الخوارزمي مفتاح العلوم ص ١٣٤ في اليونانية أسطر النجم ولابون المرآة (مرآة النجوم).

(٣) ناجي معروف: المراصد الفلكية ص ٢٩، ٣٣. الخوارزمي: مفاتيح العلوم ١٣٥-١٤٦. محمد صديق الجليلي: المزاول الشمسية، العدد ١٢.

وتقويماً [1]. ومن أشهر الأزياج [2]: زيج: إبراهيم بن حبيب بن سليمان الفزاري، زيج: محمد بن موسى الخوارزمي. وزيج حبش الحابس وزيج البلخي، وزيج البغدادي، وزيج البتاني – والسنجري. وزيج المقتيس، وزيج العلائي والزيج الكبير الكامي وزيج الهمذاني.

مما تقدم يمكن القول أن فضل الإسلام على علم الفلك كغيره من العلوم، تمثل بحفظ تراث الحضارات القديمة، ثم دراسته وتصويبه ووضع الشروح عليه. انتقالاً إلى مرحلة الإبداع والابتكار ومن ثم التأليف في هذا العلم. وبهذا نجد أن علم الفلك ارتقى على فضل علماء الإسلام. حيث أصبح على أيديهم علماً استقرائيا يستند على الملاحظة الحسية والتجربة العملية المبنية على آلات الرصد. أما الجزء النظري لفضل علماء الإسلام على علم الفلك فقد أصبح على أيديهم علماً تعليمياً يستند على المسائل الرياضية لحل معضلاته [3].

علماء الفلك: برز العديد من علماء الإسلام في هذا العلم، وقد تركوا بصمات كبيرة في مجالات هذا العلم وأبوابه. بين الشروح والتلخيص والإبداع والابتكار إلى جانب مؤلفات قيمة في هذا المجال. نذكر منهم:

* أحمد بن عبد الله حبش المروزي الحاسب [4]: أحد أصحاب الأرصاد من عهد الخليفة المأمون. له عدة مؤلفات هامة أشهرها ثلاثة أزياج ١- الزيج المؤلف على مذهب السندهند ٢- الزيج الممتحن ٣- الزيج الصغير (الشاه)، وله كتاب: الزيج المأموني، الأبعاد والأجرام وعمل الاسطرلاب.

* محمد بن موسى الخوارزمي [5]: وضع زيجاً سماه (بالسند هند الصغير) وله مؤلفات عدة منها: الزيج الأول والثاني، كتاب الرخامة، عمل الاسطرلاب [6]. والجمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك.

---

(١) ابن خلدون: المقدمة، ص ٤٨٨-٤٩٩.

(٢) ناجي معروف: المراصد الفلكية ص ٣٤.

(٣) طوقان: تراث العرب ص ١٣٦، جلال موسى: منهج البحث العلمي عند العرب ص ٢٧٠.

(٤) ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص ١٧٠، طوقان: تراث العرب ص ١٣٦.

(٥) ابن القفطي: ص ٣٢٦ – ٣٢٧.

(٦) طوقان: تراث العرب ١٦٢، ابن النديم ص ٣٧٢، ٣٧٨، ٣٧٥، ٤٠٣، ٤٠٧.

* الكندي [1]: (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن لصاح بن الأشعث الكندي) لاحظ أوضاع النجوم والكواكب (عد أهم ثمانية من علماء الفلك). وضع مؤلفات قيمة في مختلف العلوم. الفلسفة الرياضيات الموسيقى النجوم والطب وغيرها. مؤلفاته في الفلك منها: في العالم الأقصى، في الصور، من المناظر الفلكية، ظاهريات الفلك تناهي جرم العالم، ماهية الفلك، ماهية الجرم، في البرهان.

* البتاني [2]: أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الرقي، مرصده من الرقة على نهر الفرات، مؤلفاته (الزيج، مطالع البروج الزيج الصابئي). اعتبر علم الفلك من أشرف العلوم منزلة.

* البوزجاني [3]: (أبو الوفا) مؤلفاته: الكامل في حركات النجوم، المقالة الثانية والثالثة في حركات النجوم، الزيج الواضح، يعد عالماً في ثلاثة علوم (من الفلك والحساب والهندسة).

* البيروني [4]: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت ٤٤٠ هـ). عالم في الرياضيات والفلك والطب والتاريخ والتقاويم.

* العباس بن سعيد الجوهري البغدادي: (كتابه الزيج) وزيح السند هند الصغير.

* أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني: مؤلفه أصول الفلك.

* أحمد بن محمد الحاسب: كتابه المدخل إلى علم النجوم.

التبريزي أبو العباس: (كتبه الزيج الكبير والصغير، سمت القبلة، أحداث الجو، كتاب البراهين (شرح المجسطي).

* عبد الرحمن الصوفي (أبو الحسن الرازي): مؤلفاته: الكواكب الثابتة والأرجوزة في الكواكب الثابتة، صنع كرة سماوية. وكتابه صور الكواكب الثماني والأربعين.

---

(١) صالح زكي: آثار باقية جـ ١، ١٦٢

(٢) ابن النديم: الفهرست، ٤٠٣

(٣) صالح زكي: آثار باقية، جـ ١ / ١٦٢.

(٤) البغدادي: هدية العارفين جـ ٢ / ٦٥، البيروني: الآثار الباقية ص ٣٥٧ وكتاب القانون المسعودي جـ ١ / ٣-٥.

ومن العلماء الآخرين المجريطي، ابن يونس المصري، الكوفي ومنصور بن عراق (أبو نصر). الرقطي وعمر الخيام، والحسن المراكشي الخرقي، الطوسي، الكاشي، البلخي، ابن الشاطر، ابن يونس العاملي القزويني.

علم الكيمياء

تعريف الكيمياء: عرفها ابن خلدون [١]، في مقدمته بأنها (علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة، ويشرح العمل الذي يوصل إلى ذلك، فيتصفحون المكنونات كلها بعد معرفة أمزجتها وقواها، لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعذرات، فضلاً عن المعادن، ثم يشرح الأعمال التي تخرج بها المادة من القوة إلى الفعل، مثل حل الاجسام إلى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب فيها بالتكليس، وإمهاء الصلب بالقهر والصلابة وأمثال ذلك، وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعي يسمونه (الأكسير) [٢]) وعرفها الخوارزمي[٣]: (أن اسم هذه الصناعة (الكيمياء) عربي واشتقاقه: من كمي يكمي إذ أستر وأخفى، ويقال كمى الشهادة يكميها إذا كتمها) وبالمعنى العام: الكيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى المعادن النفيسة.

الكيمياء في الحضارات القديمة: يرجع تاريخ الكيمياء إلى نحو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد أو يزيد، وتعد الحضارة المصرية القديمة من أقدم وأول الحضارات التي استوحت شيئاً من هذا العلم وكيفية نشأه. لهذا عرفت هذه الحضارة صناعة التعدين خاصة في المعادن النفيسة (الذهب والفضة). إلى جانب صناعات أخرى كالزجاج والصباغة وتحضير الأدوية ومواد التحنيط. وكان يشرف على هذه الصناعة الكهان في معابدهم، حفظاً لأسرارهم [٤]. وقد ورد في مصادرهم في تسمية هذا العلم (**chem , kmt**) وتعني التربة السوداء.

بينما يزعم ابن النديم [٥] أن البابليون هم أول من تكلم في هذا العلم والصنعة، ويرجعها إلى الحكيم البابلي (هرمس)، الذي صحت له هذه الصناعة بتحويل المعادن إلى

---

(١) ابن خلدون، المقدمة ص ٥٠٤.

(٢) الإكسير، مادة مركبة، كان الأقدمون يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب، وشراب في زعمهم يطيل الحياة. انظر المعجم الوسيط، ج ١، ص ٢٢.

(٣) الخوارزمي، مفاتيح العلوم ص ١٤٦.

(٤) عبد الحميد أحمد: محاضرات ابن الهيثم التذكارية (المحاضرة الثالثة)، ثر الحضارة الإسلامية في تقدم الكيمياء والنتشارها ص ٣.

(٥) ابن النديم: الفهرست ص ٥٠٧-٥٠٨.

الذهب والفضة من غير معادنها. أما (تايلر) فيرى أن حضارة الصين والهند، عرفت هذه الصنعة وخاصة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة منذ القرن الرابع قبل الميلاد. وقد جعلوا جل اهتمامهم مركزّ نحو اكتشاف إكسير الحياة، الذي يطيل العمل ويعيد الحيوية للإنسان. وبهذا يبدو أن علم الصنعة هو علم صيني [١].

أما اليونان فقد ركزوا في هذا العلم على الجانب النظري أكثر من اهتمامهم بالجانب التجريبي، وتعد مدرسة الاسكندرية المركز الأول في تكون النواة الاولى لهذا العلم. وأشرف على هذه الصناعة (تحويل المعادن الخسيسة إلى المعادن النفيسة)، الكهان من خلال اعتمادهم على كتب قديمة محشوة بالرموز والطلاسم ولا تقوم على أساس علمي تجريبي [٢]. وسار على هذا النهج الرومان لكنهم لاحقوا أصحاب هذه الصناعة فطردوهم وأحرقوا كتبهم. وقد استمرت شهرة مدرسة الاسكندرية في هذا العلم حتى الفتح الإسلامي [٣].

تطور علم الكيمياء في الإسلام: تطورت العلوم الطبيعية عند المسلمين شأنها في ذلك شأن العلوم الرياضية التي وصلوا بها إلى درجة راقية. ويرى (همبولد) ضرورة اعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية بمفهومها الحديث يقول (فما أطول الزمن الذي انقضى بين (ديسقوريدس) [٤] الذي استخرج الزئبق من الزنجفر والعلم الكيماوي جابر، وما أطول الزمن الذي انقضى بين اكتشاف بطليموس في البصريات واكتشاف ابن الهيثم... ارتقى العرب إلى هذه الدرجة الثالثة التي كان القدماء يجهلونها وذلك بتمسكهم بالعموميات على الخصوص[٥].

---

(١) عمر فروخ: تاريخ العلوم ص ٨٠.

(٢) مرحبا: الموجز في تاريخ العلوم ص ١٠٥.

(٣) عبد الحميد احمد: أثر الحضارة الإسلامية ص ٤-٥.

(٤) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٢١.

ديسفوريدس: من أهل زربة، شامي يوناني حشانشي، كان بعد بقراط، وترجم من كتب بقراط الكثير، وهو أعلم من تكلم في علاج الطب وهو العلم في العقاقير المفردة، تكلم على سبيل التجنيس والتنويع ولم يتكلم في الدرجات وما للأدوية والنبات من قوة في البرودة والحرارة والرطوبة واليبوسة – وألف كتاب الخمس مقالات – وهو كتابه المشهور في الحشائش والنباتات التي لم يسبقه أحد إلى التكلم في ذلك بمثل كلامه فيه.

(٥) سيديو، تاريخ العرب العام ص ٤٣٩، ٤٤٠

ويقصد همبولد في ذلك استعمال العرب للتجربة في بحوثهم الطبيعية كأساس برهاني للوصول إلى النتائج الصحيحة. فالتجربة في دراسة الكيمياء والعلوم الطبيعية، كانت من أبرز مآثر العرب، وهو تطور واضح لا جدال فيه ضد الفروض اليونانية الغامضة (١)، إذ كانت من الأسس التي ثبتها العلماء العرب، رفض أي شيء باعتباره حقيقة ما لم تدعمه الملاحظة الدقيقة أو تثبته التجربة (٢)، وبإدخال التجربة العلمية والمشاهدات الدقيقة، خلع العرب على علم الكيمياء أصالة البحث العلمي، فكانوا أول من حقق هذا النصر العلمي الرائع من باب هذا العمل، خاصة وأنهم أبعدوا عن هذا العلم عن السرية والغموض والرمزية التي استمرت فترة طويلة في مدرسة الإسكندرية، وحددوا لهذا العلم منهجاً استقرائياً سليماً، يعتمد على الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، حيث استخدموا لآلات والموازين والمكاييل لغرض الدقة والضبط، بحيث حققت وثبة جريئة نحو التمكن من البحث والمنهج العلمي (٣). والمأثور أن أول نقل وترجمة لهذا العلم في الإسلام كان على يد الأمير (خالد بن يزيد بن معاوية). حيث ترك أمور السياسة ومال إلى العلم. خاصة وأنه مغرم بالعلم والمعرفة. فكلف (اسطفانوس وماريانوس) وغيرهما بترجمة كتب الكيمياء إلى العربية. فصحت لهذا الأمير هذه الصناعة وألف عدداً من الكتب والرسائل، وأشعار في الكيمياء بلغت (٥٠٠ ورقة). وكتبه (الحررات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير وكتاب وصية إلى ابنه في الصنعة) (٤). وبهذا جعله (حاجي الخليفة) (٥) أنه أول من تكلم في علم الكيمياء، واشتغل فيها حيث وضع بعض المؤلفات وبين صفة الأكسير والميزان. وحول علاقة خالد بن يزيد وارتباطه الأول بعلم الكيمياء، جاء تأكيد قول المؤرخين فذكر الجاحظ (٦): أن خالد بن يزيد هو أول من قام بترجمة كتب النجوم الطب والكيمياء. وقول الأصبهاني (٧): أن خالد بن يزيد قضى معظم حياته بطلب

---

(١) Hitti , History of the arabs , p. 380

(٢) Holmyard , Makers of Chemistry , p. 60

(٣) توفيق الطويل، العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي ص ٣٩.

(٤) ابن النديم، الفهرست ص ٥١١-٥١٢.

(٥) حاجي خليفة: كشف الظنون جـ ٢ / ١٥٣١.

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين / جـ ١ / ٣١٤.

(٧) الأصبهاني: الأغاني جـ ١٦ / ٨٨.

الكيمياء. وقول ابن صاعد الأندلسي [١]: كان خالد بن يزيد متضلعاً في أمور الطب والكيمياء. وذكر ابن الطقطقي [٢]: كان خالد بن يزيد قد اشتغل بالكيمياء وأصاب فيها.

أما ثاني المشتغلين في علم الكيمياء بعد خالد بن يزيد هو الإمام جعفر الصادق [٣]. ورائد هذا العلم هو العالم (جابر بن حيان) [٤]. هذا ويمكن القول أن تطور علم الكيمياء عند المسلمين مرّ بمرحلتين: الأولى تمثلت بنقل وترجمة كتب اليونان في الكيمياء ومن ثم شرحها وتصويبها ومخالفة بعضها. والثانية تنحصر في إبداعات علماء الإسلام وابتكاراتهم واختراعاتهم ومؤلفاتهم في هذا العلم.

علماء الإسلام في الكيمياء:

١ - جابر بن حيان: جاء في دراسة جابر بن حيان أقوال كثيرة متضاربة، وآراء متعددة متعارضة، ولا غرابة في ذلك، فموضوع تناقض الإجتهادات والدراسات في حياة علماء عباقرة الفكر والعلم كثيرة في التاريخ، فكأنما الإنسانية تستكثر على نفسها أن ينبغ من أبنائها أحد يجاوز بنبوغه هذه حداً معلوماً، فإن جاوزه قال عنه الخلف أنه أسطورة لفقهاء الخيال، (فهو ميروس) قد وجد – وما يزال يوجد – من ينكر وجوده، وحدث الشيء نفسه مع الأديب والشاعر الإنجليزي شكسبير، والشاعر العربي امرئ القيس حيث ظهر أيضاً من تشكك في وجوده [٥].

مؤلفاته [٦]: لجابر بن حيان تآليف كثيرة ومصنفات مشهورة في صناعة الكيمياء [٧]، فقد كان من أكثر العلماء كتابة وتأليفا [٨]، وكان ينتهج طريقة خاصة في كتاباته، حيث كان يطيل الشرح أحياناً ويوجزه أحياناً أخرى، وقد جاء بكتاب الاشتمال (انظر إلى ذا العلم

---

(١) ابن صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص ٧٥.

(٢) ابن الطقطقي: (الفخري) ص ٨٧-٨٨.

(٣) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ/ ٢٩١.

(٤) محمد محمد فياض: جابر بن حيان وخلفاؤه ص ٣٤-٣٥.

(٥) زكي نجيب محمود، جابر بن حيان، ص ١١.

(٦) المصدر السابق: ص ٥١٤ – ٥١٧، وانظر كذلك (اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ٧٤ – ٨٥)، وكذلك، د. زكي نجيب محمود، جابر بن حيان، ص ٢٨، ٣٩.

(٧) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٠.

(٨) اسماعيل مظهر، تاريخ الفكر العربي، ص ٧٤.

كيف يتلاعب بالناس، ويخرج هذه الصناعة الشريفة في المعارض المختلفة ومغزاه واحد، وكيف يعرض مرة ويصرح مرة أخرى) [1]. من مؤلفاته الأخرى كتاب الحاصل، تفسير الإسطقس، الأسرار، التراكيب، الأرض، كتاب أسطقس الأسي الأول والثاني والثالث، رسائل جابر بن حيان، الواحد الكبير، الركن، البيان، النور التدابير، الملاغم الخالص، القمر، الشمس.

٢- الرازي أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٣١٣ هـ/ ٩٢٥ م)، تجرد في مصنفاته الكيميائية عن الغموض والإبهام والطلاسم والتهويمات، إلا أن اعتقاده كان قوياً بإمكانية تحويل المعادن غير النفيسة إلى ذهب وفضة، ويظهر ذلك جلياً في كتابه (سر الأسرار). أما تجاهه العلمي وأسلوبه في الكيمياء، فيبدوا أنه أكثر وضوحاً في كتابه (الأسرار)، ويبدو أكثر قرباً لى المنهج العلمي في الكيمياء الحديثة من غيره من العلماء العرب[2]. ومن أهم مآثره العلمية وصفه للتجارب العملية القائمة على التجربة والملاحظة بأنها أساس لصدق الأعمال. كذلك أدخل المستحضرات الكيميائية في الطب، وحضّر حامض الكبريتيك، استحضر الكحول. مؤلفاته بلغت (١٢ كتاب) منها المدخل التعليمي، المدخل البرهاني، الآيات، التدبير، الحجر، الأكسير، شرف الصناعة الترتيب، الرموز، المحبة، الحيل، سر الأسرار، التبويب، رسائل الملوك.

٣- الكندي: قال بعدم استحالة المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة، وكتب رسائل عدة في مجال الكيمياء منها: رسالة في أنواع الجواهر الثمينة، رسالة فيما يصبغ ويعطي لوناً، رسالة في أنواع السيوف والحديد، رسالة فيما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتثلم ولا تكل، رسالة في العطر وأنواعه، رسالة في كيمياء العطر [3]، رسالة في التنبيه، رسالة في بطلان دعوى المدعين صفة الذهب والفضة وخدعهم.

٤- ابن سينا: فكما يبدو من مؤلفاته التي بين أيدينا، ومن أسماء كتبه الأخرى التي لم تصل إلينا، فإنه لم يضع أي مؤلف خاص في هذا المجال. إلا أنه ضمن كتابه (الشفاء)

---

(١) الطغرائي، النص مأخوذ من كتاب (مختار رسائل جابر بن حيان، بول كراوس ص ٥٥٣).

(٢) انظر، فرات فائق: أبو بكر الرازي، حياته ومآثره ص ١٨، ٥١، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، مصطفى لبيب عبد الغني: الكيمياء عند العرب، ص ٩١، ابن النديم: الفهرست ٥١٨.

(٣) ابن النديم: الفهرست ٣٧٨ – ٣٧٩، ابن القفطي: تاريخ الحكماء ص ٣٧٥، ٣٧٦.

لبعض الفصول المتعلقة بعلم الكيمياء، حيث قسم المعادن إلى أربعة أقسام هي (الحجارة، المواد القابلة للانصهار، الكباريت، الأملاح) [(١)]. وهناك علماء آخرون برزوا في هذا العلم منهم: المجريطي، محمد بن أحمد العراقي السماوي أبو القاسم، الجلدكي، البيروني.

فضل علماء الإسلام في الكيمياء:

(١) عرفوا العديد من تحضير العناصر منها (الأسرنج الأحمر) أول أكسيد الرصاص، كربونات الرصاص، كبريتات الحديدوز، مركبات الزئبق، الزرنيخ، ومركبات البوتاسيوم والصوديوم، فصل الذهب عن الفضة.

(٢) أول من قرروا أصول علم الكيمياء الصيدلانية خاصة في الأدوية.

(٣) عرفوا صناعات عدّة منها الزجاج، العطور، دهان طلاء الخشب.

(٤) أجرو العمليات الأساسية للمركبات الكيماوية.

(٥) اعتمدوا على التجربة العلمية والعملية في حقول العلوم المختلفة.

(٦) يعد علماء الإسلام هم أول مؤسسي علم الكيمياء. ورائده العالم جابر بن حيان الذي أول من أرسى المنهج العلمي التجريبي، المعتمد على العمل والتجربة الذي جعل فيه كمال الصنعة. كما جعل الميزان خير أداة للمعرفة. والعلم والمعرفة عند جابر يسبق العمل (الفرضية). وخطوات المنهج العلمي تعتمد على الناحية النظرية ثم الفرضية، ثم الربط بين الملاحظات، الاستنباط من الفرضية، التجربة، الاستقراء ثم الاستنباط والتطبيق ثم النظرية، وعرف جابر كثيراً من العمليات، وحضّر كثيراً من المواد الكيماوية. الأمر الذي جعل من هذا العالم عبقرية علمية بارزة في علم الكيمياء ومن أعاظم علماء العصر الوسيط.

(٧) نقل علماء الإسلام الكيمياء من طور الصنعة الخرافية إلى طور التجربة المخبرية.

(٨) نقل الأوروبيون عن علماء السلام ثروة كبيرة من المؤلفات ومن المعرفة والحقائق والتجارب والنظريات العلمية والمنهج العلمي والابتكار والاختراعات. كذلك دخلت ألفاظ عربية إلى جميع اللغات الأوروبية في حقل هذا العلم وغيره بسبب الأثر الإسلامي العربي على الغرب.

---

(١) عبد الحميد: أثر الحضارة الإسلامية في تقدم الكيمياء وانتشارها، الجمعية المصرية لتاريخ العلوم، العدد الثاني، عدد خاص ص ٣٠.

علم الحيل (الميكانيك): استعمل العرب كلمة (الحيل للدلالة على الآلات الميكانيكية والأجهزة الأوتوماتيكية، وسمي هذا العلم أيضاً بعلم الآلات الروحانية لارتياح النفس بغرائب هذه الآلات) [١].

اطلع العرب على هذا العلم منقولاً عن اليونانيين، إلا أن ما ورثوه كان محدوداً، فأخذوه وطوروه وأضافوا إليه أشياء كثيرة كذلك برعوا في الآلات ابتكارا وتصميما وصناعة كما قاموا بنقل الكتب المصنفة في هذا العلم، وترجموا العديد من هذه الكتب إلى العربية ككتاب الثقل والخفة (لإقليدس)، وكتاب ساعات الماء التي ترمى بالبنادق (لأرخميدس)، وكتاب شيل الأثقال (لأهرن)، وكتاب الآلات المهوتة (لمورطس) وغيرها[٢] وقد قسم الشيخ الخوارزمي الكاتب علم الحيل إلى قسمين [٣]:

الأول: في جر الأثقال بالقوة واليسيرة وآلاته: فقد كان للعرب آلات رفع متعددة التصاميم بنوها على أسس ميكانيكية تسهل جر الأثقال بقوة يسيرة [٤]. ومن الآلات التي كانوا يستعملونها والتي ذكرها الخوارزمي هي: البرطيس، المخل، البيرم، الكثيرة الرفع، والأسفين، اللولب، الخنزيرة، الأسطام [٥]، وغيرها.

الثاني: في آلات الحركات وصنعة الأواني العجيبة: ظهر العديد من العلماء الذين اهتموا بهذا العلم، ولعل الثلاثي الشهير (محمد، والحسن، وأحمد) أبناء موسى بن شاكر. كانوا أبرز وأشهر هؤلاء المهندسين الذين اشتغلوا بالميكانيك، بالإضافة إل العلوم الأخرى كالفلك والهندسة والرياضيات، فبرهنوا على مقدرة العرب الفائقة وعقليتهم التكنولوجية المتطورة في هذه المجالات ولهم في ذلك تآليف عجيبة تعرف (بحيل بني موسى) [٦]. وكان أحمد أقل شأناً من إخوته في هذا العلم، إلا أنه كان متفوقاً في صناعة الحيل والاختراعات في مجال الألعاب الميكانيكية المدهشة للأطفال، والتدبير المنزلي، والمعالف، ضغط السوائل،

---

(١) طاش كبرى بادة، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٧٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٨٦.

(٣) الخوارزمي الكاتب، مفاتيح العلوم، ص ١٤١.

(٤) قدري حافظ طوقان، العلوم عند العرب، ص ٣٦.

(٥) المصدر السابق، ص ١٤١، ١٤٢.

(٦) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، ص ٥٥.

القناديل، الناقورات الفنية، آلة لرفع المياه، آلة في مرصد سامراء تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات، كذلك اهتم علماء الفلك بصنع الآلات والأدوات المستخدمة في عمليات المراقبة والرصد والقياس، وكان لديهم آلات متعددة لأشكال التطويع وتقطيع الحلقات وأشهر العلماء في هذا المجال نصير الدين الطوسي الذي اشتغل في مرصد مراغة (الحلقة ذات الخمس حلقات والدوائر النحاسية). ثم أضافوا الأداد (مسطرة لقياس الزوايا) وآلة السموت.

أيضاً اهتم المسلمون بدراسة الميزان، ولذلك اخترعوا أدق الموازين التي يقل نسبة الخطأ فيها عن أربعة أجزاء من ألف جزء من الغرام، بل كان لديهم موازين أدق من ذلك، كما وضعوا فيها مؤلفات نفيسة، ومن أشهر من ألفوا في الميزان ثابت بن قرة، الكوهي، الفارابي، ابن سينا، قسطا بن لوقا، ابن الهيثم، الجلدكي، والخازن. كذلك اهتم العرب بابتكار وصنع الآلات والأدوات التي يحتاجونها في الأعمال الفلكية والمراصد، والألعاب الميكانيكية والأواني العجيبة والمتطرقة والساعات [1]..

فضل علماء الإسلام على علم الحيل: ترك علماء الإسلام تراثاً ضخماً تناول العديد من الموضوعات منها:

١- في الموازين كتاب عبد الرحمن الخازن المسمى (ميزان الحكمة) وصف فيه أشكالاً متعددة للموازين وصفاً مسهباً دقيقاً [2].

٢- في مجال ميكانيكا الموائع، عرض أبو الريحان البيروني بشكل واضح لعمل الأواني المستطرقة من خلال كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) [3].

٣- في الساعات: برع العرب في صنع العديد من الساعات المتنوعة التي تسير على الماء والزئبق وعلى الشمس المشتعل [4].

٤- في قياس الزمن: اهتم العرب بدراسة آلات قياس الزمن والمسائل العلمية لعلم

---

(١) ابن القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٤٤٢.

(٢) الخازن: ميزان الحكمة ص ١٠٣.

(٣) البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

(٤) هونكة: شمس العرب ص ١٤١، ١٤٢.

الهيدروليك والآلات المتحركة العالم (الجزري) [١].

٥- في العلوم والصناعة: يعد أبو القاسم عباس بن فرناس المتوفى نحو (٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) [٢]. شاعراً وأديباً مشهور في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن [٣]. أصله من كورة تاكرنا (رندة) بجنوب الأندلس، نشأ في قرطبة ودرس بها، وبرع منذ شبابه في الفلسفة، والكيمياء والطبيعة والفلك [٤]، ومارس هذه العلوم في نواحيها النظرية والتجريبية والعملية، فتوصل إلى صنع الزجاج من الرمال والحجارة، واخترع عدداً من الآلات الفلكية الدقيقة (كذات الحلق والميقاتة)، ولهذا العالم المسلم يعود الفضل لأول فكرة في الطيران.

٦- في التصادم: يعد ابن الهيثم (٤٣٠ هـ / ١٠٣٩م) أول من تناول حركة تصادم الأجسام، وتمكن من التوصل إلى القواعد الأساسية، التي تسيطر على هذه الحركة، ويكون بذلك قد قام بأول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام، استناداً إلى تباين ممانعة الأجسام للانفعال بالمصادمة. واعتمد ابن الهيثم في دراسته هذه على التجربة والتحليل [٥].

٧- في المسائل العلمية وآلات الحركة برع العالم بديع الزمان الجزري في الآلات الميكانيكية.

٨- في قراءة الحروف البارزة برع العالم الآمدي.

وبهذا يكون العرب قد ساهموا في تطور علم الميكانيك عملياً ونظرياً، وساهموا مساهمة فعالة أعطت هذا العلم طابعاً جديداً ومميزاً، لم يكن معروفاً عند اليونان بصورة عامة، ولا عند أرخميدس بصورة خاصة. وبهذه المساهمات خلق العرب تيارا فكريا. ظهرت نتائجه في مطلع القرن التاسع عشر. متبلوراً حول مفهوم الطاقة ومفهوم العمل (المسافة بالقوة) وفي غيرها من النظريات.

العلوم الطبيعية:

عرف الفارابي العلم الطبيعي: بأنه الذي (ينظر في الأجسام الطبيعية وفي

---

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون جـ ٢ / ١١١، الدوميلي: العلم عند العرب، ص ٣٠٥.

(٢) محمد عبد الله عنان تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص ٢٦٦.

(٣) أحمد بن عميرة الضبي بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، ص ٤١٨.

(٤) محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص ٢٦٦.

(٥) جلال شوقي، تراث العرب في الميكانيكا، ص ٥٦.

الأعراض التي قوامها من هذه الأجسام، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها، والتي منها توجد هذه الأجسام والعراض (الأعراض) التي قوامها فيها) [١].

عرفها (ابن خلدون) بأنه (علم يبحث عن الجسم من جهة وما يلحقه من الحركة والسكون، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن، وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغيرها) [٢].

تطور العلوم الطبيعية: ترجع أصول هذا العلم إلى الحضارة اليونانية، لكنها كانت عندهم مركزة على الجانب النظري الذي يستند إلى الفلسفة، وتقوم على منهج عقلي استنباطي. وفي العهد الإسلامي أخذ علماء العرب هذا العلم عن اليونان وأخضع للدراسة والفحص والتدقيق والتصويب، وفق خطة علمية منهجية تعتمد على التجربة والاستقراء والبحث والاستنباط. فأضافوا وابتكروا واخترعوا وقدموا مؤلفات ضخمة في موضوعات هذه العلوم ، وجاءت نتائجهم العلمية مطابقة لما توصل إليه العلم الحديث في أبعد الحدود. هذا وقد برز العديد من العلماء المسلمين الذين يرجع إليهم الفضل في إغناء الحضارة العربية بدراسات قيمة للعلوم الطبيعية، إلى جانب العلوم الأخرى والمعارف الإنسانية، أهمهم العالم ابن سيناء،البيروني وابن الهيثم [٣].

علوم الأرض: استندت علوم الأرض عند العرب على التأمل وتفسير الظواهر الطبيعية والبحث العلمي، خلافاً لما كانت هذه العلوم عند الشعوب القديمة، حيث كانت تستند على الخرافة والتأملات الميتافيزيقية، وعلى هذا جاءت العلوم الحديثة امتداداً للمنهج العلمي الذي ابتكره العرب مع استمرار التطور في هذا المجال [٤]، حيث قدم علماء العرب الأجهزة العلمية الدقيقة والابتكارات الهائلة زخماً كبيراً عمل على تطور هذا العلم. ولابن سينا نظريات وآراء في هذه العلوم لا تكاد تختلف عن النظريات العلمية الحديثة، جعلته بحق (مؤسس علم الجيولوجي) عند العرب. وظلت رسالته في (المعادن والآثار العلوية)

---

(١) الفارابي: إحصاء العلو ص ٧٦.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٢.

(٣) جلا عبد الحميد موسى: منهج البحث العلمي عند العرب ص ١١٥.

(٤) منعم الراوي، الموجز في تارريخ الجيولوجيا عند العرب، بحث مقدم إلى الندوة العالمية لتاريخ العلوم عند العرب، المنعقدة في جامعة حلب بين ٥-١٢ نيسان ١٩٧٦.

من كتاب الشفاء. من أهم المصادر العلمية التي اعتمد عليها الغرب في القرون الوسطى[١]، ومن آرائه في تكون الحجارة أنها تتكون من الطين أو الماء والنار، إذ (أن كثيراً من الأحجار يتكون من الجوهر الغالب فيه الأرضية وكثير منها يتكون من الجوهر الغالب عليه المائية، فكثير من الطين يجف ويستحيل أو لا شيئاً بين الحجر والطين وهو حجر رخو، ثم يستحيل حجراً وأولى الطينات ما كان لزجاً، فإن لم يكن لزجاً فإنه يتفتت في أكثر الأمر قبل أن يتحجر) [٢]. ولابن سينا آراء علمية عديدة وفي موضوعات كثيرة منها: في تكون الصخور الرسوبية وطبقاتها. وتكون الحجارة والصخور من الماء أو النار. أيضاً في تكون الجبال وطبقاتها. وفي المعادن، وتعرض للزلازل مبيناً أسبابها ونتائجها والأصوات المرافقة لها ثم منافعها. وللعالم المسلم (البيروني) - كثير من الأبحاث والدراسات في مجال علوم الأرض منها: علم الهيئة الأرضية وقد قاس محيط الأرض واستخرج نصف قطرها وفق معادلة نسبت إليه (معادلة البيروني): س = ف جتان / ١- جتان. وأيضاً في علم التضاريس وطبقات الأرض وعلم البيئة القديمة وعلم الأحافير وعلم الجيولوجيا التاريخية [٣].

علم التضاريس (جيومورفولوجيا) في موضوع هذا العلم فسر البيروني كيفية تكوين سهل الهندستان، وبين أنه كان في مكان هذا السهل قاع بحر، ونتيجة لترسبات الطمى فيه أصبح سهلاً. ويتجلى مدى قرب هذا الدراسة من المفهوم الحديث لهذا العالم، كما أنه بالإمكان اعتبار رأي البيروني هذا ضمن مفهوم علم الرسوبيات. وله أبحاث أخرى في علم الحفريات وعلم الطبقات الأرضية خلال الأزمنة الجيولوجية. وله بحوث حول كثافة الصخور ضمن علوم الطبيعة الأرضية.

كذلك اهتم علماء العرب بعلم المعادن. منهم العالم ابن سينا الذي قسم المعادن إلى أربعة أقسام: الأحجار، الذائبات، الكباريت والاملاح [٤]. ولعل أروع من ألف في علم المعادن، هو أبو الريحان (البيروني) الذي يعتبر كتابه (الجماهر في علم الجواهر) خير ما صنف في هذا المجال. لأنه وصف العديد من المعادن أيضا وفق منهج تجريبي منها: الياقوت، الألماس، اللؤلؤ، المرجان، الزمرد العقيق، الذهب والزئبق. كذلك أوجد الوزن النوعي بدقة

---

(١) علي عي السكري، العرب وعلوم الأرض، ص ١٨.

(٢) ابن سينا، الشفاء، الطبيعيات، المعادن والآثار العلوية، ص ٣، ٥، ٨، ١٩-٢٠، ١٧.

(٣) ابن سينا: الشفاء، الطبيعيات – المعادن والآثار العلوية / ص ٥، ٨-٩، ١٧، ١٩-٢٠.

(٤)ابن سينا، المعادن والآثار العلوية، ص ٢٠.

متناهية للعديد من المعادن حتى جاءت مطابقة للواقع العلمي الحديث أو الأقرب إليه بنسبة كبيرة.

علم الجيولوجيا، من العلماء المسلمين الآخرين الذين امتد اهتمامهم إلى علم الجيولوجيا، زكريا القزويني (٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م)، الذي كتب عن الزلازل والمياه الجوفية وغيرها في كتابه، (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) [١]، كما تكلم عن كروية الأرض مستدلاً بذلك على خسوف القمر وطلوعه وغروبه [٢]، وبين أيضاً ما تتعرض له الأرض من الزلزلة والخسف [٣]، أما كتابه الآخر (آثار البلاد وأخبارالعباد)، تكلم القزويني فيه عن تكوين الذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد والكبريت والزئبق وغيره.

أما علماء العرب الآخرين الذين بحثوا في مجال علم الجيولوجيا، فنذكر بعضاً منهم على سبيل المثال: النظام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م)، الرازي (٢٣١هـ / ٨٤٥م)، الكندي (٢٥٢هـ / ٨٦٧م)، المقدسي (٣٩٠هـ / ٩٩٩م)، إخوان الصفاء (القرن الرابع الهجري)، أبو عبيد البكري (٤٨٧هـ، ١٠٩٤م)، أبو القاسم الزمخشري (٥٣٩هـ / ١٤٤٤م)، الشريف الأدريسي (٥٦٠هـ / ١١٦٤م)، أبو حامد الغرناطي (٥٦٥هـ / ١١٦٩م)، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، شمس الدين الدمشقي (٧٢٦هـ / ١٣٢٥م)، وغيرهم ممن تركوا آثارا علمية قيمة في الظواهر الجيولوجية التي كان لها تأثير واضح ومباشر على علوم الأرض عند علماء الإسلام. وعلماء الغرب، من هنا يرى الباحث المتأمل والمحايد، أن آراء ونظريات هؤلاء العلماء، لا يتطرق إليها الشك، بعد مقارنتها حديثاً بما توصل إليه رواد علم الأرض الغربيين مثل (كوليم سميث، وجيمس هاتون) بأنها في تقارب وثيق مع هذه الآراء، مما يؤكد أن علم الجيولوجيا كغيره من علوم العرب الأخرى أشرت على علم الغربيين في مطلع النهضة الأوروبية الحديثة.

علم الميتورولوجيا: تعرض فيه عدد من العلماء المسلمين للظواهر الطبيعية إلى جانب موضوعات ذات الصلة بهذا العلم، مبينين كيفية وأسباب تكونها وتأثيراتها بأسلوب

---

(١) فاروق العمري وعبد الهادي الصائغ، الجيولوجيا العامة، ص ١٣.

(٢) زكريا القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، ص ١٩٥.

(٣) نفس المصدر، ص ١٩٨، ١٩٩، ١٠.

علمي منهجي دقيق. منهم العالم ابن سينا الذي تناول الظواهر التالية: السحب الظل والثلج والضباب، والهالة والقوس قزح، والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد وغيرها من الظواهر [1].

المد والجزر: شرح هذه الظاهرة العالم (البيروني) وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر من خلال كتابه (تحقيق ما للهند) من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)[2].

الجاذبية الأرضية: وقف البيروني على فكرة الجاذبية للأرض، وفهم تأثير هذه الجاذبية فهماً علمياً صحيحاً [3]، حيث أكد للمعترضين على دوران الأرض حول نفسها، والمعتقدين بأن الأرض لو دارت (لطارت من فوق سطح الأحجار، واقتلعت الأشجار) [4]، وأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها، كما أكد أيضاً رأيه هذا في كتابه (القانون المسعودي)، حيث قال: (والناس على الأرض منتصبوا القامات على استقامة أقطار الكرة، وعليها أيضاً نزول الأثقال إلى أسفل...) [5]. كذلك عرف العالم الخازن أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها نحو مركز الأرض، وعرف أيضا نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام [6]، وتعرض لهذه الظاهرة علماء آخرون منهم: ابن سينا، ابن جرداذبة والإدريسي. ولعلماء الإسلام يسجل لهم السبق في معرفة سرعة سقوط الأجسام [7].

الثقل النوعي: توصل علماء الإسلام إلى معرفة الثقل النوعي لبعض المواد الصلبة والسائلة، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقرب أحياناً، وأحياناً أخرى تتطابق مع ما قدره علماء العصر الحاضر بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني للآلات والأجهزة التي استعملت في هذين العصرين [8]. وقد استعمل البيروني جهازاً لتعيين الثقل النوعي حدده

---

(١)انظر ابن سينا، المعادن والآثار الباقية ٣٥-٣٨، ٤٧، ٤٩، ٥٣، ٥٥-٥٧-٦٠، ٦٩.

(٢) البروني: ص ٢٥٣ تحقيق ما لهند. طبعة ليزك ١٩٢٥.

(٣) جلال شوقي. بحث جامعة حلب ١٩٧٦.

(٤) برناد جافي بواتق وأنابيب، قصة الكيمياء – ترجمة أ. أحمد زكي، ص ٦٢.

(٥) البيروني، القانون المسعودي، ج ١، ص ٢٢.

(٦) عمر فروخ: تاريخ العلوم ص ٢٢٥.

(٧) جلال شوقي: تراث العرب في الميكانيكا ص ٩٠.

(٨) عبد الرحمن الخازن: ميزان الحكمة، ٥٨-٥٩، الدوميلي: العلم عند العرب ص ١٩٤-١٩٦.

في جدولين. الأول لبيان وتعيين الثقل النوعي للمعادلة، والثاني لبيان الثقل النوعي لبعض الأحجار الكريمة. وبهذا يعد جهاز البيروني أقدم مقياس عالمي لتعيين كثافة المادة.

علم الصوت: اهتم العرب بالصوت ومنشأه، وعلموا أن حركة الأجسام المصوتة هي أساس منشأ الأصوات، وأن هذه الحركة تؤثر في الهواء، فيخرج الهواء من بين الأجسام المتصادمة، متدافعاً على شكل أمواج إلى جميع الجهات ويحدث من حركته شكل كروي، كلما يتسع هذا الشكل تضعف حركته وتموجه إلى أن يتلامس [1]. وهذا البحث في الصوت أدى إلى البحث في الموسيقى وأنواع الأنغام. وعلى هذا قسموا الأصوات الإنسانية إلى عدة أنواع (الجهير، الخفيف، الحاد والغليظ) وطبقوا مبادئ الطبيعة في الصوت والموسيقى. كذلك قسموا أصوات الحيوانات إلى ثلاثة أقسام هي: (١) أصوات الحيوانات ذات الرئة، وتختلف أنواعها ونغماتها باختلاف أطوال أعناقها وسعة حلاقيمها، وتركيب حناجرها وشدة استنشاقها الهواء وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخرها. (٢) أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولكن لها جناحين كالزنابير والجراد والصراصير وغيرها، فإن الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها واختلاف أنواعها مستندة على لطافة هذه الأجنحة وغلظتها وطولها وقصرها وسرعة حركتها. (٣) أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة وأجنحة، كالسمك والسرطان والسلاحف وما شاكلها، وتسمى الحيوانات الخرس، وتختلف أصواتها باختلاف يبسها وصلابتها، واختلاف أحجامها.

علم الضوء والبصريات: اشتغل بعض علماء اليونان وفلاسفتهم في بعض الموضوعات المتعلقة بالضوء والبصريات، إلا أن النظرة المادية هي التي سادت هذه الأفكار، إذ كانت الإبصار حسب اعتقادهم لا تتم (إلا بالاتصال الفعلي والمادي بين الجسمين أو بتماسهما وكذا الإدراك بتم بواسطة الحواس فالإبصار في زعمهم لا يكون إلا بالاتصال الفعلي أو المادي بين العضو الحاس وهو العين وبين المبصر)[2]. أي بخروج شعاع من العين الذي تتم به الرؤيا. وقد ساد مثل هذا الرأي الخاطئ أيضاً عند الهنود لكن علماء الإسلام خطئوا هذه النظرية.

وفيما يخص تطور هذا العلم، فقد قام العرب بترجمة الكتب اليونانية غيرها في شتى

---

(١) إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء، ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) مصطفى نظيف: الحسن بن الهيثم، بحوثه وكشوفه البصرية جـ ١ / ٥٥، ٧٧.

مجالات العلوم ومن ضمنها الكتب المتعلقة بعلم المناظر، فشرحوها وعلقوا عليها وصححوا بعض أغلاطها، وقام البعض من العلماء قبل (ابن الهيثم) بتناول بعض هذه الموضوعات، كالكندي [١] والرازي وغيرهما [٢]. إلى أن جاء الحسن بن الهيثم فوضع مؤلفاته في علم المناظر، فطبع علم الضوء والبصريات. بطابع مميز أوجده مستنداً على أسس علمية منهجية مبني على الاستقراء والقياس، وبالتمثيل والاستنباط أحياناً. وبهذا أصبح الرائد الأول لهذا العلم في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، إلى جانب كونه عالماً رياضياً فلسفياً باحثاً ساعياً للعلم مصنفاً مبوباً، تفهم منطق أرسطو ووضع أسس مصطلحات علم الضوء والبصريات [٣].

العالم ابن الهيثم: هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم أصله من البصرة [٤] ثم انتقل إلى مصر وأقام فيها إلى أن توفي بالقاهرة حوالي سنة (٤٣٠ هـ / ١٠٣٩م) أو بعدها[٥]. عرّف الضوء وقسمه إلى قسمين (الأضواء الذاتية والعرضية). وخطأ نظرية الإبصار اليونانية. ثم وصف العين وتشريحها ودرس خواص المرايا. وصنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب[٦]. ظلت مصدراً رئيسياً لعلماء الغرب من بعد، خاصة في باب علم الضوء

---

(١) ألقى الأستاذ الدكتور مختار الدين أحمد، عميد كلية الآداب في جامعة علي كرة (الهند) بحثا قيماً عن (الكندي ورسالته في الشعاعات في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب جامعة حلب ٥-١٢ نيسان ١٩٧٦ وبين البروفوسور الدكتور مختار الدين (أن رسالة الكندي في الشعاعات توجد مخطوطتها الوحيدة في مكتبة بانكيبور (بتنة) بالهند) أوضح الكندي في هذه الرسالة كيفية صنع المرآة – المرايا المحرقة – اليت ينعكس منها أربعة وعشرون شعاعاً على نقطة واحدة. (وكيف تكون النقطة التي يجمع عليها لاشعاع على أي بعد شئنا من وسط سطح المرآة) وقد دعم ذلك بالأشكال الهندسية منها أشكال إثباتية، ومنها أشكال عملية، ويبلغ عدد هذه الأشكال عشرين شكلاً).

(٢) مصطفى نظيف، الحسن بن الهيثم، ج ١، ص ٧٧.

(٣) مصطفى نظيف، الحسن بن الهيثم، ج ١، ص ٧٧.

(٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٥٥٠.

(٥) ابن القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٦٧.

(٦) انظر أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ص ٥٥٣ – ٥٦٠، وانظر أيضاً (محمد علي حجاب، قائمة بالموجود من كتب ابن الهيثم ومكان وجوده مجموعة أبحاث الجمعية المصرية لتاريخ العلوم، عدد خاص ويشمل المحاضرات التذكارية لابن الهيثم، العدد الثاني ص ١٣٩ – ١٤٣)

والبصريات الذي تجلى فيه عظمة ابتكار علماء الإسلام في هذا العلم ، وقد جمعه هذا العالم في مؤلفه (كتاب المناظر) تعرض فيه (لكيفية الإبصار، تفصيل المعاني، أغلاط البصر في الإدراك، إدراك البصر بالإنعكاس، مواضع الخيالات، أغلاط البصر في الإنعكاس، إدراك البصر بالإنعطاف).

المغناطيس: عرف اليونان منذ ما يزيد على (٢٠٠٠ سنة) نوعاً معيناً من الحجر له قدرة عجيبة، وكانوا يجلبونه من منطقة مغنسيا، وكان سكان تلك المنطقة يسمون بالمغنيطيين، مما يفسر سبب استعمال كلمة مغناطيس في العصر الحديث. كما عرف هؤلاء الناس أنه عندما يتأرجح هذا الحجر تأرجحاً حراً فإنه يشير دائماً إلى نفس الإتجاه. واستعمل الصينيون هذا النوع من الحجر لإرشاد الناس في سفراتهم الطويلة [١].

البوصلة: أما اختراع البوصلة، فقد تنازعه كل من الصينيين والعرب والإيطاليين ، أما الصينيون، فقد ذكر المؤرخ الصيني (شويو) بأنهم عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجانب. ولا شك فإن هؤلاء (الملاحين الأجانب) هم إما هنود أو عرب، ولما كانت الوثائق الهندية لم تشر إلى هذه الآلة، فيكون الصينيون قد أخذوا البصولة من العرب [٢]، بالرغم من أنهم عرفوا حجر المغناطيس قبل العرب.

علم الحركة (الديناميكا): لم تقتصر جهود العرب ونشاطاتهم في العلوم النظرية أو الفلسفية فحسب، بل تعدوها إلى علوم أخرى متعددة كالطب والرياضيات، والفلك والعلوم الطبيعية وغيرها، وأنهم في مجال الفلسفة سلكوا مسلكاً خاصاً، فكانت قضاياهم الفلسفية أشبه بنظريات هندسية، يبرهنون عليها ببراهين قياسية مستعملين في معظمها براهين السلف [٣]. وفق دراسة فلسفلية لغرض التوصل إلى الأسباب التي توجب أن تكون الأمور الطبيعية على ما هي عليه الحقيقة المبتغاة. والفلسفة عند العرب قسمان: العلوم الطبيعية والعلوم الإلهية. والعلوم الطبيعية يقصد بها الحركة: ومعناها (حيث ينظر إليه كجسم مادي متحرك مع الأخذ بنظر الاعتبار بالقوة سواء في العلة التي معلولها الحركة).

---

(١)ج. ستيفنسون، المغنطيسية، ترجمة د. أنور عبد الواحد، ص ٢

(٢) صبيح صادق، ما ابتدعه العلماء العرب ونسب إلى العلماء الأوروبيين، مجلة آفاق عربية، العدد ١٠، ص ٣٥، ٣٦.

(٣) مصطفى نظيف، محاضرات ابن الهيثم التذكارية، المحاضرات الرابعة، ص ٤-٧.

هذا وقد تناول عدد من فلاسفة وعلماء الإسلام قانون الحركة والقوة. ظهرت في بعض مصنفات العلماء التالية: ابن سينا في (الشفاء، والنجاة والإرشادات) وكتاب الغزالي (مقاصد الفلاسفة ومعيار العلم). كذلك تطرق آخرون من علماء الإسلام إلى موضوع حركة الأجسام (ومفهوم الحركة) وقوانين الحركة الثلاث: الأول: أن الجسم يبقى في حالة سكون أو حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجده قوى أخرى على تغير حالته (قانون القصور الذاتي). الثاني: القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك. الثالث: إن لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه [١].وأشهر علماء الإسلام في علم الحركة منهم.

* أبي البركات هبة الله بن ملكا – ٤٥٦هـ - مؤلفه المعتبر

* ابن رشد – ٥٩٥هـ - كتابه ما بعد الطبيعة

* الرازي – ٦٠٦هـ - كتابه المحصل وشرح الإشارات

* الطوسي – ٦٧٢هـ - كتابه التعليق على المحصل وشرح الإشارات

هكذا يمكن القول أن القانون الأول في الحركة وضعه العالم المسلم الشيخ الرئيس (ابن سينا). والقانون الثالث وضعه العالم المسلم الفيلسوف هبة الله بن ملكا البغدادي. وبهذا يكون لعلماء الإسلام الريادة والسبق في وضع قوانين الحركة التي ساعدت على تقدم العلوم الطبيعية في الغرب بعدة قرون. والمساهمة الفعالة في تطور علم الفيزياء والعلوم الطبيعية الأخرى وأثبتوا بحق أنهم رواداً في علم الحركة وغيره من العلوم الأخرى [٢].

---

(١) جلال شوقي: تراث العرب في الميكانيكا ص ٢٦، ٥٧، ٥٩ / ٦٢، ٦٤.

(٢) انظر: فخر الدين الرازي، المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات ج٢ ص ٢٨٥، شوقي: تراث العرب، ص ٧٢-٧٤.

الفصل الخامس عشر

(علم النبات والحيوان)

- علم النبات
- علم الحيوان

علم النبات

علم النبات: عرفه طاش كبرى زادة بأنه (علم يبحث عن خواص علم النبات وعجائبها وأشكالها ومنافعها ومضارها، وموضوعه نوع النبات وفائدته ومنفعته التداوي بها)[1].

علم النبات في الحضارات القديمة: حظي علم النبات باهتمام في الحضارات الزراعية القديمة وبخاصة الحضارات (المصرية، الأشورية، والبابلية، الهندية والصينية وبلاد الأغريق) على أن اهتمام المسلمين بهذا العلم جاء بعد إطلاعهم وترجمتهم لتراث الإغريق خاصة في علم النبات والفلاحة منها: كتاب الفلاحة (ديمقريطس)، وكتاب الإبانة عن علل النبات (أرسطو) ومؤلفه الآخر (كتاب النبات) ثم كتاب الحشائش، وكتاب النبات (لجالينوس). وكتاب الفلاحة (أبلونيوس) وكتاب الفلاحة الرومية (سكولاستيكوس) وكتاب الفلاحة (أناطوليوس). ومؤلفات أخرى.

علم النبات قبل الإسلام [2]: ارتبط تطور علم النبات عند العرب والمسلمين بحاجتهم لهذا العلم في أمور معاشهم وشئون حياتهم، بدليل حركة التنقل بحثاً عن النبات، ولأن النبات يمثل فرعاً من فروع الطبيعيات، ولارتباط النبات بالفلاحة كما ذكر ذلك العالم (ابن خلدون). وهذا جاء ممثلاً في حضارة الجزيرة العربية القائمة على الزراعة (اليمن السعيد) لقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.

أيضاً جاء الاهتمام بهذا العلم لارتباطه بحرفة الزراعة التي كانت حرفة رئيسة في شمال الجزيرة العربية. ثم ارتباطه بالصيدلة وعلم الأدوية من جهة أخرى.

نطور علم النبات في الإسلام: المعروف أن بداية التدوين في الإسلام بدأت في علوم القرآن والحديث (القرن الثاني الهجري). وقد تضمنت نصوص القرآن الكريم (مائة وتسعة وستين) لفظاً نباتياً شكلت نواة علم النبات. كذلك جاءت ألفاظا نباتية في نصوص عديدة في الأحاديث النبوية وأشعار العرب. من هنا يمكن القول أن أول مساهمات علماء

---

(١) طاش كبرى زادة، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٣١.

(٢) انظر: أحمد عيسى، تاريخ النبات عند العرب، ص ٨-٩.

الإسلام في هذا العلم هو وضع مجموعات الأسماء والمصطلحات النباتية في مصنفات أولية احتوتها في معاجم اللغة العربية. التي اعتمدت في التصنيف والتدوين الرجوع إلى الأصول النباتية الأولى في البادية وخاصة جزيرة العرب وما جرى على ألسنة العرب وشعرهم. إضافة إلى عواصم النحو العربي ومدارسه في (الكوفة والبصرة) وبغداد. التي كانت موئلاً لفصحاء العرب القادمين من البادية إلى هذه الأمصار، والحاملين معهم فصيح اللغة وصحيحها. إضافة لنزول هؤلاء العلماء أنفسهم من الأمصار إلى البادية لغرض التحقيق والتمحيص التي جمعت في مصنفات المعاجم العربية. لذلك أول من ساهموا في تدوين أسماء النبات هم علماء اللغة وأصحاب المعاجم منهم: عيسى بن عمر الشقفي (ت ١٤٩هـ)، الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٦٠هـ صاحب كتاب العين، سيبويه (ت ١٦١هـ) والكسائي ت١٨٩هـ، الفراء ت ٢٠٧هـ. وأهم أصحاب المعاجم: اسماعيل بن حماد الجوهري الصحاح (ت – ٣٩٣هـ)، أبي الحسن بن سيدة (المخصص) محمد بن مكرم بن منظور (لسان العرب)، مجد الدين الفيرزآبادي، (القاموس المحيط). وأيضاً اهتمام ومساهمة علماء الطب والصيدلة في تدوين النبات، وذلك لارتباطه بعلم الأدوية. كذلك مساهمة علماء المسلمين في الجغرافيا الذين دونوا أسماء النباتات والأعشاب في كل أمصار الإسلام منهم العالم (اليعقوبي في كتاب البلدان) (ابن رستة – الأعلاق النفيسة) (الإدريسي – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق). هذا إلى جانب مساهمة علماء الإسلام الذين وقفوا جهودهم على علم النبات المتخصص منهم: (جابر بن حيان ت ٢٠٠هـ) في كتاب النبات وكتاب الفلاحة. (النضر بن شمسل ت – ٢٠٤هـ) في كتابه الصفات وأبو عبيدة معمر بن المشنى البصري ت ٢٠٧هـ في كتابه الزرع، عبد الملك الأصمعي ت – ٢١٤هـ كتابه النبات والشجر. أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري كتابه النبات والشجر، أبو عبيدة القاسم بن سلام ت – ٢٣١هـ في كتابه غريب المصنف وابن الأعرابي محمد بن زياد ت – ٢٣١هـ كتبه: صفة النخل، صفة الزرع، النبت والتبعل وكتابه النبات. وأبو حنيفة الدينوري ت – ٢٨٢هـ في كتابه النبات. أضافه إلى علماء آخرين دونوا في هذا العلم منهم الغافقي، ابن الرومية، ابن البيطار، رشيد الصوري ومن علماء الأندلس أبو عبد الله محمد بن البرحال ت – ٤٧٨هـ في مؤلفه ديوان الفلاحة والقصد والبيان وأشهرهم ابن عوام الإشبيلي الذي يمثل دائرة معارف تاريخية في مجال الفلاحة من خلال مؤلفه: الفلاحة في الأرضين، طريقة التنقيط بالجرار [١].

---

(١) انظر: أحمد عيسى: تاريخ النبات عند العرب ص ٩-١١، ٢٣، ٩٧.

فضل المسلمين على علم النبات:

(١) استند علماء الإسلام في دراسة علم النبات على التجربة والملاحظة والرحلة والتصوير والمعاينة واستمرار تتبع النبات في جميع مراحل حياته، ويمثل هذا الاتجاه رشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩هـ) الذي كان يستصحب معه مصوراً بالأصباغ على اختلاف أنواعها، ويذهب مباشرة إلى أماكن النباتات [١]. ولهذا جاء تطور علم الصيدلة والكيمياء معتمداً على تطور علم النبات.

(٢) درس علماء الإسلام الكثير من النباتات الطبيعية التي لم يسبقهم إلى دراستها أحد. وبذلك استطاعوا أن يستولدوا بعض النباتات التي لم تكن معروفة مثل (الورد الأسود). وتوصلوا إلى اكتشاف أنواع جديدة من النباتات جرى تحسينها أو تهجينها عن طريق التطعيم المتنوعة والتهجين.

(٣) أكسبوا العديد من النباتات خصائص العقاقير في أثرها الطبي وتركيب الأدوية والعقاقير [٢].

(٤) اتسع نطاق البحث والاستقصاء في علم النبات خاصة في القرن السابع الهجري، بسبب اتساع رقعة العالم الإسلامي.

(٥) توسع المسلمون في زراعة ونقل العديد من النباتات إلى عواصم البلاد الإسلامية مثل (قصب السكر، القطن، الحمضيات، الأرز، والفواكه) وقد نقل المسلمون الأترج المدور وزرعوه بعمان ثم نقلوه إلى العراق والشام [٣].

(٦) اهتم المسلمون بعملية الزراعة وآلاتها وفي مجال الري ووسائله باستخدام أنظمة زراعية متقدمة، القنوات، السدود، الترع، طريقة التقطير، النواعير...).

(٧) لم تتعدى المعلومات والمعارف التي انتقلت عن الأمم الأخرى للمسلمين في علم النبات والكيمياء عن كونها ضعيفة وقليلة. مقابل ما قدمه علماء الإسلام في هذين العلمين من معلومات عظيمة بحيث اعتبرت هذه العلوم علوماً إسلامية في أصولها ومنهاهجها.

---

(١) توفيق الطويل: العرب والعلم ص ٤٤، أسعد داغر: حضارة العرب ص ٢١٧.

(٢) أسعد داغر: حضارة العرب ص ٢١٥.

(٣) المصدر السابق ص ٢١٧.

(٨) اعتبرت مؤلفات علماء المسلمين في علم النبات المصدر والمرجع الأول والعمدة لعلوم اللغة والطب والصيدلة والعشابين، وعلم الأدوية.

(٩) ألف علماء الإسلام كتب موسوعية في الفلاحة والزراعة، أشهرهم العالم أحمد بن وحشية في مؤلفه الفلاحة النبطية وابن عوام الأشبيلي مؤلفه الفلاحة الأندلسية.

(١٠) ظهر فضل المسلمين واضحاً في علم النبات من خلال انتقال أسماء النباتات بنفس مسمياتها العربية إلى اللغات الأوروبية. كذلك انتقلت العديد من الزراعات والنباتات إلى أوروبا عن طريق معبر الأندلس. إضافة لاعتماد الأوروبيين وسائل الري وأدواته وآلاته العربية التي لا يزال بعضها شاهداً على تقدم المسلمين في هذا المجال كما في الأندلس وصقليا.

علماء الإسلام في علم النبات: ترك علماء الإسلام مؤلفات ضخمة في علم النبات ساهمت في تطور هذا العلم مساهمة فعالة. بعد أن أدخلوا إليه المنهج العلمي التجريبي. حتى عدّه علماء الغرب علماً عربياً في أُصوله ومناهجه. وفيما يلي أشهر علماء الإسلام في مجال هذا العلم:

١- أبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة (٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) يعد أول المؤلفين العرب، في علم النبات [١]، له كتاب في النبات يعتبر من أشهر الكتب المؤلفة في هذا المجال، وقد جاء في ستة مجلدات استقصى فيه ما جاء عن النبات في اللغة العربية.

٢- أبو جعفر محمد بن أحمد الغافقي (ت ٦٥١هـ/ ١١٦٥م) [٢]. عالم في النبات والأدوية، صيدلي وطبيب من أهل الأندلس. يعد أعلم أهل عصره بقوى الأدوية المفردة ومنافعها، وخواصها ومعرفة أسمائها، له من المؤلفات كتاب مشهور في الأدوية المفردة، لا يضاهيه كتاب آخر في الجودة والمعنى لأنه جامع لما ذكره علماء النبات ودستور يُرجع إليه في التصحيح وصف النبات بدقة بالغة وذكر أسماءها بلغات عدة – العربية، اللاتينية والبربرية.

٣- أبو العباس بن الرومية، أحمد بن محمد بن مفرج النباتي، المتوفى عام (٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م) من أهل اشبيلية بالأندلس ومن أكبر علمائها، أتقن علم النبات ومعرفة الأدوية

---

(١) أمين أسعد خير الله، الطب العربي، ص ١٩٠، أحمد عيسى: تاريخ النبات عند العرب ص ٢٣.

(٢) الدوميلي: العلم عند العرب، ص ٤٠١.

وقواها ومنافعها، واختلاف أوصافها وتباين مواطنها. ساح في كثير من بلاد الإسلام لغرض دراسة النبات منها بلاد المغرب ومصر والشام والعراق لنحو أكثر من سنتين. درس فيها كثيراً من النباتات التي تكثر في هذه البلاد وتنبت في بلاد المغرب. له مؤلفات منها في تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، ومقالة في تركيب الأدوية. وصنف أيضا كتاب الرحلة وخصّ فيه النبات.

٤- ابن البيطار (أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي النباتي، المتوفى عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، أبرز علماء وقته، وأكثرهم شهرة وعلماً في النبات. زار بلاد كثيرة لغرض دراسة النبات منها بلاد المغرب وشمال إفريقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى، وفي أثناء رحلاته التقى بجماعة من العلماء اعتنوا بهذا العلم وأخذ عنهم المعرفة لنباتات كثيرة. كما درس كتاب ديسقوريدس وأتقنه إتقاناً تاماً حتى لا يكاد يوجد من يجاريه في التعمق فيه[(١)]. ومن أهم مؤلفات ابن البيطار، كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية استقصى فيه ذكر الأدوية المفردة وأسماءها وقواها ومنافعها، وبين الصحيح وفيما وقع الاشتباه فيه معتمداً على دراسته الخاصة وتجاربه التي قام بها، وكذلك على ما نقله من العلماء الذين سبقوه[(٢)].

وقد ساهم علماء آخرون في تطور هذا العلم وتقدمه أمثال: أبو بكر أحمد بن وحشية كتابه: الفلاحة النبطية، محمد بن أبي بكر بن أبي طالب الأنصار الدمشقي كتابه: الدر الملتقط في علم فلاحة الروم والنبط، ابن العوام الإشبيلي (يحيى بن محمد بن أحمد العوام الإشبيلي) كتابه: الفلاحة، داؤود الأنطاكي (طبيب ضرير) تجاوزت مؤلفاته ستة وعشرين مؤلفاً أغلبها في الطب والادوية منها: تذكرة أولي الألباب والبهجة والدرة المنتخبة، رشيد الصوري: عالم معاصر للعالم ابن بيطار (ت ٦٣٩هـ)، واسع البحث درس النباتات وصورها، وهو صاحب كتاب (الأدوية المفردة) يعد عميد أطباء دمشق.

علم الحيوان:

عرّف حاجي خليفة علم الحيوان: (بأنه علم باحث عن خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضارها، وموضوعه: جنس الحيوان البري والبحري والماشي

---

(١) ابن أبي أصبيعة، طبقات الأطباء، ص ٦٠١.

(٢) نفس المصدر، ص ٦٠٢.

والزاحف والطائر وغير ذلك. والغرض منه: التداوي والانتفاح بالحيوان والاحتماء عن مضارها والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها...) [١].

أهمية علم الحيوان: لم يكن اهتمام العرب بعلم الحيوان أقل من اهتمامهم بالعلوم الأخرى التي أبدعوا فيها، ووضعوا المؤلفات والمصنفات الكثيرة حولها، وخاصة لأن الحيوانات جزء مهم في حياة الفرد العربي سواء كان ذلك من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو الجمالية. لذلك وضعوا فيه المؤلفات العديدة فيه، فذكروا كل أنواع الحيوانات من وحشية وأليفة وطيور وحشرات وغيرها ووصفوها وصفاً دقيقاً فبينوا أسماءها وأشكالها وصفاتها وطبائعها [٢]. كذلك تناولوا جزئياتها: في العظام والغضاريف والأوردة والأغشية والحركات الطبيعية والإرادية، وتفاصيل بعض الأجهزة الدقيقة في الأنسجة والألياف. واشتهر عدد كبير من العلماء العرب الذين درسوا الحيوان إلا أنهم شايعوا المعلم الأول أرسطو، فكتبوا على غراره في علم الحيوان دون التقيد بالنواحي العلاجية أو الفائدة الطبية لأي من هذه الحيوانات [٣]. ومنهم من سار على طريقة التأليف الموسوعي وقد قدموا مادة غنية في هذا العلم.

علم الحيوان في الحضارات القديمة: يعد من فروع علم الحياة الأول وهو (علم النبات) والثاني فيها هو علم الحيوان. ومعرفة الإنسان بالحيوان قديمة وضاربة في القدم. بل إن جماعة إخوان الصفا جعلوا الحيوان أسبق من الإنسان وفق مبدأ تنظيم تطور الوجود (المعادن – النبات – الحيوان - الإنسان)، لذلك جاءت معرفة الإنسان للحيوان قديمة ومرتبطة بوجوده من خلال استخدام الحيوان لأغراض شتى حتى عباداته. ويشهد على ذلك وجود الرسوم الحيوانية على جدران الكهوف والمعابد والقبور والعمائر التي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ. وقد دلت الدراسات التاريخية أن أهل الحضارات القديمة كانت لهم معرفة واسعة بعلم الحيوان منهم: الصينيون الذين كانوا على معرفة بدودة القز (في الألف الثالث قبل الميلاد). المصريون القدماء الذين: عرفوا بعض خصائص الحيوان بالاستطلاع

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٦٩٥، انظر طاش كبزادة: مفتاح السعادة جـ ١ / ٣٣١.

(٢) أسعد داغر، حضارة العرب، ص ١٦٧.

(٣) عبد الحميد منتصر، أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (الفصل الثالث في العلوم الطبيعية) ص ٢٤٥، انظر كذلك – شارل بلاك: الجاحظ في البصرة – ترجمة ابراهيم الكيلاني ص ٩٨ والجاحظ: الحيوان جـ ١ / ١٤.

والاستقراء. والإغريق: وهم أوسع الحضارات ذكراً لعلم الحيوان، حتى نبغ فيه عدد من العلماء ألفوا في هذا العلم مؤلفات هامة عدت مصدرا لعلم الحيوان. منهم العالم (ديمقريطس) كتابه الحيوان الذي قسم فيه الحيوانات حسب النوع. وكذلك العالم أرسطو الذي ألف كتابه (تاريخ الحيوان، وأجزاء الحيوانات) [١].

تطور علم الحيوان في العصر الإسلامي: ارتبطت حياة الإنسان في بلاد العرب القديمة بما شكله الحيوان من أهمية قصوى في حياته ومعاشه وحتى في الناحية الاقتصادية والاجتماعية والجمالية. وفي اللغة أيضاً باعتباره باباً من أبواب اللغة (مثل كتاب الخيل وكتاب الإبل وكتاب الوحوش وكتب الشاه للأصمعي، وكتاب الحشرات للأصمعي) استمر هذا الاهتمام بشكل أوسع في ظل الإسلام لما ورد في نصوص القرآن من دعوة للاهتمام بهذا العلم. وتسخير الله تعالى للكون وما فيه لخدمة الإنسان ومنه الحيوان. كذلك لما ورد فيه من ذكر لإسماء الحيوانات وأنواعها، ومنافعها الاقتصادية والجمالية والاجتماعية لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة النحل ٥-٨]. لذلك أقبل علماء الإسلام على ترجمة أمهات الكتب خاصة المؤلفات اليونانية في هذا العلم حيث أخضعوها للدراسة والبحث ووضعوا لها الشروح، وقاموا بتصويب ما فيها من أخطاء، ثم انتقلوا فيها إلى مرحلة الإبداع والابتكار والتأليف وفق منهج علمي قائم على التجربة والملاحظة والاستقراء والاستنباط. بحيث أصبح هذا العلم على أيدي المسلمين علماً متخصصاً في علوم أصوله ومناهجه. ولهذا عدّه الغرب من علوم الإسلام الأولى.

أشهر علماء الإسلام: ساهم العديد من علماء الإسلام في تقديم مادة غنية ومعمقة في مجال علم الحيوان. نذكر أشهرهم:

١- الجاحظ أبو عثمان بن يحيى الكناني الفقيمي [٢] (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) الذي

---

(١) عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، ص ٥٧-٦٠، كحالة: العلوم البحتة ص ٣٣٣، الدوميلي: العم عند العرب ص ٦٠.

(٢) الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني، ص ٩٨، الجاحظ: الحيوان جـ ١ / ١٤.

وضع عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع شتى لعلم الحيوان ظهرت فيها انتاجاته الفكرية والعلمية حتى قبل فيه (ولا يعلم أحد من أهل الرواية أكثر كتباً منه) [1]. ومن أهم تصانيفه كتاب الحيوان، الذي يمكن اعتباره موسوعة أدبية وتاريخية وعلمية، أهداها إلى الوزير محمد الزيات [2]، وهو أول كتاب عربي جامع في علم الحيوان [3].

٢- زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) وضع القزويني كتاباً علمياً اشتمل على علوم الطبيعة بأسرها وليس على علم الحيوان فقط، وسماه (عجائب المخلوطات وغرائب الموجودات) قسم فيه الموجودات إلى علويات وسفليات، أما العلويات [4] فتشمل حقيقة الأفلاك وأشكالها وأوضاعها وحركاتها، وأما السفليات [5] فتشمل النار والهواء والمياه والبحار وغرائب وحيواناتها، والجزر وكرة الأرض وجبالها والكائنات.

٣- محمد بن موسى بن علي الدميري. أشهر مؤلفاته (حياة الحيوان الكبرى) [6]. رتبه حسب حروف الهجاء لأسماء الحيوانات وقد خلط في أسلوبه وكتابته بين العلم والدين والحقائق التاريخية، ومن علوم اللغة والفقه والأخبار والتاريخ والقصص. والدارس لهذا الكتاب يرى فيه قاموساً لغوياً أكثر من كونه كتاب أحياء.

ومن علماء العرب الآخرين الذين كتبوا في علم الحيوان، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت ٢٧٥هـ / ٨٨٨م)، وأبو موسى سليمان بن محمد المعروف بالحامض البغدادي (٣٠٥هـ / ٩١٧م)، ومحمد بن الحسن ابن دريد الأزدي (٣٢١هـ / ٩٣٣م)، وأحمد بن محمد بن أبي الأشعث (٣٦٠هـ / ٩٧٠م)، وأبو عبد الله الحسين بن أحمد ابن خالويه

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ج ٤، ص ١٩٥.

(٢) ابن الزيات (محمد بن عبد الملك)، اختاره الخليفة المعتصم سنة ٨٣٥هـ وزيراً له، ثم صار وزيراً لخلفه الواثق، كان من أدباء عصره، على اتصال بالجاحظ، انظر (فؤاد أفرام البستاني، الجاحظ، كتاب الحيوان ٣، ص ٥).

(٣) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج ١، المقدمة ص ١٤.

(٤) القزويني، عجائب المخلوقات، ص ٤٥-١٣٠

(٥) نفس المصدر، ص ١٣١-٤٩٥.

(٦) الدميري: حياة الحيوان الكبرى جـ ١ / ٣، ٤٤، ٩٤، ٩٦، ٤١٧، عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب ٢٧١-٢٧٢.

(٣٧٠هـ/ ٩٨٠م)، مسلمة المجريطي (٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م)، القزويني والأزدي والسكري والبغدادي. هذا ونتيجة إسهامات علماء المسلمين وإبداعاتهم في هذا العلم فقد دخلت كلمات عربية إلى اللغات الأوروبية في حقل الحيوان [١].

فضل علماء الإسلام على علم الحيوان:

أولاً: في التأليف اتبع العلماء في هذا المجال عدة طرق هي:

أ- تقليدهم لمصنفات اليونان من حيث المنهج وبخاصة تقليد (كتب أرسطو)، مع استعانة بعض العلماء لبعض الأجهزة الدقيقة لوصف بعض أجزاء الحيوان (كالمجهر) من خلال دراسة أشكال الحيوان، أنواعها، سلوكها. دون التقيد بذكر النواحي الأخرى كالفائدة والعلاج.

ب- قدم علماء الإسلام في مصنفاتهم المختلفة غير المتخصصة في علم الحيوان معلومات متناثرة عامة ومحدودة في كتب التراث العربي، الكتب الطبية، معاجم اللغة وكتب الرحلات والجغرافيا.

ج- اعتمد علماء الإسلام على الاستقراء التجريبي باستخدام الأجهزة والآلات، وبالاستناد إلى الملاحظة في وصف المظاهر الخارجية، طبائعه علاقته بالحيوانات الأخرى وغيرها.

د- اعتمد علماء الإسلام على التحليل والبحث والتجربة خلال دراستهم لمصادر اليونان الأولية. وبهذا يعد الجاحظ أول علماء الإسلام في علم الحيوان التجريبي.

هـ- المسلمون أول من أجروا عملية التصنيف الموسوعي في علم الحيوان من خلال ذكر اسم الحيوان، معلومات مذكورة في علوم الأولين والسابقين. وما ذكر في الشواهد القرآنية والسنة والشعر العربي. وفق كتابة أدبية راقية تعتمد على الشعر والنشر والأدب والنوادر بطريقة معجمية موسوعية لجميع الحيوانات. وخير من يمثل هذه الطريقة الجاحظ في كتابه (الحيوان) والدميري في كتاب حياة الحيوان الكبرى.

و- علماء اعتمدوا التصنيف من خلال ذكر اسم الحيوان وأوصافه... مقرونة بمنتخبات من أقوال بعض الشعراء ومثل هذا التصنيف علماء المرحلة الأولى في التأليف مثل

---

(١) انظر، جلال مظهر: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، ص ٤٠٢.

النضر بن شميل، معمر البصري، الأخفش، أحمد الباهلي، جعفر البغدادي

ثانياً: إن ما استعاره الأوروبيون من أسماء الحيوان بالعربية في معاجمهم يفوق مما انتحلوه لأنفسهم من سائر العلوم والفنون والصنائع العربية الأخرى.

ثالثاً: جاء اهتمام علماء الإسلام بهذا العلم لارتباطه أولا بحياة الإنسان وأمور معاشه، إضافة إلى سنن الكون في العلاقة بين الخالق الواحد والكون والإنسان ثم دور الحيوان في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والجمالية، لذلك ترك علماء الإسلام تراثاً ضخماً من المؤلفات والرسائل والمقالات أغنت هذا العلم من جهة، وكذلك أغنت الغرب في هذا العلم من جهة أخرى.

رابعاً: أشهر العلماء في تصنيف علم الحيوان هو (الجاحظ) ت ٢٥٥هـ الذي وضع مؤلفه وفق منهج علمي متفرد، جامع وموسوعي. بدأه بذكر اسم الحيوان، مظاهره، سلوكه، تكاثره، فوائده، أقسامه. وقد استوحى معلوماته من المصادر اليونانية بعد أن أخضعها للتجربة والتدقيق والتحليل والتقويم ثم التصويب. واعتمد في التجربة على تجاربه الشخصية وعلى غيره ممن لهم التصاق بهذا العلم كالصيادين. وكان يعلل الحقيقة بقوله (وليس يشفيني إلا المعاينة) وقد حرص تزويق كتابه برسوم الحيوان.

المخطوطات

الرومي، قاضي زادة، شرح ملخص الجغميني، مخطوطة خزانة الزيواني، في مكتبة أوقاف الموصل، رقم ٩/ ١٢.

الزنجاني، عز البتول. الكافية في الحساب، مخطوطة في مكتبة أوقاف الموصل، رقم ٧٠/ ٣.

ابن سبط المارديني، شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر، مخطوطة خزانة الزيواني في مكتبة أوقاف الموصل، رقم ١٤/ ١٢.

القلصاوي، أبو الحسن، كشف الأسرار في علم الغبار، مخطوطة خزانة الحجيات في مكتبة أوقاف الموصل رقم ٢٠٢.

القادري، رمضان بن أبي هريرة الجزري، شرح رسالة بهاء الدين العاملي في الحساب، مخطوطة خزانة محمد أفندي الرضواني في مكتبة أوقاف الموصل.

المصادر الأولية

ابن الأثير، عزالدين علي بن أبي الكرم محمد الجزري (٥٥٥- ٦٣٠م). الكامل في التاريخ بيروت ١٩٦٥.

إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا، دار صادر بيروت ١٩٥٧.

الإدريس، أبو عبد الله محمد بن محمد (٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، إيطاليا ١٩٧٠م.

ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم (٦٠٠- ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق الدكتور نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥.

الأنطاكي، داود (١٠٠٨هـ)، تزيين الأسواق في أخبار العشاق، القاهرة ١٩٧٢م.

البتاني، أبو عبد الله محمد بن سنان (٣١٧هـ، الزيج الصابىء، مدينة رومية ١٨٩٩م.

ابن بدر، محمد بن عمر بن محمد (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). اختصار الجبر والمقابلة، مجريط/ مدريد ١٩١٦.

ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٤٩٤- ٥٧٨هـ). الصلة في تاريخ

أئمة الأندلس، مطبعة روخس، مجريط/ مدريد ١٨٨٢.

البغدادي، الخطيب أبو بكر أحمد بن علي (٤٦٢هـ). تاريخ بغداد، ج١٢، القاهرة ١٩٣١.

البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (٣٦٢- ٤٤٠هـ). الآثار الباقية من القرون الخالية، ليزج ١٩٢٣.

الصدنة في الطب، مؤسسة همورد الوطنية كراتشي ١٩٧٣.

التبريزي، يحيى بن علي الخطيب (٥٠٢هـ). كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ/ لابن السكيت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٩٥.

التهانوي، محمد بن علي. كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٣.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥هـ). البخلاء، تحقيق أحمد العامري وعيل الجارم، دار الكتب المصرية ١٩٣٩. البيان والتبيين، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر. الحيوان، مطبعة السعادة، مصر ١٩٠٧.

ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان (المتوفى بعد سنة ٣٨٤هـ). طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٠٨.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (١٠١٧- ١٠٦٧هـ). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول ١٩٤١.

الحموي، ياقوت بن عبد الله (٦٢٦هـ). معجم البلدان ج١، ٣، دار صادر بيروت ١٩٥٧.

الخازني، عبد الرحمن (من علماء القرن الثاني عشر). ميزان الحكمة، ط١، حيدر أباد الدكن، الهند ١٣٥٩.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ). المقدمة، دار الكشاف، بيروت.

الخوارزمي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٣٧٨هـ). مفاتيح العلوم، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة.

الخوارزمي، محمد بن موسى (٢٣٢هـ). الجبر والمقابلة، تحقيق الدكتور علي مصطفى

مشرفة، والدكتور محمد مرسي أحمد، مطبعة فتح الله الياس نوري وأولاده، مصر ١٩٣٩.

الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا (٣٢٠هـ). الحاوي في الطب، حيدر آباد الدكن، الهند ١٩٥٥.

الرازي، فخر الدين أبو عبد الله محمد (٥٤٤- ٦٠٦هـ). المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات، ج٢، حيدر آباد الدكن، الهند ١٣٤٣هـ.

الزهراوي، خلف بن عباس (٥٠٠هـ). التصريف لمن عجز عن التأليف، ج١، لندن ١٧٧٨م.

ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله (٣٧٠- ٤٢٨هـ). الإشارات والتنبيهات، تحقيق الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف مصر.

ابن سينا، الشفاء، تحقيق الدكتور محمود قاسم، دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٩.

ابن سينا، الطبيعيات والمعادن والآثار العلوية، تحقيق عبد الحليم منتصر وآخرون، القاهرة ١٩٦٥. القانون في الطب، روما ١٥٩٣.

طاش كبري زادة، عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصلح (٩٠١- ٩٦٨هـ). مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

الطبري، علي بن روبن (المتوفى بعد سنة ٨٥٠هـ). فردوس الحكمة في الطب، برلين ١٩٢٨م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٢٤٤- ٣١٠هـ). تأيرخ الأمم والملوك ج٥ القاهرة ١٩٣٩م.

ابن الطقطقي، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا (٧٠٩هـ). الفخري في الآداب السلطانية، المكتبة التجارية، مصر ١٩٢٧.

ابن العبري، أبو الفرج غرية وريوس بن هارون (٦٢٣- ٦٨٥هـ). تأريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٨٩٠.

ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، مصر ١٣٥١هـ.

الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد (٣٣٩هـ). إحصاء العلوم، مجريط/ مدريد ١٩٥٣.

ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد (٤٠٣هـ). تأريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٦.

الفيروزأبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (٧٢٩- ٨١٧هـ). القاموي المحيط، ج٢، القاهرة ١٣٣٠.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (٢١٣- ٢٧٦هـ). الشعر والشعراء، ج١ دار الثقافة، بيروت ١٩٦٤.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (٦٠٠- ٦٨٢هـ). آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت ١٩٦٠.

ابن القفطي، جمال الدين عيل بن يوسف بن إبراهيم (٥٩٣- ٦٤٦هـ). أخبار العلماء بأخبار الحكماء، المرسوم بتأريخ الحكماء، ليبزج ١٣٢٠هـ.

القلقشندي، أحمد بن علي (٧٥٦- ٨٢١هـ). صبح الأعشيى في صناعة الإنشا، ج٢، القاهرة ١٩٦٣.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (٧٥١هـ). الطب النبوي، راجعه عبد الغني عبد الخالق، ووضع تعاليقه الطبية الدكتور عادل الأزهري، القاهرة ١٩٥٧.

الكتبي، محمد بن شاكر (٦٨٦- ٧٦٤هـ). فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، القاهرة ١٩٥١.

الكرجي، أبو الحسن. البديع في الحساب (الجبر)، تحقيق عادل انبويا، الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٤.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (٣٤٥ أو ٣٤٦هـ). مروج الذهب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢القاهرة ١٩٥٨.

المقري، أحمد بن محمد بن أحمد (١٠٤١هـ). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أ؛مد بن علي (٧٦٦- ٨٤٥هـ). الخطط المقريزية، أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٤، مطبعة النيل، القاهرة ١٣٢٦هـ.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (٣٨٥هـ). الفهرست، القاهرة.

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (٦٧٦هـ). رياض الصالحين ج٢، شرح وتحقيق الدكتور الحسيني عبد المجيد هاشم، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٢٣هـ). نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١، متصورة بالأوفست عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

المراجع الحديثة

أوليري، دي لامي. انتقال علوم الإغريق إلى العرب، بغداد ١٩٥٨.

بارتولد، ف. تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمه عن التركية حمزة طاهر، دار المعارف مصر ١٩٤٢.

بروان، أدوارد. الطب العربي، ترجمة داود سليمان علي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٤.

توماس، أرنولد. تراث الإسلام، ترجمة جرجيس فتح الله، الموصل ١٩٥٤، ج١، ودار الطليعة بيروت ١٩٧٢.

جارلند، جوزيف. قصة الطب، ترجمة سعيد عبده، دار المعارف مصر.

جرداق، منصور حنا. مآثر العرب في الرياضيات والفلك، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٧.

جلال، مظهر. أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار الرائد بيروت ١٩٦٧.

الحمارنة، سامي (الدكتور). تاريخ الطب والصيدلة، دار الكتب الظاهرية، دمشق ١٩٦٩.

الخالدي، روحي. الكيمياء عند العرب، دار المعارف بمصر ١٩٥٣.

الخربوطلي، علي حسين (الدكتور). الإسلام وأهل الذمة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة ١٩٦٩.

خير الله، أمين أسعد. الطب العربي، بيروت ١٩٤٦.

غليونجي، بول. الحضارة الطبية في مصر القديمة، الديار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة ١٩٦٥.

دياب، محمود (الدكتور). الطب والأطباء في مختلف العصور الإسلامية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.

الرفاعي، أنور. تاريخ العلوم في الإسلام، دار الفكر، دمشق ١٩٧٣.

روزنتال، فرانتز (الدكتور). مناهج العلماء في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة بيروت ١٩٦١.

روم، لاندو. الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢.

ريلر، جاك، س. الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون، ومراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأعواني، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

زكريا، زكريا هاشم. فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، دار نهضة مصر ١٩٧٠.

زيدان، جرجي. تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، مطبعة الهلال، ط٢، ١٩١٨.

سارتون، جورج (الدكتور). الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط، ترجمة الدكتور عمر فروخ، بيروت ١٩٦٤.

سعيدان، أحمد سليم (الدكتور). تاريخ علم الحساب، عمان ١٩٧١.

السكري، علي علي (الدكتور). العرب وعلوم الأرض، الاسكندرية ١٩٧٣.

الشعلي، أحمد شوكت (الدكتور). العرب والطب، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٠.

شوقي، جلال (الدكتور). تراث العرب في الميكانيكا، القاهرة ١٩٧٣.

طوقان، قدري حافظ. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دارالقلم، القاهرة ١٩٦٣.

الطويل، توفيق. العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي، دار النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦١.

عبد العزيز، محمد الحسيني. الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، بيروت ١٩٧٣.

العقاد، عباس محمود. أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار المعارف، ط٢، القاهرة ١٩٦٠.

علي، سيد أمير. مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، ترجمة رياض رأفت، القاهرة ١٩٣٨.

عيسى، أحمد (الدكتور). آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب، مطبعة مصر، القاهرة.

عيسى، أحمد (الدكتور). تاريخ النبات عند العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة ١٩٤٤.

فائق، خطاب (الدكتور). الكحالة عند العرب، منشورات وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٥.

فارنتن، بنيامين. العلم الإغريقي، ترجمة شكري سالم، ج١، القاهرة ١٩٥٨.

فروخ، عمر (الدكتور). تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٠.

فروخ، عمر (الدكتور). عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط٣، بيروت ١٩٦٩.

قنواتي، الأب شحاتة (الدكتور). تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعهد الوسيط، دار المعارف مصر ١٩٥٩.

كحالة، رضا. معجم المؤلفين، مطبعة الترقي، دمشق ١٩٥٩.

كفافي، محمد عبد السلام (الدكتور). الحضارة العربية طابعها ومقوماتها العامة، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠.

لوبون، غوستاف. حضارة العرب، ترجمة ادل زعيتر، ط٣، دار إحياء الكتب العربية مصر ١٩٥٦.

الماحي، التجاني (الدكتور). مقدمة في تاريخ العلم العربي، مطبعة مصر – سودان لمتد، القاهرة ١٩٥٩.

معروف، ناجي. أصالة الحضارة العربية، مطبعة التضامن، ط٢، بغداد ١٩٦٩.

معروف، ناجي. المراصد الفلكية ببغداد في العصر العباسي، دار الجمهورية، بغداد

.١٩٦٧

موسى، جلال محمد (الدكتور). منهج البحث العلمي عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٢.

نللينو، السنيور كولو. علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما ١٩١١.

اليونسكو، المنظمة. أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠.

المراجع الأجنبية

Baal, Rouse. A Short Acount of the History of Mathematics, New york.

Campbell, Donald. Arabian Medicine and its Influence on the Middle, Ages, Vol, I, London, 1926.

Hell, Joseph. The Arab Civilization, Cambridge.

Hollmyard, E.J. Alchemy. London, 1957.

Hall, L.W.H. History and Philosophy of Science, London, 1956.

Kraus, Paul. Jabir Ibn Hayyan, Le Caire Imprimerie De L'Institut Francais Darcheologie Orienale, MCC MMXLL, 111.

Lewis, Bernard. The Arabs in History, London 1958.

Nasr, Seyyed Hossein. Science and Civilization in Islam, Cambridge, Mass, 1968.

The Encyclopsedia Britannica, 11th Edition, Cambridge, 1910.